

١٩

تفويذة الحسنة



تأليف: ديقيد ابرام
ترجمة: ظبية خميس

404

المشروع القومي للترجمة

تعويذة الحسي

تأليف : ديفيد أبرام
ترجمة : ظبية خميس



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٠٤
- تعويذة الحسي
- ديفيد أبرام
- فلبية خميس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

THE SPELL OF THE SENSUOUS

تأليف : David Abram

الصادر عن : Random House, Inc,

New York

Vintage Books

عام : 1996

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

11	- مقدمة المترجمة : - تعويذة الحسّ : فن التذكر والمعاشية
23	- تمهيد وتقديم
29	١ - إيكولوجيا السحر : مدخل شخصى إلى البحث
61	٢ - الفلسفة فى الطريق إلى الإيكولوجى : مدخل تقنى إلى البحث
61	الجزء الأول : إدموند هسيرل وعلم الظواهر
77	الجزء الثانى : موريس ميرلو - بونتي والطبيعة المشاركة للتلقى.
113	٣ - لحم اللغة
133	٤ - الوثنية وحروف الهجاء
181	٥ - فى أرضية اللغة
229	٦ - الزمن ، والفضاء ، والكسوف الكونى
231	الجزء الأول : مفاهيم تجريدية
253	الجزء الثانى : الزمن الحاضر الحى
277	٧ - نسيان وتذكُّر الهواء
323	نهاية موسيقية : انقلاب الداخل والخارج

... إلى أولئك المهتدين والمنقرضين

تعويذة الحسنى

اللغة والتلقى فيما هو أكثر من عالم بشرى

مقدمة

تعويذة الحسّى

فن التذكر .. والمعاشية

على شرفة فى فندق « السراب الأعظم » فى جزيرة بالى الإندونيسية ، أقف مع ميلاد فجر استوائى ممطر بصحبة عدد من السحالي ، والعصافير ، والغربان . أمامى تمتد غابة استوائية كثيفة ، أمامها يمتد بحر الصين بأواجه الطولية الشاهقة ، وراء ذلك البحر يقف الجبل ببركانه المشتعل بهدوء . بين الماء ، والهواء ، والنار ، وتلك التربة الحمراء لا أعود أنا ، أتوحد مع ذلك كله فأصبح هو أو أننى أظن نفسى مقطوعة موسيقية تنتمى إلى أروقة معابد بالى الهندوسية ، ولوهلة لا أحس بشيء آخر سوى الاكتمال والسعادة القصوى .

ذلك النوع من الوجود كنت قد خبرته فى طفولتى فى حضور الصحراء والبحر والنجوم وأشجار النخيل والنبق واللوز والوجوه القديمة لبشر البحر والصحراء فى الخليج العربى ، غير أننى كثيراً ما أضعته بشكل غامض عندما كبرت بين مدن نيويورك ، ولندن ، والقاهرة ومدن الخليج الحديثة ، وعندما أصبح الاضطراب الوجودى طريقة وأسلوباً للحياة التى أحيّاها بين المدن صار جزء منى يلح فى طلب الهروب ولو لقليل من الوقت إلى عوالم لا تشبه ذلك ، خارج إطار الكلمة المكتوبة ، وأصوات البشر المتوترة ، كان حنينى يأخذنى إلى أشكال مرئية وغير مرئية أخرى وكذلك إلى أصوات تتجاوز الحنجرة البشرية . هكذا قادتنى الروح إلى أسيا مرارا وتكرارا فى رحلة لم تنته بعد لأصغى إلى صوت بوذا فى بوبال ، وحفيف شجر المطاط فى بينانج ، وأزهار اللوتس فى حدائق سنغافورة الاستوائية ، وأجراس المعابد فى بوكيت ، وآلهة البركان وحقول الأرز فى بالى .

كنت أرتحل بعيداً لأصل إلى جزر المالديف ، أعانق كائنات البحر هناك ، وأصغى في جزر صغيرة معزولة إلى أصوات الليل حيث ابتعاد اليابسة الكبرى هو اقتراب لسؤال وجودي لحظي : هل مازال العالم بمدنه وضجيجيه موجوداً خارج هذا الصوت الكثيف لليل الجزر التي لاتصغى لأى صوت آخر غير الطبيعة ؟

وفى كل مرة كنتُ أعود فيها إلى ضجيج المدن الصاخبة كنت أجلب شيئاً من تلك السعادة ويقظة الحواس معى لتدوم بعض الوقت قبل أن تلتهمها وحوش المدنية المتوحشة ، لأبدأ بعد ذلك فى أحلام اليقظة كى أجد صفائى المفقود ونداوة حواسى التى تراكم المدن عليها غبارها ودخانها وقسوتها .

فى إحدى رحلاتى تلك عثرت على كنز رائع ، كتاب غرقت فى قراءته وعندما أنهيته كانت روحاً رائعة تقفز منه لتحل فى بدنى وحواسى ، روحاً استطاعت أن تأخذنى فى رحلة حول أطراف المدينة كى أصغى إلى أحجار المقطم ، وحفيف نخل سقارة ، وصوت باطن الأرض فى حقول الفيوم ، بل إنها أطلقت سراحى فى لحظة عبقرية لم أعرف حدودها وأنا أوشك على النوم لأجد نفسى قد تحولت إلى شرارة مضت فى صحبة خيرة من الكائنات اللطيفة فى رحلة حول الأرض ، عبر النجوم وعبر تاريخ الخليقة والضوء ، لأعود إلى جسدى الأرضى بعد ذلك مفعمة بالمعرفة ، فى حقل ميدانى لا أعرف له تقنيناً لأسميه ، وفى ظل إيمان عميق بأن هناك فى وجودنا ما يتعدى التجربة المبتسرة لأنصاف الحواس التى نوظفها فى حياتنا اليومية ؛ لإنجاز نهاراتنا التى تدور فى رعى آلية البشر الوظيفية والمشوشة فى جُطاها الحديثة بحلم التكنولوجيا المتفوقة ، المال والنفوذ ، السيطرة والهيمنة والتصنيع الذى جاوز إخضاع الطبيعة إلى إخضاع الكائنات البشرية لشرط التقدم والتجريب العلمى والتكنولوجى .

كان الكتاب الذى عثرت عليه لمؤلف يدعى ديفيد أبرام من مدينة نيويورك ، بعنوان يمكن ترجمته « بسحر الحواس » غير أننى وجدت « تعويذة الحسى » أقرب وأدق لتوصيف ذلك العمل . كتاب يتجاوز حدود التخصص الأكاديمى الضيق إلى تعددية فى مسارات منهجه وطرحه ، وإن كانت الطبيعة وإعادة الاعتبار إلى علاقتنا بها على المستوى الفردى الحسى ، أو الجماعى الثقافى هى جوهر العمل . كتاب يبحث فى نظرية التلقى والاستيعاب والمشاركة فى عالم أكثر مما هو بشرى وفى مجالات عديدة :

السحر ، وعلم اللغة ، وعلم البيئة ، وعلم الأنثروبولوجى ، وصولاً إلى الوجدانيات الحساسة ، وعلم مقارنة الأديان واللغات .

فى ذروة حماسى لكتاب تحدثت عنه كثيراً مع معارفى وأصدقائى ، وقمت بإعارته للعديد من الأصدقاء لقراءته ، بل إن الحماس جعلنى أعيره لبعض المترجمين ليقوموا بترجمته للعربية آنذاك ، غير أن القليل منهم كان قد أكمل قراءته ، ولا أحد تقريباً رغب فى ترجمته ؛ ربما لصعوبة ذلك وعدم توازى الجهد الذى سوف يبذل مع المقابل المادى الذى لايتوفر عادة فى مدننا ، وإذا ما توفر فإنه يكون أبخس بكثير من قيمة الجهد الذى يضعه المترجم فى عمله ، وفى ظل تفهم ذلك كففت عن إعادة المحاولة بإقناع هؤلاء الأصدقاء والمعارف للإقدام على تلك التجربة .

بتأثير من « تعويذة الحسى » كنت قد انتقلت من الحياة فى قلب حى المهندسين المكتظ بعماراته ، وزحام المرور ، والمحلات التجارية لانتقل للسكن على أطراف المدينة ومشارف سقارة ، وكنت سعيدة بذلك فى بادئ الأمر ، أمامى ترعة ووراء منزلى ترعة أخرى ، ورقعة من العشب الأخضر ، وبعض الأشجار ، وهدهد يسمح لى بالإصغاء إلى أصوات الجنادب ليلاً وإلى غناء الكروان الذى كثيراً ما كان يقف على شرفة منزلى فجراً ، اكتشفت آنذاك أنواعاً من الطيور والعصافير لم أكن أعرف أنواعها ، كما سبحت لى الليالى أن أرقب النجوم فى السماء الصافية وأن أرى جلال الأهرامات وهى تقف هناك كرمز لاتحاد الكائن والحجر فى صناعة الحضارة الإنسانية ، واستطعت أن أستوعب ذلك التقديس الفرعونى لأنواع كثيرة من فصائل الحيوانات فضلاً عن الشمس والكواكب والنجوم .

كان القمر بديراً يتسلل من نوافذ بيتى فأكتفى بضوئه الذى تتراقص روى فيه مع موسيقا السيثار والسنطور وأعواد البخور .

غير أن ذلك لم يدم طويلاً . فى البدء وجدت من يسرق منى نور القمر ، مسجد فى عمارة مقابلة قرر أن يضع أنوار « نيون لايت » خضراء ضخمة تستمر إضاءتها من أذان المغرب وحتى ما بعد طلوع الشمس صباحاً ، ثم قرر أن يسرق منى صوت الليل ، والنجوم ، والكروان ، والجنادب – عبر مكبرات صوت ضخمة تكاد جدران الأهرامات تنتشرخ بسبب صدى أصواتها .

ثم إن مساحة الأخضر الصغيرة أمامى حلت محلها عمارات تستطيل بمعجزة بالطوب الأحمر وتأخذ أشكالاً وألوانا شائهة كصناديق من الكبريت العملاق ، وبعدها بقليل تم افتتاح طرق دائرية صارت تقذف بالشاحنات وسيولاً من السيارات المسرعة والضوضاء ليلاً ونهاراً حيث حلت صفارات سيارات الشرطة والإسعاف بدلاً من أصوات الجنادب وغناء الكروان .

إذن ، هذه هى المدينة ، ولافرار !

فى صباح يوم من أيام الربيع ، يوم لم تغتله عواصف الغبار الملونة التى تهاجمنا فى كل ربيع فى القاهرة استيقظت على أصوات ، وهدير وزمجرة ، وصراخ غريب على أذنى ، لم أعرف مصدره بالتحديد غير أننى أحسست وأنا مازلت فى سريرى بأن مجزرة أو مذبحه ما تحدث من حولى فى مكان ما .

عندما فتحت النافذة لأستطلع برعب ذلك الذى يحدث ، لم أجد التربة خلف بيتى ، كانت قد اختفت تماماً ، وفى مشهد سريالى من كوميديا الجحيم فركت عيني لأتحقق من حقيقة ما كنت أشهده فى تلك اللحظة :

كانت التربة بأكملها قد تحولت إلى «مقلب زبالة» مهول وكانت مئات الشاحنات تلقى بالآلاف الأكياس السوداء من القمامة كى تدفن تلك التربة بهمجية وغوغائية لاتشبه أى شئ آخر سبق أن رأيته فى حياتى ، أما «التراكتورات» فقد سحقته كل أشجار النخيل ، والصفصاف وبقية النباتات على طرفى التربة وقذفت بكل ذلك مع جبال «الزبالة» إلى عمق الماء .

أصابنى الغضب والذهول وأنا أتنشق تلك الروائح السامة والنتنة من حولى وأرى مشهد جبال القمامة وهى تحتل تربة تتوسط حيا سكنيا يخلط ما بين البيوت البسيطة والعمارات ، ووجدتنى أرتدى ملابسى وأركض نحو أولئك الذين ينفذون تلك المجزرة مهددة إياهم ببلاغ سوف أقدمه إلى وزيرة البيئة ، استقبلونى بلا مبالاة ، وسخروا من بلاغى الذى أهددهم به ، وأوضحوا أنهم ينفذون أوامر المحافظة لردم التربة تمهيداً لعمل طريق عام فى تلك المنطقة . لم أكن أعرف قبل ذلك أن ردم الترع وإقامة الطرق العامة يبدأ بمقتل الأشجار ودفن المخلفات والقاذورات لقتل التربة وصناعة الطريق العام .

لقد بقيت تلك المخلفات وجبال القمامة تتراكم أمام عيني لمدة عام ونصف ، كان أطفال الحى يمشون من حولها أو خلالها ؛ ليذهبوا للحضانات والمدارس ، ثم إن المياه فاضت من تحت تلك القاذورات وتدفقت إلى جراجات العمارات وأحواش البيوت مهددة بتقويض أساسات تلك العمارات ، وحوادث المس الكهربائي ، والأوبئة الصحية المختلفة التى قد تنجم عنها ، وبعد شهر ونصف من الاتصالات الهاتفية مع جهات مختلفة ، ونزح المياه وجلب التراب لردم تلك المستنقعات الصغيرة تم إرسال عمال جدد لإعادة ردم تلك التربة بالصخور والرمال هذه المرة .

وهذه الحكاية لم تنته بعد !

لماذا أسردها إذن ؟! لأن المشهد نفسه الذى أثار رعبى جعلنى أقرر أن أفعل شيئاً لم أنجح فى إقناع الآخرين بعمله مسبقاً ، لقد قررت أن أستعين بديفيد إبرام وتعويذة الحسى لإعادة السلام إلى نفسى ، ولحاولة إيقاظ حواسنا الجماعية عبر ذلك الكتاب ، فكان أن شرعت فى ترجمته ومعايشته لمدة قاربت الستة شهور ، أمله أن يكون فى نقله إلى اللغة العربية أصداء همسة منسية كنت أطلبها فى علاقتى بالقمر ، والكروان ، والجنادب ، والنخيل ، وتلك التربة التى لم تعد .

لقد أثار الكتاب عند صدوره اهتمام الكثير من الكتاب الآخرين ، والحركات المناصرة للدفاع عن البيئة والحياة ، كتب المؤلف توماس بارى صاحب كتاب « حلم الأرض » حوله :

« الريح ، المطر ، الجبال والأنهار ، أراضي الأشجار والغابات وكل سكانها ، إننا نحتاج إلى هؤلاء ربما لسبب نفسى أكثر مما هو ضرورة بقاء جسدى ، ليس هناك من شخص ما أعرف عنه أنه قد استطاع أن يقدم كل ذلك بمثل تلك المهارة الأدبية التى تضاهى ، أيضاً ، الفهم الذى نجده فى هذا العمل لديفيد إبرام . إن هذا الكتاب يتوجب أن يكون أكثر الكتب قراءة وانتشاراً وموضوعاً للنقاش لهذه الأزمة » أما جارى سنايدر ، مؤلف « جبال وأنهار نونما نهاية » فقد ذكر « إن هذا الكتاب لديفيد إبرام يضىء أرضية اللغة ، واللحم ، والعقل ، والتاريخ ، واضعاً إيانا من جديد على خارطة العالم » .

وبالفعل فإن « تعويذة الحسى » وديفيد أبرام يفعل كل ذلك . إنه إنارة للروح ، والجسد ، والحواس فى علاقتنا العضوية بالعالم وتذكير عارم بأننا والعالم واحد ، وكما هو كتاب حول البيئة فإنه حول اللغة والتواصل التشاركى فى عالم يتجاوز البشرى إلى كل ما يحيط بذلك البشرى ويتفاعل معه وينفعل به .

والكتاب بفصوله السبعة لا يقصر ذاته على المتخصصين والأكاديميين فقط ، وإنما هو كتاب مفتوح يحتوى فى خطابه على ما يصل إلى أذهان وقلوب القراء لأنه يناقش مسألة وجود وكيونة لا البشر فقط ولكن الطبيعة التى تدفع الثمن فادحاً لتطور الحضارة البشرية التكنولوجية والصناعية ، والتى بدورها تخضع الإنسان فى كل مكان إلى دفع الثمن الباهظ من إنسانيته ، وسلامه ، وصحته الجسدية والعقلية والروحية .

إن ديفيد أبرام يعود فى تفسيره لما حدث إلى عدد من الخبرات التى تشتمل الشخصى والوجدانى ، والثقافات الشفاهية الحية بالإضافة إلى الخبرة التاريخية وتاريخ اللغة والكتابة الأبجدية ، ولقد وضَّح منطلقاته فى المقدمة التى كتبها حول الكتاب ، كما أنه ناقش أطروحات عدد من علماء اللغة والفلسفة حول تاريخ العلاقة ما بين البشر والطبيعة وبداية ذلك الانفصال الذى يعزوه إلى الثقافة الأبجدية ، وخصوصاً بعد انتقالها من منطقة الشرق إلى الغرب مُمِلًا ذلك فى التعامل مع الأبجدية السامية فى الأصل ومقارنا ذلك بما آلت إليه تلك العلاقة مع الطبيعة عندما اقتبست الثقافة اليونانية تلك الأبجدية ، ناقلة إياها من إطار حسى حميم إلى إطار ذهنى تجريدى صار هو القاعدة فى التعامل مع الطبيعة ، والإنسان فى الحضارة الغربية الحديثة التى يدفع العالم بمجمله من حياته ثمناً لمنطلقاتها التجريدية والمنفصلة باغتراب عميق عما يحيط بها من طبيعة ولغة منسية مع تلك الطبيعة .

وفى الجهد المبذول لرصد ماضى اللغة والكتابة الأبجدية فإن الكاتب ديفيد أبرام يربط حصرياً ما بين اللغة السامية واللغة العبرية على أنها واحدة ، ويعزو الخلل الذى حدث فى علاقة اللغة بالطبيعة إلى الحركات الصوتية التى لم تكن مكتوبة فى اللغة العبرية القديمة ، والتى تمثلت كإضافة صنعتها الأبجدية اليونانية وبذلك قامت بتجديد المعنى ضمن أفق واضح ومحدد ، فيما اللغة العبرية والأبجدية القديمة كانت تكتسب

حيويتها من تعدد مستويات التأويل فى القراءة لتلك الأبجدية التى كانت خالية من التشكيل والحركات الصوتية فى نصها القديم . ونظراً لعدم إشارة المؤلف إلى اللغات السامية الأخرى فى كتابه فلا بد من إضافة أن اللغة العربية تتشارك فى كثير من الصفات التى تحدث عنها الكاتب فيما يخص اللغة العبرية ؛ فالألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هى تنويعات للفظ واحد فى اللغة العربية كما أنها مؤلفة أصلاً من أصول قليلة أحادية المقطع معظمها مأخوذ من محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها الإنسان غريزياً .

والطائفة السامية من اللغات - كما يذكر جرجى زيدان - هى نسبة إلى سام بن نوح وإشارة إلى كون القسم الأعظم من المتكلمين بها هم من نسله ، وتتضمن ما يسمى أحياناً باللغات الشرقية . وهى بوجود اللغة العربية بينها تُعد من أرقى اللغات بياناً وأوسعها نطاقاً وتعبيراً ، وتمتاز بكونها الحافظة لأقدم التواريخ أى التوراة المكتوبة بالعبرانية ، ومن المعلوم أن التمدن نشأ أولاً ما بين المتكلمين بها كالبابليين والآشوريين والفينيقيين غيرهم . وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ - الآرامية : وفرعيها السريانية والكلدانية ، فالأرامية لغة بابل القديمة وآثارها مكتوبة نقشا على بقايا بابل وآشور بالحروف الأسفينية ، والآنبارية ، والكلدانية ، وقد كتبت بها بعض أسفار العهد القديم كسفر دانيال وغيره ، كما أن السريانية هى اللغة التى حفظت الكتاب المقدس .

٢ - العبرانية : وقد امتازت هذه بحفظها للتاريخ القديم ومحور جميع ما أُلف فى هذه اللغة إنما هو العهد القديم ، والعبرانية هى فرع من الكنعانية ، والكنعانيون كانوا قد تحركوا من الجزيرة العربية نحو الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد اخترع الكنعانيون الخط الأبجدى وعنه انتشر فى العالم ، ومن أقدم النصوص نصوص رأس شمرا التى كان يطلق عليها « أوغريت » . وفى هذه الحقيقة التاريخية اختلاف واضح عن الأساس النظرى التاريخى الذى طرحه ديفيد أبرام فى رؤيته للعبرانيين على أنهم أول من اخترع اللغة الأبجدية (الألف - باء) المكتوبة .

و العبرية أهم فروع اللغة الكنعانية - كما قد ذكر جرجى زيدان - وهى لغة القبائل التى انفصلت عن سائر الكنعانية وتجولت فى صحارى الشام والعراق واستقرت آخر الأمر فى فلسطين ، وأصبحت اللغة العبرية منتشرة فى فلسطين منذ

القرن الحادى عشر ق . م . تقريباً ، ولا يُعرفُ من آثار العبرية القديمة إلا ما جاء فى العهد القديم ، وما وصل إلينا من النقوش العبرية القديمة فى فلسطين .

ومع مجىء العصر الإسلامى دخل التجديد إلى اللغة العبرية فى نحوها وأدبها ، ذلك أن العبريين قلدوا المسلمين وتبينوا أن العبرية أخت للعربية ، واجتهدوا فى أن يطبقوا قواعد اللغة العربية على العبرية وأسسوا بذلك النحو العبرى فى القرن الرابع الهجرى حين كان النحو العربى قد اكتمل فى ظل ازدهار الحضارة العربية وتمتع اليهود بالأمان والاستقرار داخل مجتمعاتها .

٣ - العربية : تعتبر أسمى اللغات السامية ومعرفتها ضرورية لإتقان أخواتها ، وهى إحدى اللغات السامية الجنوبية التى تتفرع منها لغات أخرى ، أما أصل كلمة « عرب » فهناك أقوال حول ذلك منها أنها « عبر » بعد القلب ، وقال آخرون بل هى مأخوذة من « عَرَب » أى فصَحْ اعتماداً على أن العربية من أفصح اللغات ، كما قيل إنها مأخوذة من لفظة « يَعْرَبُ » التى هى اسم أول من نطق العربية على ما يزعمون . واللغات السامية الجنوبية التى تنتمى إليها العربية تنقسم بدورها إلى شمالية وجنوبية ، والشمالية هى الصفوية والثمودية والحيانية والعربية الفصحى . والجنوبية هى لغات نقوش بلاد اليمن وهى المعينية والسبئية والحضرية والقتبانة والأوسانية ، ثم لغات الحبشة : الجعز والأمهرية والتيجرى والتجرينا والهررية والجرجوى .

وقد رصد ديفيد أبرام مراحل تطور الكتابة حتى وصلت إلى شكلها الأبجدى والذى رده إلى الابتكار العبرانى على أنه الموازى للسامى ، وإذا كان من المتفق عليه أن اختراع الكتابة لم يأت دفعة واحدة بل إنه مر فى خطوات من التصوير إما بالرسم أو النقش ، ثم الدور الصورى الذاتى ، ثم الدور الصورى الرمضى ، تلتها صورة الشيء للدلالة على أول مقطع من اسمه أو الدور المقطعى وصولاً إلى اختراع الحركات أو الدور الهجائى .

وتطرح المراجع أن العلماء ذهبوا فى نشأة الأبجدية مذاهب شتى ، فالبعض رأى أن نشأتها هو من أصل مصرى قديم ، وتفاوتت الآراء حول إمكانية نشأتها من الخط الكرىتى ، إما عن طريق الفلسطينيين الذين حملوها إلى الساميين ، وإما عن الخط

الكريتى بتوسط من الخط المصرى القديم ، كما رأى البعض نشأتها من الخط الحثي القائم على الصور ، ورأى البعض الآخر نشأتها عن أبجدية جبيل الشبيهة بالهيروغليفية والتي تأثرت بدورها بالمصرية القديمة .

أراء أخرى رأت إمكانية نشأتها من الخط القبرصى المقطعى ، أو من الخط الأسفينى وخصوصاً بعد أن كشفت سنة ١٩٢٩ فى رأس شمرا عن خط أبجدى أسفينى ، حيث تعرف اللغة التى كُتبت بهذا الخط الآن باللغة الأوغرتية ، والرأى الأخير يرى أنها نشأت من الفينيقية القديمة ، أما زمن النشأة فيحدد بعد القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

إن جوانب عديدة خاصة بأصول اختراع الأبجدية والتفريق ما بين الأبجدية السامية والأبجدية اليونانية تمثل قاعدة أساسية يبنى عليها المؤلف ديفيد أبرام عدداً من فرضياته المتعلقة بعلاقة الإنسان بالطبيعة وتدهور تلك العلاقة فى اللحظة الراهنة ، غير أن تحديده للغة العبرية دون أى من اللغات السامية الأخرى على أنها الأصل فى ابتكار الأبجدية يطرح تحيزاً واضحاً لابد من توضيحه والبحث فيه من أجل المصادقية العلمية فى هذا الجانب .

غير أنه أياً كانت الاختلافات فى وجهة النظر هذه من منظور علم اللغة ؛ فإن ذلك لا يقلل إطلاقاً من مساحة الاتفاق مع منطلقات ديفيد أبرام والتى ربطها باللغات الحية للمجتمعات الشفاهية ، أو ما قد تبقى منها فى عالمنا اليوم ، وارتباطها الوثيق بالعالم الطبيعى من حولها والذى يتضمن تفاهماً ، وتناغماً ، وكذلك تواصل مبنياً على الاحترام والإجلال للكائنات الطبيعية الأخرى من حيوانات ، ونباتات ، أو ظواهر طبيعية مرئية وغير مرئية .

إن ذلك الإجلال والانتماء للطبيعة هو من أصول التراث العربى والشرقى القديم فها هو آدم فى «رسالة الغفران» يقول :

« نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نعود » ، فيما كانت الحضارة الفرعونية القديمة ترى «بتاح» العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم ، وترى كما قد ورد فى نصوصها القديمة « حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم وعلمنا

الإنسان أن « بتاح » كان فى كل صدر على هيئة القلب ، وعلى هيئة اللسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء ، وفى الوقت نفسه يفكر بتاح فيما يشاء ويأمر بكل ما يريد » ، كما قد ورد فى «فجر الضمير» لجيمس هنرى برستيد .

لقد قدست الحضارات القديمة سائر أشكال الحياة وأسبغت عليها روحانية خاصة تستدعى التعامل مع الطبيعة بإجلال واحترام ، وإن دراسة الميثولوجيا والأساطير القديمة تمتلئ بكل ذلك ، وما يحاول ديفيد أبرام عمله فى هذا الكتاب هو إيقاظ تلك الحواس والعلاقة المنسية لا كشكل انتكاسى من أشكال أطوار الحضارة وإنما فى عملية متكاملة مع ما قد وصل إليه الإنسان من تقدم وتطور لا يمكن المحافظة عليه إلا بأنسنته ، ولا يمكن لتلك الأنسنة أن تأخذ حضورها الحقيقى إلا عبر التواصل الحميم مع الجذور الطبيعية لأصل هذا الكائن وحضارته التى أخذت أول أصواتها من الطبيعة .

« تعويذة الحسى » تدور حول ذلك السحر المرتبط باللغة ، اللغة التى هى ملك كل الكائنات والكينونات ، وما لغة البشر إلا واحدة من تلك اللغات ، إن كل شئ يستطيع أن يتكلم ونحتاج إلى أن نستمع إليه ، وكل شئ أيضاً يستطيع أن يصفى ويمكننا أن نتكلم معه ، لقد عرف سليمان لغات الكائنات ، وصورها ابن المقفع وهى تتحدث فى « كيلة ودمنة » ، وتمثلها الجاحظ فى « الحيوان » . وفى رواية ابن طفيل الفلسفية « حى بن يقظان » يحكى فيقول :

« فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج فى المشى وأثغر ، فمزال الطفل مع الظباء على تلك الحال ، يحكى نغمتها بصوته ، حتى لا يكاد يفرق بينهما ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمع من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده . وأكثر ما كان محاكاته لأصوات الظباء فى الاستصراخ والاستتلاف والاستدعاء والاستدفاع ، إذ للحيوانات فى هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة » وقد استطاع حى بن يقظان دون عون من الكلام المنطوق ودون معلّم أن يعلم نفسه بنفسه ، ويكتسب تدريجياً معرفة الأمور الطبيعية والأمور الإلهية .

إن إخوان الصفا من المعتزلة والصوفيين قد عاشوا وكتبوا حالة الإنسان على أنه الكون الأصغر ، هذا الكون الذى يطابق الكون الأكبر بكل ما فيه ، ولعلها هذه الحالة الصوفية - الحسية هى ما يقصد إليه ديفيد أبرام فى التواصل الذى يترك أبوابه ليحييه لدى الإنسان الحديث كى يستعيد علاقته العضوية والمنسية مع أصل الكون ، وبالتالي مع ذاته التى صارت موضع تشييء تاماً كما هو وضع الكون والطبيعة فى مواجهة الإيمان المطلق بعالم بشرى مغلق الحدود حتى فى وجه إخوانهم من البشر .

ولأن اللغة هى مفتاح هذا العمل فإننى سوف أعطف نحو تجربة الترجمة لهذا العمل . كنت قد ذكرت سابقاً أن الكتاب قد أثار ولعى ومحبتى ، ومن روح المحبة تلك كان التماس مع كلمات ديفيد أبرام . كنت أترجم ما أقرأه سطرًا سطرًا بضوء القلب ، لم ألتزم فى الترجمة بالمصطلحات الجاهزة فى علم اللغة ، أو البيئية ، أو الفلسفة ، أو الأنثروبولوجيا ، كنت أقارب المعنى كما أفهمه وأحسه وفى بعض الأحيان عندما تستعصى المفردة المقابلة للكلمة الإنجليزية كنت أقدم الموازين لها بشرح من الكلمات ، كان أقرب المقاطع إلى تلك التى يتدفق فيها ديفيد أبرام فى تأملاته الشخصية فى بعض الفصول مما أشعرنى بأننى كنت أترجم نصوصاً أدبية وفنية بحتة ، غير أنه كما قد فعل ذلك فى شكل نسيج حساس ، فعل الشيء نفسه فى توصيفه الفكرى والنظرى فى الفصول والمقاطع التى تحمل تلك السمة .

ولأن ديفيد أبرام كان يتحدث عن اللغة فإنه قد طرح نماذج من لغات كثيرة بعضها لغات منطوقة حية ولكنها غير مكتوبة ، وقد حرصت فى هذه الأجزاء على أن أضع المقطع الحرفى الإنجليزى ، والموازى الصوتى باللغة العربية ، وكذلك المعنى فى السياق نفسه ، وقد تعددت تلك اللغات ما بين لغات الإسكيمو ، والهنود الحمر ، وجنوب شرق آسيا وغيرها ، بالإضافة إلى العبرية واليونانية بالطبع .

أخيراً أقدم هذا الكتاب بلغته العربية إلى القارئ العربى الذى أمل أن يشفع لى الهنات والأخطاء والقصور الذى ربما انتاب بعض جوانب هذه الترجمة ، وعذرى أن حبى واقتناعى بمضمون الكتاب قد طغى على كل شئ آخر ، وأتمنى أن يصل إلى روح وحواس القارئ الكريم كما قد وصلنى .

ظبية خميس

القاهرة ٢٠٠١/٨/٢٧

تمهيد وتقديم

البشرُ مُعدُّونَ للعلاقة ، العينان ، البَشْرَة ، اللسان ، الأذنان ، فتحتا الأنف - كلها بوابات تتلقى أجسادنا عبرها غذاء الآخر والمختلف . إن أرضية أصوات الظلال والأشباح - هذه الأشكال التي تتنفس هي عائلتنا ، الكائنات التي تُشاغلنا والتي نتصارع معها نتعذب بها ونحتفل . في الجزء الأكبر من وجود نوعنا البشرى حاور البشر في علاقاتهم كل نواحي المحيط الحسى ، متبادلين الإمكانيات مع كل الأشكال ، وكل أنسجة السطح والكينونات التي تثير القشعريرة التي يحدث أن نركز اهتمامنا عليها . كل شيء يستطيع التحدث ، معبراً عن نفسه في حركة ، تصفير ، همسة مغيراً خارطة من المعانى نُحسُّها على جلودنا أو ننتفسها من خلال أنوفنا أو نصغى إليها عبر أذاننا ، والتي نجيب عليها إما عبر الأصوات ، أو الحركات ، أو التغيير الطفيف فيما بين الأمزجة التي نشعرُ بها . إن لون السماء ، هدير الموج وكل جانب من الوجود الأرضى الحسى يستطيع جذبنا إلى علاقة يغذيها الفضول ، ويتبلَّها الخطر ، إن كل صوت كان يتكلم ، كل خدش أو برق كان لقاء مع الرعد ، مع شجرة صفصاف ، مع تنين طائر ، وعبر كل هذه العلاقات تغذت صحوتنا الجماعية .

اليوم نحن نتحاور ونشارك بشكل استثنائى تقريبا مع البشر الآخرين ومع التكنولوجيا والآلات التي صنعها البشر فقط . إنها وضعية مُقلقة وغير مطمئنة ، عندما نأخذ بالاعتبار تاريخنا العريق في التواصل والتلقى للأصوات الكثيرة لأرض الطبيعة ، ونحن لانزال بحاجة إلى ذلك الذى هو ليس بنحن ولا من اختراعنا ، إن الفرضية البسيطة لهذا الكتاب هي أننا كائنات إنسانية فقط عبر التواصل ، والإصغاء لما هو غير بشرى .

هل تعنى هذه الفرضية أن علينا التخلّى عن كل التكنولوجيا المعقدة التي ابتدعناها ؟ كلا إنها لا تعنى ذلك ، لكنها تعنى أن نسعى لتجديد معرفتنا بالعالم

الحسى حيث تجذرت منه كل تقنياتنا وأدواتنا التكنولوجية . وبدون أوكسجين أنفاس الغابات ، وبدون قبضة الجاذبية الأرضية وسحر جريان الأنهر ، لن يكون لدينا مسافة من التكنولوجيا التى ابتدعناها ، ولاكيفية لتقييم محدوديتها ، ولا طريقة لمنع أنفسنا من التحول إلى آلات . إننا بحاجة إلى أن نعرف الملمس ، والإيقاعات ، والذائقة للعالم الأرضى ، وأن نستطيع التمييز بسهولة ما بين هذه الذائقة وذلك الذى اخترعناه . إن الحقيقة الحسية المباشرة فيما هو أكثر مما هو بشرى غامضة ، وتبقى الحجر الوحيد الصلب لعالم من الخبرة المعرفية مستبدلاً فى اللحظة الراهنة بمتع مستمدة من الذبذبات الإلكترونية واللذة المهندسة تقنياً : إنه عبر التلامس المستمر مع الأرض الهشة والسماء ، فقط سوف نستطيع أن نتعلم كيف نتكيف ونبحر فى الأبعاد المتعددة التى تستولى علينا ، الآن .

هذا الكتاب تمت كتابته من أجل هدفين فى المخيلة ، لقد أملت أولاً فى تقديم منظومة قوية من الأدوات المفاهيمية من أجل زملائى فى العالم الفسيح للنشاط البيئى ، ومن أجل المدافعين عن البيئة ، والمنادين بالحياة الطبيعية ، ومنظمى المجتمعات ، وعلماء المواد العضوية ، وكتاب الطبيعة ، وعلماء البايولوجيا الخاصة بالمحافظة على الحياة ، وعلماء النفس ، وكل أولئك الآخرين الذين يناضلون بالفعل لخلق منطق ما ، ورفع مستوى وعينا المعاصر ؛ كى نتخلص من اغترابنا المعاش مع الطبيعة وحميمية العلاقة مع الأرض ، ومع ذلك فإننى قد تمنيت أيضاً أن أستثير بعضاً من التفكير الجديد داخل المجالات المؤسسية للأكاديميين والدارسين والمعلمين - والذين كثيراً منهم يبدون صامتين بشكل مريب كرد فعل على التحلل السريع للطبيعة ، والانقراض المتنامى للمخلوقات الأخرى ، والعلاقات البشرية التى أخذت فى الاضمحلال على المستوى الإنسانى .

وفى ضوء هذين الهدفين التوأمين حاولت جاهداً أن أحرص على مستوى عال للرؤية النظرية والأكاديمية بدون أن أضع أقنعة على العواطف ، والحيرة والمتعة التى تتبع من انشغالى بالأرض الحية .

إن القارئ سيكتشف ، على سبيل المثال ، أن هناك مقدمتين فى هذا الكتاب ، فهناك أولاً « مدخل شخصى » ، والذى يفصل بعضاً من المغامرات غير العادية والتى

قادتني في البداية نحو طرح الأسئلة المختلفة التي واجهتها في هذا العمل ، إن هذا الفصل يركز على تجاربي وتأملاتي حينما كنت أعيش متدرباً وساحراً بين سحرة أصليين في الأرياف الآسيوية ، أما المدخل الثاني فيحتوي « مدخل تقني » وطارحاً المنهج النظري الذي استحضرتة لمواجهة الأسئلة المطروحة ، وبشكل أكثر خصوصية فإن هذا الفصل يناقش التطور في القرن العشرين لتقاليد « علم الظواهرية » - وهي دراسة التجربة المباشرة - وفي الأصل كان مقصوداً دراسة التجربة المفاهيمية وبشكل غير متوقع بدأت تكشف بشكل واضح المركزية الخفية للأرض في كل التجارب البشرية ، وبالفعل فإن بحث الظواهرية بدأ يطرح اقتراحاً بأن العقل البشري كان معتمداً بشكل كبير على (ومتأثراً بعمق) بعلاقتنا المنسية بالأرض والكون الحاضن والعطوف .

وفيما التجربة السحرية ، والتأمل الفلسفي ، والمعلومات البحثية والعلمية تتواعم بتناسق من خلال هذا الكتاب فإن أولئك القراء الذين لديهم قليل من الصبر على القضايا الفلسفية سيشعرون بالحرية لتجاوز الفصول التقنية في المقدمة (الفصل الثاني) ملامسين - ربما بشكل مختصر - الموضوع لاستكشاف الأقسام المختلفة التي تحتوي عناوين مثيرة أكثر لقضولهم المعرفي ، أما الآخرون فقد يرغبون في الرقص عبر أجزاء من الفصل الثالث ، والذي يحوي بالضرورة بعضاً من الأقسام التقنية فيما يخص الطبيعة الجسدانية للغة ، ومع نهاية الفصل الثالث هناك ملخص مختصر لإعداد خشبة المسرح لما يليه . (*)

(*) تم إلغاء ترجمة الجزء الأخير من هذا التمهيد والخاص بشكر المؤلف لعدد كبير من الأشخاص والمؤسسات التي أعانت في الإعداد لهذا الكتاب . (المترجم)

« مثل ما هي أصوات الجنادب الناعمة
في الخريف لنا
نحن كذلك بالنسبة للأشجار
كما هي للصخور والتلال »
جاري سنايدر

(١)

إيكولوجيا السحر (*)

مدخل شخصى إلى البحث

فى وقت متأخر من المساء خطوت خارج كوخى الصغير فى حقول الأرز فى شرق جزيرة « بالى » ووجدت نفسى أهوى فى الفضاء ، فوق رأسى كانت السماء تضيءُ بالنجوم ، متجمعة ومزدحمة فى بعض المناطق ، سادةً تقريباً فجوة الظلام فيما بينها ، وفى مناطق أخرى كانت تتناثر بشكل فسيح وهى تنبض وتهمس لبعضها بعضاً ، وخلفهم جميعاً جرى النهر العظيم من الضوء مع روافده المختلفة . غير أن الدرب اللبنى كان يجرى تحتى أيضاً ، ذلك أن كوخى كان يقع فى منتصف تجمع كبير لحقول الأرز ، حيث يفصل ما بين الأكواخ قنوات ضيقة ذات ارتفاع يبلغ قدمين وكانت كلها تمتلئ بالمياه . كان سطح تلك البرك - فى النهار - يعكس زرقة السماء بشكل كامل ، انعكاساً يكسر فقط بالرؤوس الخضراء الياضعة للأرز الجديد ، غير أنه فى الليل فإن النجوم نفسها تلمع من سطوح برك الأرز ، ويدور نهر النور فى الظلام تحت الأقدام وفوق الرؤوس . كان يبدو أنه لا أرضية هناك أمام قدمى ، ولكن متاهة وفضاء من النجوم تتساقط منذ الأزل .

إننى لم أعد ببساطة تحت سماء الليل ، ولكن فوقها ، أيضاً - كان الانطباع الأول هو فى انعدام الوزن ، ولربما كنت قادراً على إعادة تكييف ذاتى ، لاكتساب إحساس ما بالجاذبية الأرضية ، لولا الواقع الذى أحاط بكافة حواسى : بين المدارات السفلية والمدارات العلوية كانت تسبح مخلوقات النار التى لا تحصى ، كان نورها يشتعل

(*) إيكولوجيا : أى علم التوازن البيئى فى الطبيعة .

كالنجوم ، بعضها ينجرف بعيداً لينضم إلى سحب النجوم العلوية ، والآخر مثل شهب مباركة تهبط من الأعلى لتنضم إلى المدارات السفلية ، وكل هذه الطرق الضوئية فى الأعلى والأسفل كانت تتراءى كما لو أنها فى مرايا - أيضاً - على السطوح الهادئة لمياه الأرض . لقد أحسستُ بنفسى أحياناً أتساقط خلال الفضاء ، وفى لحظاتٍ أخرى أطفو وأنجرف على سطح الماء ، إننى لم أستطع ببساطة أن ألقى سحر العلوى والسفلى . دروب مخلوقات النار وانعكاساتها على سطح الماء سحرتنى فى تحليق طائر ، وحتى عندما زحفت عائداً إلى كوخى وأغلقت الباب على العالم الذى يدور ، أحسست أنه الآن حتى الغرفة الصغيرة التى أستلقى فيها كانت تطفو بحرية على سطح هذا الكون .

مخلوقات النار الطائرة ! لقد كان ذلك فى إندونيسيا ، وكما ترى ، كان ذلك المكان الذى تعرفت فيه للمرة الأولى على عالم الحشرات ، وهناك أيضاً تعلمت التأثير العظيم لتلك الحشرات - ما أدق وأصغر تلك الكائنات - على الحواس البشرية ، لقد ارتحلت آنذاك إلى إندونيسيا وفق منحة علمية بحثية لدراسة السحر - وبدقة أكثر ، لدراسة العلاقة بين السحر والطب ، أولاً بين السحرة الأصليين التقليديين ، أو « دكونز » ، بين القبائل الإندونيسية ، ثم بعد ذلك بين « الدزانكيس » السحرة الشافيين فى النيبال ، أحد جوانب تلك المنحة العلمية كان خاصاً نوعاً ما : كان على أن أرحل إلى الريف الأسبوى دون أن أتخفى فى دور عالم الأنثروبولوجى أو الباحث العلمى ولكن كساحر ممارس حقيقى على مسؤوليتى ، على أمل أن أكتسب منافذ مباشرة أكثر إلى السحرة المحليين ، لقد كنت ساحراً محترفاً متخصصاً فى خفة اليد منذ خمسة أعوام مضت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، مستعينا بذلك لأعين نفسى على الأقساط والتكاليف الدراسية الجامعية التى كنت أقوم بها فى الكلية عبر الأداء الترفيهى للسحر فى النوادى والمطاعم هناك فى نيو إنجلند ، وكذلك قمت بأخذ إجازة لمدة عام أيضاً من دراستى ؛ كى أجوب كساحر متجول فى شوارع أوروبا ، ومع نهاية رحلتى تلك قضيت بعض الشهور فى لندن- بريطانيا-باحثاً فى فائدة سحر خفة اليد فى العلاج النفسى كطريقة للتواصل مع الأفراد المسزومين نفسياً ، والذين لا يتعامل مع أحوالهم العلاج الإكلينيكي المعتاد ، وقد قادنى نجاح ذلك العمل إلى تصور أن السحر الشافى

للبيدين يمكن له أن يقود إلى فنونٍ علاجية شافية متعددة ، وهكذا أصبحت لأول مرة مهتماً بالعلاقة بذلك العالم الذى صار منسياً فى الغرب ما بين الطب الشعبى والسحر.

كان هذا الاهتمام هو ما قادنى إلى المنحة العلمية ، وإلى ارتحالى كساحر فى الريف الآسيوى ، وهناك أثبتت مهاراتي اليكوية السحرية قيمتها العالية فى إثارة الفضول لدى السحرة « الشامان » المحليين ، فبالنسبة للسحرة - سواء كانوا مُرفهين عصريين فى المدن ، أو سحرة أصليين ، أو سحرة قبائل - فإن العنصر المشترك بينهم هو حقيقة أنهم يعملون مع النسيج الغامض للتقى ، وعندما لاحظ السحرة المحليون أنه كان عندي - على الأقل - القدرة على التلاعب بمجالات مشتركة فى السحر والتقى دُعيت إلى بيوتهم ، وطلب منى أن أشاركهم الأسرار ، ومع الوقت تم تشجيعى بل والطلب منى أن أشارك فى الطقوس المختلفة لاحتفالاتهم .

غير أن مجال التركيز فى بحثى تحول تدريجياً من التساؤلات الخاصة بتطبيقات التقنيات السحرية فى الطب وطقوس الاستشفاء إلى أسئلة مُلحة أكثر عمقاً حول العلاقة بين السحر التقليدي والعالم الغامض للطبيعة ، لقد بدأ هذا الاهتمام الأوسع وكأنه يمتلك المفاتيح للأسئلة الأولى ، لأنه لم يكن أياً من السحرة العديدين فى جزيرة بالى ، أو أياً من « الدزانكيز » الذين عشت معهم فى « النيبال » ، من أعتبر عمله كـمعالج فى طقوس سحرية هو دوره الأول والأساسى فى مجتمعه ، كان معظمهم بالتاكيد مداوين أو أطباء فى القرى المحيطة بهم ، وكان الجميع يتحدث عنهم بتلك الصيغة فى تلك القرى ، غير أن القرويين كانوا أحياناً يتحدثون عنهم فى أصوات خفيفة وحوارات خفية وخاصة كـسحرة (أو « ليجاك » فى بالى) يمارسون السحر الأسود ويكونون فى الليل ربما يمارسون تعاويذهم السحرية لجلب الداء بدلاً من الدواء (أو ينقلبون إلى اليسار بدلاً من اليمين) حتى يؤذون الناس بالأمراض والعلل نفسها التى يعملون على مداواتهم منها فى النهار ، مثل تلك الشكوك بدت مألوفة فى إندونيسيا ، وكانت دائماً تحوم حول المعالجين الأكثر قدرة ونجاحاً ، والأكثر شهرة فى تخليص الناس من أمراضهم ، لأنه كان مفترضاً أن الساحر حتى يستطيع أن يطرد الشر لابد له من وجود قدرة تفاهم قوية وتأثيرات على الشياطين ومعها ، حتى إنه فى بعض المناطق كانت تعتبر ممسوسة بتلك القوة ، وبالنسبة لى - عن نفسى - فأنا لم أر

بشكل واع أياً من أولئك السحرة أو « الشامان » الذين تعاملت معهم يتورط في ممارسات سحرية لدواعي الأذى والشر ، ولا أية بيئة مقنعة بأنهم قد فعلوا ذلك بالفعل (البعض القليل من السحرة الذين عرفتهم كان يقبل النقود كأجر لخدماتهم ، بالرغم من أنهم لم يقبلوا أبداً الهدايا في شكل طعام، أو أصخيات ، أو أغطية وما شابه ذلك) غير أنني بالرغم من ذلك صُدّمت بحقيقة أن أياً منهم لم يقل أو يفعل شيئاً لمواجهة تلك الشائعات المزعجة والتكهنات ، والتي كانت تدور بهدوء في كافة المناطق التي يعيشون فيها ، وببطء بدأت أعى أنه من خلال تلك الشائعات والمخاوف الغامضة التي تثيرها في أهل القرى كان السحرة يستطيعون الاحتفاظ بمستوى ما من الخصوصية ، فإذا لم تُروّج مثل تلك المخاوف بين القرويين حول السحرة المحليين فإنهم سوف يتوافدون لكل علة صغيرة إلى أولئك السحرة ويزعمونهم ، وبما أنه على الساحر المتمكن تقديم خدمات لعدد كبير من القرى حوله ، فإنه قد يغرق من الصباح وحتى الليل بطلبات لطقوس تُعينهم ، وعبر السماح بالشكوك والمخاوف المختلفة بأن تدور بين سكان المناطق (وأحياناً عبر تشجيع تلك الشائعات وتبهيرها) يضمن الساحر أنه سيأتي إليه فقط أولئك المتضررون الحقيقيون الذين لاملأ لهم غير مهاراته وقدراته التي يتجرون على الاقتراب منها واستحثاثها .

الخصوصية بدورها منحت الحرية للساحر للتفرغ لما كان يعتبره مهنته الأساسية وفنه ، أحد مفاتيح ذلك العمل يمكن أن يوجد في الظروف التي يصعب على الساحر أن يعثر عليها في قلب قريته ، فمعظم تجواله واحتياجاته موجودة بالشكل الاعتيادي في الهوامش الفارغة من فضاء مجتمعه أو ، بشكل أكثر ، خارجاً هناك أبعد في حواف القرية – في منتصف حقول الأرز ، أو في أعماق الغابة ، أو في تجمعات التلال والكثبان ، وأستطيع ببساطة أن أعزو ذلك إلى الاحتياج الحق للخصوصية والعزلة ، غير أنه بالنسبة للساحر في ثقافة تقليدية كان ذلك يبدو من أجل هدف آخر ، أيضاً ، للحصول على فضاء معبر عن وضعه أو وضعها الرمزي فيما يتعلق بالمجتمع ، ذلك أن ذكاء وحساسية ومعرفة الساحر غير محدودة داخل المجتمع ، إن مكانها حافة المجتمع متوسطاً بين المجتمع البشري والمجتمع الأكبر لكانت تعتمد عليها القرية من أجل غذائها وبقائها ، وهذا المجتمع الأكبر يضم – بالإضافة إلى البشر – الكيوانات

المتعددة غير البشرية والتي تشكل الأرضية المحلية من النباتات المتنوعة والحيوانات - الطيور ، والثدييات والأسماك ، والزواحف ، والحشرات - التي تستوطن أو تهاجر في المكان ، بالإضافة إلى رياح مُعينة وأشكال للطقس توضح الجغرافية المحلية ، كما هو أيضاً حال الأراضي المختلفة - الغابات ، والأنهار ، والكهوف ، والجبال - وهذه كلها تمنح شخصيتها الخاصة للأراضي المحيطة .

والساحر أو الشافى المدعو « بالشامان » التقليدي أو القبلي ، والذي سنعلم أن أرقبه يتصرف كوسيط ما بين المجتمع البشرى والحقل الإيكولوجي الأوسع في البيئة الطبيعية ، ساعياً نحو تدفق صحيح وطبيعي للتغذية ، ليس من الأراضي لمستوطنيتها من البشر ، ولكن من المجتمع البشرى إلى الأرض والمحيط المحلى أيضاً ، وعبر طقوسه الدؤوبة ، وتجلياته الغيبية ، ونشواته ، و « ارتحالاته الروحية » يقوم على المحافظة على العلاقة بين المجتمع البشرى والمجتمع الأكبر للكائنات ، والتأكد من توازن تلك العلاقة وتبادليتها ، وأن القرية لاتأخذ أبداً من الأرض الحية أكثر مما تعطيتها - ليس فقط على المستوى المادى ولكن بالصلوات أيضاً ، والتقدير ، والنسب المتعادلة من الأخذ والعطاء . إن كمية الحصاد ، أو حجم القصد دائماً ما تكون موضوع مفاوضات بين المجتمع القبلي والعالم الطبيعي الذي يحيون فيه ، وإلى حد بعيد كل شخص بالغ في المجتمع ينشغل في عملية الإصغاء والإنصات إلى الحضور الآخر الذي يحيط بالحياة اليومية ويؤثر عليها ، غير أن « الشامان » أو الساحر هو المسافر الاستثنائي في العالم الوسيط ما بين البشر والعالم الأكثر من بشرية ، والمخطط الاستراتيجي الرئيسى والمفاوض في أية صفقات مع الآخرين .

وإنه نتيجة للجهود المستمرة فقط مع القوى الخفية التي توجد فيما وراء المجتمع البشرى تتمكن الساحرة التقليدية من رفع معاناة الكثير من الأفراد مع المرض والعلل المختلفة التي تظهر داخل ذلك المجتمع ، تستمد الساحرة قدرتها على علاج العلل من جهودها المبذولة وممراتها على « المداواة » أو إعادة توازن العلاقة بين المجتمع والأرض المحيطة به . الأمراض - فى ثقافات كهذه - عادة ما يتم استيعابها ذهنياً كنوع من فقدان توازن منتظم داخل الشخص العليل ، أو بشكل أكثر خصوصية كاختراق لحضور شيطاني أو إبليسى شرير لجسد المريض ، وهناك فى بعض الأوقات تأثيرات

شريرة داخل القرية أو القبيلة نفسها تنغص حالة الصحة والهناء لبعض الأفراد داخل المجتمع ، وبالرغم من ذلك فإن مثل هذه القوى والتأثيرات المدمرة داخل المجتمع البشرى يمكن ردها - تقليديا - إلى حالة عدم تواؤم ما بين المجتمع والحقل الأوسع للقوى التى تهيم عليه . إن أولئك الأشخاص فقط ، والذين عبر نشاطهم اليومى منشغلون بقياس والمحافظة على الجهود ؛ لتوازن العلاقات ما بين القرية البشرية والمحيط الأرضى الغامض - هم القادرون بشكل صميم على تشخيص ومعالجة وبالتالي الإعانة على العلل الشخصية والأمراض الناجمة من داخل القرية ، وإن أى معالج لم يكن حاضراً بشكل متقصٍّ للعلاقة المتشابكة ما بين المجتمع البشرى والحقل الأوسع والأكبر من البشر سوف يتمكن ربما من فك تعويذة مرض ما لشخص ليجد المشكلة نفسها تنجم (ربما فى قناع جديد) فى مكان آخر فى المجتمع ، وهكذا فإن وظائف الساحر التقليدى أو الطبيب الشعبى الأساسية كوسيط ما بين البشرى وغير البشرى من عوالم هى الأساسية فيما دوره كمعالج دور ثانوى ، وبدون وعى مَرِن ومستمر للعلاقة النسبية أو عدم التوازن ما بين المجموعة البشرية ومحيطها غير البشرى مع القدرات اللازمة لتنمية هذه العلاقة الأساسية فإن أى « مداوى » فاقد لقيمتها وبالفعل لن يكون معالجاً أبداً . إن الالتزام الأساسى - إذن - للطبيب الشعبى ليس تجاه المجتمع البشرى بقدر ما هو للشبكة الأرضية من العلاقات التى تحيط بذلك المجتمع - ومنها تنبع قدراته أو قدراتها للتخفيف من المعاناة البشرية - وهذا يضع الساحر المحلى فى مكان مختلف عن غيره من الأشخاص .

إن خاصية الساحر هى من طبيعة غير بشرية - فى المركزية الخاصة بعلاقته مع الكائنات الأخرى والأرض - ليست دائماً واضحة لدى الباحثين الغربيين ، عدد كبير من الأنثروبولوجيين تجاهلوا النظر إلى البعد الإيكولوجى البيئى لفن ومهنة « الشامان » فيما كانوا يكتبون بإسهابٍ عن طرق تعامل « الشامان » مع القوى المافوق طبيعية وكائناتها ، وتستطيع أن تعزو هذا التجاهل إلى الفرضيات المعاصرة للحضارة الحديثة ، التى ترى أن العالم الطبيعى هو مُسَيَّطَر عليه بشكل كبير وتمت « مكننته » ووضعه تحت هيمنة الآلات البشرية ، وأن ذلك الذى يُعتَبَرُ غامضاً ، ونفاذاً ، وخارج

النفوذ البشرى لا بد له أن يكون وجوداً غير فيزيائى أو تجسدى لعالم يتعدى الطبيعة ، « فوق طبيعى » .

ويمكن استيعاب المشهد أكثر عندما نلاحظ أن عددا كبيرا من المفسرين الأوروبيين لطرق الحياة لدى السكان الأصليين فى مناطق مختلفة من العالم كانوا عبارة عن مبشرين مسيحيين وبعثات دينية ، ذلك أن الكنيسة قد افترضت منذ زمن طويل أن البشر وحدهم هم من يمتلكون الأرواح الذكية ، وأن بقية الحيوانات - مع تجاهل كامل للأشجار والأنهار - قد « خَلَقوا » لا لسبب آخر غير خدمة البشرية ، نستطيع أن نفهم بيسر لماذا افترضت البعثات التبشيرية الأوروبية القائمة على مؤسسات مسيحية دوغمائية اعتقادا فى قوى ما فوق الطبيعة كقوى عوالم أخرى ما بين أفراد القبائل ، والتي رأوها مأخوذة ومحلقة تحت سيطرة قوى غير بشرية (ولكنها طبيعية مع ذلك) ، لم نعد نصف روح « الشامان » الملعونة والمحيرة - كمساعد شرير لقوى الوثنية البدائية - لقد نظفنا أنفسنا على الأقل من مثل تلك المركزية الحضارية ، ومع ذلك مازلنا نذكر تلك القوى الملعونة بشكل محترم الآن « كقوى فوق طبيعية » - ذلك أننا عاجزون عن طرح فهم مقنع للحضارة العلمية عن طبيعة ذات وجود يمكن شرحه أو التنبؤ بمسيرته ، وغير مناسب لمثل تلك الغوامض ، وبالرغم من ذلك فإن ذلك الذى يُقدر بعظمة وإعجاب من قبل الحضارات والثقافات الأصلية البدائية والشفهية هو كما أقترح ليس شيئا آخر غير الطبيعة نفسها . إن القوى الغامضة بعمق كياناتها التى يلج إليها « الشامان » فى مهنته هى القوى نفسها - النباتات نفسها ، والحيوانات ، والغابات ، والرياح - التى هى بالنسبة للأوروبيين المتعلمين « والمتحضرين » مجرد مشاهد جميلة للرؤية ، الخلفية ، الممتعة لاهتمامنا الأكثر أولوية من مشاغلنا البشرية .

إن أرقى تعريف « للسحر » يدور الآن فى ثقافات أمريكا المتفتحة هو : « قدرة القوة فى تبديل وعى الشخص عبر الإرادة » ، ولا يرد أى ذكر لأى سبب لتبديل ذلك الوعى ، ومع ذلك فإنه فى الثقافات القبلية فإن ذلك الذى ندعوه « سحر » يستمد معناه من واقع أن البشر - فى مضمون بدائى وشفهى - يختبرون وعيهم ببساطة كشكل من أشكال الوعى بين كينونات أخرى كثيرة ، إن الساحر التقليدى يرمى القدرة فى التحكم

نُفَى توجييه حالة وعيه أو وعيها المعتادة تماماً من أجل أن يتواصل مع الأشكال العضوية الأخرى للحساسية والوعي الذى يشتبك معها الوجود البشرى ، وعبر طرح الظلال مؤقتاً على المنطق المقبول العادى للاستيعاب يستطيع الساحر أن يأمل فى الولوج إلى علاقة مع الكائنات الأخرى ووفق شروطها ، عبر استبدال التنظيم العادى لحواسه يمكن له أن يدخل إلى محاوره مع القدرات المتعددة وغير البشرية والتى تسكن الأرض المحلية ، إن ذلك - يمكن أن نقول - هو ما يحدد الشامان : القدرة على الخروج الجاهز من حدود الاستيعاب التى ترسم خارطة ثقافته المحلية - حدود تم تثبيتها عبر التقاليد الاجتماعية ، والمخاوف والتابو ، والأهم من ذلك اللغة المشتركة - حتى يتم التمكن من عمل الاتصال ، والتعلم من القوى الأخرى فى الأرض ، إن سحره هو بالتحديد تلك القدرة العالية على التلقى للتعبيرات ذات المعنى - أغان ، وبكاء ، ووقفات - للحقل الأعظم والذى يتعدى الوجود البشرى .

إن السحر - إذن - فى أكثر المفاهيم بدائية - ربما - هو خبرة الوجود فى عالم مكون من ذكاء ذى أبعاد متعددة ، والحدس بأن كل شكل يتلقاه الشخص - من السحب المنتفخة فوق الرأس إلى الذبابة على حواف العشب ، وإلى العشبة نفسها - هو شكل من الخبرة والإحساس ، وكيونة تمتلك قدراتها وحواسها ، حواس خافتة ومختلفة جداً عن حواسنا .

للتأكد ، فإن دور « الشامان » الإيكولوجى كوسيط ما بين المجتمع البشرى والأرضى ليس واضحاً دائماً من النظرة الأولى حتى للمراقب الحساس والمتبصر ، نحن نرى الساحر يُدعى لعلاج مريض فى القبيلة يعانى من الأرق ، أو ربما ببساطة للعثور على بعض الأشياء المفقودة ، ونشده يدخل فى حالة التجلى واللاوعى مرسلاً بوعيه إلى أبعاد أخرى باحثاً عن رؤية تعينه ، ومع ذلك لا يجب علينا أن نسارع لتفسير تلك الأبعاد « كقوى ما فوق الطبيعة » ، ولا أن ننظر إليها كعوالم « داخلية » تماماً للسايكولوجية الشخصية للممارس ، لأنه من الممكن أن تكون « العوالم الداخلية » فى ثقافتنا النفسية الغربية تشبه الجنة السماوية فى المعتقد المسيحى ، متأصلة فى فقد جذورنا الأصلية مع عالم الأرض ، عندما تكون القوى الخفية التى تحيط بنا يتم النظر إليها على أنها أقل أهمية منا ، وعندما يتم تعريف الأرض الحية

كشئ مادي خال من حواسه ومشاعره فإن الإحساس بتعددية أخرى وحشية (بالمقارنة بالوجود الإنساني الذي اعتاد مثل هذه الرؤية) عليه أن يهاجر ، إما إلى الجنة الأبعد من العالم الطبيعي ، أو إلى الجمجمة البشرية نفسها - الملجأ الوحيد المتاح في هذا العالم لما هو غامض وغير مفهوم .

ولكن في الثقافات الأصلية والشفاهية فإن العالم الحسى نفسه يبقى مكان التجوال للآلهة ، والقوى المتعددة التي تستطيع المحافظة أو تدمير الحياة البشرية . ليس عبر إرساله لوعيه خارجاً هناك فيما وراء عالم الطبيعة يتمكن « الشامان » من التواصل مع معالجة أمور الحياة والصحة ، ولا بالارتحال في عوالمه النفسية الداخلية ، ولكن بتوسيع مدى وعيه بالخارج هناك في أعماق الأرض بشكل حسى ونفسى ، الحلم الحى الذى نتشاركه مع الصقر المحلق ، والعنكبوت ، والحجر الصامت الذى يتكلم عبر تشققات سطحه الخشن .

إن العلاقة الحميمة ما بين الساحر والطبيعة غير البشرية تبدو أكثر وضوحاً عندما نميل إلى وعى خلفية مهنته - ليس فقط تجاه مهامه الواضحة في العلاج وإقامة الطقوس التى يدعو إليها الأشخاص الذين يلجأون إليه ، أو تجاه الاحتفالات الأكبر التى يترأسها ويرقص فيها ، ولكن تجاه المحتوى للصلوات التى يُحَضِّرُها مثل تلك الاحتفالات ، وتجاه حركات الطقوس التى لاتحصى التى يقوم بها لوحده ، والاستعدادات اليومية ، والتقدير الذى ينبع منه للأرض وأصواتها الكثيرة .

كل هذا الاهتمام بالطبيعة غير البشرية كان - كما قد ذكرت - بعيداً جداً عن هدفى الرئيسى عندما شرعت فى بحثى حول استخدامات السحر والطب فى إندونيسيا ، وقد حدث ذلك بالتدريج عندما أخذ وعيى فى إدراك هذا البعد الخفى لفن السحر الشعبى . كان أول تحول لمفاهيمى السابقة هادئاً ، عندما كنت أمكث لبعض الوقت فى منزل شاب من جزيرة « بالى » ، أو ممارس للسحر فى دواخل ريف بالى ، كان قد أمدنى بسرير بسيط فى مبنى منفصل مكون من حجرة واحدة فى المجمع العائلى « البالى » (معظم المجمعات السكنية فى « بالى » مكونة من مبانٍ صغيرة منفصلة للنوم وللطهو ، مقامة فى بقعة من الأرض المحددة) وفجر كل صباح كانت الزوجة « البالية » تأتينى بإناء صغير ولذيذ من الفواكه ، والتي كنت أكلها لوحدى على الأرض بالخارج ، متكئاً على الجدار الخاص بكوخى ومراقباً بزوغ الشمس وسقوط أشعتها على سعف نخيل جوز الهند المتمايل ، وقد لاحظت أنها عندما كانت تحضر إلى الفاكهة كانت مضيفتى توازن أيضاً صينية تحتوى على عدد كبير من الصحن الخضراء الصغيرة : فى الواقع كانت الصحن على شكل قوارب صغيرة ، كل منها قد تم نسجه بأناقة وبساطة من سعف جوز الهند ، كانت الأطباق بطول اثنين أو ثلاث بوصات ، وفى كل منها كمية من الأرز الأبيض ، بعد أن تسلمنى فطورى تخفى المرأة والصينية عن مرأى خلف الأكواخ الأخرى ، وعندما تعود بعد دقائق قليلة لأخذ طبقى الفارغ تكون الصينية التى تحملها فارغة أيضاً .

وفى المرة التالية التى رأيت فيها صفوف أطباق الأرز الصغيرة ، سألت مضيفتى عن ماهيتها ، وبصبر وتأن شرحت لى أنها مقدمة لأرواح المسكن ، وحينما سألتها حول المصطلح « البالى » الذى استخدمته « أرواح » ، كررت الشرح نفسه ، الآن فى إندونيسيا هذه كانت هدايا لأرواح مسكن التجمع العائلى ، وحاولت أن أفهمها بشكل صحيح ، أسلمت إلى طاسة تحتوى على فاكهة « البابايا » والمانجو المقطعة ، واختفت خلف زاوية الكوخ ، ترددت لمدة دقيقة ، ثم وضعت الطاسة على الأرض ، مشيت إلى جانب كوخى ، وتلصصت عليها عبر الأشجار ، فى البداية لم أستطع أن أراها لكننى سريعاً ما قبضت عينائى عليها وهى «مُقرصة» بجانب أحد زوايا كوخ آخر ، واضعة باهتمام ما افترضت أنه أحد أطباق التقدمة على الأرض فى تلك البقعة ، ثم وقفت وهى تحمل الصينية ، وسارت إلى الزاوية الأخرى الواضحة للكوخ نفسه ، وهناك وبيطء

واهتمام وضعت صحنًا آخر من التقديمة على الأرض ، عدتُ إلى طاسة الفواكه ،
والتهمت فطوري . فى تلك الظهيرة وعندما كان أهل المنزل منشغلين ، سرت خلف
الكوخ الذى رأيتها تضع خلفه التقديمات ، كانت الأطباق الصغيرة الخطراء لاتزالُ هناك
موضوعة بأناقة فى الزوايا الخلفية للكوخ ، غير أن كميات الأرز الأبيض التى كانت
فيها قد اختفت .

فى الصباح التالى أكملت أكل شرائح الفاكهة ، وانتظرت مضيفتى كى تعود
بالصينية لاستعادة طاستى الفارغة ، ثم تسلفت بهدوء نحو خلفية المبنى ، كان هناك
تقدمتان على أوراق جوز الهند موضوعتان فى البقعة نفسها حيث كانت تقدمات اليوم
السابق ، هاتان كانتا ممثلتان بالأرز ، ولكننى حينما حدثتُ فى إحداهما لاحظت
مباشرة ، بدهشة ، أن أحد كرات الأرز كانت تتحركُ بالفعل .

وحيثما ركعت على الأرض فقط لأرى عن كُتبٍ ذلك الذى يحدثُ لاحظتُ صفاً
من النمل الأسود الصغير يزحف عبر الطين إلى التقديمة ، وبالنظر عن قربٍ أكثرُ رأيتُ
أن نملتين قد صعدتا إلى التقديمة وكانتا تكافحان مع كرات الأرز ، وفيما كنت أراقب
ذلك كانت أحدهما تسحب كرة الأرز خارج ورقة جوز الهند ، وجرتها إلى صف النمل
الذى كان يتقدم نحو التقديمة ، أما النملة الأخرى فقد أخذت كرة الأرز الثانية وصعدت
إليها ساحبة ودافعة إياها ، وسقطت على حافة ورقة جوز الهند ، ثم تسلفت نملة ثالثة
تلك التقديمة ، بزغ صف النمل من أعلى ذلك المرتفع من الطين ، حوالى خمسة عشر
قدماً من المبنى ، كانت هناك تقديمة على الأرض فى أحد زوايا المبنى أيضاً ، وكان
هناك صف مشابه تقريبا من النمل ، مشيتُ إلى حجرتى وأنا أحدث نفسى . كان
الشاب « البالى » وزوجته قد قاما بجهدٍ كبير لغمر أرواح البيت بتلك العطايا ، فقط
لتنتم سرقة عطايهم عبر مخلوقات صغيرة ذات ستة أقدام .

أى هدر هو ذلك ! غير أن فكرة غريبة طرأت لى : ماذا لو كان ذلك النمل
هو بالتحديد « أرواح البيت » والتى من أجلها تم تقديم تلك العطايا ؟

وسريعاً ما بدأت أحلل ذلك المنطق ، إن مجمع العائلة مثل كثير غيره فى هذه
الجزيرة الاستوائية كان قد تم إنشاؤه فى محيط من مستعمرات عديدة للنمل ، وبما أنه
قد تم عمل عمليات طهو كثيرة فى المكان (والذى كان يضم مع الشاب « البالى »

وامراته وأطفاله ، عدداً كبيراً من أفراد العائلة الممتدة) وتحضيرات كثيرة للتقدمات الكريمة من الأغذية من أجل الطقوس والاحتفالات المختلفة فى القرى المجاورة ، فإن الأرضية والمباني فى التجمع السكنى معرضة لأن تكون محفلاً ضخماً للعدد الكبير من النمل ، مثل تلك الغروات كان يمكن أن تنوع ما بين هجوم نادر أو حصار دائم ، وبدا واضحاً أن التقدمات اليومية على أطباق أوراق جوز الهند كانت تخدم غرض الحماية من تلك الهجمات للقوى الطبيعية التى تحيط (وفى باطن) أرض العائلة . إن عطايا - هدايا - الأرز اليومية شغلت مستعمرات النمل ويفترض أنها أرضتها ، موضوعة فى أماكن معتادة ومألوفة فى زوايا المباني المختلفة ، بدت التقدمات فى تأسيس حدود معينة ما بين البشر وتجمعات النمل ، وعبر تكريم تلك الحدود بالهدايا كان البشر يأملون بشكل واضح إقناع الحشرات باحترام الحدود وعدم الدخول إلى المباني .

ومع ذلك فإننى بقيت متحيراً من تأكيدات مضيقتى أن تلك كانت هدايا « من أجل الأرواح » ، وللمزيد من التأكد وكان هناك دائماً تشوش ما بين مفهومنا الغربى « للروح » (والتى طالما تم تعريفها كمضاد للمادة أو « الجسد ») وذلك الحضور الغامض الذى يتقدم له أهل الحضارات الأصلية والبدائية بالاحترام الجم . كنت قد أشرت من قبل إلى سوء الفهم الفادح الذى نجم عن ظروف أن عدداً كبيراً من الباحثين الغربيين لتلك العادات الأخرى كانوا من البعثات التبشيرية المسيحية ، والذين كانوا جاهزين لرؤية الأشباح والكائنات الشيطانية حيث كان أهل القبائل يقدمون ببساطة مظاهر الاحترام للرياح المحلية ، وفيما أصبحت فكرة « الروح » - لنا نحن فى الغرب - موضوعة مرتبطة بالوجود الإنسانى فإن لقائى مع النمل كان تجربة أولى من تجارب كثيرة طرحت على أن « الأرواح » بالنسبة للثقافات الأصلية هى أساساً تلك الأمزجة من الذكاء أو الوعى التى لا تتخذ أشكالاً بشرية .

وكبشر نحن جميعاً على معرفة باحتياجات وقدرات الجسد البشرى - نحن نحيا أجسادنا وهكذا نعرف من الداخل إمكانيات أشكالنا ، نحن لايمكن أن نعرف بالقدر نفسه من الألفة والحميمية التجربة الحية لشعبان العشب أو السلفحفا ، ولايمكننا أن نخبر مباشرة الحواس الدقيقة لعصفور يُغنى ويمتص رحيق زهرة أو شجرة مطاط تتشمس تحت نور النهار ، ومع ذلك فإننا نعرف ماهية الإحساس بالشرب من حوض

ماء أو أن نتمدد تحت أشعة الشمس . إن تجربتنا بالفعل قد تتراوح ما بين الأمزجة المختلفة من الحساسية ، غير أنه بالرغم من ذلك نحن لا نستطيع كبشر أن نجرب بدقة الحواس الحية لأشكال أخرى من الكائنات ، نحن لا نعرف بوضوح كامل رغباتها أو دوافعها ، أو لا يمكننا التأكد أبداً بأننا نعرف ذلك الذى يعرفونه ، ذلك الذى تحس به حواس الغزال ، وأنها تحمل معرفة فى كيفية التجوال والتعامل مع الأرض ، ومن أين تحصل على الغذاء وكيف تحمى صغارها ، وأنها تعرف جيداً كيف تحمى وجودها فى الغابة بدون الأدوات التى نعتد نحن عليها ، هذه كلها شواهد لوعينا البشرى . إن لشجرة المانجو القدرة على خلق الفاكهة ، أو نبتة « اليارو » على تخفيف حمى الأطفال هو من الشواهد أيضاً ، بالنسبة للبشرية فإن هؤلاء الآخرين هم مجموعة من الأسرار والغوامض ، حملة لذكاء ووعى نحن أنفسنا بحاجة إليه فى كثير من الأحيان : إنهم هم أولئك الآخرون الذين يمكنهم أن يُعلّمونا بالتحويلات غير الفصلية فى الطقس ، أو يحذرونا من وقوع زلازل غير متوقعة ، والذين يرينوننا المكان الذى نعثر فيه على التوت الناضج أو الطريق الأفضل للعودة إلى المنزل .

وعبر رصدنا لهم وهم يبنون أعشاشهم أو محمياتهم نكتسب مفاتيح فى كيفية تقوية أهدافنا ، وموتهم يعلمنا معنى موتنا ، إننا نتلقى منهم هدايا غير محدودة من الغذاء ، والحماية ، والملبس ، ومع ذلك فإنهم يبقون « آخرون » بالنسبة إلينا ، يستوطنون ثقافتهم ويعرضون طقوسهم ، وغير معنى بهم أبداً .

الأكثر من ذلك ، إنها ليست الكينونات المعترف بها فى الحضارة الغربية بأنها « حية » ، ليس فقط الحيوانات الأخرى والنباتات التى تتكلم كأرواح لحواس ومنطق الثقافة الشفاهية ، ولكن النهر أيضاً الذى ترتوى منه تلك الأحياء ، وأمطار « المنسون » الاستوائية ، والحجر الذى يقبع فى باطن الكهف بأناقة ، الجبل أيضاً له أفكاره ، عصافير الغابات التى تزقزق وتتحدث عندما تنزلق الشمس خلف الأفق هى أعضاء صوتية لمطر الغابة نفسه .

إن جزيرة « بالى » - بالطبع - يصعب أن ندعوها بالحضارة « الأبورجينية » البدائية ، إن مدى رقى وتركيب هندسة معابدها ، ودقة نظام الرى فيها ، وفنون النحت

والاحتفالات والفن اليدوى توحى وتتحدث عن تأثير الحضارات المختلفة فيها ،
وخصوصاً الكتلة الهندوسية من الهند .

فى « بالى » - على كُلِّ - هذه التأثيرات تتواعم بشكل دقيق مع العبادات الوثنية
الأصلية للإندونيسيين ، إن الآلهة الهندوسية قد تمت مباركتها حسب رؤيتهم بأرواح
البراكين فى الأراضى المحلية .

ومع ذلك فإن الثقافات الوثنية فى إندونيسيا - ومثلها مثل عدد من جزر المحيط
الهادى - تتسم كما فى المعتقدات التى يرجع إليها علماء الإثنولوجى - « بعبادة
الأسلاف » ، وقد يناقش البعض أن مرجعية الطقس إلى ذكر الأسلاف البشريين
من الموتى (وافترض تأثيرهم فى الحياة الحالية) يمكنه أن يدحض بسهولة تأكيدى
على مفهوم « القوى » أو « الأرواح » المتعددة التى تتحرك من خلال الثقافة البدائية أو
أن الناس الشفهيين مرتبطون بالتالى بما هو غير بشرى من القوى فى الأراضى
المحيطة بهم .

يعتمد ذلك الاعتراض على بعض الفرضيات الضمنية فى الثقافة المسيحية ، مثل
الافتراض بأن « الأرواح » الخاصة بالأشخاص الموتى تقتضى الضرورة أن يكون لها
أشكال بشرية ، وأنها تسكن فى نطاق خارج العالم المادى التى يمكن لحواسنا أن
تدلف إليها ، غير أن معظم القبائل البدائية الأصلية لاتملك مثل هذا المفهوم للوجود غير
المادى خارج الطبيعة الأرضية . إن مفاهيمنا المتصلبة حول الجنة والجحيم البشرى
قد تم غرسها حديثاً - فقط - عن العالم الحسى الذى يُحيط بنا ، من ذلك الأكثر مما
هو بشرى كوجود تتماسك فيه أجنحة الذكاء وحوافر القوى ، لأن معظم الثقافات
الشفاهية بالنسبة لها ، فإن الأرض المحتوية والحسية تبقى هى نفسها مكان التجوال
للأثنين معاً : الأحياء والأموات . إن « الجسد » - سواء كان بشرياً أو غير بشرى -
ليس هو بعد مادة ميكانيكية فى مثل هذه الثقافات ، لكنه كينونة سحرية ، الجانب
الحسى للعقل ، وفى الموت يتحلل الجسد إلى تراب ، ودود ، وغبار مما يؤشر إلى إعادة
التشكيل التدريجى لأسلاف الشخص وشيوخه فى الأرض الحية ، والتى يولد
منها الجميع .

إن كل ثقافة أصلية تصعد من هذا المفهوم حسب نوعها ، آخذة بمفاتيح المفهوم من أراضيها الخاصة التي تقع فيها كثافة ، غالباً المزاج الخفى الذى يسكن العالم المرئى - الوجود الخافت الذى يدور فى دواخلنا وبين كل الأشياء - يحمل فى داخله روح أو نفس الشخص الميت حتى يحين الميقات لذلك النفس أن يدخل ويسكن كائناً واضحاً - عصفوراً ، أو غزالاً ، أو حقل قمح برى - بعض الثقافات ربما تحرق الجسد حتى يعود تماماً كشخص ، كدخان إلى حركة الهواء ، فيما ذلك الذى يسقط من اللهب يتم تقديمه للشمس والنجوم ، وذلك الذى يبقى كرماد يقدم للأرض الكريمة ، كما أن هناك ثقافات يمكن لها أن تبتر الجسد ، تاركة بعض الأجزاء منه فى أماكن محددة يمكن أن يعثر عليها أنواع من الطيور الجارحة ، أو حيث يمكن أن تلتهمها أسود الجبال أو الذئاب ، مسهلة بذلك عودة الخلق لذلك الشخص فى وجود حيوانى محدد فى تلك الأرض . مثل هذه الأمثلة توضح ببساطة أن الموت فى الثقافات القبلية يُنشئ وجوداً خاصاً للشخص لا « يختفى » فيه من العالم المحسوس (فالى أين سوف يذهب ؟) لكنه يبقى كقوى داخلية فى الأراضى الشاسعة ، سواء بخفوت فى الرياح ، أو بشكل أكثر وضوحاً فى الشكل الحيوانى ، أو حتى فى « اللافا » البركانى . إن « عبادة الأسلاف » فى شكلها المفترض إذن هى بالضرورة مزاج وشكل آخر من الاهتمام والإصغاء للطبيعة غير البشرية ، إنها تشير إلى لا تقديس وتعظيم للقوى البشرية ، ولكن لكل أشكال الوعى الذى تتخذه عندما لا تكون فى الشكل البشرى ، عندما يموت الجسد البشرى ويتحلل ويتحول إلى عنصر من عناصر الكون الحى .

إن هذه الدورة للبشر بعودتهم إلى العالم الأكبر للوجود تؤكد على أن الأشكال الأخرى من التجارب التى نواجهها - مثل النمل ، أو الأشجار ، أو الغيوم - ليست أبداً غريبة عنا ، بالرغم من الاختلافات الواضحة فى الشكل ، والقُدرة ، وطريقة الوجود ، فإنها تبقى مألوفة بشكل ما ، وجزءاً من عائلتنا الكونية ، إنها مُركبة تلك العلاقة من القرابة التى تحيط بالمختلف ، والمغاير وترى من خلال إمكانياته المخيفة .

بعد شهور عديدة من وصولي إلى جزيرة « بالي » غادرت القرية التي كنتُ أمكثُ فيها لزيارة أحد آثار ما قبل الهندوسية في هذه الجزيرة ، وصلت على دراجتي مبكراً في فترة ما بعد الظهيرة ، بعد أن غادرت حافلة السياح من واجهة المحيط ، أخذتني سلاسل طويلة إلى وادٍ أخضر كالزمرّد ، محاطاً بمرتفعات صخرية من الجانبين ، مغتسلاً بكلام النهر وتنهّد الرياح من خلال الحشائش الطويلة التي لم تُحصَد ، على جسر صغير يعبر النهر قابلتُ امرأة عجوزاً ، تحمل سلة كبيرة على رأسها وتمسكُ بيد طفل صغيراً خجولاً ، ابتسمت المرأة في وجهي ابتسامة خالية من الأسنان وبِلثة حمراء من علك ثمرة « البيتل » ، في الجانب الآخر البعيد من النهر وقفتُ أمام مبنى ضخم من الممرات مغطى بالطحالب ، ويقود إلى حجرات ، وساحات منحوتة باليد من مادة صخور البركان السوداء .

لاحظت على حافة الوادئ المزيد من الكهوف المنحوتة في باطن الصخور ، وقد بدت هذه الكهوف أكثر عزلة وبعداً ، ولا آثار لخطوات الأقدام على الطرق المؤدية إليها ، عبرتُ الحشائش للوصول إليها واكتشافها ، وقد أثبت ذلك صعوبة أكبر مما توقعت ، ولكن بعد أن تَهِت بين الحشائش الطويلة ، والوقوف في النهر لأكثر من ثلاث مرات وجدتني أخيراً عند قعر مداخل تلك الكهوف ، وكان عليّ أن أخذ في تسلق قصير للصخور إلى قم أحد تلك الكهوف ، ودخلت إليه وأنا أحبو على يديّ وركبتيّ ، لقد كانت فتحة واسعة غير أنها كانت منخفضة ، ربما لا تزيد عن أربعة أقدام في ارتفاعها ، فيما كان باطن الكهف لايزيد عن خمسة أو ستة أقدام داخل المنحدر الصخري كانت الأرضية والسقف مغطاتين بالطحالب ، راسمة الكهف بأشكال خضراء ومُلمسة خشونة الصخر ، المكان رغم ضآلة حجمه - أو ربما لهذا السبب - كان مُحاطاً بجو من المودة العظيمة ، لقد تسلقت إلى كهفين آخرين ، كل منهما بالحجم نفسه ، غير أنني أحسست بأن ثمة ما يشدني إلى الكهف الأول ، للجلوس مقرصاً على وسادة الطحلب هناك والتأمل عبر وادئ الزمرّد أمامي ، كان هادئاً وساكناً في الداخل ، مثل محراب خاص منحوت في الصخر ، بدأت في اكتشاف الداخل ، كنتُ أهتمهم في البداية ، ثم بدأت في إنشاء أغنية بسيطة كان قد علمني إياها أحد مواطني « بالي » منذ بضعة أيام ، كنتُ مسروراً بالنغمات التي أضافها الكهف إلى صوتي ، وجلست هناك أغنى

لزمنا ، لم أكن قد لاحظت تغير الرياح فى الخارج ، أو شحوب السحب وهى تعتم
الوادي حتى بدأ المطر فى الهطول فجأة بقوة عظيمة . كانت أولى عواصف « المنسون »
الذى بدأ موسمه !

كنت قد جربت بعض هبات المطر فى الجزيرة من قبل ، وأصابنى الذهول تجاه
ذلك الطوفان من المطر الذى يهطل الآن قاذفًا بالأحجار إلى قعر الجرف ، مكومًا إياها
وصانعًا بحيرات صغيرة وبرك من الماء فى الأراضى الخضراء ، وناقضًا فيضيه فى
النهر . لم يكن هناك من بد من العودة إلى المنزل - فأننا لن نستطيع أن نجد طريق
العودة عبر الفيضان عند مدخل الوادى .

وهكذا وحامدًا الله على الملاذ أعدت قرفصة قدمى انتظارًا لانتهاى العاصفة ، وقبل
أن يمر الوقت كانت الشلالات التى تتساقط من على الجرف قد تجمعت على شكل
ينابيع ، وشلالين صغيرين عند فوهة الكهف ، وسريعًا ما كنتُ أشهدُ ستائر صلبة من
الماء ، رقيقة فى بعض المواضع ، حيث يتبدى مشهد الوادى على شكل ومضات غير
ثابتة ، وثقيلة فى معظمها تتراكم المياه فيها نحو بعضها بعضا . كانت كل حواسى
تغشاها عذوبة وسحر الجمال الوحشى للحدائق الممطرة وزمجرة المطر ، كان جسدى
يرتجف ويرتعش فى الداخل من إحساسه بأنه مختوم عليه فى ذلك الملاذ الذى
يقبع فيه .

وفيما بعد ، فى منتصف ذلك الذهول لاحظتُ نشاطًا صغيرًا ، هشًا ، ورقيقًا
أمامى مباشرة ، وعلى بعد بوصة أو اثنتين من جانبي على جدار الكهف ، كان هناك
عنكبوت يصعد على خيط رقيق يمتد على فوهة الكهف ، فيما كنتُ أرقبه كان قد نسج
خيطًا آخر فى أعلى الفوهة ، ثم زحف عائداً إلى الخيط الأول وشد الاثنین معاً فى
نقطة تقع فى المنتصف بين السقف والأرضية ، فقدت رؤية العنكبوت آنذاك ، ولوهلة
بدا وكأنه قد اختفى ، الخيط وكل شيء ، حتى أعاد تركيزى اكتشافه . كان خيطان
جديدان يلمعان الآن من منتصف الأرضية ، ثم آخران ، وسريعًا ما بدأ العنكبوت فى
التأرجح فيما بينها فى حركات دائرية ، شاداً وراءه خيطاً طويلاً جداً يثبت على كل
خيط من الخيوط التى نسجها ، كان العنكبوت يبدو غير عابئ بالمرة بسيول المياه التى

كان بعضها يرش رذاذه عليه ، بالرغم من أنه من حين لآخر كان ذلك الرذاذ يوقف رقصته إلا أنه كان يعاود التسلق إلى السقف أو النزول إلى الأرضية ؛ لإعادة تثبيت خيوطه هناك ، مثبتاً كل منها ومتأكداً من قوة بنيان بيته ثم يعود للاختفاء مجدداً وراء ذلك النسيج ، وكنت كلما فقدت التركيز الصحيح أنتظر من جديد أن يقبض بصرى على الحركة المغزلية للخيوط ، وعبر رقصه الدؤوب يتبدى لى العنكبوت من جديد رابطاً تركيزى مع كل عقدة جديدة من الحرير الذى يحركة ، وغازلاً نظرى فى التشكيل الذى يزداد عمقاً لبيته .

وفى تلك اللحظة لفت انتباهى البصرى حركة غريبة : خيط آخر ممتد على الشبكة ، لم يكن يلمع ولا يغزل من منتصف الشبكة مهديداً الشكل الفنى لها ، فيما تابعته بعينى باحثاً عن الهدف منه فى التشكيل النهائى لشكل الشبكة ، بدأت ألاحظ أنه كان على مستوى آخر مختلف عن الشبكة ، لأنها بدأت تنزاح عن مستوى تركيزى كلما ظهر ذلك الخيط أكثر وضوحاً ، وسريعاً ما أبصرت أنه كان يقود إلى مركزه ، حوالى اثنتى عشرة بوصة إلى اليمين من الشبكة الأولى ، مشكلاً قوة أخرى تتدلى منها خيوط عديدة تمتد من السقف حتى الأرضية ، ورأيت آنذاك أنه هناك عنكبوتا مختلفاً يغزل هذه الشبكة ، مختبراً قوتها بالرقص حولها مثل العنكبوت الأول ، ناشراً صليبيه الحريرى الآن إلى الخارج ، كان العنكبوتان يغزلان شبكاتهما كل منهما بمفرده بشكل مستقل ، ولكن بالنسبة إلى عيني كانا ينسجان شكلاً واحداً ، وفيما اتسعت نظرتى تكشف لى وجود عنكبوت آخر يغزل شبكته على فوهة الكهف ، وفجأة اكتشفت أن هناك الكثير من البيوت المتداخلة التى تولد للتو أمامى ، ناشرة إيقاعات مختلفة من مراكزها المختلفة – البعض أعلى ، البعض أقل ، والبعض أقرب إلى بصرى والبعض أكثر بعداً – بين الصخرة العليا والصخرة السفلى .

جلست مذهولاً ومأخوذاً أمام هذه العملية المعقدة والمكتسحة لأشكال حية تقوم على أشكالٍ أخرى ، بدأ تحديقى بذلك مثل نفس غارقٍ فى مجموعة من الخطوط ، ثم تنفست فى الأفق المفتوح ، ثم انتقلت النظرة نفسها إلى أفقٍ أبعد ، لقد أصبحت ستارة الماء صامتة تماماً – حاولت عند نقطة ما أن أصغى إليها ، لكننى لم أستطع . كانت حواسى مُخدرة .

كان لدى الانطباع البعيد بأننى كنت أرقبُ الكون وهو يُؤلّد ، مجرة فوق مجرة ...
ملاً الليل الكهف بالظلام . المطر لم يتوقف ، وبالرغم من ذلك ، وللغربة لم أشعر
بالبرد ولا بالجوع ، كنت أشعر بالسلام فقط وبأننى فى بيتى ، متمدداً على الطحالب
الرطبة على أرضية الكهف فى قعره ، كنت أنام .

عندما استيقظت كانت الشمس تحملق فى الوادى ، والحشائش فى الأسفل
تتراقص بألوان مشعة من الأزرق والأخضر ، لم أعتثر على أثر لشبكات العناكب ،
ولاخيوطها ، فكرت فى أنها قد تكون غير مرئية لبصرى بدون وجود ستائر الماء خلفها ،
تحسست بحذرٍ بيدي حول وداخل فوهة الكهف ، غير أن الشبكات كانت قد زالت ،
نزلتُ إلى النهر واغتسلت ، ثم عبرت الوادى إلى حيث كانت دراجتى تجف تحت
الشمس ، وعدت أدرجى إلى الوادى الذى أعيشُ فيه .

لم أستطع منذ ذلك الوقت أن ألتقى مع عنكبوت دون الشعور بالعظمة الغريبة
والتعجب ، وبالتأكيد فإن الحشرات والعناكب ليست القوى الوحيدة ، أو الحضور
المركزى فى الكون الإندونيسى ، غير أنها كانت مدخلى إلى الأرواح ، إلى السحر الذى
يمشى فى الجزيرة ، لقد كان الفضل لها فى أن أبدأ فى العلم حول الذكاء الذى يشع
من الطبيعة غير البشرية ، القدرة لشكل غريب فى أن يجد صداه لدى ، وإنارة ذلك
التأمل الذى يُشظى بعيداً الثواب المعتادة للرؤية والإحساس ، تاركاً المرء منفثاً على
عالم حى بأكمله ، يقظ ، وواع . لقد تعلمت حواسى من تلك الكائنات الضئيلة الحجم
العوالم اللامتناهية داخل عوالم أخرى تغزل نفسها فى أعماق هذا العالم الذى نعيش
فيه جميعاً ، ومنها تعلمت أيضاً أن جسدى يستطيع بالمران أن يدخل بحواسه فى تلك
الأبعاد ، لقد كانت دقة ومهارة وحرفية العنكبوت قادرة على تركيز وعيى الخاص بنسيج
شبكة العمل للكون ، والذى لحمى هو جزء منه ، وقد تم نسجه بالقدرة العالية نفسها
لذلك الفن ، لقد قمت بالتحدث بالفعل عن النمل ، وكائنات النار التى علمتنى حواسها
وحبها لأضواء الليل وسمائها عن هشاشة الجاذبية الأرضية . إن تلك الدورة من الحذر
الطويل الذى ندعوه بالملايا جاءت إلىّ أيضاً عبر الحشرات ، فى هذه الحالة كان
البعوض ، وعشت لمدة ثلاثة أسابيع فى رجفة الحمى ، والعرق ، والهلوسات البصرية .

كنتُ من النادر قبل ذلك أن أُنح اهتمامى للعالم الطبيعى ، غير أن فرصة تعرفى

على السحرة التقليديين والرأئيين كانت قد بدأت فى تحويل مسار حواسى ، لقد أصبحت أكثر قابلية لفهم خصوصية الأشياء غير البشرية ، فى مسار الجهد المبذول الذى كنت أصارع معه لفهم مفاتيح عالم السحرة ، وحركاتهم الغريبة ، أو مبهمات مرجعيتهم الدائمة فى الحديث عن القوى غير المرئية وغير المسموعة . بدأت أرى وأسمع بطريقة لم أعدها من قبل ، عندما كان ساحر يتحدث عن قوة أو «حضور» متواجد فى أحد زوايا البيت ، تعلمت أن ألاحظ شعاع الشمس الذى كان آنذاك يتدفق من خلال شرخ فى السقف ، مضيئاً عموداً من الغبار المتحرك ، وألاحظ أن ذلك العمود من النور كان قوياً بالفعل ، مؤثراً فى حركة الهواء بدفته ، ومؤثراً بالفعل فى المزاج الكامل للغرفة ، بالرغم من أننى لم ألاحظه بوعى فى السابق ، كان قد بدأ فى تشكيل تجربتى ، بدأت أذنانى فى الإصغاء وبطريقة جديدة لأغاني العصفير - لم تعد مجرد خلفية من الزقزقة للحديث البشرى ولكن حديثاً ذا فحوى بطريقته وحقوقه الخاصة ، مستجيباً ومعلقاً على أحداث تحيط بالأرض ، لقد تحولت إلى تلميذ للاختلافات الخافتة : الطريقة التى يهز بها النسيم ورقة شجر معينة لشجرة بأكملها ، تاركاً بقية الأوراق فى صمت دون حركة (ألم تكن تلك الورقة إذن قد مُسَّت بالسحر ؟) أو الطريقة المكثفة لحرارة الشمس للتعبير عن ذاتها فى الإيقاع الدقيق للجنادب ، سائراً فى الطرق الطينية الموحلة ، تعلمت أن أبطئ إيقاع خطواتى حتى أشعر بالفرق ما بين خطوة بقرب التل وأخرى ، أو لأتذوق خضرة حقل معين فى وقت محدد من النهار ، عندما - كما قد أخبرنى « الدوكان » المحليون - يكون للمكان قوة خاصة يمنح عبرها هدايا مميزة ، لقد كانت قوى تتواصل مع حواسى عبر طريقة الظلال التى تتساقط من الأشجار فى تلك الساعة ، وعبر الروائح التى تعبق بها أعالي الحشائش فى ذلك الوقت فقط دون أن تذورها الرياح بعيداً ، وعناصر أخرى أستطيع أن أعزلها فقط بعد أيام كثيرة من التوقف والإصغاء . وبالتدريج ، آنذاك ، بدأت حيوانات جديدة تدخل إلى مجال وعى فى تجوالى ، وكأن مستوى ونوعية ما من تحركى وإيقاعى أو تنفسى جردهم من خوفهم وتخفيهم ، كنت أجد نفسى وجهاً لوجه مع قروود ، وسحليات ضخمة لم تكن تفر بعيداً عني عندما أتحدث ، لكنها كانت تقترب نحوى فى فضول ما ، فى أرياف « جاوا » كنت غالباً ما ألاحظ قرووداً تصحبنى على الأغصان فوق رأسى وغرباناً تمشى نحوى على الطريق ، وهى تنعق ، فيما فى « بانجاندران » محمية طبيعية فى

الجزيرة فى الساحل الجنوبى « لجاوا » (« مكان لأرواح كثيرة ») ، كما قد قيل لى من قبل الصيادين هناك ، خرجت من كثيب أشجار ووجدت نفسى أنظر فى وجه أحد الجواميس النادرة والجميلة التى انقرضت من العالم وتوجد فى هذه الجزيرة فقط ، تشابكت نظرات عيوننا ، وعندما صاح ؛ صحتُ أنا أيضا ، وعندما حرك كتفيه حركت كتفى ، وعندما هززت رأسى ؛ هز هورأسه أيضاً مجيئاً إياى ، وجدت نفسى متلبساً فى حوار غير شفهى مع هذا الآخر ، رقصة مشتركة (دويتو) كان لوعىي اليقظ دور صغير فيها ، كان كما لو أن جسدى فى حركته ملهما فجأة بحكمة أقدم عن طريقة تفكيرى ، كما لو أنه كان ممسكاً به ومتحركاً بقوانين أعمق من الكلمات ، يتحدث بها الجسد الآخر ، والأشجار ، والأرض الصخرية التى كنا نقف عليها .

إن عجز الأنثروبولوجيين (أو علماء الإنسان) عن كشف حلف « الشامان » مع الطبيعة غير البشرية قد قاد إلى ظروف غريبة في « العالم المتطور » اليوم ، حيث الكثير من الأشخاص يتسابقون على ورش العمل المعنوية بالطرق « الشامانية » لتكشف الذات وتجلياتها ، علماء النفس التحليليون وبعض علماء الفيزياء بدأوا في التخصص في « تقنيات العلاج الشاماني » . « الشامانية » تحولت بذلك إلى أشكال بديلة للعلاج النفسي ، والتركيز عند هؤلاء الممارسين الجُدد للشامانية التجارية المنتشرة في الغرب هو على الرؤية الشخصية وعلاجها ، هذه هي أهداف سامية بالتأكيد غير أنها ثانوية وشكل منتزع من الدور الأساسي « للشامان » الأصلي ، إنه دور لا يمكن ملؤه دونما تكتشف طويل ومُستوعب للطبيعة الوحشية ، لطرقها ووسائل تعبيرها . إن تقليد طرق العلاج « للشامان » الأصلي دون اكتساب معرفته الحميمة لمجتمع الطبيعة الأكبر لا يمكن له - إذا كنتُ محقًا - أن يعمل أى شئ أكثر من التجارة ببعض المظاهر للآخرين ، أو يحول منطق عدم الاستسهال من مكانٍ لآخر في المجتمع البشرى ؛ لأن مصدر المعاناة يكمنُ في العلاقة ما بين المجتمع البشرى وأرضه الطبيعية .

إن المجتمع الصناعى الغربى - بالطبع - بقدراته الواسعة واقتصاده ذى المركزية الهائلة ، يمكن أن يرى صعوبة علاقته بأى أرض مميزة أو نظام بيئى ، إن إيكولوجيا ما هو أكثر من بشرى والذى ينشغل مباشرة بالفضاء الطبيعى نفسه هو المجال الحقيقى ، وللأسف فإن علاقة حضارتنا للفضاء الأرضى لا يمكن اعتبارها بأية طريقة كانت حضارة متلقية أو متوازنة مع الطبيعة : مع وجود آلاف الهكتارات من الغابات الطبيعية تتلاشى وتندم في كل ساعة ، ومئات من الكائنات المصاحبة لنا تتحول إلى كائنات منقرضة في كل شهر جديد كنتيجة لحضارتنا الحديثة ، فإننا يصعب أن نستغرب من كمية الأمراض الوبائية في حضارتنا : من فقد المناعة المرير والمتزايد إلى أمراض السرطان ، إلى الأمراض النفسية المنتشرة ، الاكتئاب والإحباط ، وتزايد نسبة الانتحار فيما بيننا ، إلى التزايد الفظيع لعدد جرائم القتل المنزلية والعائلية والجرائم الجماعية التى تُرتكب لسبب غير واضح لأشخاص يبدون طبيعيين .

من المنظور الحى فإن المصدر الأوضح لكل تلك المعاناة سواء الجسدية أو النفسية يكمن فى العنف المصمّم دون حاجة إليه والذي هو فى صميم حضارتنا ضد الإيكولوجى لهذا الكوكب الأرضى ، إننا عبر تخفيف معاناته فقط نستطيع أن نخفف من معاناتنا ونشفى منها ، وفيما قد يبدو هذا مثل جملة بسيطة للإيمان فإنه يصنع منطقاً حصيناً وواضحاً كلما سارعنا فى الاعتراف باعتمادنا الشديد على كائنات أخرى لا تحصى كنا قد نشأنا وتطورنا معها كبشر ومخلوقات ، واقعين فى مصيدة المفاهيم فإن وعينا منوم مغناطيسياً بضيوفنا من التكنولوجيا التى قد صنعها الإنسان والتى تعكس لنا فقط أنفسنا ، إنه من السهل علينا جداً أن ننسى ميراثنا الحى فى العالم الذى هو أكثر من البشرى بحواسه وقدراته وتوازنه معنا ، إن أجسادنا قد شكلت نفسها فى توازن رهيف مع الكائنات والأشياء الأخرى ، الملمس ، والأصوات ، وأشكال الكون الحى ، إن عيوننا قد تطورت فى تقاطع خافت مع العيون الأخرى ، كما هى أذاننا التى أصغت بتركيبها الخاص إلى عواء الذئاب وصوت الأوز ، أن نُفلق أنفسنا عن هذه الأصوات ، هو أن نتابع بطريقة حيوانتنا ، أن نلعن هذه القدرات الحية الأخرى إلى قضاء الغناء ، هو أن نجرد أنفسنا وحواسنا من كرامتها ، وأن نسرق من عقولنا سلامها ، إننا بشر فقط عبر التواصل ، والعلاقة المتوازنة مع ذلك الذى هو غير بشرى .

بالرغم من أن جزر إندونيسيا موطن أنواع مدهشة وكثيرة من الطيور إلا أنني حينما كنت أدرس ما بين أناس « شيربا » فى أعلى الهملايا كانت تلك هى المرة الأولى التى تم تقديمى فيها فى الحقيقة إلى عالم الطيور والطيوان .

إن الهملايا جبال شابة ، ذروتها لم تستدر بعد بفعل عمل الريح والثلج الدائم والدؤوب ، وهكذا فإن البعد الأساسى للأراضى الواضحة عمودى بشكل مذهل ، وحتى فى الحواف العالية من الجبال من النادر أن يحصل المرء على مشهد للأفق البعيد ، وبدلاً من ذلك فإن رؤية المرء ترتفع إلى الأعلى للواجهة المقابلة للجبل المجاور . إن الأرض بكاملها تتجه نحو السماء بطريقة ما تزال مشهودة فى خطوط وتعاريج جدران الجبال ، وهذه التركيبية العتيقة تتواصل جاهزة مع الجسد الحساس .

فى عالم مثل هذا فإن أولئك الذين يجولون ويخلقون فى السماء هم القوى الرئيسية ، إنهم وحدهم يحومون بيسر فى مثل ذلك الفضاء ، ويهبطون برشاقة وحدة ليلامسوا أرض الوادى ، أو يتماوجون فى ذرى الجبال فى موجات واضحة ، إن المجنحين وحدهم يحملون معهم العلم المباشر لما يتبين فى الجانب البعيد لحواف الجبال الأخرى ، وهكذا فإنه عبر مراقبتهم فقط يستطيع المرء أن يعرف عن التحولات الطقسية والمناخية فى المنطقة ، بالإضافة إلى التحولات الخافتة فى حركة كثافة الهواء وموجاته فى الوادى الذى يعيش فيه المرء . إن عدداً من « الشامان » الذين التقيتهم فى « النيبال » كان لديهم طيور لها صفة الأقارب بالنسبة إليهم ، إن الغربان هى الفئة التى تعلق باستمرار على شؤن القرية ، الطيور الأصغر تقوم بأداء حركات رياضية فنية بشكل جماعى فوق أسقف القرية ، تتراقص وتهتز بعاطفة كاملة فى الحركة ، ويبدو كل السرب مثل عَلمٍ سحرى يطفو ويتراقص فى موجات الهواء فوق القرية ، ثم يهبط على كتيف لتحمله الريح بعد قليل وهو يتراقص ويملاً الدنيا بأصواته .

لمدة ما كنت أزور « دزانكرى » من ناس « الشيربا » كان منزله الصخرى مبنياً فى أحد منحدرات الجبل الجانبية لمنطقة « خومبو » فى « النيبال » ، فى أحد زهاتنا على الأقدام بقرب منحدر ضيق يتبع الريح حول الجبل ، أشار الـ « دزانكرى » لى إلى

جرف يمتد من المنحدر ، حيث كان قد « رقص » عليه هناك من قبل محاولاً العثور على
علاجات صعبة بشكل خاص ، تذكرت الجرف بعد أيام عديدة تلت ذلك عندما كنت أعبر
لأهبط إلى بيت « الدزانكرى » من الحقول الجبلية العليا ، وصعدت إلى الصخرة لا
لأرقص بل لأتأمل الأبيض الشاحب والخطوط الحمراء التي منحت الحياة لسطح
الصخرة ، ولكى أرتاح عبر الوادئ الجاف . كان هناك اثنان من النسور الجارحة
يطوفان ما بين الذرى اللامعة بالثلج الذى يغطيها ، لقد كان يوماً يرن بالأزرق
الهملائى ، واضحاً مثل الجرس ، بعد دقائق قليلة أخذت عملة فضية من جيبى وبدأت
بلا هدف ألعب لعبة سحرية يدوية ، محرّكاً العملة فوق مفاصل يدي اليمنى ، كنت
معتاداً هذه التمارين المألوفة كشئ موازن لصلوات المسابح التى تمر بين أيادي
شيوخ « الشيربا » ، وهو طقس مصحوب عادة بدعوات وابتهالات مكررة : يكون
التسبيح هكذا « أوم ما فى بأدام هم » (أو يا أيتها الجوهرة فى اللوتس) غير أنه لم
يكن هناك من تسابيح تصحب تحريكى للعملة ، بخلاف تنفسي الهادئ وأشعة
الشمس «المرغلة» للعيون ، لاحظت أن أحد النسور فى البعيد ابتعد عن صاحبه وكان
الآن يحلق فوق الوادئ مشرعاً أجنحته ، فيما كنت أراقبه وهو يبدو أضخم وأضخم ،
لاحظت ببعض السرور أنه كان يتجه صوب اتجاهى العام ، توقفت عن التلاعب
بالعملة وحملتُ فيه ، غير أنه فى تلك اللحظة أوقف النسور الجارح تحليقه بلا حراك
لدقيقة فوق الذرى ، ثم غير اتجاهه والتف ليعود إلى صاحبه فى البعيد ، وإذ خاب
أملى أخذت العملة وعدت ألعب بها فوق مفاصل يدي من جديد ، كان وجهها الفضى
يلتقط أشعة الشمس وهو يلتف ، عاكساً الأشعة إلى السماء ، ومباشرة ، خرج النسور
الجارح من مساره وبدأ يحلق عائداً مرة أخرى . راقبت شكله يزداد ضخامة ، وفيما
تبين لى الحجم الضخم للنسر أحسست بجلدى يقشعر ويستعد للحياة ، مثل فصيل من
النحل كله فى حركة واحدة ، وصوت يعلو عالياً فى أذنى ، استمرت العملة فى الدوران
على مفاصل يدي وبين أصابعى ، وبدأ المخلوق الطائر أضخم ، ويزداد فى ضخامته
وهو يدنو منى ، حتى - فجأة - كان هناك ظل أسود مهول يحلق فوق رأسى تماماً ،
أجنحة هائلة من الريش تتحرك وهى تسيطر على حركة الهواء ، تجمدت أصابعى ،

وشلت عن الحراك ، وسقطت العملة من يدي ، وأحسست أنذاك بأننى عارٍ ومجرد من ملابسى عبر تلك النظرة الغريبة والرهيبية التى بدت أكثر خلوداً ودقة عن نظرتى ، لا أعرف كم طال بى الوقت وأنا جامد مكانى وسيطر على كالنوم مغناطيسياً . فقط أحسست بالهواء يعبر على ركب عارية وسمعت الريح تهمس عبر ريشى بعد أن غادرنى ذلك الزائر بمدة طويلة .

عدتُ إلى أمريكا الشمالية والتى يتعرض نوعها الأصلى الوحيد من النسور الجارحة للانقراض ، فى الأغلب كنتيجة للتسمم بمادة الرصاص فى الجيف التى تستهلكها ، غير أننى لم أفكر بذلك ، كنت متحمساً لتلك الحواس التى تحركت بداخلى ، وعن الجديد بذلك الذى هو أكثر من بشرى فى العالم ، وبالقدر الباطنية العظيمة للأرض ، وبالتحديد لذلك الذكاء المميز للحيوانات الأخرى الكبيرة والصغيرة ، والتى حيواتها وثقافتها لها تفسيراتها الخاصة . لقد أفزعت الجيران بتحدثى مع السناجب الذين كانوا يتسلقون بنعومة جذوع أشجارهم ليرقبونى ويبادلونى الحوار ، أو بالتحديق لساعات طويلة فى طائر اللقلق وهو يصطاد السمك عند نهر قريب ، أو فى نورس يفتح المحار عبر إسقاطه من العلياء على الصخور بجانب الشاطئ .

ومع ذلك فإنه بالتدريج بدأت أفقد حاستى بوعى الحيوانات ، إن تقنية النورس لفتح المحارة بدأت تبدو لى مثل سلوك آلى فى معظمه ، ولم أستطع أن أشعر بيسر بذلك الانتباه الذى يجلبونه لكل محارة جديدة ، ربما كانت كل محارة مختلفة تماماً شبيهة بالأخرى ولم يكن هناك من أهمية تلقائية لذلك الانتباه

وجدت نفسى الآن أرقب اللقلق خارج عالمه ، ملاحظاً باهتمام خطواته الحذرة ومنقاره الذى يغطس فجأة فى المياه ، غير أننى لم أعد أشعر بذلك الانتباه الحاد والممتع فى عضلاتى الخاصة ، وللغرابية لم تعد سناجب الضواحي تستجيب لدعواتى لها ، وبالرغم من أننى تمنيت أن يحدث ذلك ، لم أعد أستطيع أن أركز وعيى على التفاعل مع عوالمهم كما كنت أفعل ذلك بسهولة منذ أسابيع مضت ، لأن اهتمامى كان سرعان ما يخفت ويتشتت عبر حوار داخلى ، شفهى من نوع أو آخر ، عبر محادثة بدأت الآن أنشغلُ بها فى داخل نفسى تماماً . لم يكن للسناجب نصيب من تلك المحادثة .

لقد بدا يزداد وضوحاً - من الكتب والمقولات والحوارات مع أشخاص مختلفين - أن بقية الحيوانات ليست بتلك اليقظة أو الوعي الذى افترضته ، وأنها كانت تفتقد للغة حقيقية وبذلك إمكانية التفكير ، وأنه حتى ما يبدو من استجابات عفوية لها للعالم من حولها كان سلوكاً « مُبرمجاً » ، « مصمماً » فى المادة الجينية لها والتي يرسم لها علماء الأحياء الخرائط الآن . وبالفعل وكما ازداد حديثى حول الحيوانات الأخرى قلت الإمكانية فى تحدثى معهم ، وبالتدريج توصلت إلى أنه لامجال للمقارنة ما بين الذكاء البشرى غير المحدود والإمكانات الضئيلة للكائنات الأخرى ، وأنه ليس هناك من طريقة تواصل نستطيع أن نتواصل نحن من خلالها معهم لتفاهم كما ينبغي .

وفيما كانت الأرضية الطبيعية الساحرة والمُعبرة تتلاشى أمام اهتماماتى الأخرى البشرية بشكل استثنائى ، مهددة المعرفة القديمة التى توصلت إليها بأن تتحول إلى مجرد وهم أو خيال فانتازى بدأت أشعر - وخصوصاً فى صدرى ومعدتى - وكأنما أنا عرضة لأن أقطع عن مصادر حيوية لإنعاشى وتغذيتى . كنت قد أعدت تأقلمى مع ثقافتى الغربية ، وتحولت إلى وضع أكثر تعايشاً مع أساليب الحياة والتعامل والتعايش فيها ، ومع ذلك بدت حواسى الجسدية تفتقد إلى حدتها ، وأقل يقظة تجاه التغيرات الخافتة وتبدل الأشكال . إن صوت الجنادب وحتى زقزقة العصافير السوداء المحلية تلاشت بالفعل من وعيى بعد دقائق قليلة ، وكان عبر الجهد وبذل السعى الخاص فقط كى أخضع وعيى ليعود إلى حقل التلقى والتأمل ، إن طيران عصافير السنونو ومخلوقات النار لم يعد نقطة تركيزى لفترة طويلة ، إذا كانوا بالفعل يسترعون منى أى انتباه ، لم تعد بشرتى تسجل التحولات المختلفة فى النسيم ، والروائح بدأت تتلاشى من العالم بالكلية « تقريباً » وكان أنفى يتيقظ مرة أو مرتين تقريباً فى اليوم ، ربما أثناء الطبخ ، أو عندما أخذ القمامة إلى الخارج .

فى « النيبال » كان الهواء يبدو عابقاً بالروائح - سواء فى المدن ، حيث تختلط رائحة البخور مع ما يفوح من روائح شواء اللحوم والكعك المعسل والفواكه المعروضة فى الأسواق المفتوحة ، وروائح بقايا المواد العضوية واللحوم المتروكة للغربان ، وأحياناً روائح جثثٍ لموتى يتم حرقها وذرها بقرب النهر ، أو على ذرى الجبال العالية ، حيث

تأخذها الرياح مع روائح الورود البرية التي لا تُحصى ، ورائحة الأرض الجديدة التي تُقَلَّبُ في القرى لموسم الزراعة الجديد حيث روائح الروث وأشكاله التي يتم تجفيفها على شكل أقراص دائرية في أفنية المنازل ؛ لاستخدامها عندما تجف كوقود لئلا المنازل ، حيث الدخان من تلك البيوت الكثيرة ونيرانها كان يعلق برائحته دائما في الهواء بالخارج ، والأصوات كذلك أيضاً : الإنشاد الدينى للربان مختلطاً بأجراس الصلوات التي كانت تُقرَعُ في المرتفعات القريبة والبعيدة ، مصحوبة بنعيق الغربان ، وتنهيدات الرياح التي تهب على الممرات ، وخفق أجنحة النسور ، مع خرير الأنهار في الوادئ .

هناك كان الهواء كثيفاً وغنياً في ملمس حضوره ، عابقاً باللامرئى الذى يمكن استشفافه والإصغاء إليه ومراقبة تأثيراته على الكائنات . فى الولايات الأمريكية المتحدة ، فى الجانب الآخر ، كان الهواء يبدو شاحباً وفارغاً من الشخصية والتأثير ، إنه لم يكن هنا أداة تواصل حسية – ذلك الشعور بالامتزاج ما بين أنفاسنا وأنفاس الكائنات الأخرى من الحيوانات والنباتات والتربة – لكنه كان مجرد غياب ، وبالفعل فإنه غالباً ما يشار إليه فى الحياة اليومية كمجرد فراغ أو مكان فارغ . وهكذا فى أمريكا وجدت نفسى أتجول ملتصقاً بروائح نيران الخشب الموقدة أو حتى المزابل حيث أكوام النفائات – وما أشد ما أثار ذلك أصدقائى ضدى – لمجرد أن أكون قريباً من روائح كثيفة ومركزة تخدمنى لأتذكر ويتذكر جسدى حواسه الحية فى ذلك العالم الذى كان يغمرنى ، ومع هذه التجربة للكينونة فى عالم من المؤثرات جاءت إلى ذاكرة عامرة لجسدى عن ذلك العام الذى قضيته بين « الشامانيين » وأهل القرى فى الريف الآسيوى .

لقد بدأت فى إيجاد طرقٍ أخرى ، أيضاً ، للطرق على الحواس المختلفة وتصعيدها فى التلقى فى المكان الذى نشأتُ أُلْفَتى معه فى « العالم غير المتطور » ، عبر الحياة لمدةٍ طويلة فى محميات الهنود الحمر الأصليين فى الصحراء الجنوبية الغربية على سواحل الشمال الغربى ، أو عبر نصب خيمتى لمدة أسابيع فى غابات و بر أمريكا الشمالية ، فى غضون ذلك الوقت بدأت فى التساؤل حول فرضيات حضارتى وثقافتى

الغربية فيما يتعلق بالمقولات الخاصة بافتقاد الوعي فى الحيوانات الأخرى وفى الأرض نفسها ، والذي كان نتيجة لصالّة المنطق المعنى والأحكام المسبقة أكثر منه عجزاً غريباً عن تلقى رؤية كينونة الحيوانات الأخرى - لقد كان عجزاً حقيقياً عن الإبصار الواضح أو التركيز على أى شىء آخر خارج عالم التكنولوجيا التى صنعها الإنسان ، أو الإصغاء بشكل له معنى إلى أى شىء آخر سوى الكلام البشرى . إن النتيجة المحزنة والمؤسفة لتعاملنا مع بقية الطبيعة كان يتم نقله فى كل صحيفة - من موات الأرض الخصبة بسبب تقنيات الزراعة الصناعية إلى تسمم المياه الجوفية بسبب النفايات الصناعية ، من التدمير السريع للغابات القديمة إلى ما هو أسوأ من كل شىء ، الفناء والانقراض المتنامى لكائنات حية تعيش معنا فى هذا الوجود - وهذه الأحداث المؤلة والمزعجة والكبيرة - كلها يمكن إرجاعها إلى النشاط المستمر لبنى جنسنا من البشر « المتحضرين » - أوحى بالفعل بإمكانية وجود مشكلة فى التبصر والتلقى والفهم فى حضارتنا العصرية المتقدمة ، بين بشرية « متحضرة » لاتستطيع ببساطة أن تعى الطبيعة المحيطة بها بشكل واضح ، إذا كنا نحاول أن نفهم على الإطلاق .

إن الخبرات التى لفتت انتباه تركيزى فى الريف الإندونيسى وفى « النيبال » قد أرتنى أن الطبيعة غير البشرية يمكن أن تُفهم وتُستوعب وتُخبر بعاطفة وانفعال أعمق مما نعترف فى الغرب ، ما الذى كان يجعله ممكناً ارتفاع تلك الحساسية لما هو أكثر من بشرى كواقع ، ربما كان الإصغاء والانتباه العميق للكائنات الأخرى وللأرض والذي يتضح فى الكثير من الثقافات والحضارات الأخرى ، وذلك قد يبدل درجة وعيى حتى صارت حواسى الآن مختنقة وجائعة إلى درجة الحرمان فى حضارتى الغربية ؟ أو ربما ، بقلب السؤال ، ما الذى جعله ممكناً ذلك الغياب أو التغييب لهذا النوع من الإصغاء والوعي فى الحضارة الغربية الحديثة ؟ ذلك أن للحضارة الغربية أيضاً أصولها البدائية وثقافتها الأصلية عبر جذورها القديمة . إذا كان الوعي النسبى والتعايش مع البيئة الطبيعية الواضح فى الثقافات الأصلية مرتبطاً إلى شكل أكثر بالمزاج التعايشى المشارك فى طريقة وعيه بالآخر والطبيعة ، فكيف استطاعت الحضارة الغربية أن تصل إلى أن تكون خاوية إلى هذه الدرجة من الوعي واليقظة الحسية ؟ أى كيف وصلنا إلى هذه الدرجة من الصمم والعمى إلى الوجود الحيوى

للكائنات الأخرى والأرض الحميمة التي نحيا فيها ونستوطنها ، والتي نقوم الآن بشكلٍ مستهتر بجلب الدمار والخراب إليها ؟

إن من المؤكد أن لامبالتنا وجهلنا التام بالطبيعة غير البشرية اليوم مرتبط في المكان بطرق الكلام والحديث ، والتي ببساطة ترفض الاعتراف بفضيلة الذكاء لدى الكائنات الأخرى والطبيعة بشكل عام ، بالإضافة إلى أنه عبر التشكل الرئيسي لوجودنا « المتحضر » وعبر دخان السيارات الذي يُجْرسُ أصوات العصفير والرياح ، والإضاءة الكهربائية التي تخسف لا بضوء النجوم فقط بل بالليل نفسه ، وبأجهزة « التكييف الهوائية » التي تخبيء الفصول ، وبالمكاتب ، والسيارات ، والمراكز التجارية التي تلغى في النهاية أى حاجة للمشي خارجاً تماماً من العالم البشرى الخالص على الإطلاق ، إننا وبوعى نواجه الطبيعة غير البشرية فقط عبر ختائننا لها بوسائلنا الحضارية وآلاتها التكنولوجية : عبر حيواناتنا المنزلية الأليفة ، أو على شاشة التليفزيون ، أو فى حديقة الحيوانات (أو فى أفضل الأحوال فى « محميات طبيعية » مسيطر عليها بشكل حذر) إن النباتات والحيوانات التي نستهلكها لا نحصل عليها لا بالجمع ولا بالقنص إنها تُربى وتُحصَد فى حقول ضخمة بأدوات وآلات ميكانيكية ، « الطبيعة » كما قد يبدو تحولت ببساطة إلى قطيع من « المصادر » للحضارة البشرية ، وهكذا فإنه من الصعب أن نتفاجأ بأن عيوننا « المتحضرة » وأذاننا تبدو جاهلة تماماً بوجود أبعاد غير بشرية على الإطلاق ، أو أن شخصاً سواء كان يدخل إلى أو يعود إلى الغرب من ثقافة أو حضارة غير صناعية سوف يشعر بالذهول والصدمة والتشوش والحيرة بكل ذلك المحسوس به من غياب القوى غير البشرية .

ومع ذلك فإن التسليع الحالى « للطبيعة » عبر الحضارة الغربية الحديثة يخبرنا بالقليل أو المهدوم عن نقله التلقى والوعى الذى جعله ممكناً ذلك التقليل للحيوانات (والأرض) إلى مجرد شئ ، قليلاً عن العملية التي احتقرت فيها حواسنا فى البداية كل ذلك الآخر ، والرؤية والتي لمدى طويلة حركت نوازعنا نحو الطقوس الأكثر قداسة : رقصاتنا ، وصلواتنا .

لكن هل يمكن لنا حتى أن نأمل بالقبض على مجرد شذرات من تلك العملية التي منحت بزوغاً للكثير من العادات والتعصب اللغوى ، والذي يشكل الآن طريقة تفكيرنا

بالتحديد ؟ بالتأكيد إذا ما حددنا نحو ذلك الأصل والذي من وسطه من منتصف تلك الحضارة بالتحديد التي هددها ، ولكن ربما قد نستطيع صنع موقفنا على أطراف تلك الحضارة ، مثل ساحر ، أو مثل شخص كان قد عاش بين قبيلة أخرى ، ولا يستطيع بعد أن يعود كاملاً إلى نفسه أو حضارته ، إنه معلق ، نصفه فى الداخل ونصفه خارج مجتمعه ، ومنفتح أيضاً عندئذٍ على الأصوات المتحركة والأشكال غير المحددة التي تزحف وتحلق أبعد من مزايا الجدران فى المدينة ، وحتى هناك متحركاً بين تلك الجدران ، لعله مازال يتمنى أن يجد المفاتيح المحددة للغموض الذى يكتنف نشأة هذه الجدران ، وكيف أن حدوداً بسيطة قد تحولت إلى حواجز ، فقط لو كانت اللحظة مؤقتة ، فقط لو كان الحيز الذى يداخله مؤقتاً وعلى حافة الفضاء ، وذلك الأساس الذى يؤثره على وشك التفكك والزوال ، أو التحول إلى شيء آخر .

(٢)

الفلسفة فى الطريق إلى الإيكولوجى

مدخل تقنى إلى البحث

الجزء الأول

إدموند هسيرل وعلم الظواهر

إنه من الطبيعى أن نلتفت إلى تقاليد علم الظواهر لى نفهم الاختلاف الغريب بين العالم المُجرب ، أو العوالم الخاصة بالشعوب الأصلية والثقافات المتنوعة وعالم أوروبا الحديثة وحضارة أمريكا الشمالية ، ذلك أن علم الظواهر هو التقليد الغربى الفلسفى الذى يمتلك الدعوة الأقوى للتساؤل حول الافتراض العصرى المبني على فرضية مُصممة بشكل كلى وعلى فكرة الحقيقة الموضوعية .

إن هذه الفرضية تضرب بجنورها إلى رينيه ديكارت ، وفصله المعروف للتفكير العقلى ، أو الخاص ، من الوجود المادى للأشياء ، أو العالم الموضوعى ، وفى الحقيقة كان جاليلو قد قام بالتأكيد بالفعل بأن تلك الصفات الخاصة بالمادة فقط هى القابلة للقياس المباشر رياضياً (مثل الحجم ، والشكل ، والوزن) وهى الوحيدة التى تأخذ صفة «الحقيقية» ، أما الأمور الأخرى فهى « خاصة » فى ميزاتها مثل الصوت ، والطعم واللون وهى مجرد انطباعات وهمية ، بما أن « كتاب الطبيعة » مكتوب باللغة الرياضية وحدها .

وبكلماته يقول :

« إن كتاب الكون العظيم هذا .. مكتوب باللغة الرياضية ، وإن صفاته هي من المثلاث ، والدوائر ، والأشكال الهندسية الأخرى والتي بدونها يكون من المستحيل بشرياً فهم كلمة واحدة منها ، من غير ذلك سوف يتوه المرء فى متاهة مظلمة . »

ومع ذلك فإنه بعد نشر كتاب ديكارت فقط « التأملات » فى عام ١٦٤١ ، تحول الكلام الشائع عن الحقيقة المادية كحيز ميكانيكى جامد ، وكتشكيل حتمى لايمكن فك شفرة قوانينه إلا عبر التحليل الرياضى الصرف ، وبالتأكيد على فرضيات الحقيقة المادية للتجربة الخاصة فإن جاليلو قام بتمهيد الأرضية كى يضع ديكارت أسسه لبنائية الموضوعى أو العلوم « غير المعنية » ، والتي عبر بحوثها المحمومة والمسيطره دعت إلى الكثير من المعرفة وأسست لتقنيات حديثة صارت اليوم هى الشئ المعهود فى الغرب . إن الجداول الكيميائية للعناصر ، والسيارات ، والتلقيحات المضادة لمرض الجدري ، والخيالات « المنغلقة » عن الكواكب الأخرى - بدرجة كبيرة أوصلتنا إلى فرضيات نعتمد عليها قد نشأت من التجريبية الجريئة فى العالم عبر العلوم الموضوعية .

وبالرغم من ذلك فإن هذه العلوم تتجاهل باستمرار تجربتنا العادية واليومية مع العالم من حولنا ، إن تجربتنا المباشرة خاصة بالضرورة ومتعلقة بالضرورة بموضعنا أو مكاننا وسط الأشياء ، ومتعلقة برغباتنا المحددة ، وأذواقنا ، واهتماماتنا . إن العالم اليومى والذى نجوع فيه ونمارس الحب يصعب أن يكون هو نفسه « الموضوعى » المحدد حتمياً بعلم الرياضيات « ومادة » العلوم التى تركز له نفسها ، فبالرغم من كل تلك الحقائق الميكانيكية التى تحيط بنا الآن فإن العالم الذى نجد فيه أنفسنا قبل أن نبدأ بإحصاء وقياس دنياه هو ليس مادة ميكانيكية ولكنه حقل حى ، مفتوح ، وديناميكي حيوى فى أرضيته وعرضه لمزاجياته وروحانياته الخاصة .

إن حياتى وحياة العالم مشتبكتان بعمق ، عندما أستيقظ فى الصباح لأجد أن مرض أسبوع بكامله قد خف ، ولأجد أن طاقتى وصحتى قد عادت إلى ، فإن العالم حين أخرج إليه يشرق ويضىء بالطاقة والنشاط والحيوية : إن عصافير السنونو تطير وتحلق بمرح ، أمواج من الحرارة تتصاعد من الشوارع المرصوفة حديثاً وهى تعبق

برائحة الإسفلت ، ومخزن الغلال الأحمر القديم عبر الحقل يقف بجمال نحو السماء بزوايته الحادة . وكذلك بالمثل عندما تهبط النظرة إلى الوادى الذى أعيش فيه فإنها تهبط إلى وعيى أيضاً ، داخلة إلى أفكارى ، وداعية عضلاتى إلى النوم ، إن العالم وأنا نعتاش من بعضنا البعض ، إن الأرض الطبيعية كما قد جربت مباشرة من الصعب أن تكون شيئاً حتمياً ، إنه وجود ملتبس يستجيب إلى عواطفى ويستدعى إليه عواطفاً منى بالمقابل ، وحتى أكثر العلماء بروداً وانفصلاً عن العواطف يبدأ ويُنهى دراسته فى هذا الحقل غير المصمم حتمياً فى التجربة ، حيث التحولات فى الطقس أو المزاج يمكن أن تنبه تجربته أو تفسيره للمعلومات أو « الحقائق » : إن العالم ، أيضاً ، يتوجب عليه أن يأخذ عطلة فى وقته من قياساته وتحليلاته ليأكل ، أو يستريح ، أو يتحدث مع أصدقائه ، وأن يتفاعل مباشرة مع عالم مألوف لا يمكن قياسه خارجياً بالحسابات والتعاريف . وبالفعل فإنه من خلال تجربته بدقة فى هذا العالم الذى يسبق المفاهيم والملتبس يجذب الفرد فى البداية إلى أن يصبح عالم ، أن يصبح لديه طرق الكلام والرؤية المعترف بها والمكرسة فى المجتمع العلمى ، وأن يتخذ ذلك الموقف الموضوعى أو غير المعنى شخصياً تجاه بعض الظواهر فى الأحداث الطبيعية ، إن العالم لا يختار عشوائياً مجالاً محدداً أو تخصصاً ، لكنه ينشد وينجذب إلى حقل معين عبر تجارب وخبرات مركبة وخاصة ، والتي تتجلى وتتضح بعيداً جداً عن المختبرات العلمية وأجوائها الجافة ، والأكثر من ذلك فإن العالم لا ينجح أبداً بشكل كامل فى أن يصنع من نفسه مراقباً محايداً وخالصاً للعالم ، ذلك أنه لا يستطيع التوقف عن العيش فى العالم كإنسان ، بشر ما بين بقية البشر ، أو مخلوق كائن ما بين الكائنات الأخرى ، وإن مفاهيمه العلمية ونظرياته تستلغ بالضرورة جوانب من شخصيتها وكثافتها من التجربة الحية ، التلقائية ، وغير المصممة نظرياً .

وبالفعل فإن تلك النتائج « الخالية من القيم » فى بحوث حضارتنا فى مجالات علم الأحياء ، والفيزياء ، والكيمياء تصل بالضرورة فى النهاية إلى عرض نفسها فى المجال المفتوح وغير المؤكد للحياة اليومية ، سواء كانت معززة فى السياسات الاجتماعية التى علينا أن نقبلها ، أو معززة فى التقنيات والتكنولوجيا الجديدة والتى تضطر جميعاً إلى استيعابها واستخدامها ، ومن ثم فإن العالم الحى - هذا الوجود الملتبس الذى نشعر

به فى الغضب والفرح ، فى الحزن والحب - هو مزيج يشمل كلاً من التربة التى تتجذر فيها كل علومنا وذلك الخصب الغنى الذى تعود فيه نتائج كل تلك العلوم بالضرورة مشحونة بالخاص ، العاطفى ، والمضمون الحُسى ، وتبقى الأرضية الحيوية والمُظلمة لكل موضوعيتنا المُدعاة .

ومع ذلك فإن هذه الأرضية تغيب غالباً عن الانتباه والاعتراف بها فى الثقافة العلمية فى مجتمع يضع الأولوية لذلك المتوقع وموقع الجدارة على التاكدية ، فإن تلقائيتنا وتجربتنا غير المطروحة كمفاهيم عندما يتم الاعتراف بها ، إذا تم ذلك على وجه الإطلاق فإنه يشار إليها على أنها « مجرد حالة شخصية أو خاصة » كنقيض الحالة العلمية أو الموضوعية ، إذ ذلك الوجود المتدفق للخبرة المباشرة أصبح يُنظرُ إليه كبُعد ثانوى ، وهامشى وفرعى ، ومجرد توابع لأحداثٍ لم تتضح بعد فى العالم « الأكثر حقيقة وعلمية » من العوالم الحسابية والقياسية المدعوة علمياً « بالوقائع » . إنه تفسير غريب للحالة العامة الفعلية والواضحة فى الحياة ، إن حيز الذرات صار أساسياً أكثر و « حقيقياً » أكثر من العالم الذى نحيا فيه ونحسه بحواسنا المجردة ، إن الأعضاء الحية ، والحساسة ، والمفكرة يتم الافتراض بأنها تتفرع بطريقة ما من الجسد الميكانيكى والذى يتم قياس ردود فعله « ونظامه » ورسم خرائط لذلك بحيث يتحول الشخص الحى الآن إلى مجرد جثة قابلة للاختزال عبر علوم الذرات والبايولوجى ، بمعنى أنه يأخذ المواد الحية التى تحس وتشعر بكاملها مع عواطفها وأحاسيسها الجياشة لتكون ضمن حقل علوم الذرة البشرية ، أو لتشرح أجسادها وخلاياها مما يتجاهل بشكل جاهز كينونتها خارج ذلك الإطار .

وعلى كلٍ إن غموض التجربة صار بالفعل جزءاً من أية ظاهرة تجتذب انتباهنا ، ذلك أن كل ما نستوعبه لا بد أن يكون ممتزجاً مع رؤيتنا الشخصية الخاصة ، والتى هى بالفعل مختلفة مع حيوية الحياة عموماً وحالتها ، إن النبض الحى للتجربة الشخصية لا يمكن فى نهاية الأمر أن يُجرد من الأشياء التى ندرسها (لكى تكشف الحقائق الخالصة وغير الملوثة) دونما أن تفقد الأشياء نفسها كافة وجودها بالنسبة إلينا . إن مثل هذا المجال من الوعى والفهم غالباً ما يترك فى تخصصه لعلم النفس ، ذلك العلم الذى يدرس الوعى الشخصى والتلقى ، وهكذا فإننا ربما بالالتفات إلى علم

النفس نستطيع أن نتوقع أن نجد اعترافاً بذلك البُعد الذى يسبق الموضوعى والذى يمنح التماسك لجميع الحقائق التى نعرفها ، وبالتالي الفهم للطريقة التى تمنح فيها التجربة الشخصية السند وكذلك تضع الحدود فيها للعلوم الإيجابية .

فى علم النفس - على كُلِّ - لا نكتشف أى شىء من هذا الأمر وبدلاً من ذلك نجد اجتهداً ومجالاً هو نفسه تم إخضاعه لإيجابية ومستويات العلوم « الصعبة » ، إن علم النفس ذاته قد تحول إلى علم « موضوعى » للأشياء التى يمكن دراستها وفحصها كإحدى شىء آخر فى العالم الموضوعى الجاهز . إن معظم العالم المعرفى يطمح إلى أن يكون نموذجاً هو النموذج المجرب عبر جهاز الكمبيوتر بما فيها تلك العلوم التى تُعنى بالحالة العقلية والتجارب الإنسانية ، وفيما كان بالنسبة لكل من جاليليو وديكارت ميزات التلقى مثل اللون والطعم مجرد خيال وهمى ، وخصائص غير حقيقية بسبب غموض وعدم وضوح مواصفات ذلك ، فإن الفرضيات الرياضية قد تم استحداثها من أجل دراسة مثل هذه الخصائص أيضاً ، وبعبارة أخرى إن تلك الميزات قد أصبحت الآن قيد الدراسة لمجرد أن يتم تحويلها علمياً إلى كميات وتحليلات ، وهنا مثل أى مكان آخر فإن العالم اليومى - ذلك العالم الخاص بخبراتنا المباشرة والتلقائية - مازال يُفترض أنه متفرع من بُعد موضوعى وغير شخصى ومن « حقائق » خالصة نستطيع أن نلمحها عبر الأجهزة والمعادلات .

لقد كان نتيجة لتأزمه مع مثل تلك الفرضيات ، ومع بدايات علم النفس - والتى هى أبعد من تركيز الانتباه على الحيز المتدفق للتجربة والخبرة المباشرة ، والذى كان فى بداياته مع أوائل القرن العشرين مُبَسَّساً العقل ومحولاً إياه إلى « موضوع » و« شىء » آخر فى الكون الرياضى والميكانيكى - أن يبدأ إدموند هسيرل فى إنشاء المجال الفلسفى فى علم الظواهرية . الظواهرية كما قد عبر عنها فى بدايات القرن العشرين سوف تتحول فى اهتماماتها إلى « الأشياء فى حد ذاتها » ، إلى العالم كما يتم الإحساس به واختباره فى الشعور المباشر ، وعلى خلاف العلوم القائمة على الرياضيات ، فإن علم الظواهرية سوف يسعى لا لشرح وتفسير العالم ، ولكن للوصف بقدر الإمكان للطريقة التى يجعل بها العالم نفسه جلياً للوعى ، الطريقة التى تبزغ فيها الأشياء لوعينا للوهلة الأولى ، الوعى المباشر والجسِّى المجرب ، وهكذا بالعودة إلى

حيث الوجود - المفترض سلفاً - للخبرة الخاصة ، لا من أجل تفسيره ولكن ببساطة للتنبيه إلى إيقاعاته وفحواه ، لا للقبض أو السيطرة عليه ولكن ببساطة لكي نصل إلى ألفة مع أمزجته المتنوعة ومظاهره - وبالتالي لمنح صوت لنماذجه الجذابة والمتحولة على الدوام - إن علم الظواهرية سوف يصيغ الأرضية للعلوم الأخرى ، لقد كان أمل هسيرل أن تضع أسس علم الظواهرية « كعلم الخبرة » القاعدة للعلوم الأخرى على أرض متينة - ليست ربما بثبات « الشيء أو الموضوع » الجاهز والكلى والتي تدعى هذه العلوم أنها تقف عليها ، ولكن الأسس الوحيدة الممكنة من أجل معرفة تتبع بالضرورة من تجربتنا الحية والمعاشة عن الأشياء التي تُحيط بنا ، وبكلمات عالم الظواهرية الفرنسي موريس ميرلو - بونتي :

« إن كل معرفتي حول العالم ، وحتى معرفتي العلمية تم اكتسابها من وجهة نظري الخاصة ، أو من بعض الخبرات والتجارب في العالم والتي من دونها سوف تكون الرموز العلمية خاوية من المعنى ، إن كامل الكون العلمى تم بناؤه على العالم كما تمت خبرته مباشرة ، وإذا أردنا أن نضع العلم نفسه تحت البحث الدقيق والمراقبة والتوصل إلى تقييم دقيق لمعناه ومداه لابد أن نبدأ بإعادة إيقاظ التجربة الأساسية للخبرة مع العالم ، حيث العلم هو تعبير في الدرجة الثانية في الأهمية ... أن نعود إلى الأشياء في حد ذاتها هو أن نعود إلى ذلك العالم الذى يسبق المعرفة فى الوجود ، الذى دائماً يتحدث عنه العلم ، وفيما يتعلق بكل ما هو متقص ، ومفاهيمي ، ومشتق من لغة الإشارة ، كما هو علم الجغرافية فى علاقته بالريف الذى تعلمنا منه فى البدء معنى الغابة ، والبرارى ، والنهر، قبل أن نتحدد معانى ذلك فى الكلمات العلمية » .

تداخل الخاص

فى المراحل الأولى من مشروعه تحدث هسيرل حول عالم التجربة (العالم « الظواهرتى ») كحيز خاص بشكل كثيف ، ومن أجل البحث فى تكشفات هذا الوجود الفلسفى ، أصر على أن يُنظرَ إليه كبعد ذهنى بشكل كامل ، وحقل غير مادى للمظاهر ، هذا الذى يجرب هذا البعد - التجريب فى ذاته ، أو الموضوع - تم وصفه بشكل مشابه عبر هسيرل كوعى خالص ، عقل أو وجود « متسام » .

ربما عبر توصيف الخاص أو الحقيقة غير الموضوعية كشيء غير مادى ووجود متسام كان هسيرل يأمل فى عزل هذا البعد القيمى عن العالم الميكانيكى الواضح للمادة « الحقائق » والتي كانت آنذاك تحت الإنشاء من خلال العلوم الوضعية (وبذلك يكون من الممكن حماية هذا الحيز من الاحتلال الذى تمارسه تلك الطرق البحثية والتكنولوجية) ، ومع ذلك فإن إصراره هذا على العنصر ذهنى للحقيقة الظاهرتية قاد النقد إلى الهجوم على طريقة هسيرل وكونها مُغلقة بالضرورة - ومنهج يهتم الفيلسوف ويفلق عليه داخل التجربة الأحادية المعزولة ، مسلماً إياه بذلك إلى عدم القدرة على الاعتراف بأى شيء أو أى شخص آخر خارج حدود ذهنه الخاصة .

لقد صار هسيرل طويلاً وبقوة وصعوبة للرد على هذا الانتقاد المهم ، كيف يمكن لتجربتنا الخاصة أن تمكننا من الاعتراف بحقيقة الذات الأخرى ، والأشياء التى تشعر ؟ الحل بافتراض الجسد - جسد الشخص بالإضافة إلى أجساد الآخرين - كبنائية مهمة ومتفردة لحقل الظاهرتية - إن الجسد هو تلك الظاهرة الغامضة والمتعددة الوجوه التى تبدو دائماً مصاحبة لوعى المرء ، والمكان الوحيد بالفعل لحيز وعى الشخص داخل حقل الظواهر ، ومع ذلك فإن حقل الظواهر يحتوى أيضاً على أجساد أخرى كثيرة ، أشكال أخرى تتحرك بإيقاعها فى وضع شبيه بوضع الشخص نفسه ، وفيما يجرب الإنسان جسده الشخصى كما يكون من الداخل فقط فإن تلك

الأجساد الأخرى تُجرب من الخارج ، ويستطيع المرء أن ينوع فى مسافاته من تلك الأجساد كما يستطيع التحرك حولها ، فيما يبدو ذلك مستحيلاً فيما يتعلق بفعل ذلك مع جسده الشخصى .

وبالرغم من هذا الاختلاف فإن هسيرل أكد على أنه هناك تواصل لا يمكن الفرار منه بين تلك الأجساد الأخرى وجسد الشخص نفسه ، إن تعبيرات وحركات تلك الأجساد الأخرى يتم النظر إليها من الخارج ، وتكون هى الصدى والمثيل لحركات الشخص نفسه وتعبيراته التى تُجرب من الداخل ، وعبر التعاطف الإسقاطى تستطيع القدرة الشخصية الاعتراف بتلك الأجساد الأخرى كمراكز أخرى للتجربة ، أشخاص آخرين .

بهذا الشكل ، وهو يصف بدقة الطرق التى عبرها يتوسط الحقل الشخصى للتجربة من خلال الجسد الذى يفتح على الأجساد والأشياء الأخرى - الذوات الأخرى إلى جانب ذاته - هدف هسيرل إلى مواجهة ذلك الانتقاد بعزلة الفيلسوف والذى كان قد وُجه إلى علم الظواهرية . إن حقل الظواهر فيما هو لا يزال حيزاً خاصاً إلى حدٍ كبير صار يُنظر إليه الآن على أنه موطن مواد وذوات متعددة ، لم يعد حقل الظواهرية مجرد عزلة للذات ، ولكن أرضية جماعية مكونة من خبرات أشخاص آخرين بالإضافة إلى خبرة المرء الشخصية .

يبقى هناك - على أى حال - ظواهر كثيرة فى الحقل التجريبي لا يمكن لها أن تكون جماعية أو مشتركة ، حين أعيش أحلام اليقظة - على سبيل المثال - فإن اهتمامى يكون ضمن ظاهرة أستطيع أن أُغير من خطوطها وموجاتها ، خيالات كاملة ، شخصية بشكل فردى لا تفتقد مع ذلك صلابة الأجساد ، مثل هذه الأشكال لا يمكن لها أن تقاوم تحديقى ، إنها ليست محصورة فى مكان ما عبر تحديقى بها إلا فى رأسى ، إنها وبشكل كامل ملكى كخيالات وصور ، إنها أحلامى ومخاوفى ، إنها الحلم الذى أعيشه . وهكذا فإننى أضطر مثل هسيرل أن أعترف بمنطقتين على الأقل فى الحقل التجريبي أو الظاهري : الأول هو الظاهرة التى تتجلى كلية لى - خيالات تنبثق ، كما قد كانت ، فى هذا الجانب من جسدى - ومنطقة أخرى من ظاهرة تستجيب بشكل واضح لخبرات كائنات أخرى بالإضافة إلى ، إن الظاهرة الثانية ما تزال شخصية -

إنها تتبدى لى فى حقل تجربتى ملونة بمزاجى واهتماماتى الحالية - ومع ذلك لايمكن لى استبدالها بالإرادة فقط ؛ لأنها ممثلة بتأثيرات أخرى لكائنات أخرى غير شخصى الخاص . إن هذه الشجرة المنحنية فى اتجاه الريح ، وهذا المنحدر الصخرى ، وتلك الغيمة التى تجوب السماء فوق رأسى : إن كل ذلك ليس مجرد شىء شخصى ، إنها ظواهر متداخلة - ظاهرة تُجرب ويُحس بها من خلال تعددية الأشياء التى تشعر وتُحس .

إن فكرة هسيرل حول تداخل - الخاص توحى بتفسير جديد ومميز لذلك المدعو « بالعالم الموضوعى » ، ذلك أن التضاد المتعارف عليه ما بين « الخاص » و « الموضوعى » فى مجال الحقائق يمكن له الآن أن يُعاد تأطيره كتضاد داخل الحقل الخاص للتجربة نفسها ، ذلك التضاد المحسوس ما بين الخاص وظاهرة تداخل الخاص .

من المعروف بشكل شائع عن العلوم أنها تهدف إلى معرفة واضحة لعالم موضوعى مستقل تماماً عن الوعى أو الخاص، ومع أخذ التجريب بالاعتبار - على كل - فإن الطريقة العلمية تمكّن من الإنجاز لتداخل الخاص الأعظم ، والمعرفة الأكبر لذلك الذى هو أو يمكن أن يكون قابلاً للتجريب عبر ذوات كثيرة مختلفة أو مواد . إن الطموح نحو الموضوعية يمكن له أن يفهم كظاهرة ، كطموح لإنجاز موافقة أو قبول إجماعى ما بين مواد أو مواضيع متعددة ، بدلاً من فهمه كمحاولة لتجنب تداخل الخاص كلية ، إن « الموضوعية » الخالصة المفترضة بشكل شائع فى العلم الحديث أبعد ما تكون عن كونها الأساس الصلب الذى يشكل قاعدة لكل التجارب ، كانت كما قد ورد فى البنائية النظرية لهسيرل مثالية غير مضمونة لتجربة تداخل خاص .

إن « العالم الحقيقى » الذى نجد أنفسنا فيه إذن - العالم نفسه الذى يسعى علمنا إلى أن يحنطه - ليس مجرد « موضوع » أو مادة ثابتة منتهية « كمعلومات » يمكن من خلالها دراسة كل الأشياء بخصوصياتها وتصنيفاتها، لكنه حواس متشابكة ، وحقل مشترك للتجربة المعاشة تكون زوايا مختلفة لبلورة الرؤية . إن التأثيرات الأخرى للآخرين والأشياء فى تجربتى ، و (على أن أفترض) تأثيرى على تجاربهم مؤثر على تداخل النسيج فى حقل الظاهرة الفردية إلى نسيج متفرد ودائم التحول لعالم كونى واحد أو « حقيقة » .

ومع ذلك ، وكما نعرف من تجارب خبراتنا اليومية ، إن العالم الكبير مستقر بشكل مدهش وصلب ، يمكن لنا الاعتماد عليه بطرق كثيرة ، ونأخذ بشكل يقينى تركيبته وصفاته ، إن تلك الصلابة المُجربة قوامها بدقة ذلك التداخل مع الآخرين ، مع المواضيع والذوات المجسدة ، مراكز أخرى للتجربة والخبرة . إن الالتقاء بالمتلقين الآخرين يؤكد لى دائماً أن هناك جوانب أكثر للشيء مما يبدو عليه ، أو للعالم ، ومما أستطيع أنا شخصياً أن أستوعبه فى أية لحظة ، إلى جانب ذلك الذى أراه مباشرة وأنا أنظر إلى شجرة معينة أو مبنى ، أعرف أو أدرك بالحدس أن هناك جوانب أخرى للشجرة أو المبنى واضحة لمتلقين آخرين أراهم ، أحس بأن تلك الشجرة المعينة هى أكثر بكثير مما تراه عينى مباشرة ، بما أنها أيضاً الشيء الذى أرى الآخرين يبصرونه ، أحس كحضور مستوعب هو موجود قبل أن أتى لأراه ، وبالفعل إن ذلك الحضور لن يتبخر عندما أذهب بعيداً عنه ، بما أنها تبقى مجال خبرة لآخرين - لا لأشخاص آخرين فقط ولكن (كما سنرى لاحقاً فى هذا الفصل) لكائنات أخرى ، للعصافير التى تعيش على أغصانها ، والحشرات التى تتحرك على جذعها ، وحتى أخيراً للخلايا الحساسة للشجرة نفسها ، تشرب الشمس بهدوء من خلال أوراق الشجرة ، إنها تلك المعلومات التى تتلقاها حواسى عبر التلقى الواضح والإحساس بالكائنات المتجسده الأخرى التى تؤسس - بالنسبة لى - الصلابة النسبية والاستقرار فى العالم .

عالم - الحياة

بالرغم من أن هسيرل فى البدء كتب حول جوانب ذهنية غير مادية عن الحقيقة المجرّبة أو المختبرة إلا أن إقراره المتنامى لتجربة تداخل - الخاص أو الشخصى وأهمية الجسد فى مثل تلك الخبرات قاده بالضرورة إلى الإقرار ببعد أساسى كبير فى المنتصف مابين « الوعى » المتسامى لتحليلاته الأولى و « الشئ » الموضوعى المفترض عبر العلوم الطبيعية . لقد كان ذلك هو عالم تداخل الخاص فى الحياة أو عالم - الحياة .

إن عالم الحياة هو عالم تجاربنا الحية المباشرة كما نعيشها ونحياها ، سابقة لكل أفكارنا حولها ، إنه ذلك الحاضر بالنسبة إلينا فى مهامنا اليومية ومُتَعَنَا ، الحقيقة كما تشغلنا قبل أن يتم تحليلها بالنظريات وبالعلوم التى نبتكرها ، إن عالم الحياة هو العالم الذى نعتد عليه دون أن نمنحه بالضرورة الكثير من الاهتمام ، إنه عالم السُحْب فوق الرؤوس والأرض تحت الأقدام ، الصحو من السرير وإعداد الطعام وفتح صنبور الماء . يسهل تجاهله ذلك العالم الأساسى . وهو دائماً موجود هناك عندما نبدأ فى التأمل والتفلسف ، إنه ليس ببعيد فردى ولكنه جماعى - الحقل المشترك لحيواتنا وحيوات أخرى تتشابك مع وجودنا - ومع ذلك فهى غامضة وملتبسة بعمق ، بما أن خبراتنا فى هذا الحقل دائماً نسبية إلى أوضاعنا بداخله . إن عالم الحياة هو بالتالى العالم كما نختبره ونحسه عضوياً بأبعاده المختلفة ونهاياته المفتوحة ، والسابقة للمفاهيم المتجمدة والمحولة إياه إلى فضاء فارغ « للحقائق » ، إن عالم الحياة سابق لاستيعابه مفاهيمياً فى أى شكل مكتمل ونهائى ، إن جُل مفاهيمنا ومعلوماتنا - علمية أو غيرها - تتغذى بالضرورة من ذلك الوجود غير المحدد ، وفيما يحل الفيزيائى

المعلومات فهو لا يزال يتغذى بالهواء الذى يتنفسه ، وبالإحساس بالكرسى الذى يجلس عليه وبالضوء الذى يتدفق عبر النوافذ ، دون أن يكون واعياً أو منتبهاً لكل تلك العناصر .

إن عالم الحياة إذن حاضر بشكل هامشى فى أية فكرة أو نشاط نقوم به ، وبالرغم من ذلك حينما نحاول أن نشرح هذا العالم مفاهيمياً يبدو أننا ننسى دورنا المشارك والنشط فى داخله ، طامحين إلى أن نمثل العالم ننسى بالضرورة وجوده المباشر ، لقد كانت عبقرية هسيرل تلك التى لاحظت أن فرضيات الموضوعية قد قادت إلى خوف كلى تقريباً لعالم الحياة فى الزمن الحديث ، وإلى نسيان شبه كلى لذلك البعد الحى الذى تتجذر فيه كل أنشطتنا بل وجودنا أيضاً . فى جهودهم من أجل إنجاز خارطة جاهزة للعالم تحولت العلوم إلى وضع مغرب بشكل مخيف عن حياتنا وتجربتنا البشرية المباشرة ، إن مساراتهم الكثيرة المتخصصة ، التقنية والتكنولوجية قد فقدت أى علاقة واضحة مع العالم الحسى لمشاغلنا العادية واليومية ، إن الفقر الناتج فى اللغة ، والفقد للعوامل المشتركة فى مستويات الحياة المعاشة قد قادت - كما أحس هسيرل - إلى كوارث واضحة فى الحضارة الأوروبية ، غائبين فى وعيهم وجاهلين لطبيعة عالم الحياة الذى يعتمدون هم أنفسهم عليه لمعنى وجودهم ، فإن العلوم الغربية والتكنولوجيا المصاحبة لها قد بدأت تسيطر بشكل أعمى على العالم - الحى - حتى درجة التهديد الكامل لعالم الحياة .

من المفترض أن يكون واضحاً أن عالم الحياة هذا ربما يكون مختلفاً جداً من ثقافة أو حضارة لأخرى ، العالم الذى يخبره الناس ويتعودون الاعتماد عليه هو عالم متأثر بعمق بالطرق التى يعيشون بها وبممارساتهم فى هذا العالم . إن أعضاء أية ثقافة بمعطياتها لابد أن يستوطنوا عالماً مجرباً مختلفاً تماماً عن عالم آخر لثقافة أخرى بلغة مغايرة ومختلفة وطريقة أخرى للحياة ، وحتى ذلك العالم أو « الكون الموضوعى » العلمى والمغلق على نفسه للحضارة الغربية الحديثة لا يمكن له بشكل اعتباطى أن ينفصل عن مؤسساته الخاصة ، وتقنياته وأدواته التكنولوجية ، وطرق الحياة المعتادة والمبنية فى هذا المجتمع منذ القرن السابع عشر .

إذا كانت العوالم المجربة عبر البشر متنوعة إلى هذا الحد كم سيكون التنوع فى درجاته إذن عالم الحياة ذلك للحيوانات الأخرى - الذئب ، أو البوم ، أو مجتمعات النحل ! - ومع ذلك فبالرغم من هذا التنوع وتلك التعددية سيبدو أن هناك تكوين أساسى لعالم الحياة فيه عوامل مشتركة ، وعناصر تتشارك فيها الثقافات المختلفة حتى يمكن لنا أن نحمى المخلوقات والكائنات المختلفة . إن كتابات « هسيرل » تبدو وكأنها تقترح أن عالم الحياة له تكوينات أو طبقات متعددة ، وأنه تحت تلك الشريحة للثقافات المتنوعة لعالم الحياة يكمن مستوى أعمق وأكثر توحداً لعالم الحياة ، كان دائماً هناك تحت سطح كل ما قد تحقق فى حضاراتنا أو ثقافتنا بعد واسع يتم تجاهله باستمرار للتجربة والخبرة غير أنه برغم ذلك يدعم ويقوى كل وجهات نظرنا للعالم ، تلك المتنوعة واللامتناهية .

لقد نشر هسيرل الضوء على ذلك البعد الأساسى والأكثر عمقاً لعالم الحياة عبر عدد من المذكرات والملاحظات كُتبت حول البعد الخاص والمتداخل فى عام ١٩٣٤ . لقد وصفت تلك الأوراق منظومة من البحوث الظواهرية فى الفهم المعاصر للفضاء ، تحت سطح المفهوم الحديث والعلمى للفضاء كفراغ رياضى متجانس ولانهائى ، كشف هسيرل عن تجربة الفضاء للأرض نفسها ، إن الأرض الحاوية - كما يقترح - تقدم الوعى الأكثر مباشرة وتجسيدا للفراغ أو الفضاء ، والذى ينبع منه كل تلك المفاهيم التالية والمتكونة عن الفضاء ، وفيما يرى علم الفيزياء الحديث الأرض على أنها مجرد تجسيد آخر بين التجسيديات الثانية « فى » الفضاء ، فإن علم الظواهرية يعتبر أن كل الأجساد أو التجسيديات (بما فيها أجسادنا) يمكن تحديد مكانها فى علاقتها النسبية لأرضية الأرض ، فيما الأرض نفسها ليست « فى » الفراغ أو الفضاء ، بما أن الأرض نفسها منذ البدء هى التى تقدم الفضاء ، وبالنسبة لخبرات حواسنا المباشرة وخبراتها فإن « الأجساد كمعطيات لها حس الأجساد الأرضية ، والفضاء كمعطيات له حس كينونة الأرض - الفضاء » . الأكثر من ذلك ، فيما يطرح العلم الحديث أنه « فى الحقيقة » الأرض فى حركة (حول مدارها ، وحول الشمس) يطرح هسيرل أن المفهوم نفسه « للحركة » و « السكون » يشترك معانيه كلها من خبراتنا الجسدية الأساسية فى كوننا فى حركة أو سكون فيما هو نسبى ومتعلق بالسكون « الكلى » « للأرض - القاعدة » .

لقد عُثِرَ على ملاحظات هسيرل في مخطوطات كتب فيه بعض الكلمات التي تلخص ذلك : « الانقلاب على النظرية الكوبرنيكية ... إن الأرض الأصلية لا تتحرك » . إن مثل ذلك التأكيد المهم يوضح بشكل جيد الطبيعة المتطرفة لأفكار هسيرل ، إنه يقترح في تلك الملاحظات أن هناك عدم اتزان عميق في وجهة نظر العالم العلمية ، ناتجة عن التضارب المستمر ما بين قناعاتنا العلمية وتجاربنا الحية التلقائية في هذا العالم ، بعد بحوث كوبرنيكوس ، وكيبلر ، وجاليليو تم استيعاب الشمس على أنها المركز للعالم الكوني ، غير أن هذا المفهوم ببساطة لم يتوافق مع تلقينا ووعينا الحسّي ، والذي بقي مجال الخبرة للأفق الذي يبرز على شمس الأرض المستقرة . إن مخطوطاً محبباً تم استحضاره ما بين قناعاتنا الفكرية والقناعات الأساسية لحواسنا ، ما بين مفاهيمنا العقلية ومفاهيمنا الجسدية (إن الفصل الفلسفي لديكارت ما بين العقل والجسد تم تعزيزه عبر هذه الحالة الجاهزة للأشياء ، لقد كان ضرورياً من أجل الإبقاء والمحافظة على وجهة النظر الجديدة الكوبرنيكية من العالم أن يمسك المفكر العقلاني بنفسه بعيداً عن العالم الحسي التجريبي للجسد) ، ومع ذلك فإن كلماتنا نفسها تابعت خيانة الفكر وأن تمنع الارتفاع النظيف للنظام الكوبرنيكي : مازلنا نقول « الشمس تبرز » و « الشمس تغرب أو تغيب » سواء كنا فلاحين أو فيزيائيين ، إنه بهذا الحس ، الكتابة من منظور الجسد التجريبي ، استطاع هسيرل أن يدعى بأن « الأرض » لا تتحرك .

أخيراً بدا هسيرل أنه يقترح أن الأرض ترقد في قلب مفاهيمنا عن الزمن والفضاء ، إنه يكتب عن الأرض على أنها « منزلنا البدائي » و « تاريخنا البدائي » ، إن كل تاريخ متميز - ثقافي أو حضاري - هو حكاية من قصة أكبر : كل مفهوم تم إنشاؤه ثقافياً حول الزمن يفترض تاريخنا العميق ككائنات تنتمي إلى أرض واحدة .

إن الأرض إذن ، بالنسبة لهسيرل ، العمق السري لعالم الحياة ، إنها المنطقة الأكثر حيوية للتجربة والخبرة ، إنها لغز يتجاوز التشكيلات الفكرية المختلفة لثقافاتنا ولغاتنا ، وبكلماته إن الأرض الحاوية هي « صلب العالم » ، و « أسس الجذر » المشترك لكامل عالم الحياة . إن رؤى هسيرل الأخيرة حول أهمية الأرض لكل المفاهيم البشرية ستكون - كما سنرى - ذات أبعاد ونتائج عميقة لكشف تطور الفلسفة الظواهرية فيما بعد .

إن عمل هسيرل لم يكن بأى شكل من الأشكال رفضاً للعلم ، لقد كان نداءً بأن العلم من أجل كرامته ومعناه لا بد له من الاعتراف بأنه متجذر فى العالم نفسه الذى ننشغل به جميعاً فى حياتنا اليومية وحواسنا المجردة ، وأنه بكل تقنياته المتطورة وعلومه القياسية يبقى مجرد تعبير عن العالم النوعى فى خبرتنا الإنسانية المشتركة ، وعليه أن يكون تحت قيادة ذلك العالم . إن المهمة الحقيقية لعلم الظواهرية كما قد رآها هسيرل نفسه فى نهاية أبحاثه وأعماله تكمن فى الاستعراض الحذر للطريقة التى تنمو بها كل نظريات العلوم وممارساتها ، وتبقى مسنودة بتلك الأرضية المنسية لحيواتنا وتجاربنا المعيشية المباشرة ، ويكون لها معنى وقيمة فقط فى علاقتها بالوجود المفتوح والأساسى للأرض وكائناتها .

فى الأصل كانت محاولة للاعتراف بالوعى النظرى عبر وضعه على قدم ثابتة ، هكذا كانت مشاريع هسيرل تنمو فى المحاولة المستمرة لإحياء العالم المتدفق بالدماء لحواسنا وخبراتها الطبيعية ، ومن ثم فى عودة الوعى بالاعتراف بالأرض بوصفها القاعدة المنسية لكل أشكال وعينا . أما الآن فسوف ألتفت إلى أعمال عالم الظواهرية موريس ميرلو بونتي ؛ حتى أتمكن من إيضاح كيف أن عبقرية هسيرل تم أخذها وتحويلها بطريقة عززت هذه الفلسفة بقوة خاصة ومتعلقة بالسؤال الإيكولوجى - البيئى الذى يواجهنا الآن فى اللحظة الراهنة .

الجزء الثانى

موريس ميرلو - بونتي والطبيعة المشاركة للتلقى

إن موريس ميرلو بونتي وضع مشروعه ليزيد من أفق هسيرل لعلم الظواهرية عبر توضيح وتنقية التناقضات الموجودة من الشوائب فى تلك الفلسفة ، وعبر طرح طرق أكثر أناقة للحديث ، أسلوب للغة عبر تدفقه وسلاسته وتماسكه ، وتجنبه للمصطلحات التجريدية يمكن له نفسه أن يجذبنا إلى البعد الحسى لعالم الحياة .

حياة العقل الممتلئ للجسد :

لقد رأينا - على سبيل المثال - أن الجسد الفيزيائى قد اتخذ أهمية متزايدة فى دوره فى فلسفة هسيرل ، وعبر الاعتراف بالطبيعة المتجسدة فقط للذات المجربة وخبراتها كان هسيرل قد استطاع أن يتجنب ضيق أفق الأحادية المحدودة للذات ، إنه واضح أن الأجساد والذوات الأخرى أو المواضع يجعلون أنفسهم جليين فى تجربتى الشخصية ، وإننى كجسد فقط أستطيع أن أكون جلياً وواضحاً ومفهوماً للآخرين ، إن الجسد هو وسيلتى الدقيقة فى الحقل المشترك لخبرات وتجارب الخاص - المتداخل .

غير أنه بالرغم من ذلك فإن الجسد يبقى مجرد مظهر مميز وقوى وحساس فى فكر هسيرل ، إن الجسد قد كان بالتأكيد المركز الرئيسى لخبرات الذوات أو المواضع فى العالم الظاهرى - فى الحقل الأساسى للمظاهر - غير أن الذات كما قد أكد هسيرل هى حضور متسام منفصل بالضرورة عن الظاهرة (بما فيها الجسد) ، وبالرغم من تزايد اعترافه بالمركزية للجسد الحى فى كل الخبرات ، وبالرغم من كشفه العميق لمغاليق الوجود المتداخل فى خصوصيته فى حياتنا السابقة للمفاهيم فإن

هسيرل كان غير قادرٍ على الرمى بعيداً بالأبعاد النظرية المثالية المتسامية فى بداياته الفلسفية .

ولقد كانت هذه الفرضية حول تلك الذات المشطورة وغير المجسدة للوعى المتسامى هى بالتحديد مارفضه ميرلو بونتى ، إذا كان هذا الجسد هو حضورى الخاص جداً وشكل وجودى فى العالم ، إذا كان الجسد هو وحده ما يمكننى من الدخول فى العلاقات مع حضور الكائنات الأخرى ، إذا كان بدونما هذه العيون ، وهذا الصوت ، وهذه الأيادى فإننى لن أستطيع أن أرى ، ولا أذوق ، أو ألمس أى شىء ، أو أن ألمسَ عبر أى من الكائنات الأخرى والذوات من خلال حضورها - لولا وجود هذا الجسد ، أو بكلماتٍ أخرى ، لن يكون هناك أى مجال للخبرة - فإن الجسد نفسه إذن هو موضوع الخبرة والتجربة . ميرلو بونتى يبدأ ، إذن ، عبر تعريف الموضوع - الخبرة « نفسها » - مع أعضاء الجسد .

إنها بالفعل حركة متطرفة ، إن معظمنا معتاد على اعتبار نفسه، وجودنا الأعرق ، كشيء روحى ، ومع ذلك تأمل : إنه من دون هذا الجسد ، من دون هذا اللسان أو هاتين الأذنين ، فإنك لن تستطيع أن تكلم أو تسمع صوتاً آخر ، ولن يكون بإمكانك أن تملك شيئاً للحديث عنه ، أو حتى أن تتأمله ، أو تفكره ، بما أنه من دون الصلة ، أية صلة ، أو حواس حسية يقظة لن يكون هناك أى شىء لتتساءل عنه أو نعرفه .

إن الجسد الحى - إذن - هو الإمكانية الحقيقية للتواصل ، لا مع الغير فقط ولكن مع الإنسان نفسه ، إنه الإمكانية الحقيقية للتأمل ، ولفكر ، وللمعرفة ، إنه الفحوى المشتركة للخبرة نفسها ، أو للعقل ، كوجود غير مادى مستقل بالضرورة عن الجسد فقط عبر الوهم أو السراب : ميرلو بونتى يدعونا إلى الاعتراف ، فى قلب حتى أكثر مفاهيمنا تجريدية ، بالحياة الحسية والذكية للجسد نفسه .

إن هذا الجسد الذى يتنفس ، وهو يجرب ويسكن العالم ، مختلف جداً عن ذلك الجسد « الموضوع » المخطط فى كتب التشريح والأحياء والفيزياء ، مع « أنظمتها » المنفصلة (النظام الخاص بالدورة الدموية ، نظام الهضم ، نظام التعرف ،... إلخ) الموضوعية عارية على كل صفحة كوحدة منفصلة فى هذه الأنظمة .

إن الجسد الذى أتحدث عنه هنا مختلف جداً عن الجسد الذى تعلمنا أن نراه وأن نشعر به ، ومختلف جداً - أخيراً - عن تلك الآلة المعقدة التى هى بأجزائها المتكسرة أو أنظمتها المحددة تتم معاينتها عبر أطبائنا و « إصلاحها » عبر تقنياتنا الطبية ومعداتنا ، تحت سطح ذلك الجسد المُشرَّح والميكانيكى الذى تعودنا على تلقيه وقبل تكون أى من مفاهيمنا يعيش الجسد كما يخبر الأشياء بالفعل ، هذه القوة التى تحرك كل مشاريعنا وتتعبذ بسبب كل رغباتنا وأهوائنا .

إن الجسد ، الحى ، الحساس - والذى دعاه ميرلو بونتى « بمادة الجسد » - هو ذلك الكائن نفسه الذى ينبض منذ دقائق مضت ، فجأة أخذ هذا القلم وكتب هذه الأفكار ، إنها القوة نفسها التى أملكها لكى أرى أو أسمع الأشياء ، أو لألتفت لأنظر إلى مكان آخر ، وهو القدرة التى أملكها للبكاء أو الضحك ، أو لكى أعوى ليلاً مع الذئب ، ولكى أبحث عن الأكل وأجمعه من الغابة أو السوبر ماركت ، إنه القوة لكى أستطيع المشى على الأرض ولكى أتنفس الهواء ، ومع ذلك « فانا » لا أملك هذه القوى مثل قبطان يدير سفينة ؛ لأننى أنا - فى أعماقى - غير مميز عن تلك القوى ، وكما هو حزنى مميز أو منفصل من ثقل معين فى أعضاء جسدى ، أو كما هى متعتى منفصلة اصطناعياً عن ذلك الاتساع فى حدقتى عيني ، من تنقل خطواتى وتلك الحساسية المرتفعة لجلدى ، وبالفعل فإن تعابير الوجه ، وحركات الجسد ، وبعض الأفعال التلقائية كإطلاق التنهيدة والدموع ، تبدو وكأنها تعبر عن خلق مشاعر مباشرة ، وأمزجة ، ورغبات دونما أن يستطيع « كائننى » أن يقول أى منها قد جاء أولاً : التعبير الجسدى أو الإحساس غير المادى أو غير المُجسّد .

لكى أقر بأننى « أنا هو هذا الجسد » ليس لتقليل وتقليص ذلك الغموض لأشواقى وأفكارى المتدفقة لتتحول إلى طاقم ميكانيكى ، أو « ذاتى » لتتحول إلى رجل آلى مُصمَّم ، إنه ليس للإغلاق والإقفال على وعيى داخل كثافة المواد المغلقة والمحيطه بى ، لأنه كما سنرى أن حدود الجسد الحى مفتوحة وغير محددة ، أقرب إلى الخلايا المرنة المفتوحة عن الحواجز والسدود ، إنها تحدد سطح المتغيرات والتبادل . إن الجسد المتنفس الحساس يجتذب قوامه وكيونته من التراب ، والنباتات ، والعناصر التى تحيط به ، إنه باستمرار يمنح نفسه بدوره إلى الهواء ، إلى تكوين التراب ، إلى تغذية

الحشرات والأشجار والسناجب ، ناشراً نفسه وهو يتنفس العالم ويتبادل العطاء والأخذ معه ، لذلك فإن هذه الدرجة من التبادلية يصعب معها الكشف بدقة وفى أية لحظة أين يبدأ ذلك الجسد الحى وأين ينتهى ، ومع أخذه بالاعتبارات الظواهرية - أى بمعنى ، كما نجرب ونشعر بالفعل وكما نحيا الجسد - فإن الجسد مبدع ، وكيونة قادرة على تحويل أشكالها ، بالتأكيد إن له شخصيته النهائية وأسلوبه ولمسه الخاص ودرجات حرارته والتي يمكن تمييزها عن الأجساد الأخرى ، ومع ذلك فإن هذه الحدود البشرية لا تعيقنى أبداً عن الأشياء من حولى أو تمنع علاقتى بها أو تجعلها متوقّعة وأسنة ، على العكس من ذلك إن جسدى بحضوره وحده هو ما يمكننى من التعامل بحرية مع الأشياء المحيطة بى ، أن أختار التعامل مع أشخاص معينين أو أماكن ، وأن أدخل بذاتى فى حيوات الآخرين ما أبعده عن تقنين أو منع مداخلى إلى الأشياء والعالم ، إن الجسد وسيلتى المحددة للدخول فى علاقة مع كل الأشياء .

وللتأكد بكشف الجسد نفسه كموضوع للوعى فإن ميرلو بونتى حطم أى أملٍ بأن الفلسفة يمكن أن تقدم مع الوقت صورة كاملة عن الحقيقة (لأن أى حساب شمولى « للماهية » يتطلب عقلاً أو وعياً يقف بطريقة ما « خارج » محيط وجوده ، سواء لتراكم الحسابات أو - فى النهاية - لتلقى تلك الحسابات وفهمها) ومع ذلك فإنه بالحركة ذاتها قد فتح أخيراً الإمكانية لعلم ظواهراتى حقيقى وأصلى ، فلسفة سوف تطمح لا إلى شرح العالم وكأنها من خارجه ، ولكن لتمنح صوتاً للعالم من خلال الموضوعية المجربة من داخله ، منبهة إيانا ومعيدة إيانا إلى دورنا كمشاركين فى اللحظة التى هنا والآن محتفية بحواسنا اليقظة وقدرتنا على التعجب والاندھاش من الأشياء ، والأحداث والقوى التى تحيط بنا فى كل يد .

بالضرورة أن تعترف وتقر بحياة الجسد وأن تؤكد تضامنا مع هذا الشكل الجسدى هو أن تُقر بوجودنا كواحدٍ من حيوانات الأرض ، وبالتالي أن تتذكر وتحتفى بالقاعدة العضوية لأفكارنا وذكائنا . وبالنسبة إلى الموجة الرئيسية أو المركزية لتقاليد الفلسفة الغربية من مصدرها الأساسى فى أثينا القديمة وحتى اللحظة الراهنة فإن الكائنات البشرية وحدها هى التى تملك العقل والفكر ، و « الروح المعترف بها ، العقلانية » أو العقل الذى عبر إلحاقه بالبعد الخالد والسامى خارج العالم الجسدى فإن

ذلك يضعنا فى موضع منفصل بشكل حدى عن أو فوق مستوى كل الأشكال الأخرى للحياة ، فى كتابات أرسطو - على سبيل المثال - فيما النباتات معززة بالروح النباتية (التى توفر الغذاء ، والنمو ، وإعادة الإنتاج) ، وفيما الحيوانات تمتلك - بالإضافة إلى الروح النباتية - روحاً حيوانية (وهى توفر الإحساس والقدرة على الحركة) فإن هذه الأرواح غير منفصلة عن العالم الأرضى الحائل للفناء والفساد ، أما البشر فهم يملكون بالإضافة إلى تلك الأرواح أرواحاً أخرى عاقلة أو ذكية ، وهى وحدها التى تستطيع الولوج إلى أجواء أقل فساداً وهى مرتبطة « بالمحرك الذى لايتحرك » ، السامى فى حضوره فى حد ذاته ، وعلى يد ديكارت بعد ألفى عام من ذلك فإن هذا المدرج الهرمى فى ترتيبه للأشكال الحية ، والمدعو عادة « بالسلسلة الأعظم للوجود » قد تم استقطابها إلى ثنائية خالصة ما بين المادة الميكانيكية الآلية غير المفكرة (بما فيها كل المعادن ، والنباتات، والحيوانات ، بالإضافة إلى الجسد البشرى) والعقل المفكر الخالص (ذلك الوجود الاستثنائى للبشر والإله) وبما أن البشر وحدهم هم ذلك الخليط ما بين المادة الممتدة والعقل المفكر ، فإن نحن وحدنا القادرون على الإحساس والتجريب بحواس جسدنا الميكانيكية، وأثناء ذلك فإن كل الأحياء الأخرى مكونة من مادة ممتدة فقط ، وهم فى الحقيقة لاشئ سوى ذرات وخلايا غير قادرة على الإحساس والخبرة الحقيقية ، وعاجزة عن الشعور بالسعادة أو الألم ، وهكذا نحن البشر لاجابة لنا فى الكتابة عن الاحتكار ، والهيمنة ، والاستغلال ، أو استغلال الكائنات مخبرياً كما يعجبنا أو يناسبنا .

وللغرابة فإن مثل هذه الآراء حول خصوصية البشر قد تم استغلالها باستمرار عبر المجموعات البشرية لتبرير ذلك الاستغلال ليس فقط للكائنات الحية الأخرى بل لاستغلال « بشر » آخرين أيضاً (شعوب أخرى ، أجناس أخرى ، أو ببساطة الجنس « الآخر ») ، مسلحين بهذه الآراء والتبريرات ، فإنه ما على المرء سوى أن يستعرض أن أولئك الآخرين ليسوا بشراً « كاملين » ، أو هم أقرب إلى الحيوانات الهمجية ، وحتى يستطيع الشخص أن يؤسس حقه الخاص بالسيطرة والهيمنة ، فبالنسبة إلى أرسطو - على سبيل المثال - فإن النساء ناقصات فيما يتعلق بالروح العقلانية ؛ ولذلك

« فإن علاقة الذكر بالأثنى فوقية بالطبيعة وتتعلق بالعلاقة مع كائنات دونية - علاقة الحاكم بالمحكوم » . إن مثل هذه التبريرات للاستغلال الاجتماعي تستند فى قوتها إلى تلك الهرمية السابقة للطبيعة ، إلى تلك الهرمية وأوامرها التى تحدد مكان « البشر » ، حسب ذكائنا وقوانا العقلية ، فوق ومنفصلاً عن كل الكائنات الأخرى ، « والتى هى مجرد أشياء » .

إن مثل تلك التراتبية الهرمية تكون عرضة للتهديد أمام علم الظواهرية الذى يأخذ مأخذ الجد مجال خبراتنا الحسية المباشرة ، ذلك أن حواسنا تكشف لنا جوانب مزهرة ووحشية لكائنات وعناصر يفرق فيها البشر بعمق ، وفيما تتنوع الأشكال الحسية وتعرض بالتأكيد بعض النظام غير الثابت فإننا نجد أنفسنا فى وسط - بدلاً من فوق - ذلك النظام . ربما نستطيع أن نوجه نظرتنا إلى الأسفل لكى نشهد فأر الحقل والحشرات التى تحوم فوق الحشائش ، أو نلقى نظرة على الثعابين التى تزحف إلى جحورها تحت الأقدام ، ومع ذلك وفى اللحظة نفسها هناك صقور تحلق عالياً مع الريح وهى تنظر إلينا نحن هنا فى الأسفل ، كائنات الريش الميلودية المفردة تحط مثل الفانتوم أو الشبح على الأغصان العالية للأشجار ، فيما قوى داخلية خفية أخرى تُعرف بآثارها تتحرك داخل العمق الخفى للغابات ، داخل المياه التى تتحرك أمواجها فى مواجهة شواطئ أراضٍ بعيدة ، ثمة قوى أكثر غرابة ، صامته ومتعددة ، تتحرك محتشدة ما بين الغابات الغريبة للشعب المرجانية والصخور ...

هل يستطيع الذكاء البشرى ، أو « العقلانية » أن تحررنا فعلاً من ميراثنا فى عمق هذه الأشكال الوحشية والبرية ؟ أو أنه على العكس من ذلك ؟ هل الذكاء البشرى متجذر فى ، ومولود سرياً عبر تواصلنا المنسى مع التعددية غير البشرية للأشكال التى تحيط بنا ؟

الحوار الصامت للجسد مع الأشياء

بالنسبة لميرلو بونتي فإن كل الإبداع والحركة الحرة - المسافات التي صرنا نربطها مع الذكاء البشرى - هى فى الحقيقة تصعيد لإبداع عميق موجود تحت سطح المستوى الأكثر مباشرة لتلقينا الحسى ، إن الجسد الحساس ليس بألة مبرمجة ولكنه شكل مفتوح ، نشيط وحيوى ، باستمرار يشرف على علاقته بالأشياء والعالم . إن أفعال الجسد وانشغالاته ليست أبداً حتمية تماماً ، بما أنها عليها تعديل نفسها مع العالم والوجود الذى يتغير باستمرار ، لو أن الجسد كان حقيقة مجرد طاقم من الميكانيكية المصممة سلفاً والمحددة فإنه ما كان يستطيع التواصل الحميم والأصلى مع أى شىء خارج حيزه ، وما كان يستطيع استيعاب أى شىء جديد بالفعل ، وسيفقد قدرته على الدهشة والذهول ، إن كل خبراته وتجاربه ، كل ردود فعله كانت ستكون متوقعة من البداية لو كان مبرمجاً كما هو فى الإنسان الآلى ، ولكن هل نستطيع حتى إذن ، أن ندعوها خبرات آنذاك ؟ أليست الخبرة ، أو بدقة أكثر الاستيعاب والتلقى هى شىء لانهائى ، وغير معد سلفاً ؟

تصور عنكبوتاً نسج بيته ، مثلاً ، وتلك الفرضية التى مازالت عند علماء كثيرين بأن السلوك لكائن ضئيل مثل العنكبوت هو « شىء مبرمج فى الجينات » ، بالتأكيد إن العنكبوت قد تلقى ميراثاً ثرياً فى خلاياه الحيوية من والديه وأسلافه ، أيا كانت « التعليمات » - على كل - المودعة بداخل خلاياه الحية فإنه من الصعب أن تتنبأ بالتفاصيل المحددة لوجوده « المايكرو » الذى يستطيع العنكبوت عبه أن يجد نفسه فى أية لحظة محددة ، إنه يصعب أن تحدد تلك الجينات بشكل حتمى سلفاً المسافات الدقيقة ما بين جدار الكهف والفرع الذى يستخدمه العنكبوت الآن كمنطلق لبيته الذى ينسجه ، أو القوة الدقيقة لأمطار المنسون الاستوائية الموسمية التى تجعل غزل بيت العنكبوت أشد صعوبة فى هذا المساء ، وهكذا فإن الخارطة الجينية لايمكن لها بشكل

واضح أن تهيمن على نظام كل حركة أو امتداد للمفاصل المختلفة فيما العنكبوت ينسج ذلك البيت فى مكانه ، ومهما كان تعقيد وتركيب كل « البرامج » الوراثة الاشكال ، فإنها تظل قيد ضرورة التأقلم للأوضاع المباشرة التى يجد العنكبوت نفسه فيها ، غير أنه مهما كانت درجة تصميم ميراث الخارطة الجينية فإنه مازال لابد لها - كما هو حادث - أن يتم نسجها فى اللحظة الراهنة ، إنه نشاط يحتوى بالضرورة الاثنين معاً : القدرة على الاستيعاب والتلقى للأشكال المحددة للحاضر ، والإبداع العفوى والتلقائى فى تأقلمه مع الحاضر ، إنه ذلك النشاط المفتوح ، والخليط الحيوى من التلقى والإبداع الذى يستطيع فيه كل كائن حى بالضرورة أن يؤقلم نفسه عبره مع العالم (ويؤقلم العالم معه) ذلك الذى نتحدث عنه عندما نتكلم عن مصطلح « الاستيعاب » .

لكن دعونا الآن نتأمل ونفكر فى حدث التلقى كما نجربه ونعيشه نحن أنفسنا ، إن الجسد الإنسانى مع تنوعه المميز هو - بالتأكيد - ميراثنا الخاص وجذورنا الشخصية فى تاريخ التطور والخلقة عبر أسلافنا المحددين ، ومع ذلك فهو أيضاً مدخلنا إلى عالم يتجاوز فهمنا فى كل اتجاه ، وهو أيضاً وسيلتنا للتواصل مع أشياء وحيوات مازالت غير متكشفة ، مفتوحة ، وغير محددة تحيط بنا ، وبالفعل من منظور حواسى الجسدية ليس هناك من شئ يتضح كمادة نهائية ، وكاملة ، ومحددة ، كل شئ ، كل ذات يراها جسدى تقدم وجها ما أو واجهة لنفسها أمام نظرى فيما تحجب جوانب أخرى عن مجال الرؤية بالنسبة إلى .

إن طاجن الفخار الموضوع على المائدة أمامى يلتقى بعينى بسطحه المستدير والخشن ، ومع ذلك فإننى أستطيع أن أرى جانباً واحداً من هذا السطح ، إن الجانب الآخر للطاجن خفى بالنسبة إلى ، غير مرئى عبر الجانب الذى أنظر إلى زاويته الآن ، ومن أجل أن أرى الجانب الآخر ، فإنه يتوجب على أن أحمل الطاجن وأديره فى يدي ، أو أن أقوم وأمشى حول المائدة الخشبية ، ومع ذلك ، وحينما أفعل ذلك فإننى لا أعود أتمكن من رؤية الجانب الذى نظرت إليه أولاً من زاويتي ، بالتأكيد أنا لا زلت أدرك أنه موجود ، وأستطيع حتى أن أشعر بوجوده من هذه الناحية التى أراها وأنا أنظر إلى الطاجن أمام المصباح ، ومع ذلك فإننى أنا نفسى غير قادر على رؤية الطاجن بأكمله مرة واحدة .

الأكثر من ذلك ، وفيما أتفحص سطحه الخارجى فإننى قد قبضت على لمحات من الداخل الناعم الملمس للطاجن ، عندما أقف لأنظر إلى هذا الباطن الذى يلمع مع انعكاسات مستديرة من نور السماء فوقى فإننى لا أستطيع أن أرى سطح الخارج الخشن فى تلك اللحظة ، إن هذا الوعاء الأرضى يكشف لى هكذا جوانب من حضوره فقط عبر حجب جوانب أخرى من ذاته من أجل المزيد من التفحص والبحث ، لا يمكن أن يكون هناك تساؤل عن مدى استفاد ذلك الحضور للطاجن بالنسبة لحواس التلقى لدى ، إن وجوده فى محض ذاته كطاجن يؤكد بأن هناك أبعاداً كاملة غير متاحة لى ، أكثرها وضوحاً الأشكال المخفية ما بين باطنها الناعم وخارجها الخشن . وتلك الكثافة الداخلية لجسد الفخار إذا ما حطمتها إلى قطع أملاً فى اكتشاف تلك الأشكال والتصميمات الداخلية أو التكوين الرقيق لأبعادها الدقيقة فإننى سأكون قد دمرت كينونتها كطاجن ، وما أبعد ذلك عن قدرتى على إدراكها ككلية واحدة ، سوف أكون ببساطة قد خربت أية إمكانية للوصول إلى معرفة أبعد ، كونى قايضت العلاقة ما بين نفسى والطاجن من أجل العلاقة مع مجموعة من الشظايا .

وحتى وجهاً واحداً من هذا الطاجن يقاوم احتواءه كاملاً بنظرتى ، ذلك أنه مثل نفسى ، فإن الطاجن هو كائن مزاجى ، وكينونة تتحرك وتتغير عبر الزمن ، بالرغم من أن إيقاع تحولاته قد يكون أكثر بطءاً من تحولاتى ، فى كل مرة أعود فيها إلى التحديق فى السطح الخارجى الخشن للطاجن فإن عيناى ومزاجى يكونان قد تحولوا ، حتى ولو قليلاً مستعينين بالمعلومات السابقة لرؤيتى للطاجن ، إن حواسى الآن أكثر اعتياداً على الطاجن ، وباستمرار أكتشف جوانب جديدة وغير متوقعة ، غير أن هذا جزئياً بسبب أن الطاجن قد تغير أيضاً كنتيجة - ربما - لتحولات الضوء المنصب من النافذة والغبار ، والإرهاق ربما كنتيجة من تفحصاتى السابقة له ، إنتى عندما أنظر الآن إلى سطحه الخارجى الخشن حيث كنت قد رأيت سابقاً امتداداً متجانساً من الرمادى المشع فإننى أرى الآن بعض الداكن المتنوع ، بعض البقع قديمة وبعضها حديثة - وهذا هو تسجيل للأيدى الكثيرة التى لامسته خلال الفصول - إن كل بقعة تدعونى إلى التحديق فيها عن قرب أكثر حتى أميز هذه البقعة من غيرها ، وحتى أميز أياً منها

كانت من أثر يداى ، وأياً منها كان لأيدٍ أخرى ربما أضخم من يداى ، أو أدق ، وأياً منها هو آثار تلك الأيدى الأولى التى صنعت هذا الطاجن من الفخار منذ أعوامٍ طويلة مضت .

وفيما ينتظر الطاجن اشتباك عينائى الأعمق معه ويداى ، فكذا هو وضع كل شئء أو مادة فى هذه الغرفة حيث الدعوة مفتوحة وموجهة لمشاركة حواسى فى ذلك - الخزانة الخشبية بأدراجها الممتلئة ، والنباتات فى الأصص وهى تلتف بهدوء لمواجهة نور الشمس ، والكؤوس المختلفة ، والأطباق الموضوعة فى أعلى المغسلة القديمة بأنايبها الخفية والقديمة ، والطاولة الأثرية المصنوعة من أخشاب شجر الصنوبر التى أكتب عليها الآن ، ويقع القهوة عليها وجروح السكين الكثيرة التى تركت آثارها على الخشب ، وتلك الأقلام التى التصقت بأصابعى عليها ، والكتب التى تناديني من على الأرفف كى أقرأها بعمق أكثر ، بعضها يذكرنى بطفولتى ، وبعضها ينتظر ببرد كما يبدو حتى أعيده إلى المكتبة العامة . مثل الطاجن الفخارى فإن كل حضور يقدم بعض أوجهه التى تلتقى ببصرى فيما بقيته كامناً فى الخفاء وراء أفق وضعى اللحظى ، كل منها يدعونى للتركيز بحواسى عليه ، وأن أدع الأشياء الأخرى تسقط فى الخلفية فيما أنا أدخل فى عمقه الخاص ، وعندما يستجيب جسدى للحضور الأخرس لكائن آخر فإن هذا الكائن يستجيب لى بدوره ، كاشفاً لحواسى بعض الجوانب الجديدة أو الأبعاد التى تدعوني بدورها لتكشّفاتٍ أبعد ، إنه عبر هذه العملية تستطيع حواسى بالتدريج أن تعود نفسها على أسلوبية الحضور الآخر - إلى الكيفية التى تكون فيها هذه الصخرة ، أو الشجرة ، أو المائدة - فيما يبدو الآخر أنه يضبط وضعه نفسه مع أسلوبى وحساسيتى . بهذه الطريقة والتصرف فإن أبسط الأشياء يمكن أن يتحول إلى عالم بالنسبة إلىّ ، فيما عبر المحاور ، الشئء أو الكائن يأخذ مكانه بعمق أكبر فى داخل عالمى .

إن التلقى والاستيعاب فى أعمال ميرلو بونتى هو تماماً هذا التلقى ، ذلك التداخل والتبادل المستمر ما بين جسدى والكينونات المحيطة به ، إنه حوار صامت نوعاً ما ذلك الذى أحمله مع الأشياء ، وحوار دياالوج مستمر يتكشف ببعد أكبر من وعيى الشفاهى

- وغالباً حتى بشكل مستقل عن وعي الشفاهي ، مثلما حين تكون يداي جاهزتين لتفحص القضاة ما بين هذه الصفحات المكتوبة وفنجان القهوة على الطاولة دونما أن أضطر إلى التفكير في ذلك ، أو عندما تتسلق ساقاي مكاناً وترتب أمر أوضاعها دونما وعي شفاهي يوجه تلك الترتيبات . كلما هدأت من الثثرة المعتادة للكلمات داخل رأسي فإنني أجد هذه الرقصة الصامتة بدون كلمات تمضي لوحدها - ذلك الدويتو المنسق ما بين جسدي الحيواني وهذه الأرض الطيبة ، المتنفسة ، التي يحيا فيها جسدي .

الحضور الروحي للعالم المحسوس

من أين ينبثق التلقى والاستيعاب ؟ إننى لا أستطيع القول فى الحقيقة إن استيعابى المتلقى لزهرة برية معينة بألوانها وعطرها ، قد حدث نتيجة الوردية تماماً - بما أن أشخاصاً آخرين يمكن لهم أن يخبروا نوعاً ما شذى مختلفاً ، حتى أنا فى لحظة مختلفة ، أو مزاج آخر قد أرى الألوان بشكل مختلف ، وبالفعل بما أن أى نحلة تضىء على هذه الزهرة المفتحة سيكون لها وجهة نظر تلقى مختلفة عني ، ولكنى لا أستطيع أيضاً القول فى الحقيقة بأن استيعابى المتلقى قد حدث وتسبب عبرى فقط عبر جهازى العصبى أو الجسدى - أو أنه يوجد تماماً داخل رأسى ، وذلك أنه من غير الوجود الفعلى لتلك الكينونة الأخرى لتلك الزهرة المتجذرة لا فى دماغى ولكن فى تربة الأرض ، لن يكون هناك أى استيعاب و تلقى حسى للشذى أو اللون على الإطلاق ، لا لنفسى ولا لأى آخر ، سواء كان إنساناً أو حشرة .

إذن لا المتلقى ولا المتلقى سلبى تماماً فى حدث التلقى :

إن « نظرتى » تنضم إلى اللون ، ويدى تنضم إلى الخشونة والنعومة ، وفى هذا التداخل ما بين موضوع أو مادة الحواس والمحسوس لا يمكن الافتراض بأن أحداً ما يفعل والآخر يتعذب أو يعانى من ذلك الفعل ، أو أن شيئاً ما أو كينونة ماتمارس الفوقية على الأخرى ، وبعيداً عن حواس نظرى أو يدائى وقبل أن يختبر جسدى ذلك فإن المحسوس ليس سوى استحضار غامض .

إن هناك إذن استدعاء لجسدى نحو المحسوس ، وتساؤل للمحسوس موجه نحو جسدى ، إنه تعارف متداخل .

... [إن نوعية حسية، مثل اللون الأزرق] على طرف حد الإحساس به تقدم نوعاً من المشكلة التوطية لجسدى ليحلها ، إن على أن أجد الموقف الذى سيزوده بالسبل التى تحوله إلى محدد ، وواضح كالأزرق ، إن على أن أجد الإجابة لسؤال يتم التعبير عنه بشكل ملتبس ، ومع ذلك فأنا أفعل ذلك فقط عندما يدعونى إليه ، إن موقفى ليس كافياً فى حد ذاته أبداً ليجعلنى أرى حقيقة الأزرق أو ألس بالفعل السطح الخشن . إن

المحسوس يهبنى ماقد أقرضته ، ولكن هذا كان فقط ماقد أخذته منه فى المكان الأول ، حين أفكر متأملاً الأزرق فى السماء ... فإننى أترك نفسى له وألج إلى هذا الغموض ، إنه يفكر أنه نفسه بداخلى ، إننى أنا السماء نفسها فى تواجدها ، وفيما وعى يكون غارقاً فى أزرقها غير المحدود ...

إنه فى فعل التلقى - بكلمات أخرى - أنا أدخل فى علاقة متقاطعة مع المتلقى ، ويكون ذلك ممكناً فقط لأنه لا جسد ولا المحسوس يوجد خارج قطع الزمن ، وهكذا لكل منا حيويته الخاصة ، نبضه وأسلوبه ، إن التلقى بهذا المعنى هو توائم أو تصافٍ مابين إيقاعات وإيقاعات الأشياء نفسها ، نبرتها وملمسها :

... إنه فى حدود ماتعرفه يدى عن الخشونة والنعومة ، ومعرفة نظرتى لضوء القمر، إنه مثل طريقة معينة للارتباط مع الظاهرة والتواصل معها ، إن الخشونة والنعومة والصلابة والليونة ، ضوء القمر أو شعاع الشمس ، كلها تقدم نفسها فى ذكرياتنا لا كمضامين حسية مسبقة ولكن كأنواع محددة من التعايش المشترك ، طرق معينة للخارج يستطيع بها غزونا ، وطرق معينة لتقابل بها ذلك الغزو ...

فى هذه الرقصة اللامتناهية مابين الموضوع أو المادة وعالمها ، فى لحظة ما الجسد يقود ، وفى لحظة أخرى الأشياء ، فى فقرة مضبئة طرح العمق الحميمي للعلاقة السابقة أو للمفاهيم للجسد مع الأشياء المحسوسة أو القوى المحيطة به ، يكتب ميرلوبونتي حول التلقى بكلمات ذات إثارة سحرية للجسد ، و " المس " المقابل للجسد المتلقى :

" إن العلاقات مابين الإحساس والمحسوس به يمكن مقارنتها بمثل تلك العلاقات مابين النائم ونومه ، إن النوم يأتى فجأة عندما موقف إرادى محدد يتلقى فجأة من الخارج التأكيد الذى كان ينتظره ، إننى أتنفس بعمق وببطء حتى أدعو النوم إلى ، وفجأة وكأنما فمى يرتبط برئة عظيمة ما خارج نفسى والتي تدعو وتسيطر على تنفسى ، إن إيقاعاً محدداً من التنفس ، والذي كنت منذ لحظة مضت أسيطر عليه إرادياً قد أصبح الآن هو وجودى وكيونى ذاتها ، والنوم حتى الآن الذى أنشده فى ... ، فجأة أصبح حالتى. وبالكيفية نفسها حين أمنح أذنى ، ونظرتى ، فى توقع الإحساس ، وفجأة يستولى المحسوس على أذنى أو نظرتى ، وأستسلم بجزء من جسدى ، أو جسدى بكامله ، لتلك الكيفية من الإبداعات والفضاء الممتلى بذلك المعروف كأزرق أو أحمر ... " .

مالذى يمكننا أن نصنعه من هذه الطرق الغربية للحديث ؟ فى هذه الفقرة وغيرها من الفقرات فى عمل ميرلو بونتي الأساسى " علم ظواهر التلقى " ، الشئ المحسوس والشائع فى تقاليدنا الفلسفية هو أن يكون مستسلما ، وسلبياً ، وباطنياً ، ويتم وصفه دائماً فى الصوت الفاعل النشط : إن المحسوس " محير بالنسبة لى " ، " يضع إشكالية لجسدى كى يحلها " " يستجيب " لأوامرى ، و " يستولى على حواسى " وحتى : " يفكر بنفسه فى داخلى " ، إن العالم المحسوس ، أو بكلمات أخرى ، يتم وصفه كشئ نشيط ذى وجود ، " أنا " أكون نائماً ذلك الذى يتنفس ، ولكن فى بعض الأحيان حى : إنه ليس " رئة عظيمة ماخارج نفسى تستدعيني وتسيطر على تنفسى " ، لون ماهو " سلوك من الذبذبة والفضاء الممتلئ " ، شئ ماهو " كينونة " ، " آخر " فى لحظة مايقبض بنفسه بعيدا عنا ، وفى لحظة أخرى " يعبر عن نفسه " بحيوية مباشرة لحواسنا ، هكذا حتى نستطيع بالتالى أن نصف التلقى كتفاعل متبادل " نوع من الممارسة ما بين جسدى والأشياء ، بعبارة أخرى " .

هل يمكن عزو هذه الالتفاتات والجمال الوجدانية ببساطة إلى نوع من الرخصة الشعرية التى قدمها ميرلو بونتي إلى فلسفته ؟ هل هى شواهد لأسلوبية مصطنعة للكتابة ، كما قد كرر ذلك بعض النقاد ؟ لأظن ذلك . إن ميرلو بونتي يكتب عن الأشياء المحسوسة والمستوعبة ككينونات لها مزايا حسية وكقوى ، والمحسوس فى حد ذاته كحقل للحضور الوجدانى والروحى ، من أجل الاعتراف بجهود المحسوس الحيوية والنشطة فى مجال خبرة التلقى ، لوصف الحياة الباطنية والروحانية لأشياء محددة يقتضى ذلك ببساطة الطريقة الأكثر دقة لصياغة الأشياء كما نجربها بتلقائية ، نحن متجاوزون كل مفاهيمنا المسبقة ومصطلحاتنا وتعريفاتنا لها .

إن تجربتنا وخبرتنا الأشد مباشرة مع الأشياء حسب ميرلو بونتي هى بالضرورة خبرة ذات بعد متبادل للقلق ، والتوتر ، والتواصل ، والاستنتاج ، إنه من أعماق هذا اللقاء نعرف الشئ أو الظاهرة فقط كشئ بداخلها يلمسنا ، كحضور حيوى يواجهنا ويجذبنا إليه فى العلاقة ، إننا مفاهيمياً نسل أو نشئ الظاهرة فقط عبر تغييرنا الذهنى لأنفسنا من هذه العلاقة ، عبر نسيان أو كبت تورطنا الحسى . أن نحدد ونعرف كائناً آخر كشئ أو مادة أو موضوع سلبى وباطنى هو أن نرفض قدرته النشطة على

إشغالنا وإثارة حواسنا ، وهكذا نقوم بسد تلقينا الحسى مع ذلك الكائن ، عبر التعريف اللغوى للعالم المحيط بنا كشيء جاهز من الأشياء والمواضيع ، فإن ما يقطع وعينا الذوات الناطقة من الحياة التلقائية لأجسادنا الحسية .

إذا - من جهة أخرى - رغبتنا فى وصف ظاهرة محددة دونما أن نكتب خبرتنا المباشرة بها فإننا لن نستطيع أنذاك أن نتجنب التحدث عن الظاهرة ككينونة حيوية ، ووجدانية ، نجد أنفسنا متفاعلين معها ، إنه من أجل هذا السبب استخدم ميرلو بونتى باستمرار الصوت النشط الحيوى لوصف الأشياء والميزات وحتى العالم نفسه ، بالنسبة للجسد الحسى والحساس لاشيء يقدم نفسه كشيء سلبى وباطنى مغلق ، إنه فقط عبر التأكيد على روحانية الأشياء المتلقاة نستطيع أن نسمح لكلماتنا بأن تنبع مباشرة من أعماق تلقينا المتبادل مع العالم .

التلقى والاستيعاب كمشاركة

لو رغبتنا في أن نختار مصطلحاً واحداً لتوصيف حدث التلقى كما يتم طرحه في التوجه الظواهرى فلعلنا أن نستعير المصطلح " مشاركة " كما قد استخدمه عالم الأنثروبولوجى (علم الإنسان) الفرنسى لوشيان ليقي برهل ، وهو أحد علماء هذا الحقل المبكرين، إن المؤسس العبقري لمدارس " المفاهيمية " و " الرمزية " الأنثروبولوجية اليوم ليقي برهل استخدم كلمة " مشاركة " لتوصيف المنطق الوجدانى أو الروحانى للشعوب الأصلية ذات الثقافة الشفاهية ، والذين بالنسبة إليهم فإن هناك يقين حى بأن (الأشياء مثل الحجارة أو الجبال) غالبا ماتكون حية ، وأن هناك أسماء معينة ، إذا ما نطق بها عاليا ، ربما يحس أنها تؤثر من بعد على الأشياء أو الكائنات التى تمت تسميتها ، والذين بالنسبة لهم فإن نباتات معينة، وحيوانات معينة ، وأماكن معينة ، وأشخاص وقوى كلها يمكن لها أن يحس بأنها تشارك فى وجود بعضها بعضاً ، مؤثرة على بعضها بعضاً ومتأثرة بذلك بالمقابل .

بالنسبة إلى ليقي برهل كانت المشاركة إذن علاقة مستوعبة ما بين ظاهرة متنوعة ، فيما عمل ميرلوبونتي يطرح أن المشاركة هى تحديد معطيات التلقى فى حد ذاته . عبر التأكيد على أن التلقى - من وجهة النظر الظواهرية - تشارك فى الأصل ، فإننا نعى بأن التلقى دائماً يتعلق - فى أعلى مستوياته الحية الوجدانية - بالخبرة للتفاعل الحسي ، أو المزاوجة ما بين الجسد المتلقى وذلك المتلقى ، والأسبق لكل تأملاتنا المنطوقة ، وعلى مستوى حواسنا التلقائية المشتبكة مع العالم من حولنا فإننا كنا روحانيون ووجدانيون .

إن بعض الرؤى للطبيعة التشاركية يمكن إضاعتها عبر مجال حرفة ساحر خفة اليد، ذلك أن العملية نفسها تعتمد على المشاركة النشطة ما بين الجسد والعالم لخلق ذلك السحر ، للعمل - على سبيل المثال - بدولار فضى يلجأ الساحر إلى استخدام مهارة خفة اليد حتى يقوى من الحضور الخاص بالمادة ، مولداً فجوات غامضة فى رؤية العملة ، إن عيون المشاهدين - وقد تم تركيزها بالفعل على التراقص المنساب

للعملة ما بين أصابع الساحر - تملأ بشكل تلقائي تلك الفجوات بأحداث غير معقولة ، وهذه المشاركة التلقائية للمشاهدين بحواسهم هي ما يُمكن من الاختفاء والظهور ، أو المرور عبر يدي الساحر .

بعد أن أضع عملة الدولار الفضي في يدي اليمنى - على سبيل المثال - مديراً إياه بعض الوقت لجذب انتباه المشاهدين ، فإنه يمكن لي فجأة أن أخبئه وراء اليد ، قابضاً عليه ما بين إصبعين حتى لا يكون واضحاً لعيون المشاهدين ، إذا - بعد لحظات من ذلك - مددت يدي في الهواء على الجانب الآخر من جسدي بيدي اليسرى ، وأحضرت إلى المشهد دولاراً فضياً آخر كان مقبوضاً عليه بين أصابع هذه اليد ، فإن الجمهور سوف يتلقى عادة شيئاً يبدو مثيراً وغريباً في مشهديته ، إن المشاهدين لن يستوعبوا أن عملة معدنية كانت قد اختفت لبرهة ما فيما عملة أخرى تماماً في مكان آخر تم جلبها من مخبئها ، بالرغم من أن هذا بالتأكيد هو التفسير الواضح والمنطقي لما قد حدث ، والأغلب إنهم سوف يفهمون بأن عملة واحدة تم اختفاؤها من يدي اليمنى قد تحركت دون أن ترى وبشكل خفي عبر الهواء وعادت للظهور من جديد في يدي اليسرى ! ذلك أن الجسد المتلقى لا يحسب الاحتمالات المنطقية ، إنه يعرف في مشاركته في نشاط العالم ، معيراً إياه خياله للأشياء من أجل أن يراها بشكل أكثر امتلاءً ، إن الرحلة غير المرئية للعملة يتم عزوها بشكل تلقائي إلى النشاط الإباحي للحواس ، إن الساحر يدعونا للمساعدة في رؤية أشياء والتحديق بها ، ثم يذهلنا بذلك الذي نبده نحن أنفسنا !

من وجهة نظر الساحر أو عالم الظواهرية فإن ذلك الذي ندعوه " بالخيال " هو من البداية منحة من الحواس نفسها ، فالخيال ليس بمنفصل عن الهيئة الذهنية (كما نفترض على الدوام) لكنه بشكل آخر هو الطريق الذي تقذف به الحواس نفسها إلى ما هو أبعد من المعطى المباشر ، من أجل أن تخلق تواصلاً حساساً مع الجوانب الأخرى للأشياء التي لاندركها مباشرة مع الخفي أو الجوانب غير المرئية للمحسوس ، ومع ذلك فإن مثل تلك الإسقاطات (أو التوق للحواس) ليست عشوائية ، إنها تستجيب بشكل منتظم للاقتراحات التي يقدمها المحسوس نفسه . إن الساحر - على سبيل المثال - قد جعل السحر مسيطراً على الجمهور عبر متابعة للرحلة غير المرئية للعملة بتركيز عيني ، وعبر " إحساس " خيالي بالعملة وهي تغادر يداً لتصل إلى راحة اليد الأخرى ، إن الجمهور يستشعر مستجيباً للحركة الخافتة في جسد الساحر وفي العملة أيضاً ، وسيجد آنذاك التأثير صعب المقاومة ، وبكلمات أخرى إنه عندما يدع الساحر " نفسه " تحت أسر السحر فإن الجمهور سيكون طائعاً للحاق به .

بالطبع هناك أولئك القلة الذين ببساطة لن يروا السحر ، سواء فى أداء أو فى العالم عموماً مسلحين بتفسيرات وتحليلات لاتنتهى ، إنهم " يرون " فقط كيف يمكن لتلك الحيلة أن تعمل ، ومن المعتاد أن يدّعوا أنهم قد "قبضوا بنظرهم على الأسلاك " أو أنهم قد رأونى وأنا" أرمى باحتيال العملة إلى اليد الأخرى " ، بالرغم من أننى أنا نفسى لم أفعل ذلك على الإطلاق ، مُشجّعين عبر النسق الحضارى أو الثقافى الرافض لغير المتوقع والذي يضع أولوياته على مسألة الموضوعية غير المنحازة ، فإن أشخاصاً كهؤلاء يحاولون أن يحبطوا أية مشاركة لحواسهم فى الظاهرة المتمثلة أمامهم ، مع ذلك فإنهم يستطيعون فعل ذلك فقط عبر الإسقاط الخيالى لظاهرة أخرى (أسلاك ، أو خيوط ، أو مرايا) ، أو بإشاحة النظر .

فى الحقيقة ، بما أن فعل التلقى دائماً ذو نهاية مفتوحة وغير مكتملة فإننا لايمكن لنا أن نكون مُغلّقين تماماً فى أية لحظة معينة من المشاركة ، فيما يشيخ المشاهد بعينه عن سحر الساحر ، فإننا دائماً بشكل ما أحرار فى كسر مشاركتنا مع أية ظاهرة معينة ، وبهذه الكيفية مستغرق فى تأمل حفنة من الحشائش فإنه يمكن لى بالرغم من ذلك أن أحول اهتمامى إلى مجموعة الأشجار القريبة ، أو أن تركيزى يحدث له فجأة أنه يتجه إلى ذبابة قد حطت على أنفى . وبالمثل فإنه يمكن لنا أن نكسر ببساطة ولعنا بدعاية تلفزيونية من أجل أن نلاحظ كيف تلعب على عواطفنا ورغباتنا ، غير أننا نؤجل مثل هذه المشاركة من أجل مشاركات أخرى حادثة بالفعل مع الأشخاص الآخرين فى الغرفة ، مع الكرسي الياپس وغير المريح الذى نجلس عليه ، مع أفكارنا الشخصية وتحليلاتنا .

إننا دائماً مانحتفظ بالقدرة على استبدال أو تأجيل أية لحظة معينة من المشاركة ، ومع ذلك فإننا لانستطيع أبداً أن نؤجل أو نلغى ذلك التدفق من المشاركة نفسها .

الإحساس الجسدى - امتزاج الحواس

حتى الآن كنّا قد تحدثنا عن التلقى بشكل بصرى ، غير أن التلقى يشمل اللمس أيضاً والسمع والشم والتذوق ، عبر مصطلح " التلقى " نحن نعنى النشاط الكلى لكل حواس الجسد كما تعمل وتزهر " معاً " . بالفعل إذا قربت انتباهى لخبرتى غير الناطقة لتحولات سطح الأرض من حولى ، فإنه يجب على أن أعى بأن تلك الحواس المدعوة بالمنفصلة هى حواس مختلطة ببعضها بعضاً ، وأنه يحدث فقط بعد الأمر أن أستطيع العودة للخلف وأن أفصل المعطيات المحددة لعينى ، وأذناى وبشرتى ، وحال ما أحاول أن أميز مدى نصيب أى من هذه الحواس عن الأخرى فإننى بالتالى أظلم المشاركة الكلية لجسدى الحساس مع الأرض الحسية .

عندما - على سبيل المثال - أشهد هبوب الرياح من خلال أغصان شجرة الحور فإننى أكون غير قادر فى البداية على تمييز منظر تلك الأغصان المرتجفة بأوراقها من حفيفها المرهف ، إن عضلاتى أيضاً تحس بتلك الرياح فيما تنحنى تلك الأغصان وبخفة شديدة فى مواجهة هبوب الرياح ، وهذا يولد لقاء مع نوع معين من التوتر ، إن هذا اللقاء أو الاحتكاك يتأثر أيضاً بالرائحة المنعشة لرياح الخريف ، وحتى بطعم تفاحةٍ مازال عالقاً بلسانى .

وبالرغم من ذلك فإن فى هذه المحاولة القصيرة للإقرار بعطاء الحواس المختلفة كان على أن أعزل نفسى من " الأرضية الرئيسية لخبرة الحواس والتى تسبق تقسيماتها ما بين الحواس المختلفة " ، وبالرغم من أن علم الأعصاب المعاصر يدرس " الإحساس الجسدى " - المجال الكلى لامتزاج الحواس - وكأنه خبرة تشريحية نادرة لا يشعر بها إلا قلة من الناس (أولئك الذين يبلغون عن " رؤية الأصوات " ، و " سماع الألوان " وما يشبه ذلك) فإن خبرتنا السابقة للمفاهيم كما يضعها ميرلو بونتى هى إحساس جسدى بالضرورة . إن تمازج القدرات الحسية والحواس يبدو غير عادى لنا فقط إلى درجة أصبحنا فيها مفترين عن خبراتنا المباشرة (وبالتالى عن احتكاكنا الأساسى مع الكينونات والعناصر التى تحيط بنا) :

... إن التلقى عبر الإحساس الجسدى هو القانون ، ونحن غير واعين به فقط لأن المعرفة العلمية تحول مركز الجاذبية للخبرة ، حتى إننا علينا أن نتخلى عن معرفتنا بكيفية الإبصار والسمع ، وبشكل عام الشعور من أجل أن نقلص من تنظيماتنا الجسدية والعالم كما يفهمه الأطباء والعلماء ، فيما يتعلق بما نراه ، أو نسمعه ، أو نشعر به .

بالرغم من ذلك مازلنا نتحدث عن الألوان " الباردة " أو " الدافئة " ، وعن الملابس " الصارخة " ، وعن الأصوات " الصلبة " أو " الخشنة " ، إن الجسد الناطق يحول بيسر الصفات من مستوى حواسي معين إلى آخر تبعاً لمنطق نفهمه بسهولة لكننا لانستطيع أن نشرحه بالبساطة نفسها .

إن الكثير من الغربيين يصبحون واعين لذلك التداخل ما بين الحواس فقط عندما يتعطل مؤقتاً ذلك المنطق المفترض التحليلي لثقافتهم وحضارتهم .

ميرلو بونتي يناقش التأثير على الباحثين الأوروبيين لنبته الهلوسة المخدرة (ميسكالين) ، والمستخلصة من الصبار المكسيكي ، وهى نبته يتم استخدامها تقليدياً فى الاحتفالات الطقوسية للقبائل الأصلية فى المكسيك وأمريكا الشمالية .

"إن تأثير نبته " الميسكالين " عبر إضعاف الموقف غير المتحيز والاستسلام للموضوع وحيويته عليه (إذا كنا محقين) أن ينحاز إلى أشكال خبرة الإحساس الجسدى ، وبالفعل تحت تأثير " الميسكالين " فإن صوت الناي يعطى لونا أخضر مزرق ، (و) آلة قياس النبض بدقاتها فى الظلام يتم ترجمتها إلى بقع رمادية ، الوقفات الزمنية ما بيننا تستجيب إلى الوقفات الزمنية ما بين الدقات ، الحجم للبقعة بالمقارنة بعلو صوت الدقة ، وارتفاعها بالقياس إلى ارتفاع الصوت ، إن شخصاً واقفاً تحت تأثير " الميسكالين " يعثر على قطعة من الحديد يقذف بها إلى النافذة ويتعجب : " إن هذا لسحر " ، إن الأشجار تزداد خضرة ... أن ترى من وجهة نظر العالم الموضوعى ، فإن ظاهرة الإحساس الجسدى وخبرته تبقى محيرة ... " .

غير أنه إذا نُظِرَ إليها من وجهة نظر حياة العالم – من منظور من خارج الوعى النظرى – فإن مثل هذه التجارب والخبرات يتم وعيها كنوع من التضخم أو التركيز الشديد لظاهرة عادية غالباً ماتحدث طوال الوقت .

إن هذا ليس رفضاً لتمايز النماذج ما بين الحواس ، إنه للتأكيد على أنها نماذج متمازجة في الجسد المفرد والمتوحد والحي ، وأنها قوى مكملة لبعضها بعضاً تتطور في تداخل معقد مع بعضها بعضاً ، إن كل حاسة هي نموذج متميز لهذا الوجود الجسدي ، ومع ذلك من خلال نشاط التلقى فإن هذه النماذج المتنوعة للحواس تتداخل في تواصلها وتختلط . إنه هكذا إذن حين يخلق غراب في البعيد هو ليس - بالنسبة إلى - مجرد صورة بصرية ، حين أتابعه بعيني فإنني بالضرورة أشعر بتمدد وتقلص جناحيه مع عضلاتي أنا ، وهبوطه المفاجئ على أشجار قريبة هو إحساس جسدي وليس مجرد خبرة بصرية بالنسبة إلى .

إن نعيق الغراب العالى والمتقطع وهو يحوم فوق الرؤوس ليس مقصوراً على المجال السمعي حصراً ، إنه يجد صداه "من خلال" الوجدان الحي ، المباشر ، للأرض المرئية بالأسلوب العبثي ، أو المزاج الصحيح الذي يتجاوب مع ذلك الشكل الطائر الأسود ، إن حواسي المتعددة والنابعة كما تفعل من جسد واحد ، متجانس ، تتبع بتجانس أيضاً في الشيء المستوعب ، تماماً كما الأبعاد المنفصلة لعيني الاثنين تقع على الغراب وتتوحد في تركيز بصري واحد ، إن حواسي تتواصل مع بعضها بعضاً بطريقة منسجمة ، وهذا هو ما يمكنني من تجربة خبرة الشيء نفسه كمركز للقوى ، كشكل آخر للخبرة ، كآخر .

وبما أننا ، فيما وصفنا التلقى كمشاركة حيوية ما بين الجسد والأشياء فإننا الآن نجد في فعل التلقى مشاركة ما بين أنظمة الحواس المتعددة للجسد نفسه ، وبالفعل إن هذه الأحداث ليست بمنفصلة ؛ ذلك أن تمازج الجسد مع الأشياء التي يتلقاها ويستوعبها تتأثر فقط عبر تداخل النسيج لحواسي ، والعكس صحيح ، إن الامتزاج النسبي لحواسي الجسدية (العينان في مقدمة رأسى ، الأذنان إلى الخلف ، ... إلخ) وتلك الثنائية الغريبة (ليست عينا واحدة بل اثنتين ، كل منهما في جانب من وجهي ، وكذلك الأذنان ، والمنخران ، ... إلخ) تشير إلى أن هذا الجسد هو شكل قد خلق لهذا العالم ، إنه يضمن أن يكون جسدي نوعاً من الدائرة المفتوحة والمكملة لنفسها فقط عبر الأشياء ، الآخرين في هذه الأرض الحاضرة .

إن استعادة شفاء الحواس هو استعادة اكتشاف الأرض

فى خريف عام ١٩٨٥ ضرب إعصار قوى ضواحي ' لونغ آيلند ' حيث كنت أعيش كطالب ، لأيام عديدة بعد ذلك كان معظم السكان يعيشون بدون تيار كهربائى ، كانت الخطوط الكهربائية كلها قد انقطعت ، وكذلك التليفونية ، وكانت الشوارع تمعج بالأشجار المتساقطة ، كان على الناس أن يسيروا إلى أعمالهم ، إلى أية دكاكين يقصدونها ما زالت مفتوحة ، بدأنا نقابل بعضنا بعضاً فى الشوارع " شخصياً " بدلاً من الاتصالات الهاتفية ، فى غياب السيارات ومحركاتها المزعجة فإن إيقاعات الجنادب وزقزقة العصافير صارت مسموعة ، كانت أسراب الطيور تهاجر جنوباً فى الشتاء ، وكثيراً منا وجد نفسه ببساطة يستمتع بفضول جديد وطفولى لتلك الزقزقات على الأشجار وفى الحقول ، وفى الليل كانت السماء تعج بالنجوم ! الكثير من الأطفال ، لم تعد عيونهم معمىة بأنوار البيوت المشعة وأنوار الشوارع المصارخة ، رأوا الدرب الطيبى للنجوم للمرة الأولى ، وكانوا مندهشين . فى تلك الأيام والليالى القليلة صارت مدينتنا مجتمعاً واعياً بمكانه فى هذا الكون المحيط بنا ، وحتى أنوفنا بدت وكأنها تستيقظ ، الروائح الطازجة من المحيط بدت أكثر حيوية وملحاً ، إن توقف التكنولوجيا المحيطة بنا قد أجبرنا على العودة إلى أرضنا الطبيعية التى تنغرس فيها هذه الحواس إلى العمق ، لقد وجدنا أنفسنا فجأة مواطنين فى عالم حسى كان فى انتظارنا لسنوات على حافة وعينا ، أرض ومحيط حميم مسكون بزقزقة العصافير ، وملح البحر ، وضوء النجوم .

حين نعيد تعارفنا مع أجسادنا التي تتنفس فإن العالم المُتَلَقَّى نفسه يبدأ فى التحرك والتحول ، حينما نبدأ بوعى فى ارتياد البعد الذى هو بدون كلمات لمشاركتنا الحسية فإن ظاهرة معينة اعتادت قيادة تركيزها تبدأ فى فقد ولعها المميز والتسلل إلى الخلفية ، فيما حضور مُتَجَاهِل أو غير ملحوظ يبدأ فى الوقوف أماماً من الهامش ليُشَاغِلَ وعينا . إن الأشياء التى لاحصر لها من صنع الإنسان والتى نحن منشغلون بها عادة - الشوارع الإسفلتية والأسوار وأسلاك التليفونات والنباتات والأنوار الكهربائية والأقلام المدببة البلاستيكية والسيارات وإشارات المرور فى الشوارع والعلب البلاستيكية والصحف والراديو وشاشات التلفزيونات - كلها تبدأ فى عرض أسلوب مشترك ، وهكذا تبدأ فى فقد بعض اختلافاتها فى هذه الأثناء ، الكينونات العضوية - العصافير والسناجب والأشجار والحشائش البرية المحيطة ببيوتنا ، صوت الحشرات ، الينابيع والسحب ، والأمطار - كلها تبدأ فى عرض حيوية جديدة كل منها يتعايش مع الجسد المنتفخ فى رقصة متميزة ، حتى الصخور والأحجار تبدو أنها تتحدث لغاتها التلقائية فى الحركة والظلال ، داعية الجسد وعظامه إلى تواصل صامت فى صلة مع الأشكال الأصلية للأرض ، فإن حواس الشخص تندفع فيها الطاقة بهدوء وتستيقظ مازجةً ومعيدة تركيب النماذج المتحولة على الدوام .

ذلك أن هذه الأشكال الأخرى والكائنات قد تشاركت فى التطور مثل أنفسنا مع بقية الأرض المتحولة ، إن إيقاعاتها وأشكالها متشكلة من سطوح فوق بعضها من الإيقاعات المبكرة ، وفى انشغالها مع حواسنا تقود إلى عمق لا ينتهى يتجاوب صداه مع أبداننا نفسها . إن النماذج على سطح النهر فيما تتحرك على الصخور ، أو على جذع شجرة الدردار ، أو فى حفنة أعشاب ، فإنها كلها مكونة من أشكال مكررة لاتعيد نفسها أبدا بالضبط فى أشكال يمكن لحواسنا أن تألفها ، حتى من خلال التحول التدريجى لتلك الأشكال التى تجذب وعينا دون توقع أو اتجاهات معروفة .

بالمقابل فإن الصناعات المنتجة للاستهلاك العام فى العالم المتحضر من علب اللب الإلكترونية إلى أجهزة الغسالات الكهربائية وأجهزة الكمبيوتر تجذب حواسنا إلى رقصة تكرر نفسها بلا نهاية دون تنويع ، بالنسبة للجسد الحساس فإن هذه المصنوعات هى - مثل كل الظواهر - حية وذات روح ، غير أن حياتها مقيدة بشدة " بأغراضها " المحددة التى صُنِعت من أجلها ، حين تسيطر أجسادنا على هذه

الأغراض فإن الأشياء المصنوعة آليا عادة ماتعلم حواسنا مالميس أبعد من ذلك ، إنها عاجزة عن إدهاشنا ، ولذلك فإنه يتوجب علينا باستمرار أن نحصل بروح استهلاكية على أشياء مصنوعة حديثاً ، تقنيات وآلات جديدة ، آخر موديل من هذا أو ذاك إذا أردنا أن نرقه عن أنفسنا .

بالطبع إن مصنوعاتنا البشرية تبقى محتفظة بعنصر مما هو أبعد من البشرى وآخر . إن هذه اللامعرفة ، ذلك الآخر يسكن غالباً فى الشكل المادى الذى صنعت منه تلك الأشياء والأدوات ، جذع الشجرة لعمود أسلاك التليفون ، الفخار فى الطوب الذى بنى به هذا المبنى ، المعدن الناعم الذى صنعت منه أبواب السيارة التى نتكى عليها ، كل هذه مازالت تحمل – مثل أجسادنا – ملمس وإيقاعات نموذج نحن أنفسنا لم نخلقه أو نصنعه ، والحيوية الهادئة لتلك الأشياء تتماس مباشرة مع حواسنا ، غير أنه غالباً ما تختنق هذه الحيوية فى البناء ذى الإنتاجية المعدة للاستهلاك العام ، مقطوعة عن بقية الأرض ، مسجونة فى الآلية التكنولوجية التى تطحن الأرض الحية ، إن الخطوط السوبر مستقيمة والزوايا الدقيقة لمعمار مكاتبنا – على سبيل المثال – تجعل حواسنا الحيوانية بلانفع وتذروها بعيداً فيما تقوى من دعائم الذكاء التجريدى الذهبى ، إن الوحشى، الطبيعة المولودة من الأرض للمواد – الأخشاب والطين ، والفخار ، والمعادن ، والأحجار التى استُخدمت فى المبنى – صارت بالفعل منسية وراء التجريدات المحسوبة للأشكال .

وبهذه الكيفية فإن الكثير من بيئتنا المبنية ، والكثير من الصناعات التى تسكنها تبدو للأسف بليدة وجامدة عندما نتعاطف مع أجسادنا ونتذوق العالم بحواسنا الغريزية الحيوانية (بالطبع هذا ليس للقول أن تلك الصناعات بريئة: فالكثير منها مزعج بشدة وصاخب ، ومعنى للأبصار حتى ، ذلك أن ماتفتقده هذه الأشياء فى التنويعات والإثارة عليها أن تعوض عنه فى الإبهار والضجيج الذى يحتكر حقل التلقى والاستيعاب) كلما افترضنا الوضع للحيوان البشرى – الموضوع الجسدى لميرلو بونتي – يحدث أن العالم المادى بأكمله يبدو وكأنه يستيقظ ويتكلم فيما الكينونات العضوية المولودة فى الأرض تتكلم بشكل أرقى بكثير من البقية ، ومثل الضواحي فيما بعد الإعمار ، نجد أنفسنا أحياء فى الحقل الحى لقوى أكثر قدرة على التعبير والتنوع عن المحيط البشرى المحض الذى اعتدناه .

و هكذا فإن شفاء وعودة العافية إلى البعد الحسى الطبيعى للخبرة والتجربة يجلب معه الشفاء وعودة العافية إلى الأرض الحية التى نحن متجذرون فيها ، عندما نعود إلى حواسنا فإننا نكتشف تدريجياً أن تلقينا واستيعابنا الحسى هو ببساطة جزؤنا ودورنا فى شبكة عمل واسعة متوالية للتلقى والإحساس المتولد عبر أجساد كثيرة أخرى لأتحدى - مدعمة بمعنى لا بذواتنا فقط ولكن بينابيع تلجية، تضخ داخل مسطحات جرانيتية، وبأجنحة البوم والخفافيش ، وبذلك الذى لا يرى فى حضور الريح.

إن هذه الشبكة المتشابكة، بالطبع ، " عالم - الحياة " التى كرس هسيرل نفسه لها فى أعماله الأخيرة ، مازالت الآن كعالم حياة قد كشفت " كحقل " جسدى حسى عميق ، فيما هذا البعد نفسه للروائح والطعوم وأصوات الإيقاعات التى تدفئها الشمس وتعج بالبذور . إنها بالفعل لا شئ سوى الأجواء - التوازى ما بين الحياة الأرضية التى نحن أنفسنا متجذرون فيها ، ومع ذلك فإن هذه ليست هى الأجواء التى صممها العالم الموضوعى التجريدى ، ولا التشكيل المعقد للآليات الفضائية التى تم افتراض أنها قد خططت وقيست عبر مراكبنا الفضائية الحساسة والبعيدة ، إنها بالأحرى الأجواء كما يتم الإحساس بها وخبرتها والحياة فيها " من الداخل " عبر الجسد الذكى - عبر الحيوان البشرى المهتم والحساس الذى هو بكامله جزء من العالم الذى هو أو هى يجربه ويعيشه .

الموضوع أو الشيء كبدن

فى عمله الأخير " المرئى وغير المرئى " (العمل الذى لم يكتمل بسبب وفاته فى عام ١٩٦١) كان ميرلو بونتى يسعى إلى طريقة جديدة للحديث تكون معبرة عن رؤية الحيوان البشرى والعالم الذى يحيا فيه ، هنا يكتب هو بشكل أقل حول " البدن أو الجسد " (والذى فى أعماله المبكرة كان قد ضخم أساساً فيها الجسد البشرى) ويبدأ فى الكتابة بدلاً من ذلك عن " اللحم " الجماعى ، والذى يضخم أهمية كل من لحمنا و"لحم العالم " ، يقصد ميرلو بونتى باستخدام كلمة " اللحم " أن يشير إلى قوى مبدئية لم يكن لها أى مسمى فى التاريخ الكامل للفلسفة الغربية ، إن اللحم هو الخلايا الغامضة أو الرحم الذى يبطن ويمنح البزوغ للثنتين المتلقى والمتلقى كجوانب متداخلة لنشاطه التلقائى ، إنه الحضور المستوعب للإحساس فى المحسوس والمحسوس فى الإحساس ، إنه الغموض الذى طالما كنا واعين به ، بما أننا لم نستطع أبداً أن نؤكد إحدى هذه الظواهر ، العالم المتلقى أو الذات المتلقية ، دونما أن نؤكد ضمناً على وجود الآخر ، نحن غير قادرين حتى على أن نتخيل أرضاً حسية لاتستطيع فى الوقت نفسه أن تُحس (بما أنه فى تخيل أية أرض كطبيعة لا بد لنا من تصورها من منظور محدد ، وهكذا ندخل بحواسنا نحن ، وبأحاسيسنا بالفعل ، فى هذه الأرض - الطبيعة) ، وبالمثل غير قادرين على تخيل كلى للذات الحساسة ، أو الإحساس الذى لن يكون غارقاً فى حقل ما من الظاهرة المحسوسة .

وبالرغم من ذلك فإن المسار العلمى التقليدى يميز الحقل الحسى بشكل تجريدى من التجربة أو الخبرة الحسية ، ويحافظ عموماً على رؤية الخبرة الشخصية على أنها قد " حدثت " بسبب وضع موضوعى وعملية فى الحقل الآلى الحتمى للمحسوس ، فى أثناء ذلك فإن الروحانية الخاصة بتيار العهد الجديد تتميز أو تفضل باستمرار

إحساسنا، أو الخصوصية بشكل تجريدي عن الشيء الحسى ، وغالباً ما تطرح أن الحقيقة المادية فى حد ذاتها هى تأثيرات وهمية تسبب فيها العقل غير المادى أو الروح ، وبالرغم أنه من الشائع أن يُرى من طرفى النقيض فى وجهات نظر العالم فإن هذين الموقفين يفترضان اختلافاً نوعياً ما بين الإحساس والمحسوس ، عبر عمل أولوية لأحدهما على الآخر . إن كلا وجهتى النظر ترعيان الفرق بين " المواضيع البشرية و " المواضيع الطبيعية " ، ومن ثم كلاهما لايهدد المفهوم الشائع للطبيعة الشعورية أو الحسية كبعد سلبي جامد بشكل خالص ومناسب للاحتكار والاستعمال البشرى ، وفيما كلتا النظرتين غير مستقرتين فإن كلا منهما تدعم الأخرى ، عبر القفز من واحدة لأخرى . إن المسار الحالى يتجنب بسهولة الإمكانية بأن الاثنين : الكائن المتلقى والكائن المُتلقى هما الشيء نفسه ، وأن المتلقى والمتلقى متداخلان فى اعتمادهما على بعضهما بعضا ، وبمعنى ما ربما جوانب متعاكسة لعنصر وجدانى أو روحى مشترك ، أو لحم هو فى الوقت نفسه المحسوس والحساس .

نحن بالفعل نجرب ونشعر بهذا التضارب فيما يتعلق بالأشخاص الآخرين ، هذا الغريب الذى يقف أمامى وهو موضوع لتحديقى ونظرتى فجأة يفتح فمه ويتحدث إلى ، مجبراً إياى على الاعتراف بأنه مادة تحس وتشعر مثلى ، وأننى أنا أيضاً موضوع لتحديقى ونظرتى، إن كلا منا علاقته بالآخر هو الاثنين معاً: الذات والموضوع ، الإحساس والحسية ، لماذا إذن لا يكون ذلك أيضاً فى العلاقة مع آخر ، كينونة غير بشرية – أسد جبل مثلاً ، كنت قد قابلته بشكل غير متوقع فى الغابة الشمالية ؟ بالفعل ، إن مثل هذا اللقاء يجلب لى بقوة حتى أكثر ، إننى لست مجرد موضوع حساس ولكننى أيضاً شئ أو موضوع محسوس ، حتى موضوع أو شئ للالتهام ، فى العينين (والأنف) عند الآخر ، حتى مجرد نملة تدب على ساعدى ، مرئية لعينى وأحسها على جلدى ، تعرض فى الوقت نفسه إحساسها ، وتستجيب مباشرة لحركاتى ، حتى إلى التعبير الكيميائى فى مزاجى ، فيما يتعلق بالنملة فإننى أحس بنفسى كشئ أو موضوع مادى كثيف ومتقلب الأهواء فى أفعالى مثل الأرض غير

الازدواجية نفسها. أخيرا ، إذن لماذا لا تكون هذه " الانعكاسية " للموضوع والشئ ممتدة لكل كينونة أُخْبِرُها وأجربها ؟ عندما أعترف بأن أحاسيسي نفسها أو خصوصيتي لا تستثنى وجودي الواضح الموضوعى كشيء للآخرين ، إننى أجد نفسى مُجْبَرًا على الاعتراف بأن " أى " شكل واضح وهش يقابل تحديقى ونظراتي قد يكون هو أيضاً فى حالة إحساس خبرة كمادة حساسة ومتجاوبة مع الكائنات من حوله ، ومعنى أنا أيضاً .

اللمس وأن تكون ملموساً : تواصل الحسّ

من أجل أن يعرض ، بحثياً ، أطروحته حول اللحم ، فإن ميرلو بونتي يقدم ماقد يكون أكثر التوضيحات مباشرة لذلك الذى اصطلاحنا عليه " بالمشاركة " ، إنه يدعو الانتباه إلى الواضح ولكن الواقع المتجَاهل بأن يدى قادرة على لمس الأشياء فقط لأن يدى فى حد ذاتها شىء ملموس قابل للمس ، وهكذا هى بشكل كامل جزء من العالم الذى تستكشفه ، وبالمثل ، العينان اللتان أرى بهما الأشياء ، هما فى حد ذاتهما واضحتان ومرئيتان بسطحيهما اللامعین ، لونهما وظلالهما ، إنهما متضمنتان داخل الحقل المرئى الذى تبصرانه ، إنهما هما نفسيهما جزء من المرئى مثل الجذع بالنسبة لشجرة الصنوبر ، أو قطعة من حجر رملى ، أو السماء الزرقاء.

أن تلمس اللحم الخشن لشجرة هو أيضاً فى الوقت نفسه أن تجرب وتحس بنفسك ملموسا عبر لمسة الشجرة لك ، وأن ترى العالم أيضا فى الوقت نفسه هو أن تجرب وتحس بنفسك بالوضوح نفسه ، أن تشعر بأنك مرئى . من الواضح ، أن ذهننا كاملاً غير مادی لا يستطيع أن يرى الأشياء أو يلمسها ، بالفعل لا يستطيع أن يخبر ويحس أى شىء على الإطلاق ، نحن نستطيع أن نجرب ونحس الأشياء ، نستطيع اللمس والسمع ، وتذوق الأشياء فقط بسبب أننا كأجساد نحن أنفسنا ضمن الحقل الحسّى ولنا ملمسنا وأصواتنا وطعمنا ، نستطيع أن نستوعب الأشياء فقط لأننا نحن أنفسنا بشكل كامل جزء من العالم الحسّى الذى نستوعبه ونتلقاه ! يمكن لنا أن نقول إننا نحن أعضاء لهذا العالم ، لحم لحمه ، وأن هذا العالم هو متلقى فى حد ذاته من خلالنا .

سائرين فى الغابة ننظر إلى الأخضر فيها وأعماق الظلال ، نستمتع إلى صمت أوراق الأشجار ، نتذوق الهواء المنعش وأريجته ، ومع ذلك هكذا هو انتقال التلقى ، انعكاس اللحم ، إلى درجة أننا يمكن أن نشعر فجأة بأن الأشجار تنظر إلينا - نشعر بأننا عارون ، مراقبون ، وملحوظون من كل الجوانب، مكشوفون . لو تجولنا فى

الغابة لشهور كثيرة أو سنوات فإن تجربتنا قد تتغير وتتحول من جديد ، لعلنا نصل إلى الشعور بأننا جزء من هذه الغابة ، جزء منها ، وأن تجربتنا مع الغابة ليست سوى تجربة الغابة وإحساسها بنفسها .

هذا هو التبادل والروحانية التى تسطع من الواقع البسيط بأن أجسادنا الحساسة والحسية مستمرة تماماً مع الجسد الواسع للأرض ، وأن " حضور العالم هو فى حد ذاته حضور لحمه فى لحمى تماماً " .

إن أطروحة ميرلو بونتي حول لحم العالم ، بالإضافة إلى اكتشافاته ذات الصلة فيما يتعلق بالتلقى والاستيعاب المتبادل ، يضع عمله في توافق مذهل مع وجهات نظر العالم للكثير من الثقافات الشفاهية الأصلية ، بالنسبة إلى الباحث الأنثروبولوجي للثقافات ريشارد نيلسون في دراسته المضيئة عن التوازن البيئي لهنود " الكويكون " في شمال وسط آلاسكا فإنه يقول :

" إن أهل " الكويكون " التقليديين يعيشون في عالم يراقب في غابة من العيون ، إن شخصا يتحرك وسط أو خلال الطبيعة - أيا كانت وحشيتها ، وإن كانت نائية ، أو حتى مكان مهجور - لا يمكن له أن يكون وحيدا .. إن المحيط به واع ، حساس ، وشخصي . إنهم يشعرون ، ويمكن أن تحس تلك الموجودات بالإهانة ، ولابد - في أية لحظة - أن يعاملوا بكامل الاحترام " .

مثل هذا المزاج للتجربة ، والذي يبدو غريبا جدا ومشوشا لطرقنا المتحضرة في التفكير تصبح مفهومة حالما نعترف تحت سطح افتراضاتنا التقليدية بالطبيعة التبادلية للتلقى المباشر . إن واقع أننا نلمس معنى هو أن يشعر المرء نفسه بأنه ملموس ، أن ترى هو أن تشعر أيضا بأنك مرئي ، إن وصف نيلسون السابق يقترح أيضاً أن تلقيا متبادلاً مثل هذا عندما يتم الاعتراف به في حيز الوعي ربما يؤثر بشكل عميق في سلوك الشخص إذا كانت الأشياء المحيطة قد خبرت أو عرفت بأنها حساسة مثلنا ، منتهية ويقظة ، ومراقبة ، إذن على أنذاك أن أنتبه إلى أفعالي وأن تكون أفعالاً محترمة ومراعية للموجودات ، حتى وأنا أبعد ما أكون عن البشر الآخرين ، حتى لا أهين الأرض المراقبة نفسها .

قد يحدث أن تكون " أخلاقيات البيئة " الجديدة التي يصبو إليها الكثير من فلاسفة البيئة - أخلاقيات قد تقودنا نحو احترام والمحافظة على حياة لا إخواننا من البشر فقط وإنما أيضا الحياة عموماً ، وسلامة بقية الطبيعة سوف تأتي إلى الوجود لا من خلال الفكر المنطقي للمبادئ الفلسفية الجديدة والقوانين التشريعية ولكن من خلال اهتمام متجدد بهذا البعد الاستيعابي الذي يبطن كل أسس منطقنا ، وعبر إنعاش حواسنا وعاطفتنا نحو الأرض ، الحياة التي تغذى وجودنا .

إن مثل هذا الشفاء واسترداد العافية قد يكون - ربما - حاضرا بالفعل في الطريق ، الكثير من الأفراد اليوم يشعرون بقلق عميق وجاد يزداد مع كل تقرير جديد

عن إفناء الغابات القديمة ، وحوادث إغراق البحار بالبترول ، والفقد والانقراض المستمر لكثير من الحيوانات والحياة البرية ، إنه قلق يبدو قادما من الأرض نفسها ومن جسدها ولحمها المتسع الذي تسكنه أجسادنا ولحومنا ، وبكلمات قائد " الكويكون " العجوز نفسه : " إن الأرض تعرف ، إذا ما ارتكبت خطأ في حقها ، إن كامل البلاد تعرف ، إنها تشعر بذلك الذي يحدث " .

إن تأثير نوع تبادل التلقى الاستيعابي على الشخص نفسه وسلوكه واضح جدا أيضا في هذه الكلمات لتورلينو العجوز ، أحد قادة قبائل النافاجو الهنود في أمريكا الشمالية عندما كان يقول قبل أن يحكى جزءا من قصة الخلق :

إننى خَجَلُ أمام الأرض

إننى خَجَلُ أمام السماء

إننى خَجَلُ أمام الفجر

إننى خَجَلُ أمام هبوط المساء

إننى خَجَلُ أمام السماء الزرقاء

إننى خَجَلُ أمام الشمس

إننى خَجَلُ أمام ذلك الذى يقف بداخلى ويتحدث معى

بعض هذه الأشياء دائما تنظر إلى

إننى لا أغيب أبدا عن نواظرها

لذلك فإنه يتوجب على أن أقول الحقيقة

إننى أحتضن كلمتى بشدة فى صدرى .

إن السطور الأخيرة من هذه الصلاة / الترتيل تدعو انتباهنا إلى أن الكلام فى حد ذاته كشكل من السلوك يمكن له أن يكون مراعى أو لامباليا ، الصدق أو عدمه ، فى وجه الوجدان والإحساس الكونى ، إن الكلمات المنطوقة هنا هى أشكال حضور حقيقية ، كينونات يمكن لها أن تُرى - " أحتضن بشدة فى صدرى " - أو أن أبعثرها بلا مبالاة فى وجه الكون ، إن هذه الجُمَل من النافاجو ، مثل كلمات "الكويكون" من قبلها تقيم شهادة لا على طريقة مختلفة للرؤية فقط ، وإنما أيضا طريقة للتحدث والكلام مختلفة تماما عن تلك التى اعتادها الكثيرون . إن ممارسة اللغة مابين القبائل والشعوب الأصلية قد تبدو أنها تحمل أهمية مختلفة تماما عن تلك التى لدى الغرب الحديث ، متجذرة أساسا فى الأغنية والصلاة والحكاية ، مابين الشعوب الشفاهية تلعب اللغة دورها لا للحوار فقط مع بشر آخرين ولكن للحوار مع الكون الأكثر مما هو بشرى ؛ لتجديد تبادل التلقى والاستيعاب مع القوى المحيطة للأرض

والسمااء ، لتخلق وشائج قرابة حتى مع تلك الكينونات التى - بالنسبة للعقل المتحضر - هى مجرد جمادات ، فيما طبيب مداوٍ من " اللاكوتا " قد يخاطب حجرا بصيغة " تانكاشيل " أى " جدى " ، وشبيه بذلك، ما بين قبائل " الأوماها " فإن الحجر قد تتم مخاطبته بالاحترام والتقدير كما تتم مخاطبة أحد مشايخ القوم :

ثابت لا تحرك

منذ بدء الزمان الذى لانهاية له

تستريح

هناك فى وسط الطرق

فى وسط الرياح

أنت تستريح

مغطى بمخلفات الطيور

تنمو الحشائش من قدميك

رأسك مسكون بأعشاش الطيور

أنت تستريح

فى وسط الرياح

أنت تنتظر

أيها الذات الشائخة .

إن الكلمات هنا لا تتكلم حول العالم ، ولكنها بالأحرى تتكلم إلى العالم ، وإلى أشكال الحضور المعبرة ، التى معنا تسكن هذا العالم بطرق متعددة ومتنوعة ، أخذة (كما سوف نرى) شكلاً مميزاً فى كل ثقافة أصلية ، إن اللغات المنطوقة والمحلية تبدو أنها تمنح صوتاً إلى ، ومن ثم لتقوية وتعزيز ذلك التحالف الحسى ما بين البشر والبيئة الأرضية .

إن هذا سوف يبدو - فى البداية على الأقل - فى تضاد وتناقض واضح ومباشر مع صفة اللغة ومساها فى العالم " المتطور " أو " المتحضر " ، حيث وظائف اللغة فى

الأغلب هي لرفض تلك التبادلية مع الطبيعة - عبر تعريف العالم كجمادات ميكانيكية ومحددة - وحيث بالتبعية مشاركتنا الحسية مع الأرض من حولنا يجب أن تبقى خرساء بلا تخاطب ، وفي معظم الأحيان غير واعية تماما . فى الثقافات الشفاهية الأصلية - بكلمات أخرى - تبدو اللغة أنها تشجع وتقوى ذلك التواصل فى التلقى المتبادل لحياة الحواس ، فيما فى الثقافة الغربية تبدو اللغة أنها ترفض وتميت تلك الحياة ، ناشرة عدم ثقة عام لتجربة الخبرات الحسية فيما تدعم حيزاً تجريبياً لأفكار تختفى وراء أو أبعد من المظاهر الحسية .

كيف يمكن لنا أن نرصد مثل هذا الانقسام ، وبأى طريق يمكن لنا أن نصنع منطقاً مفهوماً لهذا الاختلاف فى شخصية وصفة اللغة ، وفيما يتعلق بالعلاقة ما بين اللغة والتلقى والاستيعاب ، مثل المحاولة لتقديم إجابة دقيقة لهذا السؤال علينا أن نصل إلى فهم أكثر وضوحاً لما نعنيه بالضبط فى هذا السياق بكلمة " لغة " .

(٣)

لحم اللغة

" المطر يحيط بالكوخ ... يحاصره بعالم كامل من المعاني ،
الأسرار ، الإشاعات ، فكري ذلك : كل ذلك الكلام الذي
يهطل ، لا يتأجر بشيء ، لا يقاضى أحدا ، مفرقا الفصن
الكثيف لأوراق الشجر الميتة ، مبللاً الأشجار ، مائلا الخلعان
وجنود النباتات بالمياه ، غاسلاً الأماكن التي جردها البشر من
الطبيعة على التلال ... لأحد قد بدأه ، ولأحد سوف ينهيه . إنه
سوف يتحدث كما يشاء ، المطر ، وطالما هو يتحدث فإنني سوف
أصغى إليه " .

توماس ميرتون

إن كل محاولة لتعريف اللغة بشكل حاسم تكون موضوعاً للمحدودية الغريبة ؛ ذلك
أن الوسيلة الوحيدة لتعريف اللغة هي اللغة نفسها ، وهكذا نكون غير قادرين على
حصص اللغة بأجمعها داخل تعريفنا لها ، قد يكون من الأفضل إذن أن ندع اللغة دون
تعريف وتحديد ، وأن نعترف بنهاياتها المفتوحة ، وغموضها على الرغم من ذلك عبر
إسداء الاهتمام لهذا الغموض علنا نطور ألفة واعية معها ، إحساساً بملمسها ،
وعاداتها ، وينايع استمراريتها .

ميرلو بونتى ، كما قد رأينا ، قضى معظم حياته عارضا أن حدث التلقى يتكشف
كتبادلية مابين الجسد الحى وأرواح العالم المحيطة به ، لقد أرانا أيضاً أن ذلك التبادل
بكل ما فيه من انفتاح واحتمية هو عالم بالرغم من ذلك شديد البلاغة (بالرغم من
أنه يتخطى حدود الأسباب المنطقية التي نحاول أن نفرضها عليه فإن الخبرة

الاستيعابية لها تركيبها الخاص والمنسجم ، إنها تبدو محملة بمفاتيح وأنظمة مفتوحة نستوعبها من الداخل عوضاً عن المنطق التجريدي الذي نستخدمه من الخارج) إن انفتاح التلقى غير الناطق هنا بالفعل قائم ومتبادل ، وأن الاعتراف بأن هذا التبادل له خصوصية بلاغته المحكمة ، مما يطرح أن التلقى - التبادل القائم - هو الأرضية ذاتها والتعزيز لذلك التبادل الواعي الذي ندعوه باللغة .

بالفعل في كتابه "علم ظواهر التلقى" كان ميرلوبونتي قد بدأ العمل على أطروحة اللغة البشرية كظاهرة حسية خلقية ، متجذرة في خبراتنا الحسية وحواسنا التي نعرف بها بعضنا بعضاً والعالم ، في فصل شهير بعنوان "الجسد كتعبير ، وخطاب" كتب مطولاً عن الأصول الخاصة بخوارج اللغة ، الطريقة التي يخلق فيها معنى التواصل في اختلاجات يعبر فيها الجسد عن أحاسيسه واستجاباته للتغيرات في بيئته المحيطة به ، إن الاختلاج تلقائي ومباشر ، إنه ليس إشارة اعتباطية نوثقها ذهنياً إلى عاطفة معينة أو شعور ما ، لكن بالأحرى إن الاختلاج هو مقدم - مُجسّد للعاطفة إلى العالم ، إنه ذلك الشعور والإحساس بالمتعة أو القلق في جانبه الهش ، والواضح المرئي ، عندما نقابل مثل هذه الاختلاجات التلقائية لانراها في البداية كسلوك محض مفرغ نقوم بعد ذلك بعزوه إلى محتوى محدد ، أو تعبیر عن أهمية ما ، بل إن اختلاج الجسد يتحدث مباشرة إلى أجسادنا نحن ، وهكذا يتم فهمه دون أي تأمل داخلي :

"عندما أواجه تعبيراً جسدياً ينم عن الغضب أو ينذر بالتهديد فإنه لأحاجة لى كى أفهم ذلك إلى الاستدعاء (الذهني) الذي أشعر به أنا نفسى عندما أستخدم تلك التعبيرات فى حالتى .. إننى لا أرى الغضب أو الموقف التهديدى كحقيقة أو واقع نفسى مختلف وراء التعبير الجسدى ، إننى أقرأ الغضب فيه . إن ذلك التعبير الجسدى لايجعلنى أفكر فى الغضب ، إنه الغضب نفسه فى حد ذاته " .

إن الخطاب الحى النشط هو تماماً مثل ذلك التعبير الجسدى ، إنه تجسيد صوتى حيث المعنى ليس بمنفصل عن الصوت ، أو الشكل ، أو الإيقاع لتلك الكلمات ، إن معنى التخاطب وهو دائماً فى عمقه مؤثر ، يبقى متجذراً فى بعد الحواس الحسى للتجربة والمعاش ، مولوداً من قدرة الجسد الأصلية على التواصل مع

الأجساد الأخرى ، والأرض والطبيعة من حوله ككل ، إن المعنى اللغوي ليس مجرد بعض العناصر النظرية غير المادية أو المجسدة التي نوظفها بشكل اعتباطي في صوت محسوس أو كلمة ثم نقذف بها إلى العالم " الخارجى " ، إنها بالأحرى معنى منطلق فى العمق نفسه للعالم الحسى فى حرارة اللقاء، والتواصل ، والمشاركة .

نحن لانقوم – كأطفال – بالدخول إلى اللغة عبر الدراسة الواعية للقواعد الرسمية والشكليات الخاصة بالنحو والقواعد أو عبر حفظ تعريفات ومصطلحات الكلمات فى القواميس اللغوية ، لكننا نفعل ذلك عبر إطلاق الأصوات – عبر البكاء من الألم ، والضحك فى الفرح ، عبر التلعثم والمناغاة والتقليد الضاحك لما يحيط بنا فى أرضية الأصوات ، داخلين بالتدريج عبر تلك المحاكاة إلى أناشيد معينة للغة المحلية ، إن أجسادنا المتواصلة تأتى ببطء إلى ترديد صدى اللهجة المشتركة فى مجتمعنا المحلى الذى نعيش فيه .

وهكذا نتعلم لغتنا الخاصة الأصلية لا بشكل ذهنى ولكن بشكل جسدى ، إننا نفرز الكلمات الجديدة والجُمْلُ أولاً عبر ملمسها وحسها التعبيري ، عبر الطريقة التى نشعر بها ونحسها فى الفم أو حركة اللسان ، وإن هذا الشعور المباشر المهم – "طعم" الكلمة أو الجملة ، الطريقة المؤثرة على الجسد– هو الذى يقدم المنبع الخصب لكل ماهو فى معانٍ مشذبة ونادرة التى يمكن لذلك المصطلح أن يصبحها بالنسبة إلينا .

"... إن معنى الكلمات يجب فى النهاية أن يأتى عبر الكلمات نفسها ، أو بشكل أدق إن معناها المفاهيمى يجب أن يتشكل عبر نوع من الحساب الخاص بمعنى الاختلاج ، والذى هو مقدس فى الكلام" .

اللغة ، إذن ، لا يمكن أن تتم دراستها بشكل مكتمل أو فهمها بمعزل عن الوقع الحسى للكلام النشط . حاول جيمس . م . إدى أن يلخص هذا الجانب لفكرة ميرلو بونتي بالشكل التالى :

" ... إن النقطة الأولى لميرلو بونتي أن الكلمات حتى عندما تصل أخيراً إلى تحقيق القدرة على حمل مستويات مصطفاة مفاهيمية للمعنى ، فإنها لاتفقد أبداً بشكل كامل تلك الظاهرة البدائية بشكل صارم لمستوى المعنى " المؤثر " والذى لايمكن تحويله إلى تمارين وتحديدات مفاهيمية . إن هناك – كما يطرح – جرس مؤثر ، مزاج لإيصال المعنى تحت مستوى سطح الفكرة ، تحت مستوى سطح الكلمات

نفسها ، وهو مُتضمّن في الكلمات كما هي في شكلها الصوتي كما تستخدمها مخارج الحروف وجرسها في هذا الاستخدام التاريخي المحدد للغة ، والتي هي أشبه بميلودي - أغنية وتغن بالعالم - أكثر من كونها ترجمة كلية ، فكرة مفاهيمية ، ميرلو بونتي يكاد يكون الوحيد بين فلاسفة اللغة في درجة حساسيته لهذا المستوى من المعنى .. " .

إن "إدى" هنا يؤكد على أصالة ميرلو بونتي فيما يتعلق باللغة ، ويؤكد على أن ميرلو بونتي منح اهتماما خاصا "لما لم يكن لأي فيلسوف منذ أفلاطون اهتماما به " ، "وبالتحديد ، لأهمية الاختلاج الخاص للأصوات المنطوقة والتحدث بها " ، غير أن هذا التأكيد حقيقى فقط إذا ماتمسك الشخص بوجهة نظر حاسمة تجاه التقاليد الفلسفية ، إن القاعدة المعبرة والمختلجة للغة قد تم التأكيد عليها بالفعل سابقا في النصف الأول من القرن الثامن عشر عبر الفيلسوف الإيطالى جيتاميتستا فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤) ، والذي في " العلم الجديد " كتب عن اللغة التى تنبذ عن الاختلاجات التعبيرية ، واقترح أن أكثر الكلمات الأساسية والمبكرة أخذت شكلها من المنطوق فى ردود الفعل المنذهلة تجاه أحداث قوية فى الطبيعة ، أو أثناء تلعثم الرعب فى مواجهة مثل تلك الأحداث - مثل مواجهة الصاعقة فى السماء والرعد ، بعد ذلك بوقت قصير - فى فرنسا كتب جان چاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) حول الاختلاجات والتعبيرات التلقائية للأحاسيس والمشاعر كأشكال أولى للغة ، فيما فى ألمانيا طرح يوهان فوترفيلد هيردير (١٧٤٤-١٨٠٣) أن اللغة قد ولدت وتأصلت فى تلقينا الحسى للأصوات والأشكال كما هي مطروحة فى البيئة الطبيعية .

فى فلسفته المجسدة للغة ، إذن ، يكون ميرلو بونتي وارثا لتسلسل طويل وموروث نوعا ما ، إن الأصوات اللغوية وأشكال - الأصوات كما يتردد صداها وتضاربها لبعضها البعض ، كل لغة هي نوع من الغناء ، طريقة معينة " للغناء للعالم " .

نحو إيكولوجى اللغة

إن وجهة النظر السائدة حول اللغة على الأقل منذ الثورة العلمية - والتي مازالت مهيمنة بكيفية ما على معظم علماء اللغة اليوم - تعتبر أن أية لغة هي منظومة عرفية متفق عليها للكلمات أو "الإشارات"، موصولة عبر نظام رسمى خالص لقوانين النحو والصرف، إن اللغة من وجهة النظر هذه تبدو كأنها مفتاح رمزى، إنها طريقة لتمثيل الأشياء والأحداث الحقيقية فى العالم المُستوعَب، غير أنها تنعدم للتواصل الداخلى غير العرفى مع هذا العالم، وبالتالي تصبح منفصلة عنه بشكل جاهر.

إذا ما اتفقنا مع تأكيدات ميرلو بونتي بأن الكلام الحى هو المركز التوليدي لكل اللغات، فكيف يمكن لنا أن ننظر إلى وجهة النظر الغالبة أو السائدة التى تعتبر اللغة نظاماً نظرياً أو رسمياً منفصلاً بالفعل عن الفعل المادى لفعل الكلام أو الحديث؟ إن ميرلو بونتي يطرح أن مثل وجهة النظر تلك حول اللغة تسطع فقط فى زمن يكون فيه الخلق الجديد والطازج للمعنى حدثاً نادر، فى زمن يتحدث الناس فيه عموماً فى الإطار التقليدي، الجاهز للموروث "والذى لا يتطلب منا أى جهد حقيقى فى التعبير.. ولا يتطلب من المستمعين إلينا أى جهد حقيقى للاستيعاب"، فى زمن - باختصار- يصبح فيه المعنى فقيراً.

ومع ذلك فإن هناك سبباً ذا بعد خارجى أكثر لهيمنة هذه الفكرة بأن اللغة عرفية أو نظامية تقليدية بشكل محض، نظام للإشارات، كما قد لاحظنا مبكراً فإن الفلسفة الأوروبية قد شغلت نفسها باستمرار بمسألة الخصوصية البشرية منذ زمن أرسطوطاليس، فإن الفلاسفة كانوا منشغلين بعرض أكثر الطرق إقناعاً، إن الكائنات البشرية مختلفة تماماً وذات أهمية أكبر عن كل أشكال الحياة الأخرى، لم يكن كافياً أن يتم عرض أن الكائنات البشرية كانت مميزة، وذلك أن كل المخلوقات مميزة بوضوح فى طريقتها عن غيرها، ولكن كان من الضرورة فى ذلك العرض أن يوضح أن الشكل الإنسانى، والبشرى كان مميزاً واستثنائياً بشكل مميز، وأن مواهبنا النبيلة تضعنا بشكل أكيد فى شكل منفصل وفوق بقية كائنات العالم الحى، مثل تلك العروض كانت - لعلنا نشك - فى حاجة إلى تبرير التسلط والاحتكار المتزايد والاستغلال

للطبيعة غير البشرية عبر ومن أجل البشرية (المتحضرة) ، إن الضرورة لمثل ذلك التبرير الفلسفى أصبحت ملحة بشكل خاص فى مرحلة يقظة الثورة العلمية ، عندما صارت قدرتنا على السيطرة والهيمنة على الأحياء الآخرين متزايدة واستغلالية . إن فصل ديكارت المتطرف للعقل البشرى غير المادى عن العالم الآلى الكلى للطبيعة قد ساهم كثيراً فى سد ذلك الاحتياج ، مقدماً تبريراً عقلياً مذهلاً للتجريب العلمى الذى تحول إلى استغلال وتخريب مدمر للطبيعة غير البشرية فى العالم الجديد والمستعمرات الأوروبية الأخرى .

غير أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدمت طباعة ونشر كتاب داروين " أصول الكائنات ونشأة الإنسان " توتراً عميقاً وجاداً فى صميم العلوم الأنثروبولوجية للفلسفة والعلم الأوروبى ، إذا كان البشر حيوانات ارتقت وتطورت مثل بقية الحيوانات ، إذا كنا فى الحقيقة قد نشأنا وتطورنا عبر " الانتخاب الطبيعى " من كائنات بدائية ، إذا كانت الأسماك بالفعل هى أسلافنا البعيدة والفئران هى أبناء عمومتنا فإن صفاتنا وقدراتنا لابد أن تكون إلى درجة ما متواصلة مع تلك الموجودة فى بقية الطبيعة الأرضية والكونية .

غير أن معظم العلماء فيما تقبلوا نظريات داروين كانوا رافضين التخلّى عن فرضية خصوصية البشرية - الافتراض الذى فى حد ذاته يبرر الكثير من الممارسات الثقافية والبعثية التى صرنا الآن معتادين عليها - فى قرون مبكرة كنا نستطيع أن نعزوت تفوقنا وتميزنا إلى إرادة الله ، الذى قد " خلقنا " لنمثله على الأرض ، أو الذى خص البشر وحدهم بالقدرة العظيمة والإلهية للوعى والذكاء ، غير أنه بعد داروين ، لم يعد من السهل علينا أن نطرح ذلك التميز لأسباب من خارج هذا العالم ، أصبح ضرورياً أن نجد شواهد جديدة أقرب للطبيعة لتبرير فوقية وعظمة البشرية على الكون والطبيعة .

فى زمننا الحالى الخاص إنها " اللغة " ، والتى فهم أنها ملكية بشرية استثنائية غالباً ما يتم استخدامها لعرض التميز والتفوق البشرى النسبى على بقية الكائنات ، غير أن اللغة وكما يتم التأكيد غالباً تبقى الامتياز الخاص للكائنات البشرية ، وبالتأكيد فإن معظم الحيوانات الأخرى تستطيع أن تدبر أمر تواصلها مع بعضها بعضاً ، مستخدمين غالباً نظاماً من الإيماءات والحركات ، من " تحديد " الأرضية بالإفرازات الكيميائية ، إلى تعبيرات الوجه لدى الكثير من الحيوانات الثديية ، إلى هسيس الزواحف ، والصرخات ، والعواء ، والنباح ، تلك الأصوات التى تتراعى ما بين

الحقول والغابات - وكذلك الزقزقات والميولوديات الواضحة فيما بين الطيور وبعض الأحياء المائية الثديية كالحياتان ، أحد الاكتشافات المثيرة لعلم السلوك الحيوانى فى البيئة الطبيعية (إيثولوجى) فى بداية القرن العشرين كان اكتشاف " الاهتزازات الراقصة " حيث يقوم النحل فردياً بالتواصل لتحديد الاتجاه الدقيق والمسافة لمصدر طعام مكتشف حديثاً مع بقية مجموعة النحل ، غير أن كل تواصل يعكس هذه "الرقصات" و" الأغاني " ، والاختلاجات والحركات الجسدية ، سواء الصوتية أو المرئية يمكن أن يقال إنها تبقى فى إطار فضاء المحسوس والتعبير الجسدى ، إن المعنى هنا كما يتم الافتراض مرتبط بالطبيعة التعبيرية للمحركات نفسها ، للإحساس المباشر المتولد من تلك الحركات إلى الإحساس الغريزى والاحتياج الجسدى المحض .

فى مسار الحياة اليومية للبشر- من الناحية الأخرى - نحن نحدد بالفعل بُعداً مهماً أكبر من مجرد القوة المعبرة للكلمات ، سطح من المعانى التجريدية مثبتة لوحدها ، سوف يبدو عبر المتعارف عليه ، وهكذا فإن كلمة (" وو ! ") " WoW ! " قد تكون فى بداية الأمر تعبيراً بسيطاً عن الدهشة ، لكنها قد تصبح أيضاً محددة - إذا ما اخترنا ذلك - لنوع معين من تسريحة الشعر ، أو ظل من الأزرق ، أو تكتيك معين لاستخدامه عند المساومة مع صيادى الأسماك .

إن هذا المستوى الثانى من السطح للمعانى المتعارف عليها ذلك الذى يتم وضعه مع " اللغة بشكلها الصحيح " عبر معظم الفلاسفة والعلماء منذ عصر النهضة ، فقط عبر عزل هذا السطح الثانى للمعانى التقليدية عن الإحساس بالأهمية الموجودة فى نغمة الصوت ، والإيقاع ، وشكل التعبيرات المنطوقة - نستطيع أن نستوعب ونفهم اللغة كمفتاح - كتكوين مصمم ومشكل من إشارات متعارف عليها متصلة بالقوانين الشكلية الرسمية تماماً ، وهكذا فقط عبر استيعاب اللغة كظاهرة تجريدية خالصة نستطيع أن ندعى أنها جهد إنسانى محض ، فقط عبر تجاهل الحسى والبعد المستدعى للمسار البشرى والانتباه فقط إلى الجانب التقليدى للتواصل الشفاهى ، نستطيع أن ننأى بأنفسنا بعيداً ونصبح خارج منظومة بقية عالم الطبيعة الحية .

لو كان ميرلو بونتى محقاً- من الناحية الأخرى - فإن البعد والمعطيات التقليدية للغة لا يمكن أن تتم خدمتها بشكل حقيقى من البعد الحسى للمعنى المباشر والمؤثر ، إذا لم تكن - فى الحقيقة - عقولاً غير مادية تسكن هكذا فى أجساد أرضية ، ولكن من المادة الأولى لكائنات شبحية ، إذن فإن الأهمية الحسية والاختلاجية

للأصوات المنطوقة - شكلها المجسد - الذى يصنع التواصل الشفاهى ممكن على الإطلاق ، إن هذه القدرة الكامنة للتعبير - التأثير الصوتى للكلمات المنطوقة على الجسد الحسى - ذلك الذى يدعم المعانى الأكثر تجريدية وتقليدية التى نوظفها للكلمات ، بالرغم من أننا قد نكون جاهلين بالبعد الاختلاجى والحركى للغة كوننا قد قمعناه لصالح المعانى القاموسية الصارمة والدقة التجريدية للمصطلحات المخصصة أكاديمياً ، فإن هذا البعد يبقى نشطاً بشكل خافت فى كل مجالات كلامنا وكتاباتنا - هذا إذا ما كان لكلماتنا أية أهمية - ذلك أن المعنى - كما قد قلنا - يبقى متجذراً فى الحياة الحسية للجسد - لا يمكن قطعه تماماً عن تربة التجربة المباشرة للتلقى دون أن يجف ويموت .

ومع ذلك فإنه للتأكيد على أن المعنى اللغوى فى المقام الأول تعبير اختلاجى وشاعرى ، وأن المعانى التقليدية ثانوية بطبيعتها ومُشتقة هو أن نرفض الادعاء بأن " اللغة " حوزة بشرية خالصة واستثنائية ، إذا كانت اللغة دائماً فى أعماقها معطيات حسية وجسدية فإنها إذن لا يمكن أن تكون منفصلة بشكل مؤكد عن شواهدا المعبرة فى غناء الطيور وعواء الذئب فى آخر الليل ، إن كورس الضفادع وهو ينق متوحداً على حافة البركة ، ومواء القطاة الوحشية وهى تطارد فريستها أو تعالى أصوات الأوز الكندى مرتحلاً إلى الجنوب فى الشتاء كلها تتدفق بأهمية مؤثرة واختلاجات عاكسة الأهمية نفسها تلك التى تشع من محادثاتنا وتعبيراتنا ، محرقة إيانا أحياناً إلى حد الدموع ، أو الغضب ، أو الرؤى الذهنية التى لم نكن نتوقعها .

إن اللغة كظاهرة جسدية تضاف إلى كل الأجساد المعبرة ، وليست الأجساد البشرية فقط . إن كلامنا نحن ، إذن ، لايفصلنا عن بقية الطبيعة الحية والوجدانية ولكن - سواء كنا واعين بذلك أو لم نكن - ينقشنا ويكتبنا بعمق أكثر فى المحادثة، والهمسات والأعماق الصوتية .

إذا - على سبيل المثال - صادف الشخص صديقين من البشر فى لقاء غير متوقع للمرة الأولى بعد شهور طويلة ، وصادف أن استمع شخص ما إلى كلماتهم المندهشة ، المحبة ، ومتعة اللقاء والبهجة بذلك ، فإنه يمكن للشخص أن يلاحظ مباشرة ، إذا ما انتبه عن قرب لسطح الصوت الميلودى المرافقة له فى التواصل تحت المعنى المباشر الخارجى للكلمات - تتماوج الأصوات وتهدر فى شكل ثنائى ، دويتو موسيقى ، أشبه ماتكون بزقزقة العصافير لبعضها بعضاً ، إن كل

صوت ، كل جانب من الدويتو يكمل الميلودية الموسيقية للآخر فيما يضيف بصمته الخاصة وأسلوبه ، ثم يعكسان صدى بعضهما بعضاً بعد ذلك - إن الجسدين الصادحين يتناغمان مع بعضهما بعضاً ، معيدان اكتشاف المشترك فيما بينهما ، "متذكرين" بعضهما بعضاً ، إنه يتطلب القليل من التحول في الانتباه كي نلاحظ أن هذا التناغم الموسيقى يحمل معه كتلة من التواصل في هذا اللقاء ، وأن المعانى المباشرة للكلمات في حد ذاتها تمتطى سطح ذلك العمق مثل الأمواج على سطح البحر .

إنه عبر تحويل طفيف مناسب للانتباه يستطيع الشخص فجأة أن يصفى إلى الزقزقة المعتادة لعصفور ما بشكل مدهش وجديد ، لا كميلودية غنائية ممتعة تتكرر بشكل ألى كما هى على شريط كاسيت فى الخلفية ، ولكن كخطاب نشط ، حى ويحمل معناه . فجأة ، تنويعات خافتة فى الجرس والإيقاع لتلك الجملة المُصَفَّرَة تبدو محملة بالنوايا التعبيرية ، والعصفوران المزقزقان لبعضهما بعضاً عبر الحقل يبدوان للوهلة الأولى ككائناتٍ واعيتين ، ومتنبهين ، ومنشغلين بشكل طبيعى بالعالم نفسه الذى ننشغل نحن به ، مع ذلك فإن هذا يحدث بشكل مدهش من زاوية ومنظور مختلفين عنا .

الأكثر من ذلك ، إذا ماسمحنا لذلك المعنى المنطوق أن يبقى متجذراً فى التعبيرات والاختلاجات الجسدية ، فإننا لن نستطيع أن نحصر تجربتنا وخبرتنا المتجددة مع اللغة مع الحيوانات فقط ، كما قد استوعبنا بالفعل فى العالم غير المُدَجَّن للخبرة الحسية المباشرة فإنه لا ظاهرة تمثل فى حد ذاتها كشيء سلبي وجامد ، بالنسبة للجسد الحساس والحسى فإن كل الظواهر حية ، وجدانية ، نشطة ومشاركة فى التلقى لحواسنا ، وإلا فإنها تنسحب من بؤرة اهتمامنا وترفض مشاركتنا وتورطنا ، الأشياء تكشف نفسها لتلقينا المباشر كأساليب مبطنة لا كقطع مكتملة لأشياء ومعطيات نهائية ، ولكن كطرق ديناميكية حيوية لإشغال الحواس والحسية فى الجسد ، إن كل شيء ، كل ظاهرة له أولها القوة للوصول إلينا والتأثير علينا ، إن كل ظاهرة - بكلمات أخرى - واعدة بالتعبير . فى نهاية فصله " الجسد كتعبير ، وكلام " يكتب ميرلو بونتي التالى :

"إنه الجسد ، ذلك الذى يشير ، وذلك الذى يتحدث ... إن هذا الكشف (لقدرة الجسد الفصيحة فى التعبير) ... تمتد - كما سوف نرى - إلى كامل العالم

المحسوس ، وإن نظرنا ، مستندة إلى خبرة أجسادنا الشخصية ، سوف تكتشف في كل " الأشياء " الأخرى معجزة التعبير " .

وهكذا فإننا على المستوى المبدئي للخبرة الجسدية الحسية نجد أنفسنا في أرضية مختلجة ومعبرة في عالم " يتكلم " .

إننا عادة ما نتحدث عن عواء الريح ، وخرير الجداول ، غير أن هذه الأشياء أكثر من مجرد رموز ، إن لغاتنا باستمرار تتغذى بتلك الأصوات الأخرى - عبر هدير الشلالات وأصوات الجنادب - إنه ليس بالصدفة وحدها أننا حين نخيم في الجبال فإن المصطلحات الإنجليزية التي نستخدمها بشكل تلقائي لوصف يتابع المياه وروافدها عن النهر القريب هي كلمات مثل : " تدفق " ، " Rush " ، " رذاذ " " Splash " ، " gush " " نثار " ، " Wash " اغتسال ، ذلك أن الرنين الذي يوجد بين تلك الكلمات هو نفسه الموجود في نشيد المياه وهي تتدفق عبر الضفاف .

إذ لم تكن اللغة هي مجرد ظاهرة ذهنية محضة - ولكن نشاطاً جسدياً حسيّاً متولداً في التلقى الجسدي والتشاركي - فإن مسارنا قد تأثر بالتأكيد بأشكال واختلاجات أخرى كثيرة ، وأصوات وإيقاعات إلى جانب تلك الخاصة بجنسنا البشري الواحد ، وبالفعل إذا كانت اللغة البشرية قد بزغت من التداخل الاستيعابي ما بين الجسد والعالم ، فإن هذه اللغة " تنتمي " إلى عالم الطبيعة الحي بقدر ما " تنتمي " إلينا نحن أنفسنا .

فى عام ١٩٤٥ بدأ ميرلو بونتى قراءة عمل عالم اللغة السويسرى فرديناند دوسوسير (١٨٥٧-١٩١٣) ، والذى سبق أن نشر عمله " مسائل فى علم اللغة العام " الذى أشار إلى بزوغ علم اللغة العلمى فى القرن العشرين ، كان ميرلو بونتى مأخوذاً بالتمييز والتقسيم النظرى لسوسير مابين " اللغة " المنظور إليها كنظام للمصطلحات ، الكلمات ، القواعد ، التركيب ، و " الكلام " - الفعل الحقيقى للكلام نفسه .

اعتُبرت اللغة كنظام رسمى من القوانين والأحكام هى الجانب من اللغة الذى وحده القادر على الدراسة العلمية الموضوعية ، عبر فصل وعزل هذا الجانب من اللغة استطاع سوسير أن يخلى الطريق لتحليل العلمى الدقيق لأنظمة اللغة ، غير أن الطريقة الصحيحة لفهم العلاقة مابين التركيب الرسمى أو النظامى للغة والفعل المعبر للتحدث أو الكلام (مابين " اللغة " و " الكلام ") تبقى غامضة ، وكان هذا الغموض هو الذى سحر ويهر ميرلو بونتى .

بالنسبة لسوسير فإن اللغة - تُعتبر كنظام تركيبى خالص - لم تكن تركيباً ميكانيكياً آلياً يمكن أخذه بجاهزية بمعزل وتفكيكه إلى عناصره المنفصلة ، ولكن اللغة كانت أشبه ما تكون بالنظام العضوى ، الحى ، كل من أجزائه متصل داخلياً ببعضه بعضاً ، وصف سوسير تكوين وتركيب أية لغة كرحم متداخل ، شبكة ، حيث كل مصطلح يملك معناه فى ظل علاقته بالمصطلحات الأخرى داخل النظام ، فى الإنجليزية مثلاً إن كلمة " أحمر " مثلاً تتخذ معناها الصحيح من الحالة فى شبكة من الكلمات المقابلة ، كلمة " أحمر " - " Red " فى مقابل مثلاً كلمات مثل " Read " قرأ ، " Rod " عصا " Reed " قصب ، و " raid " غزوة ، وفى مصطلحات مركبة كاملة عن الألوان مثل " برتقالى " و " أصفر " و " بنفسجى " و " بنى " وبالإضافة إلى مصدر آخر من موضعه أو مشاركته فى بعد أوسع لكلمات متصلة مثل " دم " و " وردة " و " غروب " و " نار " و " حمرة الخجل " و " غضب " و " حر " كل منها له أهمية فقط بالعلاقة مع كلمات أخرى ، ممتدداً بذلك خارجياً إلى كل مصطلح فى داخل اللغة . عبر وصف أية لغة معينة كنظام للاختلافات فإن سوسير قد أشار إلى أن المعنى ليس بموجود فى الكلمات فى حد ذاتها ولكن فى النسيج والتضاد التقابلى ، والمشاركة مابين الكلمات أو المصطلحات ، كما قد طرح ميرلو بونتى :

"إن ماقد تعلمناه من سوسير هو التالى ، إذا أخذت بمفردها فإن الإشارات لاتعنى أى شىء ، وإن كل واحدة منها لاتعبر فى حد ذاتها عن المعنى بقدر ماهى علامة فارقة للمعنى فى حد ذاته فى علاقته بالإشارات الأخرى " .

إن هذا لايعنى أنه من الضروري أن نعرف بوضوح كامل اللغة من أجل أن نستطيع التحدث بها ، والأحرى أن الطبيعة شبه الشبكية للغة تضمن أن كامل النظام حاضر بشكل باطنى فى كل جملة ، وفى كل فقرة . من أجل تعلم لغة مجتمع يقترح ميرلو بونتى أنه من الضروري ببساطة أن يبدأ الشخص التحدث بها ، أن يلج الشخص اللغة بجسده ، أن يبدأ فى التحرك من داخلها . إن اللغة فى كليتها تنبثق فى الطفل فى محاولاته الأولى للكلام . " [ثم] كامل اللغة المتداولة فى الكلام المحيطة بالطفل تدفعه مثل الإعصار ، تغويه ببلاغتها الداخلية ... " .

إن اللغز الذى هو اللغة مشكلة بالصمت بالقدر نفسه من الصوت ، وهى ليست تكويناً داخلياً أو جامداً ، ولكن حقل جسدى يتطور ، إنها مثل نسيج متسع حتى يتم باستمرار نسجه عبر أولئك الذين يتحدثون ، ميرلو بونتى هنا يميز بحدة ما بين الكلام الأصلي والمعبر وذلك الكلام الذى يعيد نفسه ويكرره فقط فى القواعد المنشأة ، إن الأخير يصعب أن يكون " كلاماً " على الإطلاق ، إنه لا يحمل فى الحقيقة معنى فى نسيج كلماته لكنه يعتمد فقط على ذاكرة المعانى التى قد عاشت فى يوم ما هناك ، إنه لا يغير ولا يبدل فى ذلك الوجود الجاهز لتراكيب وقواعد اللغة ، لكنه بالأحرى يُعامل اللغة كمؤسسة جاهزة ونهائية ، ومع ذلك فإن هذه التشكيلات الموجودة مسبقاً لابد فى وقت ما أنها قد خلقت أو أبدعت ، وهذا يمكن أن يكون قد تأثر بالكلام النشط المعبر للكلام فى وقت ما ، وبالفعل فإن كل الخطاب أو الكلام ذى الفحوى والمعنى هو بالضرورة إبداعى ، ويستخدم كلمات جاهزة بطرق لم تُستخدم بها من قبل ، وبذلك يبدل ولو بشكل طفيف كامل شبكة العمل للغة ، والكلام البرى ، الوحشى ، الحى ، يتخذ له من داخل الرحم المتواصل للغة وإيماءاتها واختلاجاتها معه معرضاً كامل التركيب والتكون " لشكل منتظم وواع من التشويه " .

فى لب وقلب أى لغة - إذن - هنالك الإنتاجية الشعرية أو الشاعرية للكلام المعبر ، إن لغة حية معاشة يتم صناعتها باستمرار وإعادة صناعتها منسوجة من خلال الصمت لأولئك الذين يتحدثون ... وهذا الصمت هو فى ظل مشاركتنا الخالية من الكلمات ، هو فى وعينا الممتزج بالأعماق لذلك العالم المعبر ، والوجدانى ، والحقى .

وهكذا فإن تمييز سوسير ما بين تركيبية اللغة وفعل الكلام قد تم احتواؤه فى أفكار ميرلو بونتى ، لقد اندمج البعدان معاً فى بعد فردى متطور ، وفيما أفعال الخطاب

الفردى يقودها بالتأكيد تكوين تركيبى للغة فإن ذلك التركيب ليس بشئ سوى النتيجة التلقائية لكل أفعال الخطاب السابقة ، هو نفسه قابل للتبدل عبر النشاط التعبيري الذى يقوده الآن . إن اللغة ليست شكلاً جامداً ثابتاً ، أو نظرياً ، لكنها وسيلة متطورة نعيش فيها جميعاً ، مخطط واسع من المواضيع يخوض فيها الخطاب الجسدى ، ويجدد فيها نفسه غازلاً نسيج ذلك من صمت الخبرة الحسية .

إن ما تم احتفاظ ميرلو بونتى به من الطرح الفكرى لسوسير هو أطروحة سوسير عن أى لغة كشبكة متداخلة فى نظام العلاقات ، لكن بما أن أجسادنا المتحدثة والمعبرة بالنسبة لميرلو بونتى أجزاء مهمة فى هذا النظام ، ربما أن شبكة اللغة بالنسبة إليه وسيلة حية منسوجة فى أعماق مشاركتنا الاستيعابية فى التلقى مع الأشياء والكائنات المحيطة بنا ، وصل ميرلو بونتى فى كتاباته الأخيرة لتأكيد أنه مبدئياً العالم الحسى الاستيعابى هو المرتبط والمتعلق بالشكل الخاص بالشبكة فى شخصيته ، وبناء على ذلك فإن الشكل أو التكوين العضوى المتواصل فى أية لغة هو استمرارية أو صدق للحقيقة الحسية نفسها ذات التداخل العميق ، بالضرورة فإنها ليست اللغة البشرية هى الأساسية فقط ، ولكن عالم الحياة الحسى المتلقى والذى بمنطقه البرى المشارك يصحح وضعه ويطور نفسه كى يغلب فى حضوره فى اللغة نفسها .

منذ منتصف القرن التاسع عشر فإن دراسة بيئتنا الأرضية قد زادت فى مطلبها من وجهة النظر التى ترى الطبيعة كحيز متداخل ومعقد من العلاقات ، حقل التبادل الاعتمادى الخافت والذى منه ، بكلمات جون موير ، لا يمكن اختبار ظاهرة فردية دونما " العثور عليها مرتبطة بكل شئ آخر " ، إن شخصية شجرة فاكهة واحدة لا يمكن فهمها ببساطة دون الرجوع إلى الكائنات الأخرى من فصيلتها ، إلى الحشرات التى تخصبها وإلى الحيوانات التى تستهلك فاكهتها وهكذا تنتشر بنورها فى الأرض ، ومع ذلك فإن حيواناً واحداً من تلك الحيوانات يصعب فهمها دون أن نعرف عن النباتات أو الحيوانات الأخرى التى تلتهمها خلال العام ، وعن الفرائس التى تفترسها دونما - بكلمات أخرى - أن نعرف بالمضيف للكائنات العضوية الأخرى والتى يعتمد عليها ذلك الحيوان ، وتعتمد عليه هى أيضاً ، لقد وصلنا أخيراً لإدراك بأنه لا التربة ولا المحيطات ولا الأجواء يمكن استيعابها دون أن تأخذ بالاعتبار مشاركة الأعضاء الذين لاحصر لهم ، من الغصن إلى الصخور ، ومن كينونات البكتيريا التى تحلل المواد العضوية ، إلى كل النباتات المتنفسة والحيوانات التى تتبادل الغازات الحيوية فى الهواء . إن أطروحة " الشبكة ذات الأجواء الفنائية " حيث كل كينونة تستمد شخصيتها المميزة من علاقاتها ، المباشرة وغير المباشرة مع كل الآخرين - أصبحت

اليوم أرضية مشتركة ، وهى تنسجم تماما مع وصف ميرلو بونتي الأخير .
للحقيقة الحسية ، إن " اللحم " كتمازج ، وتركيب نسيجي نشط لظاهرة تتبادل فى
اعتماديتها ، معاً الحسى والمحسوس ، لذلك الذى أجسادنا الحساسة هى جزء منها .

إنها الحقيقة الديناميكية الحيوية المتصلة ، تلك التى تحرك وتحافظ على كل
كلامنا ، مُعيرة شيئاً مامن تركيبتها لكل لغاتنا المختلفة ، إن الطبيعة اللغزية للغة
تجاوب صداها ، و " يتداخل مع اللامرئى " ، الطبيعة الوحشية المتداخلة الولوج
والتداخلة الاعتماد للأرض والطبيعة الحسية نفسها .

من المحتم - إذن - أنه ليس الجسد البشرى وحده ، ولكن بالأحرى كامل العالم
الحسى يقدم التركيبية العميقة للغة ، وكما نحن أنفسنا نتحرك ونعيش فى داخل اللغة ،
هكذا ، بالضرورة هو وضع الحيوانات الأخرى والكائنات الحية فى هذا العالم .

إذا لم نكن ننتبه إليهم هناك فإن ذلك فقط بسبب أن اللغة نسيت أعماقها
المعبرة ، " إن اللغة حياة ، إنها حياتنا وحياة الأشياء ... " إنه ليس أكثر مصداقية
"إننا " نتحدث عن كون الأشياء ، والعالم الحى نفسه " يتحدث فى داخلنا وعبرنا " .

"إن الأشياء تملكنا ولسنا نحن من يملك الأشياء ... إن هذا هو أنها كائن يتحدث
من دواخلنا ولسنا نحن الذين نتحدث عن الكائن " .

انطلاقاً من مثل هذه التأملات يمكن لنا أن نبدأ فى الشك فى أن تعقيدات اللغة
البشرية متصلة بتعقيدات التوازن البيئى (الإيكولوجى) للأرض - وليس أية تعقيدات
فى جنسنا البشرى يمكن اعتبارها منفصلة عن ذلك الحيز - إن اللغة - يكتب
ميرلو بونتي - " هى الصوت نفسه للأشجار ، والأمواج ، والغابات " .

إن الحضارة التكنولوجية تقلص من التنوع العضوى الحى للأرض ، إن اللغة
نفسها تتقلص ، وفيما هناك غناء طيور أقل وأقل فى الهواء نتيجة لتدمير الغابات
والأراضى الخصبة والممطرة ، فإن الكلام البشرى يفقد أكثر وأكثر من قوته
الساحرة ، وذلك أننا عندما لا نعود نسمع الأصوات فى الطبيعة ، فإن كلامنا نفسه
لا يمكن له أن يتغذى منها ، ومثل الحديث الذى يرشه ماء الأنهار يتم إخراسه بالمزيد
من السدود وكما نسرق أكثر وأكثر أصوات الطبيعة البرية إلى متاهة الغناء ، فإن
لغاتنا نفسها تصبح أكثر فقراً وأقل وزناً ، تزداد خواءً من عناصرها الأرضية الطبيعية .

سحر الكلمة

إن عمل ميرلو بونتي حول اللغة يجب الاعتراف بأنه متشظٌ وغير مكتمل ، وقد تم ابتساره بسبب وفاته المفاجئة ، ومع ذلك فإنه يقدم أكثر البحوث تقصُّ مما نملكه فى هذا المجال ، حتى اللحظة حول " الخبرة " المعاشة والحية للغة - الطريقة التى يكشف لنا فيها الوسيط التعبيري عندما لا نتظاهر بالوقوف خارجه ، ولكن بالأحرى تقبل ميراثنا " من داخله " كحيوانات ناطقة متكلمة ، عندما ننتبه ونراعى خبراتنا ، أو تجربتنا لا كأذهان غير ملموسة ولكن كأجساد ، متحدثة ، ذات صوت ورنين ، نبدأ فى استشعار أننا مسموعون ، وحتى مُصَفَّى إلينا عبر الأجساد الأخرى الكثيرة التى تُحيط بنا ، إن أجسادنا الحساسة تستجيب إلى أناقة عمارات ومبان معينة ، وإلى الحركة الرشيقة للطيور ، إننا نجد أنفسنا أحياء فى عالم يصفى لنا ، ويحادثنا .

هنا (كما قد رأينا مبكرا فيما يتعلق بالتلقى) فإن عمل ميرلو بونتي يقربنا إلى المعتقدات الشفاهية لعدد كبير من الشعوب الأصلية ذات الميراث الشعبى الشفاهى .

فى مثل تلك الثقافات الأصلية الشعبية فإن التضامن ما بين اللغة والأرض الحية واضح وشائع ، فبالنسبة إلى " أوغو تيميلي " أحد شيوخ قبيلة " الدوغون " فى مالى فإن اللغة المحكية كانت فى الأصل غلالة متطايرة من البخار والهواء ، النفس ، كانت الأرض ترتديها آنذاك ، فيما بعد قام ضبع بسرقة تلك الغلالة الشفافة ، وهو حيوان صارت حركاته منذ ذلك الوقت تحت وطأة الأحاديث النبوية عن عالم الرؤية والمقدس . الكثير من القبائل مثل " المينتوبا " يعتقدون أن اللغة التى يتحدثونها قد مُنحت من الحيوانات ، بالنسبة لـ " إينويت " (الإسكيمو) ، وكذلك لعدد كبير من الناس فإن البشر والحيوانات كلها فى الأصل كانت تتحدث اللغة نفسها ، وحسب " تالونغيك " إحدى نساء الإسكيمو التى قابلها العالم الإثنولوجى نود رامسون فى بدايات القرن العشرين فقد كانت تقول :

فى الزمن المبكر جداً
 عندما عاش الناس والحيوانات على الأرض معاً
 كان الإنسان يستطيع أن يصبح حيواناً إذا ما أراد ذلك
 والحيوان كان يستطيع أن يصبح إنساناً
 أحياناً كانوا بشراً
 وأحياناً حيوانات
 ولم يكن هناك أى فرق فى ذلك .
 كلهم كانوا يتحدثون اللغة نفسها .
 لقد كان ذلك هو الزمن عندما كانت الكلمات مثل السحر .
 كان العقل البشرى يمتلك قوى غامضة .
 كلمة تُنطق بالصدفة
 ربما صار لها توابع غرائبية
 إنها فجأة تصبح حية
 وما يرغب الناس فى حدوثه يمكن أن يحدث - كل ما كان عليك فعله هو أن تقوله.
 لأحد يستطيع أن يُفسر هذا :
 هذا هو ماقد كان .

بالرغم من هذه اللغة الأصلية المشتركة ما بين البشر والحيوانات ، فإن الحيوانات
 المتعددة وأشكال الطبيعة الأخرى اليوم تتحدث بلهجاتها الخاصة العديدة ، ولكن مع
 ذلك فإنها " كلها تتكلم " ، وكلها لديها القوة والقدرة اللغوية ، الأكثر من ذلك فإن أثاراً
 من اللغة البدائية المشتركة القديمة تبقى ، وكما يمكن للإنسان أن يفهم فجأة الحركات
 الخافتة للغزال أو النعيق المتقطع للغراب فإن الكينونات الأخرى أيضاً تستطيع ويمكنها
 أن تفهم كلامنا .

" إن اليوم غالباً ما يصعب الحديث المباشر معه ، إن اليوم قد يتسبب فى إثارة
 اللعنة والتأتأة ، عندما يتأتى الشخص فإنهم ينجذبون لذلك ، يُقال إن التأتأة تثير

سخرية وضحك البوم ، ومع ذلك فإن هذا قد يكون مفيداً ولنفعه الشخص ، وذلك أنه إذا كنت تفكر بأن بومة ماتسبب المشاكل فى قريتك ، فتأتى فى الثابات ، هنالك فرصة طيبة لكى تقترب منك بومة ما ، عندها يمكنك أن تواجه تلك البومة ، تحاسبها ، وتتناقش معها ، ولربما استطعت أن تحل المشكلة " .

إن معظم القناصين والصيادين من الشعوب الأصلية يتجنب بحذر التحدث حول القنص قبل حدوثه ، أو الكلام مباشرة إلى الكائنات التى يريدون اقتناصها حتى لا يهينوا الحيوانات المستمعة نفسها ، بعد أن يقتلوا - على كل حال - فإنهم يتحدثون مباشرة إلى الحيوان المحتضر ، مكبرين إياه ، وواعدينه بالاحترام والتقدير ، وشاكرينه لتقدمته نفسه كأضحية من أجلهم .

ومع ذلك فإن أولئك المعروفين " كشامان " أهل السحر والطب الشعبى ، هم الأكثر تذكرًا بشكل كامل للغة البدائية المقدسة ، وهم بذلك القادرون على الانزلاق بإرادتهم خارج المسار البشرى الخاص حتى يستطيعوا التحدث مباشرة مع القوى الأخرى ، وكما يكتب ميرسى إيليا د :

" إن وجود لغة سرية معينة قد تم تحديدها ما بين اللابز ، والأوستياك ، والشوكشى ، والياكوت ، والتونغو ، خلال غيبوبته يستطيع الشامان من التونغو أن يفهم ويستوعب لغة كامل الطبيعة ...

غالبًا ما تكون هذه اللغة السرية فى الواقع " لغة حيوانية " ، أو متأصلة فى صراخ الحيوانات فى أمريكا الجنوبية ، على المعتقد الجديد للدين أن يتعلم خلال مرحلة إعداده ، أن يقلد أصوات الحيوانات ، والشئ نفسه صحيح فى أمريكا الشمالية ، إن أهل الشامان من البومو ، والمينومينى بالإضافة إلى آخرين يقلدون زقزقة الطيور ، وفى خلال الطقوس ما بين الياكوت واليوكاغير والشوكشى والغولدى والإسكيمو وغيرهم فإن الحيوانات البرية تصرخ والطيور تنادى وهذا كله يسمع خلال الحدث ...

، إن كلمات كثيرة يتم استخدامها خلال الطقوس تكون أصولها فى أصوات وصرخات الطير والحيوانات الأخرى .. " السحر " و " الأغنية " وخصوصاً ما يشبه زقزقة العصافير وهديل الحمام - غالباً ما يتم التعبير عبرها بكلمات مثيلة ، إن الكلمة الألمانية التعويذية السحرية هى Galdr ، وهى مشتقة من فعل Galan ، " أن تُغنى " ، وهو مصطلح ينطبق بشكل خاص على نداء الطيور " .

سوف نستكشف فيما بعد بالتفصيل أمثلة محددة لذلك التحالف مابين اللغة والمحيط الطبيعي للأرض كما يتجسد لا فى الأساطير فقط والممارسات السحرية ولكن فى مسار الحياة اليومية لعدد من القبائل الأصلية الحالية ، هنا يكفى أن نشير إلى وجهة نظر ميرلوبونتي حول اللغة كوسيط حى بشكل كامل ، حول الكلام كإيقاع وإيماءات تعبيرية ، ومن ثم حول الكلمات والجمل المنطوقة لحضور حسي نشط له قدمه الراسخة فى مادية الطبيعة والأرض (بدلاً من الأشكال النظرية المثالية التى تتمثل ، ولكنها ليست بجزء من العالم الحسى) تمضى فى طريق طويل لمساعدتنا فى أن نفهم مبدئية وسحر الكلمة فى الطقوس الأصلية للتحويل والشفاء والمداواة ، فقط عندما تُحس الكلمات والحضور الجسدى مثل الصدى والشلالات نستطيع أن نفهم قوة اللغة المتحدثة للتأثير ، والتبديل ، والتحويل للعالم المُتلقى وكما قد تم التعبير عن ذلك فى أغنية من أغانى المودوك :

" أنا

الأغنية

إننى أمشى هنا " .

أن يتم تجاهل هذا البُعد – أن نتجاوز القوة التى تمتلكها تلك الكلمات والجمل فى التأثيرات على الجسد ، ومن ثم فى تشكيل خبراتنا الحسية عن العالم من حولنا – هو أن نعطل حتى القدرة العملية العادية للتواصل للغة غير المستوعبة أو المفهومة .

يمكن لنا أن نلخص باختصار النتائج العامة لتقصي ميرلو بونتي حول علم الظواهرية ، أو على الأقل تفسيرنا نحن لتلك النتائج كالتالى :

١ - إن حدث التلقى المعاش يمكن اعتباره كنشاط متداخل موروث ، وإن حدث التشارك هو تداخل مستوعب مابين المتلقى والمتلقى .

٢ - إن الأشياء المتلقاة تقابل عبر الجسد المستوعب كقوى حية ، باطنية ، تجذبنا بحيوية إلى العلاقة ، إن خبراتنا التلقائية السابقة للمفاهيمية لاتطرح أى شواهد لذلك التقسيم المزدوج مابين الظواهر الحية وتلك " غير الحية " ، ولكن فقط لذلك التقسيم النسبى مابين الأشكال المختلفة للحياة الحيوية .

٣ - إن التلقى الاستيعابى مابين أجسادنا بحواسها والأرض المعبرة الحية كليهما يقوى ويدعم تواصلنا الأكثر وعياً لغوياً مع الآخرين ، إن التبادل المعقد الذى ندعوه " باللغة " متجذر فى التبادل غير الشفهى دائماً بشكل حاصل مستمر مابين لحمنا نحن ولحم العالم .

٤ - إن اللغات البشرية - إذن - يتم إبلاغها لا عبر تشكيلات الجسد البشرى والمجتمع الإنسانى ، ولكن عبر الأشكال المثيرة والنماذج لأرضية ماهو أكثر من بشرى ، وأخذاً باعتبارات التجربة فإن اللغة ليست أكثر خصوصية كملكية للكائن البشرى مما هى تعبير للأرض الحية وهى تكشف نفسها لنا .

هكذا هو - على أى حال - نوع الوصف الذى نصل إليه عندما نهتم بعناية بالتلقى واللغة كما نخبر ذلك بشكل مباشر ومحسوس .

هنا - على كل - هذه الفلسفة تواجه موقفا مهددا لنتائجها وإجهاض كل جهودها ، وبشكل أكثر تحديداً ، إذا كان التلقى الحسى هو تشاركى بالوراثة ، وإذا كان كما قد ذكر ميرلو بونتي وأكد على أن التلقى (بشكل عام) هو المصدر الذى لايمكن الهروب منه لكل الخبرات فكيف نستطيع أن نجيب على الغياب الواضح للتشاركية فى العالم العصرى الحديث ؟ " أى حق أملكه ؟ " ، يتساءل ميرلو بونتي " أن أدعو (حالا) هذا الأصل القابل للنسيان إلى هذه الدرجة ؟ " وإذا كانت خبراتنا الأساسية البدائية حية بطبيعتها ، إذا كان وعينا " الحالى " يفتح حقلاً لظاهرة هى فى باطنها حية ومعبرة ، فكيف لنا أن نستطيع أن نجيب على ذلك " الفقد " لكل

تلك الحياة الحيوية للعالم من حولنا ؟ كيف لنا أن نجيب على خبراتنا الثقافية والحضارية مع الحيوانات الأخرى كجمادات بلا حواس أو إحساس ، أو حول الأشجار كجماد خالص ؟ إذا كان التلقى فى أعماقه تشاركياً تماماً كيف استطعنا أن نكسر تلك الأعماق إلى شظايا من الجمادات فى عالم حتمى نحن الآن نتلقاه ونعيشه بشكل عام ؟

قد نشك - فى البداية - أن ذلك الفقد الواضح للتشاركية متعلق نوعاً ما باللغة ، ذلك أن اللغة بالرغم من تجذرها فى التلقى غير أن لها بالرغم من ذلك قدرة مذهلة فى الابتعاد عن ذلك والتأثير على خبرات حواسنا ، فيما التلقى التشاركى يدعم التلقى الأكثر مباشرة، الإنسانى يُعاش ويُخبر بالنسبة للشعوب الشفهية الأصلية فى كينونة مشاركة مع حديث الطيور والذئاب وحتى الرياح ، فكيف أصبح له أن يصير " أصم " لأولئك ، ولتلك الأصوات الأخرى التى تبدو الطبيعة غير البشرية الآن فيها تقف صامته جامدة وخرساء ومفرغة من أى معنى خارج ذلك الذى نختار أن نمنحه إياها ؟

إذا كان التلقى فى العمق تشاركياً فى الحقيقة فلماذا لانجرب ولانعيش الإحساس بأن بقية العالم حى وحيوى ووجدانى مثلنا ؟ وإذا كانت لغتنا تعتمد حقيقة على وجود الآخر - الأصوات غير البشرية - فلماذا نعيش ونجرب الآن اللغة كمليكة بشرية استثنائية خالصة ؟

إن هذين السؤالين هما فى الواقع التساؤل نفسه مطروحاً من زاويتين مختلفتين ، والأكثر من ذلك فإن هذا التساؤل هو الشيء نفسه الذى ينبثق فى نهاية الفصل الأول، هو السؤال نفسه الذى عرضته هناك فيما يتعلق بالحركة المحسوسة فى خبرتى الخاصة للطبيعة غير البشرية عند عودتى إلى الغرب بعد رحلتى فى الريف الآسيوى ، غير أن السؤال المطروح الآن هو فى إطار ذى محتوى تنظيرى أكثر ، إنه مدعوم الآن بكامل التقاليد الفلسفية للبحث والتساؤل ، يجب أن يكون واضحاً الآن أيضاً أن السؤال يمتلك جانباً أكثر من الجانب الشخصى الخالص ، إن الطبيعة غير البشرية تبدو وكأنها قد انسحبت من كلا عالمينا : عالم كلامنا ، وعالم حواسنا ، أى حدث قد يكون تسبب فى هذا الانسحاب المزدوج مشكلاً طرقنا فى الكلام حتى وهو يصم أذاننا ويضع الحجاب على أبصارنا ؟

(٤)

الوثنية وحروف الهجاء

حامل بالفرشاة ، الإنمیل ، القلم ، أوريشة الكتابة كمثل إطلاق
عضة أو رفع مقلب ،

جارى سنايدر

إن السؤال المتعلق بأصول الأزمة الإيكولوجية البيئية ، أو فى الشواهد العصرية الحديثة لفقد الاعتبار والاحترام لاحتياجات العالم الطبيعى قد أثارت بالفعل ردود فعل متعددة لدى الفلاسفة ، إن هناك أولئك الذين يقترحون أن علاقة استغلالية عامة مع بقية الطبيعة هى جزء وضرورة من الوجود الإنسانى ، وأن الكائنات البشرية منذ البدء قد كانت فى حرب مع الطبيعة وكائناتها وعناصرها ، فيما آخرون بات لديهم أن الثقافات أو الحضارات الأصلية القديمة قد أبدت تضامنا خلافا مع الأراضى التى يعيشون فيها ، وكذلك الاحترام المبدئى لتلك الكائنات الأخرى التى تعيش فى تلك الأراضى . إن مثل تلك الثقافات ، وهى أصغر كثيرا فى أحجامها (وأقل مركزية) عن الحضارة الغربية الحديثة تبدو وكأنها قادرة على الاحتفاظ بعلاقات شبه متوازنة مع بيئاتها الطبيعية لزمان أطول ، أخذين احتياجاتهم الضرورية للوجود من تلك الأراضى دون تخريب وتدمير جاد لقدرة الطبيعة على إعادة التكيف معهم ومع نفسها .

إن التنوع الخلاب والمزدهر لقارة أمريكا الشمالية قاد المستكشفين الأوروبيين الأوائل للحديث عن هذه الأراضى كطبيعة موحشة مهجورة ، أو غير مسكونة ، بالرغم من أن هذه القارة كانت مسكونة ومستوطنة دائماً بالثقافات الإنسانية لمدة عشرة آلاف

عام على الأقل قبل مجيء الغرب إليها ، إن كون شعوبها الأصلية استطاعت أن تجمع وتقتنص وتصيد وتصنع إقامتها في موطنها ذلك لمدة طويلة من الزمان دون أن تخرب وتستنزف تلك الطبيعة إلى حد خطير ، وتحفظ للمكان بكرامته يعارض في حد ذاته تلك المقولة التي ترى أن البشر مخربون وفي حالة حرب مع الطبيعة بطبيعتهم . إنه في خلال قرون قليلة من الاستيطان الأوروبي في تلك الأراضي فقدت تلك الأراضي الكثير من ثروتها وخصوبتها وتم استنزافها - لقد تقلص عدد الحيوانات فيها ، وانقرضت بعض أنواعها ، وبُتر الكثير من الغابات كما تم تجريف أراضيها الزراعية ، كما جفت وخربت تربتها الخصبة الغنية ، وصارت مياهها الجارية وشلالاتها غير قابلة للاستهلاك والشرب الآن .

إن إهمال أوروبا المتحضرة وعدم احترامها للعالم الطبيعي واحتياجاته قد تم تشجيعه بوضوح عبر أسلوب للوعي يتجاهل ويحارب الحقيقة الحسية مدمراً النظام الطبيعي والحساس الواضح للأشياء بالنيابة عن مصدر مطلق ما يفترض وجوده كاملاً خارج أو أبعد من العالم الجسدي . بعض الفلاسفة والمؤرخين استخلصوا أن العادات اليهودية والمسيحية بآلهتها الغيبية خارج هذا العالم ، هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن ذلك الموقف الحضاري المهمل وغير المراعي للبيئة الطبيعية الأرضية ، إنهم يطرحون كشواهد وصايا الرب العبراني للبشرية في الكتاب المقدس :

" كونوا مخصبين وتكاثروا ، املأوا الأرض واستعبدوها ، واستعبدوا الأسماك في البحار ، والطيور في السماء ، وكل الأشياء الحية التي تتحرك وتعيش في الأرض " .

بعض المفكرين الآخرين ، على كُُل ، التفتوا نحو الأصول اليونانية لتقاليدنا الفلسفية في أثينا التي عاش فيها سقراط وأفلاطون ، في بحثهم عن جذور انتهاكنا للطبيعة ، جيل طويل من الفلاسفة المعاصرين ، فمثلاً من فريدريك نيتشه حتى الحاضر حاولوا أن يعرضوا الأصول الأفلاطونية للتحويلات التي حدثت في الأشكال المختلفة للحسي في العالم - كانت دعواهم تقوم على أن كل تلك كانت أفكاراً قائمة على الخلود و على الخالص ، وتقيم في عالم نظري مثالي ، وغير حسي أبعد من عالمنا الواضح - وقد أضاف ذلك بعمق إلى عدم احترام الحضارة وشكلها في الخبرة الحسية والجسدية ، وإلى اغترابنا الناتج عن ذلك عن عالم الأرض والطبيعة من حولنا .

وهكذا فإن قدماء العبرانيين من ناحية وقدماء الإغريق من ناحية ثانية هم المسئولون عن تقديم المحتوى الفكرى الذى احتضن موقف الحضارات من سوء المعاملة للطبيعة غير البشرية ، كل من هاتين الثقافتين القديمتين تبدو كأنها بذرت البذور لاغترابنا المعاصر - إحداهما بدأت فى تأسيس الأصول الدينية والروحية للبشرية فى هيمنتها على الطبيعة ، والثانية أثرت بشكل أكبر على المنهج الفلسفى والعقلانى فى موقفه المعادى من الطبيعة، وفصلت الحالة الفكرية البشرية عن العالم الطبيعى العضوى ، ومن زمن طويل أسبق من الامتزاج التاريخى للدين اليهودى والفلسفة الهيلينية مع العهد الجديد للمسيحية ، فإن هذين الخطين من المعتقدات المشتركة - أو التى تبدو مشتركة - اتخذت مسافة عقلية متشابهة من البيئة غير البشرية .

وفى كل اعتبار آخر لهذه التقاليد فإن كلاً منهما تأصل من جذوره الخاصة به وأرضيته وزمنه ، مؤسسين اختلافهما الواسع ، وفى كل اعتبار آخر عموماً ماعداً واحد :

كلاهما منذ البدء تم نشره عبر الكتابة ، وبالفعل فإن كليهما استخدم تلك التكنولوجيا الغربية والثرية باحتمالاتها والتى ندعوها اليوم بـ " الحروف الأبجدية " .

إن الكتابة - مثل اللغة البشرية - ليست حصيلة المجتمع البشرى فقط ، وإنما قد حدثت ما بين المجتمع البشرى والطبيعة الحية ، وقد وُلدت نتيجة التداخل والاحتكاك ما بين البشر وعالمٍ ما هو أكثر من بشرى ، إن الأراضي الطبيعية التي نجد أنفسنا فيها والتي نعتمد عليها لكل أشكال بقائنا وعيشنا مليئة بالخطوط والتعاريج والآثار الموحية ، والتي شكلتها كاليوغرافى الأنهار الممتدة خلال اليابسة ، كاتبة الأخاديد والتعاريج فى الصحارى ، وكذلك راسمة بالقطع الأسود على الأشجار التي قد ضربها البرق والرعد ذات يوم فى الماضى . إن أسراب الطيور المهاجرة تقدم كتابة من نوع آخر فى السماء والرياح تحركها ، إن هذه الكتابة هى التى درسها المنجمون القدماء وهم يقرأون فى تلك الحروف الحية مستقبل البشر . إن الحشرات تصنع خطوطاً وأشكالاً غريبة على أوراق الأشجار التى تعيش عليها وتقتات منها ، والذئاب تتبول على صخور وأراض محددة لتصنع حدودها ، واليوم أنت تقرأ هذه الكلمات المطبوعة كما كان قناصو القبائل يقرأون فى يوم ما آثار غزال ، أو دب ، أو وعل محفورة ومطبوعة على تربة الغابات .

إن الشواهد الأثرية تطرح أنه لأكثر من مليون عام اعتمد بقاء البشرية على دقة مثل أولئك القناصين وقدرتهم على قراءة الآثار - قليل من البعر هنا ، عظمة مكسورة هناك - لتلك الحيوانات الأخرى ، إن هذه الحروف التى أطبعها فى هذه الصفحة هى الخريشات والخطى التى تركز عليها أنت الآن متابعاً إياها على سطح الصفحة البيضاء ، وهى بالكاد تختلف عن آثار أقدام فريسة مطبوعة على الثلج ، إننا نقرأ تلك الآثار والعلامات بأعضاء تم تطويرها عبر ملايين السنين من أجدادنا القدماء متحركين غريزياً من مسار لآخر ، ملتقطين تلك الخطى حيثما قد تركت آثارها مقتنصين " المعنى " ، والذى سيكون " اللقاء " مع الآخر .

إن الشكل المتعدد للمعانى للكلمة الصينية للكتابة (" وين " Wen-) يوضح جيداً هذا التفسير للكتابة البشرية وتلك غير البشرية .

" إن كلمة " وين " ترمز إلى تشكيلات العلامات ، الرمز البسيط فى الكتابة ، إنها تنطبق على الشرايين أو العروق فى الصخور والأخشاب ، والمجرات المتشكلة عبر مسارات النجوم ، لآثار الطيور على الأرض (إن التقاليد الصينية تطرح ملاحظة وترصد تلك الآثار) . بدأت فكرة اختراع الكتابة ، إلى رسوم " التاتو " على سبيل

المثال ، وإلى تلك التصميمات الديكورية على قشرة السلحفاة (" إن السلحفاة حكيمة " يقول نص قديم- وقد خُصت بقوى سحرية - دينية " ذلك أنها تحمل تصميمات مرسومة على ظهرها ") ، إن مصطلح " وين " قد انطبق بالتالى كامتداد لذلك على الأدب ... " .

لقد كانت كتابتنا الأولى من الواضح هى أثارنا ، آثار أقدامنا ، طبغات أيادينا على الطين أو الرماد الملتصق بالصخور ، فيما بعد ربما وجدنا أنه عبر نسخ الطبغات المميزة والخرابيش التى خلفتها حيوانات أخرى نستطيع أن نكتسب قوى جديدة ، هنا كانت وسيلة وطريقة للتشبه بالحيوانات الأخرى ، أخذين منها السحر المعبر من أجل أن نفتفى أماكنها ، لنقربها ونجعلها تظهر أمامنا ، إن حدود ومتابعة الانطباع الذى تركه جسد غزال على الثلج أو نقل ذلك التخطيط على جدار الكهف كانت طرُقاً ليضع المرء نفسه من بعيد على صلة مع الآخر ، إما لإثارة تأثيره أو لممارسة تأثير الشخص عليه ، ربما عبر تكرار وتعدد خيالاته على جدار الكهف كنا نهدف إلى التأكد من أن الغزال نفسه سوف يتكاثر ، ويكون هناك وفرة فى الموسم المقبل

إن كل أنظمة كتابتنا المبكرة بقيت مرتبطة إلى ذلك العالم الغامض الفوق - بشرى ، إن تخطيطات " البيتروجليفز " Petroglyphs الخاصة بالرسوم البدائية للحضارة الكولومبية لأمريكا الشمالية القديمة ممثلة بصور ورسوم للفرائس ، سحب المطر والبرق ، للنسور والثعابين ، ورسوم آثار مخالب الدببة على الصخور ، والأخاديد ، والكهوف ، تختلط تلك الأشكال مع الأشكال البشرية ، أو أشكال لأعضاء بشرية مختلفة مع أعضاء أخرى (جزء من حشرة ، أو بومة ، أو وعل) .

بعض الباحثين يؤكدون أن رسوم الكتابة لدى الشعوب الأصلية لأمريكا الشمالية ليست حتى الآن كتابة " حقيقية " ، حتى حينما تكون الصور متسلسلة ومرتبطة ببعضها بعضاً فى نظام معين ، كما هى واضحة فى الكثير من النقوش الصخرية (وكذلك فى الروزنامة الخاصة " بحسابات الشتاء " لقبائل السهول) ، وذلك أنه يبدو حتى الآن أنه ليس هناك علاقة صارمة مابين الخيالات أو الرسوم والمنطوق .

وفى مجال علم الرسوم البدائية ونظامه الأكثر محافظة مثل الهيروغليفية المصرية (والتي ظهرت فى فترة السلالة الأولى ، حوالى العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وبقيت فى حيز الاستخدام حتى القرن الثانى الميلادى) كانت الأشكال الأسلوبية للبشر وأدواتهم مازالت على صلة بتلك الصور والرسوم للنباتات والأنواع المختلفة من الطيور ، وكذلك الثعابين ، والتماسيح ، وغيرها من الحيوانات ، إن مثل أنظمة الرسوم البدائية تلك قد وجدت أيضاً فى الصين وتعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وهى تحتوى بشكل تقليدى على شخصيات أصبح الأكاديميون يدعونها " أيدوجرام Ideogram - ، والأيدوجرام عادة ما يكون شخصية مرسومة أو مصورة تعود إلى أو ترمز لا إلى الهوية أو الكينونة الواضحة للصور المباشرة ولكن إلى قيمة ما أو ظواهر أخرى يتم ربطها تلقائياً بذلك الشيء أو تلك الكينونة وهكذا - لابتكار مثال بسيط - فإن خيالاً أو صورة أسلوبية لفهد بأقدامه عالياً عن الأرض ربما صارت ترمز إلى " السرعة " ، بالنسبة للصينيين ، وحتى اليوم فإن رسماً أسلوبياً للشمس والقمر معاً يرمز إلى " الضوء والشمع " ، وكذلك فإن الكلمة المقصود بها " شرق " تبرز كرسم أسلوبى للشمس وهى تبرز من وراء شجرة .

إن نشوء تلك الأنظمة المشتقة للرسوم والصور يحمل بالضرورة معه تحولاً للمشاركة الحسية بعيداً عن الأصوات والاختلاجات الخاصة بالأرض المحيطة بالبشر نحو رسومنا وخيالنا المُنشَّعة بشريا ، غير أنه بقيت الرسوم البدائية والتي شكلت علمياً تلك الكتلة لتلك النقوش القديمة تذكر الجسد القارئ بموروثه وانتماؤه إلى حقل المعانى فى العالم الأكثر مما هو بشرى ، إن توقيعاً ليس فقط للشكل الإنسانى ولكن للحيوانات الأخرى ، والأشجار والشمس والقمر والأشكال الأرضية بقيت باستمرار تعود إلى حواسنا فى فضاء يزيد على مجرد الفضاء البشرى .

ولكن حتى مختصاً فى مجال الرسوم والأشكال الفكرية المتصلة بذلك المجال لن يستطيع الجزم بشكل كلى حول مصطلحات معينة وجدت فى مسار محلى خاص ، إن مثل تلك المصطلحات قد تعود إلى ظاهرة تفتقد تماماً إلى تداعٍ بصرى محدد ، فلنأخذ على سبيل المثال الكلمة الإنجليزية (" اعتقاد - belief) كيف يمكن لنا أن نرمز إلى ذلك عبر الرسوم والصور ، أو نظام الأيدوجراف القائم على ترميز الصورة فكرياً ؟

ربما رسماً أو صورة لحيوان خرافى متوحش ، أو واحدة لشخص يقوم بالصلاة ، ومع ذلك فإنه لا يمكن لمثل ذلك الأيدوجرام أن يوصل المصطلح بدقة جاهزة مثل الصورة البسيطة لدبور نحل تتبعه صورة لشكل ورقة شجرة .

إننا نستطيع أن نلجأ إلى صورة بصرية ، ورسوم لأشياء لاعلاقة لها خارجياً بالاعتقاد ولكن يكون لها عند تسميتها فى تسلسل أن تحمل الصوت نفسه مثل (المصطلح المنطوق " اعتقاد - belief) فتكون بالإنجليزية (bee- Leaf) (دبور - ورقة) . [ملحوظة : فى النطق العربى المقارب للكلمتين بيليف - وبى لبيف تقارب صوتى للكلمتين المنطوقتين رغم اختلاف المعنى . (المترجم)] وبالفعل مثل تلك التلاعبات الشكلية للرسوم تم استخدامها أيضاً فى الشرق الأوسط ؛ لتسجيل مصطلحات معينة كانت بشكل خاص تجريدية أو غير قابلة للتمثيل والتصوير البصرى ، وهكذا - على سبيل المثال - فإن الكلمة السومرية (" تى " TI) والتي تعنى " حياة " ، كُتبت فى شكل مرسوم لرمز " السهم " والذي يسمى بالسومرية أيضاً ، (" تى " - TI) .

إن خطوة مهمة قد اتُخذت هاهنا مع لغة الترميز فى الرسوم المكتوبة ، تم وضع إشارات مرئية لإثارة أصوات معينة تحاكي الصوت البشرى بدلاً من المرجعية الخارجية للصوت . إن لغة الترميز عبر الرسوم بتركيزها على الصوت للاسم بدلاً من الشيء المسمى بدأت فى وضع المشروع البعيد المدنى للنقش أو الكتابة الصوتية (Phonetic من الكلمة اليونانية Phonein أى الصوت) ، وكانت هذه الوسيلة التى سوف تقوم بكتابة الصوت الخاص بالكلام بدلاً من محتواه الخارجى أو معناه .

غير أنه نظراً لعوامل كثيرة ساعدت فى تعميم مبدأ الرسوم الترميزية الصوتية ، وبذلك منعت التطور الكلى لنظام الكتابة الصوتية ، فمثلاً إن كتابة ضخمة من التشكيلات المرسومة يمكن بسهولة تزويدها لأهداف خاصة بالتواصل عبر أشخاص لهجات مختلفة تماماً (وبذلك لا يستطيعون فهم بعضهم بعضاً عبر الكلام) إن التصوير أو الرسم الترميزى نفسه مفهوم بشكل جاهز سوف يثير أصواتاً مختلفة فى كل لهجة ، وهكذا فإن كتابة مصورة تسمح بالتجارة فيما بين الحى نفسه وكذلك المجتمعات ذات اللغات المختلفة البعيدة ، وكان هذا تقدماً قابلاً للضياع لو أن الكتابة الصوتية الرمزية وحدها قد استخدمت لكتابة الأصوات المنطوقة لمجتمع ما (إن هذا العامل يساعد فى شرح لماذا شكلت الصين المجتمع الواسع والمكون من تعددية اللهجات مميزة ، لم تطور أبداً الكتابة الصوتية) .

والعامل الآخر الذى عطل التطور الكلى للكتابة اللغوية - الصوتية كان المركز النخبوى الغالب للكتاب ، إن الكتابة الأيدوجرافية لابد لها من استغلال عنصر العدد الكبير للرسوم والشخصيات الأسلوبية بما أن كل مصطلح فى اللغة يجب على الأقل مبدئياً أن يكون لديه شخصيته المكتوبة .

(فى عام ١٧١٦ عرض قاموس للصينية - مع الاعتراف بأنه مثال صارخ - ٤٠٤٤ شخصية مكتوبة ! واليوم حوالى ٨٠٠٠ شخصية فقط هى المستخدمة) . إن المعرفة الكاملة لنظام التصدير الرمضى لذلك يمكن لها أن تكون فقط امتيازاً لعدد قليل من الأفراد المتعلمين ، والمدرين عليها بشكل كبير فى مثل تلك الثقافات ، وقد كان ذلك أدب أو علم الأقلية المتميزة والذين كان علمهم المقدس غالباً ما ينظر إليه بتقدير بالغ وتمييز وتقديس من قبل بقية المجتمع ، ولم يكن من المرجح أن يقوم هؤلاء الكتبة بإرادتهم بتطوير ابتكارات تُبسّط من تلك التكنولوجيا الجديدة وبذلك تسهل القراءة والأدب والثقافة لبقية المجتمع ، لأن ذلك كان بالتأكيد سوف يقلل من وضعها ومركزها الاجتماعى والثقافى فى ذلك المجتمع ، ويفقدها فرادتها وتميزها .

" ... إنه من الواضح أن الكتابة القديمة التاريخية كانت فى أيادى نخبة صغيرة من المتعلمين - الكتبة - والذين أسسوا لحس محافظ كبير فى ممارستهم لمهنتهم وفنهم ، وبعيدين عن كونهم مهتمين بتبسيط تلك الكتابة غالباً ما اختاروا أن يعرضوا رفعتهم وأخلاقهم عبر تعزيز الرموز والقيم ... "

ومع ذلك ، فى الشرق الأوسط القديم كان مبدأ الكتابة بالرسوم الترميزية قد تم تعميمه ونشره مع الوقت - ربما عبر كتبة يعملون بعيداً عن المراكز الثرية المرفهة والمنعمة فى تلك الحضارة - ليغطوا كل الأصوات المشتركة للغة معينة ، وهكذا فإن مخارج الحروف والتقطيعات الصوتية والمختصين فيها قد ظهرت ، حيث كل مقطع صوتى أساسى فى اللغة كان له مفهومه المحدد وشخصيته المكتوبة (غالباً ما يكون فى شكل كتابة بصرية رمزية فى الأصل) مثل تلك الأنظمة للكتابة استخدمت إشارات أقل بكثير عن الكتابة المرسومة بالصور والتى تم اشتقاقها منها فى الأصل ، بالرغم من أن أرقام الإشارات كانت مازالت أكبر بكثير من الكتابة الأبجدية التى نعرفها اليوم .


إن الابتكار الذى ولدته الأبجدية فى حد ذاته تم تطويره عبر الكتابة السامية حوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، لقد تكونت من الإقرار بأن كل مقطع تقريباً من لغتهم كان مُشكلاً من واحد أو أكثر من العناصر الصوتية الصامتة بالإضافة إلى عنصر النَفَس الصوتى - ذلك الذى ندعوه اليوم بالتشكيل - إن العناصر الصامتة أو الساكنة قدمت - كما قد كان - الإطار التجسدى أو الشكل الذى من خلاله يتدفق النَفَس الصوتى .

إن الأبجدية الأصلية السامية آنذاك قد أسست شخصية أو حرفاً لكل متحرك فى اللغة ، إن الحركات ، النفس الصوتى الذى لا بُد وأن يضاف إلى الحروف المكتوبة الساكنة كى يمنحها الحياة والقدرة على الكلام كان لا بُد أن يتم اختياره عبر القارئ، والذى سوف ينوع فى النَفَس الصوتى حسب المحتوى المكتوب .

وعبر هذا الابتكار تمكنت الألف - باء من تقليص كبير لأعداد الشخصيات للمخطوطة المكتوبة إلى رقم اثنين وعشرين فقط - نظام مُبسَّط للإشارات يمكن استخدامه بشكل جاهز وتعلمه فى فترة زمنية قصيرة لأى أحد يملك الفرصة وحتى الطفل الصغير . إن البساطة المحضة لذلك الابتكار التكنولوجى أو التقنى كان بذلك الحجم بحيث أن الألف - باء السامية والتي دوت بها الحكايات والقصص الكثيرة والتاريخ والأحداث تم جمعها فيما بعد فى الكتاب المقدس للعبرانيين ، وتم تبنيها كلفة لا من قبل العبرانيين فقط بل والفينيقيين (والذين من المفترض أنهم كانوا حملة التقنية الجديدة عبر البحر المتوسط ونحو اليونان) والآراميين واليونانيين والرومان ، وبالفعل مع الوقت أعطت البروغ (مباشرة أو بشكل غير مباشر) لكل أبجدية نعرفها اليوم فى العالم ، بما فيها هذه التى أستخدمها الآن لكتابة هذه الكلمات .

مع تطور الأبجدية فُتحت مسافة جديدة ما بين الثقافة الإنسانية وبقية الطبيعة ، بالتأكيد فإن كتابة الأشكال والرسوم والكتابة الأيدوجرافية ذات الرسوم الترميزية كانت بالفعل متورطة فى إفقاد حواسنا التشاركية مكانها عن أعماق البيئة الحية، ونقلها إلى السطح الباهت لجدراننا وألواحنا الطينية وأوراقنا من البردى ، غير أنه كما قد لاحظنا سابقاً فإن الرسوم والخيالات المكتوبة فى حد ذاتها طالما ارتبطت وأعادتنا إلى الحيوانات الأخرى والطبيعة البيئية الأرضية ، إن الحرف المرسوم أو الشخصية مازالت ترجع باطنياً إلى الظاهرة الحية ، والتي كانت الخيال الجامد ، لقد كانت ظاهرة الكلمات بدورها التى أثارت من داخلنا الصوت لذلك الاسم ،

الظاهرة المحسوسة واسمها المنطوق بشكل ما مازالت متشاركة مع بعضها بعضاً، إن الاسم هو نوع من الانبعاث للكينونة المحسوسة . مع صوتيات الألف باء - على كل - فإن الشخصية المكتوبة لم تعد ترجعنا إلى أية ظاهرة محسوسة هناك فى الخارج أى العالم ، أو حتى إلى الاسم لمثل تلك الظاهرة (كما كان يفعل نظام الترميز الصوتى بالرسوم) ولكن تعود بنا إلى مجرد اختلاج أو حركة يقوم بها الفم البشرى ، إن هناك تحولاً أساسياً للانتباه بعيداً عن أى عالم خارجى أو مرجعية إلى الكتابة المرسومة بالصور والخيالات ، بعيداً عن الظاهرة المحسوسة والحسية التى تنادت سابقاً إلينا ونادت على الهمس المنطوق ، إلى الشكل للمهموس والمنطوق فى حد ذاته ، الآن تقوم بذلك عبر الكتابة المباشرة للشخصية . إن إحالة مباشرة قد أسست ما بين الإشارة المرسومة وحركة النطق الصوتى لأول مرة متجاوزة تماماً الشئ المرسوم . إن الظاهرة المستثارة - الكينونات المتخيلة - لم تعد جزءاً ضرورياً فى المعادلة ، إن المنطوقات البشرية أصبحت الآن مبتكرة وموجهة مباشرة عبر الإشارات والرموز التى صنعها البشر الأضخم ، والعالم الأكثر مما هو بشرى لم يعد جزءاً ضرورياً لذلك النظام .

أو هل هو مازال كذلك ؟ عندما نتجول فى مجال الأبجدية (ألف - باء) السامية المبكرة نتعرف حالاً على ميراثها من الكتابة - المرسومة أو المصورة ، ألف (أ) الحرف الأول كان مكتوباً هكذا:  (أ) كان أيضاً هو الكلمة العبرية القديمة لكلمة "جاموس" . إن شكل الحرف - نستطيع أن نرى - كان لرأس جاموس بقرنيه ، معكوساً أو مقلوباً ، أصبح هو حرفنا (A - أ) . إن اسم الحرف السامى (م - MeM) هو أيضاً كلمة عبرية (للماء) ، الحرف الذى أصبح فيما بعد هو حرفنا (M - م) ، تم رسمه كسلسلة من الأمواج : (𐤎) ، الحرف (ع-ayin) ، وهو يعنى أيضاً (عين-eye) بالعبرية ، تم رسمه كدائرة بسيطة ، صورة للعين ، إن هذا الحرف تم تحويله إلى حركة صوتية فى الكتابة اليونانية ، وتحولت فيما بعد إلى الحرف (O - أو) ، الحرف العبرى (ق-قاف-qoph) كان هو الكلمة التى تعنى "قرء" ، تم رسمها كدائرة لها ذيل طويل (𐤑) ، وتحول حرفنا (Q) ليبقى على إحساس مابتلك الصورة البسيطة .

إن هذه مجرد أمثلة قليلة ، وعبر المقارنة للأسماء الخاصة بالحروف بأشكالها المختلفة نكتشف أن حروف الأبجدية (ألف - باء) المبكرة مازالت مرتبطة بشكل داخلى وباطنى إلى حقل ظاهرة مما هو أكثر من بشرى ، غير أن هذه الارتباطات مع الحيوانات الأخرى ، وعناصر الطبيعة مثل الماء والأمواج ، وحتى مع الجسد البشرى نفسه - كانت أكثر لطفاً ورقة عما كانت عليه فى البدائية المرسومة وغير الصوتية .

إن آثار العالم الطبيعي المحسوس تبقى في الكتابة الجديدة كآثر قديم بائد - لم تعد شريكاً ضرورياً لتحولات المعرفة اللغوية ، إن الحيوانات الأخرى ، النباتات والعناصر الطبيعية - الشمس ، القمر ، الأمواج - قد بدأوا في فقد أصواتهم الخاصة. في الكتاب المقدس اليهودي إن الحيوانات لا تقول أو تتحدث بأسمائها إلى آدم ، وبدلاً من ذلك ، فإنها تتلقى أسماءها من الرجل الأول ، إن اللغة للعبرانيين صارت هبة بشرية محضة ، قوى بشرية .

لقد حدث فقط ، على كل ، مع تحويل الكتابة الصوتية إلى اليونان ، والتحول الناتج عن ذلك في الأبجدية (ألف - باء) السامية إلى الأبجدية الإغريقية (alphabet) أو اليونانية أن صار التجريد المتطور للمعنى اللغوي من العالم الحى نفسه وصل إلى نوع من الاكتمال ، لقد أخذ الكتبة اليونانيون مع بعض التعديلات كلا الجانبين من أشكال الحروف السامية وأسمائها أيضاً ، وهكذا فإن (ألف - alfa) اسم الحرف الأول ، وكلمة (جاموس - ox) أى ألف بالعبرية صارت (ألف - alpha) ، و (ب - beth) اسم الحرف الثانى صارت أيضاً "بيت" إشارة للمنزل - تحولت إلى (beta) ، و (ج - gimel) - الحرف الثالث ، كلمة تعود إلى (جمل) صارت (gamma) .. إلخ .

ولكن فيما كانت الأسماء السامية تمتلك معان قديمة غير نحوية لأولئك المتحدثين باللسان السامى فإن النسخ الإغريقية - اليونانية لتلك الأسماء لم يكن لها أى معنى غير نحوى على الإطلاق بالنسبة لليونانيين أنفسهم ، أى بمعنى فيما كان الاسم السامى للحرف هو أيضاً اسماً لكنونة محسوسة لها صورة أو خيال مشترك أو تعود إلى حرف كان الاسم اليونانى لايمتلك أى مرجعية محسوسة أو متخيلة فى العودة إلى ذلك الحرف نفسه ، إن الاسم الإغريقى لم يكن له أى مرجعية حسية على الإطلاق ، وفيما الحرف السامى قد خدم ليكون مُذكراً بالأصول الحية فى العالم للحرف فإن الاسم اليونانى خدم فقط ليشير إلى الحرف الذى ابتكره الإنسان نفسه . إن التصوير بالرسوم (أو الأيقونات) تركز إلى أهمية حروف سامية كثيرة ، والتي تم حفظ ذاكرتها فى الأسماء المنطوقة صارت الآن مفقودة بالفعل ، إن امتنان اللغة البشرية إلى حقل التلقى للعالم الأكثر مما هو بشرى ، الامتنان الذى تم حفظه فى أسماء وأشكال الحروف السامية صار الآن قابلاً للنسيان تماماً .

إيقاعات الموقع

"... إننى عاشق للتعلم ، والأشجار والريف المفتوح لن يعلمانى شيئاً ، بينما الرجال فى المدينة سوف يفعلون ". هذه الكلمات نطقها سقراط ، الأب الحكيم والأسطورى للفلسفة الغربية – مبكراً فى مسار فيدروس ، بالتأكيد أحد أكثر الحوارات الأفلاطونية أناقة وفنا مكتوبة عبر أكثر تلاميذ سقراط توضيحاً وشرحاً : أفلاطون ، نقشت هذه الكلمات وطرحت افتراضاً جديداً وغريباً فى البدايات المبكرة لتقاليد الفلسفة الأوروبية .

إنه يصعب معالجة فرضية سقراط – بأن الأشجار والريف البرى ليس لديهم شيئاً ليعلموه – مع اليونان التى عرفناها من خلال ملحمة هوميروس ، فى أناشيد هوميروس فإن الأرض الطبيعية نفسها تحمل التعاويذ والإشارات والنبوءات التى ترشد البشر فى أعمالهم وتحركاتهم ، إن الآلهة تتحدث مباشرة عبر أشكال السحب ، والأمواج ، وتحلق أسراب الطيور ، زيوس يثير العواصف ويبعث بضربات الرعد ، ويرسل بالصقور لتحلق فوق رؤوس الرجال مفرقاً تجمعاتهم . أثينا نفسها يمكنها أن تتخذ شكل نسر البحر ، أو يمكن لها أن ترسل بالريح لتعين سفينة على الإبحار . بروتوس " المعتقد فى ملح البحر ، والذي يخدم تحت إمرة بوزيدون " يستطيع بسهولة أن يتحول إلى أى وحش ، أو شعلة نار ، أو إلى الماء نفسه . وبالفعل فإن الآلهة بدت غير مختلفة فى بعض الأحيان عن عناصر الطبيعة التى تستعرض قواها : بوزيدون " الإله الأزرق الذى كان يجعل الجزر ترتعد " هو الحياة نفسها والهياج فى البحر نفسه ، هيليوس " إله الظهيرة " لا يمكن تمييزه عن الشمس (الشمس الحارقة هنا هى ذكاء يملك الإرادة والقدره حتى على فعل الأبوة للأطفال : سيرك ، الساحرة هى ابنته) وحتى " الفجر العادل " بأصابعها الممتدة بالورود هى قوى حية . إن الأحداث والانفعالات والعواطف البشرية ليست مختلفة عن الأمزجة المتغيرة للأرض الحية – إن إحساس الجيش بالراحة قد تم توضيحه فى وصف السحب المحملة والمكتظة من

الأرض ، إن قلق نيسطور يشبه عتمة البحر قبل العاصفة ، إن إطلاق سراح الداخل لمشاعر بينيلوپ فى الإصغاء للأخبار حول زوجها يوصف كمثّل ذوبان ثلوج قمم الجبال عبر رياح الربيع الدافئة ، مذبذبة المياه المتجمدة إلى ينابيع تتساقط فوق المنحدرات - وكأئنا الأرض الطبيعية كانت البيت الصحيح لتلك العواطف والمشاعر ، أو كأنه حدس مشترك يتحرك ويتجول ما بين البشر والسحب والأشجار .

عندما كان أوديسوس شبه غريق بسبب غضب وجبروت بوزيدون وتقريباً تحطم إلى قطع على الساحل الصخري لفيآكى - وجد أمامه فم النهر الهادئ ما بين المنحدرات ، وصلى مباشرة لروح ذلك النهر لترحمه وتمنحه الأمان والمجأ ، ومباشرة تحول الموج وشده النهر إلى حمايته وأمانه . هنا إذن أرض حية فى كل مكان ، ويقظة ، ومسكونة بقوة متعددة ذات إرادة : أحياناً ثأرية وانتقامية ، وأحياناً أخرى رقيقة وحنونة ، ومع ذلك فإنها دائماً بشكل مامتجاوبة للأحوال والأوضاع الإنسانية . إن الأشكال المتنوعة للأرض مازالت تتحدث وتقدم الإرشاد للبشرية ، إنها تنطق فى اختلاجات لانستطيع باستمرار أن نفهمها مباشرة ونستوعبها .

إن هذه الطبيعة والأرض الحية والمسكونة بقواها تتعارض بشكل ما مع وجهة النظر الفوقية التى تتجاهلها كما ورد فى فيدروس على لسان سقراط . لنصنع منطقاً كذلك التعارض، من الضرورى أن نلاحظ أن ملحمة هوميروس ربما كانت قد دوت فى القرن السابع قبل الميلادى ، وهى فى الأصل إبداع شفاهى متداول تم تطويره إلى ملاحم شعرية وقصائد شفوية كانت تغنى ويعاد غناؤها ، متغيرة ومتزايدة فى تعقيداتها منذ زمن طويل قبل أن تتم كتابتها وتدوينها وبذلك جُمّدت فى هذا الشكل المحدد الذى نعرفه بها الآن ، إن محاورات أفلاطون - على الجانب الآخر - تمت كتابتها وتدوينها فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد ، تم نسخها بدقة وصياغتها وتشكيلها فى محتوى أدبى عبر مؤلف أديب متمكن ، وبالفعل فإنها تدون لأول مرة الكثير من النماذج العقلية أو الأساليب الفكرية والتى اليوم نحن أصحاب الثقافة الأدبية نأخذها على سبيل اليقين .

إن الأبجدية اليونانية - الإغريقية تم ابتكارها فى البدء - أو بالأحرى اقتباسها من (الألف - باء) السامية - بقرون قليلة قبل أفلاطون ، ربما فى خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، إن التقنية الجديدة لم تنتشر سريعاً عبر اليونان وإنما لاقت معارضة شديدة

فى شكل ثقافة مواجهة متطورة شفاهياً ولها طقوسها وعاداتها ، أى أنه كانت تقاليد يونان ما قبل الأبجدية محافظاً عليها تماماً عبر قصص شفاهية كثيرة تتم روايتها بشكل منتظم ، ونقلها من جيل إلى جيل عبر المنشدين وكبار السن من اليونانيين أو الناقلين ، إن الحكايات المنشدة حملت داخل إطارها الحكائى الكثير من المعرفة التراكمية للثقافة ، وبما أنها لم تكن قد دُوِّنت فإنها لم تكن ثابتة تماماً ، ولكنها قد تتغير مع كل رواية جديدة لها ؛ لتناسب الظروف والاحتياجات لمستمعين وجمهور معين ، ومانحة بالتدريج معرفة جديدة محددة فيما تلفظ ذلك الذى لم يعد مهماً أو مناسباً لها فى ذلك الطريق الطويل . إن القصص المُغناة بالإضافة إلى الاحتفالات الكثيرة التى ارتبطت بها كانت تمثل بشكل ما موسوعة حية للثقافة - حاملة عنها ومحافظة على المعرفة الجماعية والتقاليد المؤسسة للمجتمع - وهى نفسها قد تم المحافظة عليها عبر التكرار والحفظ والإرشاد وإعادة فى تلك الطقوس ، لقد كان هناك هكذا احتياج مكشوف للتقنية الجديدة للقراءة والكتابة ، وحسب المؤرخ الأدبى إيريك هاقيلوك فإنه لمدة قرنين أو ثلاثة فى البداية بعد ظهورها فى اليونان " كانت الأبجدية (الألف - باء) متطفلة تفتقد المقام الاجتماعى والاستخدام المتمكن ، كانت نخبة المجتمع كلها من المنشدين والمرتلين والمؤدين " .

الأبجدية - بعد كل شيء - لم تكن قد تطورت هنا تدريجياً كما قد فعلت فى البحر المتوسط من خلال سلسلة من الكتابات والنقوش المبكرة ، وكان هناك هكذا عدم وجود مضمون جاهز للتواصل مع الكتابة ومران النقش لتتكى عليه ، الأكثر من ذلك أن التقنيات الشفاهية للحفاظ على المعرفة ونقلها والعادات الحسية المرافقة لتلك التقنيات كانت - كما سوف نرى - غير متناسبة إلى حد كبير مع النماذج الحسية التى تتطلبها أدبيات الأبجدية .

فى ثقافة دقيقة ومعقدة فى ميراثها الشفاهى مثل الثقافة الإغريقية فى تلك الفترة فإن الأبجدية تستطيع التجذر فقط عبر تحالفها فى البداية مع التقاليد الشفاهية، وهكذا فإن أول مخطوطات ضخمة تكتب وتظهر فى اليونان - تحديداً الإلياذة والأوديسه - كانت " نصوصاً شفاهية مركبة " هذا يعنى أنها ليست كتابة إنشائية تأليفية ، كما قد تم افتراض ذلك سابقاً ، ولكن كتابة أبجدية لأناشيد وقصائد شفاهية . لقد كان هومر كمنشد أو غازل للأغاني وجامع لها (تعنى الكلمة

غازل في اليونانية الذي يخطط أو يغزل الأغنية ببعضها بعضاً) مصمماً للشكل الدقيق للقوائد "عبر غزلها معاً " في شكل من أشكال الزركشة الشفاهية من الميراث الهائل الذي تحمله الذاكرة الإغريقية ، موسعاً دائرة الحكايات والقصص التي تم غزلها عبر المنشدين السابقين منذ حرب طروادة نفسها .

إننا نعزو الفضل لمعرفتنا وذاكرتنا عن الطبيعة الشفاهية للملاحم الهوميرية إلى البحث الرائد الذي قام به عالم الكلاسيكيات في جامعة هارفارد ميلمان پارى ومساعدته ألبيرت لورد ، في مرحلة سنوات ١٩٣٠ كان پارى قد لاحظ وجود رصيد من الجمل ، مثل (البحر المعتم كالنبيذ ، " وهناك تحدثت أوديسا للماحة " ، أو " عندما انتشر الفجر من أصابع الورد ") وكانت هذه الجمل تُكرر خلال القصائد ، الدراسة المحصنة كشفت أن القصائد كانت قد ألفت بكاملها تقريباً من تعبيرات مماثلة (في الأبيات المشكلة من سبعة وعشرين ألف كان هناك تسعة وعشرين ألف تكرار لجمل ذات كلمتين أو أكثر) ومزیداً على ذلك فإن اختيار هومير لبيت أو بحر شعري محدد بدلاً من غيره بدا أحياناً محكوماً بشكل أقل بالمعنى المحدد للجمله وغلب عليه الميزان الشعري ، بدلاً من ذلك كان المنشد أو الغازل بشكل واضح يستدعى إيقاعاً محدداً أو معادلة بعد الأخرى من أجل أن يضبط الوزن الطاعى على الأنشودة في غيبوبة من قيادة الإيقاعات ، وهذا ليس على الإطلاق للتقليل من عبقرية هومير ولكن ببساطة للإشارة إلى أن الإبداع الشعري كان أدائياً بقدر ماهو إبداعى ، ويمكن مقارنته كما نقارن ما بين مؤلف عبقرى يكتب رواية عظيمة بالمقارنة مع فنان إيقاع يطرح إيقاعاته بشكل أنيق .

إن اعتماد نصوص هومير على المعادلات الشفاهية المكررة وميراث الملاحم الأسطورية - هذا الاعتماد الضخم على ما يرجع له اليوم على أنه " كليشيه " - قدم لپارى وعدد من الباحثين اللاحقين نظرة أولى وإطلالة على العالم المختلف جداً للحضارة والثقافة الأوروبية التي كانت لاتمتلك ابتكار الكتابة آنذاك في مجتمع متعلم مثل مجتمعنا . إن أى اكتشاف شفاهى أو ملحوظة يمكن حفظها ببساطة عبر تدوينها، وقت مانشاء أن نعرف كيف يمكن إنجاز مهمة محددة نحتاج فقط أن نجد الكتاب الذي يحتوى على تلك المعرفة المكتوبة ، عندما نشاء أن نبحث عن معلومة أو حدث تاريخى معين نحدد ببساطة النص الذي يسجل تلك الواقعة التاريخية ، غير أن الثقافات الشفاهية مفتقدة للتسجيل الثابت والدائم الذي صرنا نحن نعتمد عليه اليوم ، كانت

تستطيع الحفاظ على المعرفة الشفاهية فقط عبر تكرارها المستمر عبر الأجيال ، المعرفة العملية لابد من تجسيدها فى المعادلات الكلامية بشكل يسهل فيه تذكرها وحفظها فى الصلوات والأمثال . فى السير الملحمية والقصص الأسطورية التى تعاد روايتها على الدوام ، إن الطبيعة الإيقاعية للكثير من المعادلات والأشكال الكلامية لها مهمة قيمة وخاصة ، إن تلك الجمل النابضة أكثر سهولة ومناسبة للنض ، التنفس الجسدى لكى تستوعب ثم تتذكر وتستدعى الشفاهى ، وكان هذا هو الهدف الحقيقى أكثر منه الجانب الشعرى الذى صار مادة للبحث الدراسى فى الأدب المتقدم فيما بعد (على سبيل المثال ، إن جملة " تفاحة فى اليوم تجعل الطبيب بعيداً " بإيقاعها الخاص [باللغة الإنجليزية - المترجمة] هى أسهل بكثير للتذكر عن الجملة (يجب على المرء دائماً أن ياكل الفاكهة من أجل أن يبقى معافى) إن مسار الثقافات غير الكتابية نتيجة الضرورة مكونا فى معظمه من مثل تلك الجمل ، والأشعار والأمثال الإيقاعية والمقفاة التى تسهل على اللسان أن يستحضر الكلام والمعرفة فى الأحوال المناسبة لها .

إن رؤى پارى فيما يتعلق بالطبيعة الشفاهية للتأليف للملاحم الهوميرية بقيت إلى حد ما ماثراً تساؤلات حتى استطاع أن يقابل ويلاحظ ممثلين لعادات وتقاليد شفاهية حقيقية مازالوا يعيشون فى أوروبا الشرقية ، فى أعوام ١٩٣٠ پارى وتلميذه ألبيرت لورد ارتحلا إلى سيربيا (بلاد الصرب) حيث صادقا عدداً من المغنين السلافيين الأميين والذين كان فنهم وحرفتهم مازالت متجذرة فى ميراث التقاليد القديمة للبلقان ، كان هؤلاء المغنون ينشدون قصصهم الطويلة - التى لم يكن لها أى معادل فى شكل نصوص واحدة مكتوبة - فى المقاهى والأعراس مصاحبين أناشيدهم بعزف آلة موسيقية واحدة تدعى (gusla - جوسلا) سجّل پارى ولورد الكثير من تلك الملاحم المغناة فى أسطوانات فونوغرافية مبكرة ، وهكذا استطاعا فيما بعد أن يقارنا تركيب الميزان الشعرى لتلك القصص المنشدة والموجود فى الأشعار الهوميرية ، كان التوازي فيما بينهما واضحاً وقوياً .

" عندما يسمع المرء سلافى الجنوب يغنون وينشدون حكاياتهم يغمره شعور مذهل بأنه - بشكل ما - يستمع إلى هومير ، إن هذا ليس مجرد شعور وجدانى عاطفى ينبع من رؤيته طريقة وأسلوب للحياة ومنظومة من الأفكار غريبة عليه ... عندما ينظر المستمع عن قرب ليرى لماذا عليه أن يبدو وكأنه يصغى إلى هومير فإنه يكتشف

الأسباب الدقيقة لذلك : إنه يصغى باستمرار إلى الأفكار نفسها التي كان هومير يعبر عنها ، وهو يسمع تلك الأفكار معبر عنها في جمل تحمل الإيقاعات والأوزان الشعرية ، وتتشد في أبيات وقصائد تحمل نفس الترتيب والتوالي الشعرى الغنائى " .

لقد سجل پارى ووثق تلك المتوازيات القوية بدقة ، وبعد موته المبكر فإن بحثه حول الأمزجة والتأليفات الشفاهية تم استكمالها عبر ألبيرت لورد مابين أشياء أخرى ، لقد وضع بحث لورد بأن تعلم القراءة والكتابة الدقيقة قد عطل الشاعر الشفاهى ، ودمر قدرته على التأليف الشفاهى .

عندما تم توثيق ملاحم هومير عبر الكتابة فإن فن الإنشاء الشفاهى والحكاى بدأ يفقد مهمته التعليمية وأدواته ، إن المعرفة المجسدة فى القصص الملحمية والأساطير قد تم القبض عليها الآن للمرة الأولى فى شكل بصرى ثابت يمكن العودة إليه ، واختباره وحتى مساءلته وبحثه ، وبالفعل لقد كان آنذاك فقط تحت تأثير الانتشار البطيء لتقنيات الأبجدية أن أصبحت " اللغة " تفصل نفسها عن التدفق الحى للعالم ، وأن تصبح حضوراً مرعباً فى حد ذاته .

" إنه فقط أثناء كتابة اللغة أن صار ممكناً التفكير بها ، إن الوسيلة التى صارت فى الحيز كونه غير قادرة على التصوير البصرى لم تكتسب الاعتراف بها كظاهرة منفصلة تماماً عن الشخص الذى يستخدمها ، لكن فى الوثيقة الأبجدية صارت الوسيلة موضوعية ، ها هى هناك تم إعادة إنتاجها بشكل كامل عبر حروف الأبجدية ... لم تعد مجرد وظيفة " لى " أنا المتكلم ولكن وثيقة لها وجودها المستقل " .

الكاتب ، أو المؤلف يستطيع الآن أن يحاور كتابته المرئية متأملاً ومستجيباً لكلماته حتى وهو يدونها ويكتبها ، إن قوة جديدة للتأمل صارت الآن هكذا فى الوجود ولدت عبر العلاقة مابين الكاتب والنص المكتوب .

إننا نستطيع أن نشهد الانتشار التدريجى لهذه القوة الجديدة فى الشذرات المكتوبة والجزئيات الموثقة لفلاسفة ما قبل سقراط فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد ، إن هؤلاء المفكرين مازالوا تحت تأثير المزاج الشعرى الشفاهى ومساره ، إن تعاليمهم دائماً تأخذ الشكل الشعرى وانتباههم واهتماماتهم مازالت ملتفة نحو الأرض الحسية المحيطة بهم ، بالرغم من ذلك فإنهم بدوا وكأنهم يقفون على مسافة جديدة من النظام الطبيعى ، إن أفكارهم تسكن مزاجاً مختلفاً عن تدفق الطبيعة ، والتى يتساءلون عنها الآن ويسعون إلى فهمها . إن الشذرات المكتوبة لهيرقليطس أو

إمبيدوقليطس تمنح إثباتاً لجديد متطرف للتأمل الأدبي مصحوباً بانشغال شفاهي أكثر تقليدية للطبيعة الحسية التي مازال يُشعر بأنها غامضة ، ووجدانية ، وحية ، وممتلئة بقوى خارقة ، وبكلمات فيلسوف ماقبل سقراط : ثاليس ، " إن كل الأشياء ممتلئة بالهة " .

إنه لم يكن حتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد أن صارت مثل تلك القوى الكثيرة أو الالهة منفية بشكل كبير من المحيط الطبيعي ، وذلك أنه في ذلك التوقيت فقط أن أصبحت المعرفة بالكتابة الأبجدية حقيقة جماعية في اليونان ، وبالفعل لقد كان خلال حياة أفلاطون فقط (٤٢٨-٣٤٨ ق . م) أن تم مزج الأبجدية في حياة أثينا إلى الدرجة التي يمكن لنا التحدث عنها بحق عن أثينا اليونانية على أنها ثقافة متعلمة وأدبية :

" أفلاطون في بدايات القرن الرابع ق . م . يقف على حافة ذلك التوتر المهدد بالانفجار ما بين الثقافتين الشفاهية والمكتوبة لليونان ، إن الأيقونات المبكرة تشير إلى صبيان يتم تعليمهم الكتابة يمكن التأريخ لها مع فترة طفولة أفلاطون ، في أيامه كان الناس بالفعل قد بدأوا يرتلون هوميرو من النص المكتوب منذ قرون ، غير أن فن الكتابة مايزال فنًا يدويًا في أساسه . . . في القرن الخامس ق . م . بدأ الحرفيون للفنون اليدوية يكتسبون فن النحت أو النقش للحروف الأبجدية ، غير أن الكتابة كانت ما تزال ليست جزءاً من تعليمات معروفة : كان أكبر التوقعات من الشخص أن يكون قادراً على كتابة وتهجئة اسمه فقط . . . » .

كان أفلاطون يُعلمُ آنذاك في اللحظة نفسها عندما كانت التقنية الجديدة للقراءة والكتابة تنتشر « حرفتها » المتخصصة وتجدها مكانتها للانتشار النهائي عبر وسائل المنهج الإغريقي وإلى ثقافة واسعة ، إن أهمية هذا التقاطع لم يتم الانتباه له عبر الفلاسفة الغربيين ، والذين يقف جلهم - إلى حد بعيد أو قريب - داخل سلالة أفلاطون ، إن أفلاطون أو بالأحرى الجمع ما بين أفلاطون المتعلم ومعلمه سقراط الأُمي (٤٦٩ ق . م - ٣٩٩ ق . م) ، يمكن رؤيته كالمفصلة التي عليها منح الوعي الحسي العميق المتجسّد للشفاهية الطريق إلى مزاج التفكير المنفصل والتجريدي والمعزز بالتعليم الأبجدي ، وبالفعل لقد كان أفلاطون هو الذي طورَ بدقة وجلب إلى الواقع الأشكال الجماعية - الفكرية المناسبة للتقنية الجديدة .

أبدية الأفكار غير المتغيرة

بالرغم من أن سقراط نفسه ربما كان قادراً على كتابة القليل الإضافي غير اسمه فقط ، إلا أنه صنع استخداماً لمأخذاً لتلك القدرة الانعكاسية والتأملية التي قدمتها الأبجدية ، إيريك هافيلوك كان قد اقترح أن تلك « المحاورات السقراطية » الشهيرة – والتي في أبسط أشكالها كانت مكونة من سؤال المتحدث ليشرح فحوى ما يقوله – كانت في الأساس طريقة لنش وكسر النماذج الشفاهية الفكرية للثقافة الشفاهية ، إن تصريح أو كلام المتحدث الأصلي إذا كان متعلقاً بأمور مهمة عن الأخلاقيات والعادات الاجتماعية كان سيكون بالضرورة في شكل تراثي ، وجمله شعرية وأمثال ، وكانت تقدم مثلاً ما حول الموضوع المطروح للنقاش ، عبر الطلب من المتحدث أن يشرح نفسه أو أن يُعيد قوله في مصطلحات وأشكال تفسيرية أخرى أجبر سقراط محاوريه على أن يفصلوا ذواتهم لأول مرة عن كلماتهم – أن يفصلوا أنفسهم ، بمعنى آخر ، عن الجُمْل والموروث الذي صار في حكم العادة عبر الإعادة والتكرار المستمر للقصص والحكايات التقليدية المُتعلِّمة ، قبل تلك اللحظة كان المسار الكلامي غير منفصل عن الحكايات والقصص الكثيرة المروية والأساطير والملاحم التي قدمت الكثير من الجمل المتحدث بها والتي يحتاجها الشخص في أعماله اليومية وتقاطعاته مع الآخرين . أن نتحدث كان أن تعيش داخل الكون القصصي ، ومن ثم تشعر بقرب الشخص من أولئك الأبطال الأسطوريين القدامى ، من الأجداد والأسلاف والذين بدت كلماتهم غالباً تتحدث من خلال فم الشخص نفسه ، هكذا كما قد قلنا كان الطريق الذي حافظت الثقافة فيه على نفسها في غياب السجل المكتوب ، ولكن سقراط قاطع وأزعج نظام ذلك كله . عبر طلبه الدائم من محاوريه أن يعيدوا ويشرحوا أقوالهم بكلماتٍ أخرى ، وعبر إخضاعهم بذلك لكي يستمعوا ويبحثوا في فحوى كلامهم وكلماتهم فإن سقراط أذهل المستمعين له وأخرجهم من غيبوبة التراث المطلوبة في شرط الثقافة الشفاهية ، وهكذا أخرجهم بالتالي من عالم الوجود الحسي الحكائي الذي كان يُغلف عاداتهم ، إذن فإن

ذلك مثار عجب صغير أن بعض الأثينيين قد اشتكى من محاورات سقراط وأثرها الصادم ، الشبيه بالصدمات الكهربائية .

قبل انتشار الكتابة كانت القيم الأخلاقية مثل « الفضيلة » و « العدالة » ، و « التسامح » مرتبطة بأوضاع محددة تستحضر فيها وتستدعى تلك القيم ، إن المصطلحات لمثل تلك القيم كانت منطوقات شفاهية تستدعى في ظل أوضاع وأحوال اجتماعية معينة ، لم يكن لها وجود واضح ومستقل عن تلك الأوضاع ، وفيما المنطوقات ترجعت إلى الخلفية للصمت مباشرة بعد أن تكون قد نُطِقت لم يكن لها حضور دائم للحواس . « العدالة » و « التسامح » كان يتم بذلك اختبارهم والإحساس بهم كأحداث حية ، مجرد أحداث بازغة في أوضاع محددة ، لم تكن منفصلة عن الأشخاص المحددين أو الأفعال التي تجسد نفسها مؤقتاً من خلالها .

ومع ذلك فحالما تم تسجيل وتدوين مثل تلك المنطوقات كتابة ، صار لها استقلاليته وديمومتها التي لم تعرف أصولها حتى اليوم ، حال ما تمت كتابتها « الفضيلة » صار ينظر إليها على أنها شكل غير متحول ، واضح ومستقل عن المتحدث ، ومستقل أيضاً عن الأوضاع الفعلية والأشخاص الذين يعرضونها .

لقد طرح سقراط بشكل واضح أسلوبه وطريقته بشكل متوافق مع هذا التحول في حقل التلقى ، كلما - في محاورات أفلاطون - يسأل سقراط محاوريه أن يعطوه تعريفاً ومفهوماً لماهية « الفضيلة » أو « العدالة » أو « الشجاعة » كما هي بالفعل يكون في الحقيقة يسألهم فيما يتعلق بالمعنى الحقيقي للمصطلحات الأخلاقية التي يستخدمونها من دون تفكير في أحاديثهم ، كانوا يجيبون بثقة عبر سردهم لأمثلة محددة للقيمة المطروحة طارحين أمثلة معينة عن « العدالة » ، غير أنهم لا يستطيعون أبداً تعريف « العدالة » في حد ذاتها ، عندما يدعو سقراط مينو ليقول ما « الفضيلة » ، يقوم مينو بسرد أمثلة كثيرة مختلفة أو مجسدة للفضيلة يرد عليها سقراط ويسخر منها : « إنني أبعد محظوظاً ، لقد طلبت منك شيئاً واحداً فقط ، الفضيلة ، غير أنك منحتني سرباً من الفضائل » ، في محاولة لمواكبة المسارات القديمة للأمزجة الشفاهية فإن أتباع سقراط من الأثينيين لا يستطيعون تجريد تلك القيم المُتحدّث عنها عن الأوضاع الحية المُعاشة التي تجسد مثل تلك المصطلحات وتستدعيها . سقراط على كل لديه اهتمام بسيط لتلك التجسيدات المتعددة « للفضيلة » فيما عدا البعد الذي تتخذه جميعها لبعض العناصر المشتركة ، وغير المتحوّلة والتي يودُّ هو أن يجردها ويبحث

فيها بنفسه ، فى كل حالة يحاول سقراط أن يقدم تأملاً لتلك القيمة كما توجد فى حد ذاتها مستقلة عن أية ظروف معينة ، إن التجسيديات المحددة « للعدالة » التى يمكن أن نواجهها فى العالم المادى بالضرورة متنوعة وأنية ، إن المعرفة الفعلية – يدعى سقراط – لابد لها أن تكون أبدية وغير متغيرة .

سقراط إذن من الواضح أنه مقتنع تماماً بأن هناك عنصراً جوهرياً ثابتاً ، غير متحول أو متغير « للعدالة » يوحد كل أمثلة العدالة ، كما أن هناك عنصراً جوهرياً أبدياً « للفضيلة » و « الجمال » و « الخير » و « الشجاعة » وكل ما تبقى من مفاهيم تجريدية أخلاقية ، ومع ذلك فإن قناعة سقراط لم تكن لتكون ممكنة لولا وجود الأبجدية ، ذلك أنه فقط عندما تتم كتابة مصطلح أخلاقى يصبح قابلاً للبحث كمفهوم ثابت بمعزل عن الاثنين معاً : المتحدثين والأوضاع أو الأحوال .

ليست كل أنظمة الكتابة ترى ذلك التجريد المحض للقيمة المتحدّث عنها بمعزل عن تجسيدياتها فى الأوضاع الحياتية الفعلية ، إن الكتابة الأيدوجرافية ذات الرسوم الرمزية للصينية ، كما قد رأينا ، لازالت تمتلك صوراً للعالم الظواهرى للتجربة الحسية ، وهكذا فإن الأيدوجراف « للأحمر » هو أمثلة حية : إنه شكل من صور لرسم وخيالات مختزلة لوردة ، كرزة ، صدى الحديد ، وبجعة ، وبالفعل حسب بعض الدارسين والملاحظين إذا سأل شخص ما شخصاً مثقفاً ومتحضراً فى الصين ليشرح له قيمة عامة مثل « الأحمر » ، أو « الولاء » أو « السعادة » سوف يرد عليك غالباً وعبر وصف أمثلة متعددة ونماذج لتلك القيمة ، كما كان يفعل محاورو سقراط . لم تكن الكتابة فى حد ذاتها ، ولكن الكتابة الصوتية (الفونتيك) والأبجدية اليونانية بشكل خاص التى مكنت تجريدية قيم سابقة حية مثل « الخير » و « العدالة » عن ميراثها المتعلق بالأحوال والأوضاع ، دافعة بها إلى حيز وجود جديد مستقل عن مجال تدفق الخبرة والتجربة العادية ، ذلك أن الأبجدية اليونانية قد خدمت بشكل مؤثر كل تلك الروابط ما بين الحروف المكتوبة والعالم المحسوس الذى جاءت منه واشتقت ، لقد كان أول نظام كتابة قادر على تعطيل – تقريباً – أى منطق بشرى فى شكل نهائى وثابت ، إلى جانب الأنهار الهادرة المختلفة ، على سبيل المثال ، التى يستطيع الشخص أن يشهدها أو يعبرها فى العالم المحسوس . كان هناك أيضاً كلمة مفردة هى « نهر » ، والذى صار الآن له وضعه الخاص ، " نهر " فى حد ذاته يمكن الآن أن يُبحث بمعزل عن كل تلك الأنهار المادية الوجود والقابلة لتغيير وتحويل مساراتها أو الجفاف من

فصل إلى آخر ، بالنسبة إلى أفلاطون كما هو لمعلمه فإن المعرفة الحَقَّة يجب أن تكون للعنصر غير المتغير والأبدى ، لا يمكن أن يكون هناك معرفة « حَقَّة » لنهر مُعين ، ولكن للفكرة الخالصة (أو الأفكار) « نهر » . كون أفلاطون غالباً ما استعمل المصطلح اليونانى "إيدوس - eidos" (والذى يعنى شكل واضح) ليرجع إلى مثل تلك العناصر الجوهرية غير المتغيرة فى حد ذاتها ، كما أعتقد مؤشّر لذلك التحالف والتواطؤ ما بين تلك العناصر الجوهرية الخالدة والأبدية والأشكال غير المتغيرة والواضحة للحروف الأبجدية .

ذلك أن حروف الأبجدية مثل الأفكار الأفلاطونية لا توجد فى العالم العادى للرؤية ، إن الحروف والكلمات المكتوبة التى تمثلها ليست مواداً للنمو والفناء ، ولا للتغيرات الموسمية وتحولات دوراتها المعتادة والمشاركة لتلك الأشياء المريئية ، إنها تبدو وكأنها تحلق - كما قد كان - فى بُعدٍ آخر غريب ولا علاقة له بالزمن ، الأكثر من ذلك أن الحروف تخفى وتموه إمكانية رؤيتها المشتركة ، كل حرف يذوب ويتحول إلى صوت وحتى ونحن ننظرُ إليه مبدلاً عيوننا بأذاننا ، حتى إننا نبدو وكأننا لا نرى بقدر ما نسمع الشيء ، إن الكتابة الأبجدية تُحبط اهتمامنا وانتباهنا من نطاق البصرى والمرئى ، الذى يتلاشى وراء موجة الكلام البشرى الذى تُثيره .

كما قد رأينا بالفعل إن عملية التعلم للقراءة والكتابة بالأبجدية ولدت إحساساً تأملياً عميقاً وجديداً بالذات ، إن القدرة للنظر وحتى التحوّل بكلمات الشخص ذاته بعد كتابتها أو حتى فى عملية تدوينها يمكن من إحساس جديد بالاستقلالية والتفرد عن الآخرين وحتى عن المحيطات الحسية التى كانت سابقاً هى محاور الشخص الدائم ، إن واقع أن كلمات الشخص المكتوبة يمكن أن تسترجع وتبحث فى أى وقت يختاره الشخص بغض النظر عن التوقيت أو الوضعية التى دونت فيها فى المرة الأولى - يضمن قيمةً أبدية لتلك الذات المتأمل ، إحساساً بالاستقلالية النسبية للذات اللفظية والمتكلمة عن الجسد المتنفس باحتياجاته المتحوّلة ، إن الذات المتعلمة لا يمكن لها أن تشعر بسموها وأبديتها فيما يتعلق بالعالم الفانى والخبرة الوجودية .

إن هذا الوعى الجديد والذى يبدو متفرداً يتم استدعاؤه عبر سقراط ودعوته (بالنفس - The Psyché) ، مصطلح هو بالتالى يحرفه عن أهميته المبكرة عند هومير باعتباره التنفس غير المرئى الذى يمثل الجسد الحى ويبقى مثل شبح بعد

موت الجسد وفنائته (إن مصطلح Psychê - "نفس" تم اشتقاقه من مصطلح يوناني قديم Psycheinc ، والذي يعنى " أن تتنفس " أو " أن تنفخ " .) بالنسبة إلى أفلاطون - كما هو لسقراط - إن النفس الآن هو ذلك الجانب من الذات الذى يتم تشذيبه وتقويته عبر الابتعاد عن العالم المحسوس العادى من أجل تأمل الأفكار الفكرية ، الأشكال الخالصة النقية ، والخالدة التى لوحدها هى التى توجد بحق ، إن النفس لدى سقراط وأفلاطون - بكلمات أخرى - ليست سوى الذكاء المتعلم والأدبى ، ذلك الجزء من الذات الذى ولد وتقوى بالعلاقة مع الحروف المكتوبة .

إن أفلاطون نفسه يقدم نقداً قوياً لتأثير الكتابة فى " فيدروس " ، تلك المحاوره التى اقتبست منها مكبراً فى هذا الفصل ، فى مسار هذه المحاوره يربط سقراط ويحيل إلى فيدروس الفتى أسطورة غربية فيما يخص الملك المصرى " ثيموس " . حسب هذه القصة : ثيموس قد واجهه مباشرة الإله " ثوث " - الخالق العظيم للهندسة والرياضيات ، والفلك ، والكتابة - والذي يقدم الكتابة كهديه ومنحه للملك حتى يمكن للملك أن يقدمها بدوره إلى شعب مصر ، غير أن ثيموس بعد أن نظر فى اعتبارات متعلقة بالجوانب المنفعيه والسلبيه لابتكارات تلك الآلهة يستنتج ويخلص إلى أن شعبه سوف تكون حالته أفضل بكثير من دون الكتابة ، وهكذا فإنه يرفض تلك الهدية والنعمة ، ضد ادعاء ثوث بأن الكتابة سوف تجعل الناس أكثر حكمة وتحسن ذاكرتهم فإن الملك أكد وجهة نظره المضادة والعكسية . :

" إذا تعلم الناس ذلك فإنه سوف يبذر النسيان فى أرواحهم ، سوف يتوقفون عن تدريب ذاكرتهم لأنهم سوف يعتمدون على ذلك الذى هو مكتوب ، سوف يكون استدعاء الأشياء من الذاكرة لامن دواخلهم وخلجاتهم ، ولكن عبر وسائل إشارات خارجية " .

الأكثر من ذلك - بالنسبة إلى الملك - فإن التعاليم المنطوقه عند ما يتم تدوينها كتابة سوف تجد بسهولة طرقها إلى أيادى أولئك الذين سوف يسيئون فهمها ، تلك التعاليم فيما ليفكرون أبداً سوى أنهم يحسنون فهمها ، وهكذا فإن الحروف المكتوبة سوف لن تجلب الحكمة ولكن فقط " الحكمة المغشوشة " جاعلة البشر يبدون وكأنهم يعرفون أكثر بكثير فى حين أنهم يعرفون القليل جداً .

إن سقراط فى كتابات أفلاطون يوافق بوضوح مع رأى الملك ، ومن الواضح أن أفلاطون يود أن يأخذ القارئ تلك الانتقادات للكتابة بشكل جدى . فى جزء لاحق من

تلك المحاوره نقرأ أن " المسار الكتابي حول أى موضوع لابد له من احتواء الكثير مما هو تزويقي وكمالى " ، وأنه فى أى حال " لاشئ قد تم تدوينه كتابياً سواء "فى النشر أو الشعر يستحق الكثير من الاهتمام الجدى " .

بالتأكيد إنه من الغريب أن تقرأ مثل تلك الملاحظات والآراء القوية ضد الكتابة من قبل مفكر قد ألف نصوصاً مكتوبة كثيرة كانت من أكثر الكتابات توزيعاً وانتشاراً وعبادة فى العالم الغربى ، هنا أفلاطون والذى منه انبثقت فعلياً سلسلة الفلاسفة الغربيين ينظر للكتابة على أنها لاشئ أكثر من مجرد لهو وقضاء وقت ! ما الذى يمكننا أن نستوعبه من مثل تلك الآراء ؟

إن مثل تلك التشكيكات حول الأبجدية ومثل تلك التأكيدات فيما يتعلق بآثارها السلبية الكامنة لابد أنها كانت شائعة فى أثينا قُبيل أو خلال الفترة الزمنية التى كتب فيها أفلاطون ، إنه من المدهش أن يكون أفلاطون قد تمسك بمثل تلك الانتقادات بالرغم من واقع أنه كان مشاركاً فعالاً فى عالم الأبجدية آخذين بالاعتبار تعددية وتنوع كتاباته ، والتى تكون مايمكن أن يكون أول تجسيد هائل للنثر ألفه كاتب فرد فى تاريخ الأبجدية . يبدو واضحاً أن أفلاطون لم يكن ينوى لانتقاداته أن تصرف طلابه وقراءه عن الكتابة ، أو من تعميق قراءته ، وبالأحرى كان كأنه قد قصد إلى بنائية فى داخل الجسد نفسه لكتاباتته تحذيراً من أن يمنحها قدراً أكبر من حجمها ، وذلك لأنه كان غير متأكد من القيمة الجادة والحقيقية الضمنية لفلسفته ، ولكن ببساطة لأنه كان يمتلك تحفظات قوية حول الكلمة المكتوبة وقدرتها بأن توصل المعنى الكلى لفلسفة كانت مراناً بالقدر نفسه - تتضمن تواصلاً وتقاطعاً مباشراً ، وشخصياً وتعليمات - كما لو أنها كانت طقمًا من التشكيلات الجامدة والتأملات . إن الكتابة - حسب آراء سقراط - يمكن لها فى أفضل الأحوال أن تخدم كمذكر للقارئ الذى يعرف بالفعل تلك الأشياء التى تمت كتابتها ، إنه من الممكن أن يكون أفلاطون قد كتب تلك المحاورات العديدة ليخدم فقط مثل ذلك الهدف حصرياً ، أن يقوم بفعل المذكر لتلاميذه فى أكاديميته ، حول الطرق والرؤى التى تعلمها فى البدء عبر الحوار المباشر وجهاً لوجه مع معلمهم .

بالرغم من ذلك فإن أفلاطون رغم تحذيراته لم يع ذلك المدى الذى يحمله مضمون تعليمه فى حد ذاته - مع اعتماده على الأطروحتين الثنائيتين حول النفس العقلية

الخالصة ومستوى الوجود الخالد للأفكار غير المتغيرة - وأنه كان بالفعل بشكل عميق تحت تأثير الكتابة الأبجدية . فى البدايات المبكرة للقرن الرابع ق . م ، عندما كان التعليم ينتشر تدريجياً عبر المجتمع فى أثينا كان من الممكن مؤكداً أن تشهد تأثير تلك الكتابة فى نشر تعاليم معينة ، وأن ملاحظاً دقيقاً كان يمكن له أيضاً أن يرى التأثيرات السلبية للكتابة على المران الجماعى للذاكرة ، بالمقارنة بما قد تم إنجازه سابقاً عبر التكرار التراثى للأشعار الاحتفالية والأناشيد والأغاني ، وتحويل القصص إلى فن وحرفة خارجية وثابتة ، جامدة ، غير أنه كان من الصعب أن يكون ممكناً كشف التأثير الواضح للحروف على نماذج التلقى والاستيعاب على وجه العموم ، ومشابه لذلك اليوم حيث وعينا واستيعابنا وأفكارنا يتم تحويلها عبر تداخلنا وتورطنا الحسى مع التكنولوجيا الإلكترونية ، بما أن أى تفكير يسعى إلى كشف مثل ذلك التحول هو فى حد ذاته موضوع للتأثير نفسه الذى يحاول ويسعى للتنظير حوله ، على أنه بالرغم من ذلك يمكن لنا أن نكون واثقين بأن أشكال وعينا " تتحول " بالفعل مع تلك التكنولوجيا التى تُشاعِلُ حواسنا بالقدر الذى نستطيع الآن أن نبدأ فيه كشف - بالمقابل - كيف أن الشكل المميز للفلسفة الغربية قد تمت ولادته عبر ذلك اللقاء مابين الحواس البشرية والأبجدية فى اليونان القديمة .

حول الألسنة على الأشجار

إن نقد سقراط للكتابة في فيديروس كان بمناسبة نص مكتوب يقوم به فيديروس المفتي في البدايات المبكرة للمحاورة ، عندما واجهه سقراط في طريقه خارجاً من المدينة كان فيديروس قد سمع للتو صديقه لاسياس يتحدث عن خطبة جديدة قد كتبت حول موضوع الحب ، مأخوذاً بخطبة لاسياس حصل فيديروس على نسخة من تلك الخطبة وكان يسير متنزهاً خارج أسوار المدينة ليدرس ذلك النص على مهله ، سقراط - دائماً متلهفاً للمسارات الفلسفية - وافق على مصاحبة فيديروس إلى الريف المفتوح حيث يمكن لهما معاً أن ينظرا في نص لاسياس ويناقشا جوانبه المختلفة . لقد كان الصيف آنذاك ، سار الرجلان معاً على ضفاف نهر إليسوس ، وعبراه ثم استقرا على الحشائش في ظلال شجرة طويلة في السهول ، عبر سقراط عن إعجابه بفيدروس لأنه قادهما إلى هذا المكان الممتع ، وفيدروس أجاب باستغراب بأن يكون سقراط يبدو غريباً كلياً عن الريف ، وكأنه شخص لم يلق نظرة أبداً على خارج جدران المدينة ، إنه آنذاك أن شرح سقراط نفسه موضحاً : «عليك أن تغفر لى يا صديقي العزيز ، إننى عاشق للتعلم ، والأشجار والريف المفتوح لن يعلمونى أى شىء ، فيما الرجال فى المدينة سوف يفعلون» .

لقد رأينا بالفعل كيف هى غريبة هذه الجملة - فيما يتعلق بعالم أشعار هوميرو - وكم هى عجيبة وشاذة كلمات سقراط كما قد بدت بالنسبة لأعضاء مجتمع لفظي ، شفاهى ، لايزال أقل اطلاعاً وتأثراً بتأثير متداولي الأدب والتعلم فما بالك بليونان هوميرو ، بالنسبة إلى ثقافة - بكلمات أخرى - لم تكن آلهتها بعد ذات صفات بشرية مثل بوزيدون وهيفستوس ، إن الادعاء بأن «الأشجار والريف المفتوح لن يعلموا شيئاً» كان سوف يبدد الاستيعاب والانسجام داخل مجتمع صيد وقنص أصلى ، للسبب البسيط أن مثل تلك المجتمعات تأخذ معظم تعليمها الأساسى والعميق وكذلك التعليمات مباشرة من الأرض والطبيعة الأكثر مما هى بشرية ، سواء كان

فى السهوب الهندية فى أمريكا الشمالية، أو لدى البوشمان فى صحراء كالاهارى ،
أو لدى البينتوبى فى الخلفية الأسترالية ، إن كبار السن و«أشخاص من درجة عالية»
فى مثل مجتمعات القنص تلك يرجعون باستمرار للقوى الحية فى الأرض الطبيعية
المحيطة بهم ، لتلك القوى غير البشرية والتي هم أنفسهم يستلهمون منها أعمق
أمالهم .

عندما يكون شخص شاب أو يافع داخل مثل تلك الثقافات قد تم اختياره عبر أية
ظروف كانت ليصبح «رأى» أو «شامان» لذلك المجتمع فإنه هو أو هى يمكن له أن يُدرب
بواسطة رأى حكيم وكبير فى السن فى داخل القبيلة ، ومع ذلك فإن أكثر المتعلمين
وأقواهم من الشامان سوف يكون شخصاً قد تعلم أولاً مهاراته أو مهاراتها مباشرة
من الأرض نفسها - من حيوان معين أو نبتة ، من نهر أو عاصفة - خلال ارتحال
طويل فى الخارج بعيداً عن حدود المجتمع البشرى ، وبالفعل بين الكثير من القبائل
التي كانت أصلية فى يوم ما فى أمريكا الشمالية فإن ولدا يستطيع أن يكتسب الرؤية
الضرورية للدخول إلى مجتمع الكبار فقط عبر اتخاذهِ للارتحال المعزول والوحيد بحثاً
عن الرؤية ، فقط عبر تسليمه لنفسه بإرادته إلى القوى الوحشية والبرية للأرض ، إذا
احتاج الأمر أن يصرخ ويستعطف قوى الرؤية تلك . إن تدشين «التجوال» الذى يلتزم
به «الأبوجونيون» أو السكان الأصليون فى أستراليا هو مرة أخرى مثل ذلك الفعل
الذى يلجأ فيه أهل الشفاهية من الشعوب نحو الأرض الأكثر مما هى بشرية من أجل
التعاليم التى عليهم أن يحيوها معا ويقووها من أجل بقاء المجتمع البشرى .

فى الثقافات الشفاهية الأصلية إن الطبيعة فى حد ذاتها بليغة ، إنها تتكلم ، إن
الصوت البشرى هو ثقافة شفاهية ، لفظية وهو دائماً إلى حد ما مشارك مع أصوات
الذئاب ، والرياح ، والأمواج - أى أنه مشارك فى المسار الضمنى للأرض الحية ، ليس
هناك من عنصر فى الأرض والطبيعة فارغ تماماً وعدمى وخاوي من الاستجابة المعبرة
والقوية ، إن أية حركة قد تكون اختلاجاً ، وأى صوت قد يكون صوتاً ، نطقاً مليئاً
بالمعاني .

إن ادعاء سقراط بأن الأشجار ليس لديها شىء لتعليمه مؤشر واضح للمدى
الذى وصلت إليه الحواس البشرية فى أثينا للتخلى والانسحاب من المشاركة المباشرة
مع الأرض الطبيعية ، أن تستوعب مباشرة أية ظاهرة هو أن تدخل فى علاقة معها ،

أن يشعر الشخص بنفسه فى تقاطع حى مع كائن آخر . لتحدد الظاهرة كموضوع جامد ، أن ترفض قدرة الشجرة على إطلاعك وحتى إرشادك من داخل وعيك هو أن تكون قد التفت بحواسك بعيداً عن تلك الظاهرة ، إنه أن تبحث فى الشجرة من خارج عالمها أو بالأحرى من خارج ذلك العالم الذى أنت نفسك والشجرة مشاركان فعليان فيه .

ومع ذلك فإنه حتى هنا أفلاطون يبدو أنه يتردد ويتذبذب ، وبالفعل مثل ما هو فيدروس الشخصية الأساسية للتسامى الواضح فيما يتعلق بمرانه على الكتابة فهو أيضاً الشخصية ذات التسامى العالى فيما يتعلق بالطبيعة أو للقوى المعبرة للعالم الطبيعى ، بالرغم من أن المحاورة تفتتح بآراء سقراط حول الأشجار والريف المفتوح فإن أهميتها فى أن المحاورة نفسها تأخذ مكانها فى وسط ذلك الريف نفسه ، ويخلاف محاورات أفلاطون الأخرى فإن محاورة فيدروس وحدها تحدث خارج أسوار المدينة ، خارجاً بعيداً عن القوانين والشكليات التى تسيطر على وتعزل المجتمع البشرى عن عالم الطبيعة الأكثر مما هو بشرى . إن سقراط وفيدروس قد شرعا - كما قد كان - فى نوع من ارتحال الرؤية ، خارجين خارج المدينة وعاداتها من أجل أن يختبرا معرفتهما المدنية مقابل المعارف الأقدم المجسدة فى الأرض ، إن أفلاطون هنا بشكل ما يضع الفلسفة نفسها تحت حد الاختبار عبر فتحه وتعريضه لها للقوى غير البشرية التى لزم من طویل قد سيطرت على اهتمام ودهشة الجنس البشرى . فى تضاد مباشر «للجمهورية» حيث أفلاطون يعرض بالآلهة القديمة وينتقد شعراء الشفاهية ورواة الحكايات والأساطير ويطردهم من المدينة اليوتوبيا التى يتصورها ، فإنه فى فيدروس يجلب أفلاطون الفلسفة نفسها إلى خارج المدينة ، هناك لتواجه وتتصالح مع الطرق الشفاهية القديمة للمعرفة ، والتى وإن كانت ربما قد طردت من المدينة إلا أنها تبقى هناك تتجول فى المحيط الريفى للطبيعة ، إنه فقط خارج أسوار المدينة يمكن لأفلاطون أن يسمح لنفسه أن يسأل ويستجوب وينتقد ممارسة الكتابة التى هو وكل ما تلاه من فلسفة مرتبط بها للأبد ، وفقط هناك فى خارج تلك الأسوار سوف يسمح لنفسه أن يقدر تماماً ويقدم الاحترام للكون الحى - الشفاهى الآخذ فى التضائل والانمحاق .

وهكذا فإنه بعد تأكده بقليل على أن الأشجار لا يمكن أن تعلمه شيئاً فإن سقراط يسمح لنفسه بأن يقاد إلى عمل خطبة ارتجالية عبر قَسَمٍ يحلف به فيدروس باسم روح الشجرة نفسها التي يجلسون تحتها ! الأشجار كما يبدو كانت ماتزال تحتفظ بقوى مؤثرة ، لاحقاً فى المحاوره فإن سقراط نفسه سوف يذكر فيدروس بأنه حسب التقاليد "فإن أول النبوءات المنطوقة قد جاءت من شجرة سنديان" .

لم تكن الأشجار فقط بل الحيوانات أيضاً تمتلك - فى فيدروس - قوى سحرية ، يبدأ سقراط المناقشة حول الكتابة عبر تأمله جنابب الأشجار التى «تحدث مع بعضها بعضاً» وهى من الأعلى ربما تراقب الاثنين معاً ، أيضاً إنه يطرح بأن جنابب الأشجار سوف تتواطأ مع الجنيات ضدهم إذا ما استمر هو وفيدروس فى التحدث عن الشؤون الفلسفية ، ويبدأ فى رواية قصة تصف كيف أن جنابب الأشجار الذين كانوا فى الأصل أشخاصاً قد تحولوا إلى أشكالهم الحالية :

«إن القصة أنه فى يوم من الأيام هذه المخلوقات كانت بشراً - بشر فى عهدٍ من الزمن قبل أن يكون هناك أى حوريات أو جنيات الشعر - وأنه عندما جاءت هذه إلى العالم وصنعت الموسيقى حضورها ، بعض الناس من تلك الأيام كانوا مذهبولين بالمتعة وبقوا يغنون ، ونسوا تماماً أن يأكلوا ويشربوا حتى ماتوا بالفعل من دون أن يلاحظوا ذلك . ومنهم مع الوقت انبثقت جنابب الأشجار كجنس ، والذين رعتهم الحوريات ومنحتهم الحظ فى أن لا يحتاجوا إلى أى احتياج منذ طفولتهم ، سوى الغناء منذ البداية من دون غذاء أو شراب ، وحتى يوم موتهم بعد أن يمضوا ويخبروا الحوريات كيف أنهم قد شرفوا ما بين الجنس البشرى وعبر ...» .

إن أى طالب للثقافات الشفاهية الأصلية سوف يسمع جرساً مألوفاً فى هذه الحكاية ، إن قصة جنابب الأشجار مماثلة فى شخصيتها لقصص «الوقت البعيد» التى يرويها اليوم هنود الكويكون فى ألاسكا ، ومماثلة لقصص من ذلك الوجود الغامض «منذ زمن بعيد ، فى المستقبل» والتى يرويها أهل الإسكيمو ، أو إلى «زمن الحلم» والحكايات التى يرويها الأبوروغونيون فى أستراليا ، لعلنا نستدعى فى هذا السياق كلمات «الأنويت» من شرق الإسكيمو المقتبسة مع نهاية الفصل الأخير : «فى الزمن المبكر ، عندما كان البشر والحيوانات يعيشون على الأرض ، كان الشخص يستطيع

أن يكون حيواناً إذا أراد ذلك ، والحيوان يستطيع أن يكون بشراً ... » وهنا حكاية معتادة للزمن البعيد يحكيها أحد أشخاص «الكويكون» :

«عندما كان سمك القد إنساناً قرر أن يترك الأرض ويصبح حيواناً مائياً ، وهكذا بدأ في السير نحو الضفاف آخذاً قطعة من شحم الدب معه . لكن البشرَ الحيوانات الأخرى أرادت أن يبقى وحاولت أن تمنعه ، شادة إياه من كل جانب في شكله أثناء ذلك ؛ لذلك فإن سمك القد لديه ذلك الجسد أو القد الطويل والمشدود ، وذلك هو السبب في أن كبده سميئة ومدسمة مثل شحم الدب الذي حمله الجد الأقدم أو السلف لسمك القد إلى المياه معه منذ زمنٍ طويل في القَدَم» .

مثل كل القصص والحكايات الشفاهية من الزمن البعيد أو وقت الحلم ، فإن أسطورة سقراط حول جناب الأشجار أسطورة وظيفية ، إنها تخدم في أن تشرح بعض المواصفات المؤكدة والملاحظة حول الجناب ، مثل همهمات وأزيزها ، وعدم احتياجها الظاهر للغذاء (عندما ظهرت الموسيقى ، بعض الناس من تلك الأيام كانوا مذهبين من المتعة حتى إنهم بقوا يغنون ، ونسوا تماماً أن ياكلوا ويشربوا) لقد مال علماء الأنثروبولوجيا أن يقيموا مثل تلك الحكايات من زمن الحلم أو الزمن القديم على أنها محاولات مشوشة للشروحات السببية والعلمية عبر العقل البدائي . غير أنه هنا على أي حال ، على ضوء مناقشتنا فيما يتعلق بالشفاهية والتعلم فإن مثل تلك القصص يمكن أن ينظر إليها بأنها تخدم وظيفة أكثر عملية من ذلك .

بدونما نظام كتابة متنوع ، فإنه ببساطة ليس هناك طريقة لحفظ - بشكل ثابت - وسيلة خارجية ، المعرفة التراكمية فيما يتعلق بأنواع معينة من النباتات (بما فيها أماكن العثور عليها ، أي جزء منها قابل للأكل ، وأي منها مسمم ، الكيفية المثلى لتحضيرها ، وأي أمراض يمكن لها أن تشفيها أو تسببها) ، وفيما يتعلق بحيوانات معينة (كيف تتعرف عليها ، ماذا تأكل ، الطريقة المثلى لاقتفاء أثرها أو قنصها) أو حتى فيما يتعلق بالأرض نفسها (الطريقة المثلى لكى يألف الشخص المحيط والأراضي الطبيعية حوله ، أية أراضٍ يتجنب ، وأين يجد الماء أو الوقود) .

إن مثل تلك المعرفة العملية لا بد من حفظها إذن في أشكال كلامية منطوقة يمكن استدعاؤها وتذكرها بسهولة ، وتعديلها كلما بزغت حقائق ووقائع جديدة ، وأن يعاد

حكيها من جيل إلى جيل ، غير أنه ليست كل التشكيلات اللفظية قابلة للاستدعاء المبسط - معظم الأشكال اللفظية التي نتحدث بها اليوم معتمدة على مضمون في الكتابة ، بالنسبة إلينا على سبيل المثال فإن قائمة ذهنية بسيطة للمواصفات المعروفة لنبته معينة أو حيوان تبدو هي الأسهل والأوضح في التشكيل اللفظي ، ومع ذلك فإن مثل تلك القوائم لا قيمة لها في ثقافة شفاهية بدوننا مقابل واضح يمكن استحضاره للذهن ومطالعة بالبصيرة ، إن القوائم الكلامية لا يمكن استحضارها بشكل جاهز وتكرارها ، بدون الكتابة فإن المعرفة للصفات الكثيرة لحيوانات معينة ونباتات وأماكن يمكن حفظها فقط عبر نسجها في حكايات وقصص وحواديت حيوية حيث المواصفات الخاصة بالنبات يتم جعلها واضحة عبر حكي سلسلة من الأحداث والتفاعلات . إن قصصا مثل الأشعار الموزونة أو الأغاني تتداخل بشكل جاهز مع خبرتنا المحسوسة ، تحولات في الأفعال تكون صدى وشبيهة لتجارينا الخاصة - في الاستماع إلى أو حكي قصة نحن نعيشها ونحياها ، وتنسج مكوناتها نفسها على لحمنا الخاص ، إن الجسد الحسي المتنفس هو كما قد رأينا شكل حيوى ومتجدد ، وهو عملية مستمرة أكثر منه جماداً غير متغير . وهكذا فإنه لا يستطيع بشكل جاهز أن يؤقلم نفسه مع «وقائيم» أو «معلومات» (معلومات جامدة ، وثابتة ومجردة من الأحوال المعاشية والفعلية التي تظهر فيها) ومع ذلك فإن الجسد الحى يمكن له بسهولة أن يتأقلم مع عملية أخرى حيوية وحديثة ، مثل الكشف عن الحكاية ، ناظراً إلى كل جزء منها أو حدث كشكل من أشكال تجليه هو الخاصة .

وكما كانت القصة حية أكثر - أكثر حيوية أو مثيرة للتفاعل معها - ستكون جاهزة أكثر للامتزاج معها والاندماج ، إن الحافظة والتذكر الشفاهي يدعو إلى شخصيات حية ، حيوية ، وغالباً ماتكون عنيفة ، وإلى أحداث من ذلك النوع ، أيضاً إذا كانت القصة تحمل معرفة حول نبته معينة أو عنصر طبيعي ، فستكون تلك الكينونة مشخصة مثل باقى الشخصيات في شكل حى تماما ، قادر على مغامرات تشبه الأشخاص الحقيقيين والتجارب والخبرات ، وقابلة لأى نوع من المواجهات أو الصعوبات التي نعرفها من حيواتنا وخبراتنا نحن ، بهذا الشكل الشخصية أو «الكاركتير» لنبته طيبة يمكن تذكرها واستحضارها بسهولة ، جوانبها السامة سوف يسهل تجنبها ، وخطوات تحضيرها الدقيقة سوف تكون مشهودة من خلال تسلسل الأحداث فى الأسطورة نفسها التي تُنشد خلال التحضير ، على الشخص فقط أن يروى القصة المناسبة من الزمن البعيد حول نبته أو حيوان أو عنصر ما من أجل

أن يستدعى المعرفة الثقافية التراكمية فيما يتعلق بتلك الكينونة وعلاقتها بالمجتمع البشرى .

فى ضوء ذلك فإن ذلك الشئ الذى نقوم نحن المتعلمين بخطأ بنائه وتكوينه كمحاولة للأصليين للشرح العلمى أو السببى يمكن أن نراه كطريقة راقية وحافظة يتم عبرها الحفاظ على المعرفة الدقيقة وتمريها من جيل إلى جيل ، إن السبب المناسب الوحيد لمثل تلك القصص هو نوع من السببية التدويرية الغريبة على الفكرة الحديثة والعصرية ، وفقا لها يستطيع الأشخاص أن يؤثروا على أحداث فى نظام الطبيعة الذى يحتويهم ومع ذلك فهم أنفسهم باستمرار تحت تأثير تلك الأحداث نفسها . عبر إطلاق بُعد أو زمن حيث كل الكينونات كانت فى شكل بشرى ، أو عندما كان البشر فى شكل حيوانات أو نباتات أخرى فإن تلك القصص تؤكد على القرابة البشرية مع الأشكال التعددية للطبيعة المحيطة بهم ، هم هكذا يشيرون إلى علاقات الاحترام المتبادل التى يجب الحفاظ عليها مع ظاهرة الطبيعة ، ذلك التواصل والتلقى الذى يجب ممارسته فى العلاقة مع الحيوانات الأخرى والنباتات والأرض نفسها من أجل أن يضمن المرء صحته ، ومن أجل المحافظة على الأحوال الحسنة والمتوازنة فى المجتمع البشرى .

إن هذه الواجهة من اعتبارات التقدير والاحترام وسببيتها الدائرية المعنى بها حاضرة أيضاً فى حكاية سقراط عن جنادب الأشجار ، عبر إيصال الحكاية إلى فيدروس فإن سقراط يشير - بالرغم من أن ذلك لم يكن خالياً من التهكم - إلى الاحترام المطلوب بشكل صحيح لمثل تلك الحشرات ، والتى يمكن لها أن تجتمع وتتواطئ ضد الاثنين بدورها ، فيما بعد بالفعل فإن سقراط سوف يعزى بلاغته وفصاحته الخاصة فى هذه المحاورة إلى إلهام الجنادب له «تلك الأفواه المنشدة باسم الحوريات» .

إنه يبدو جلياً فى فيدروس أن أفلاطون أسبغ الكثير من الاهتمام والاعتبار للكون الشفاهى الشعري وفيوضه من الحسى غير العقلانى ، وقواه الحية أكثر مما فعل فى بقية المحاورات ، إن محاورة فيدروس تبدو أنها تحاول ضرباً من التصالح بين العالم المتسامى غير التجسدى للأفكار الخالدة وهى تشرع فى هذا وغيره من المحاورات والعالم الجياش ذى النغمة الشعورية لسحر الطبيعة الذى ما يزال يسكن اللغة المشتركة لأيامه ، غير أن هذه التأكيدية التصالحية للكون الحى الحسى قد تأثرت فقط

عبر المضمون الذى يخفى داخله نوعاً من الاستخفاف ، هذا يبدو واضحاً بشكل كبير فى الأليجورى فى قلب المحاورة ، حيث سقراط يمنح رؤيته الخاصة حول الحب أو «إيروس» . فحسب سقراط إن الجنون القدسى فى العشق يجب تكريمه وامتداحه ، ذلك أنه - العشق - هو الذى يمكنه أن يوقظ بقوة وعمق الروح من نومها فى العالم الحسى الجسدى . إن روح العاشق تستثار عبر الجمال الحسى للمعشوقة لكى تتذكر - ولو بشكل ضئيل وشاحب - ذلك الأكثر نقاءً ، والجمال الخالص للأفكار الخالدة غير الجسدانية والتى كانت تعرفها فى يوم ما ، وهكذا متذكرة لطبيعتها السامية الخاصة بها فإن النعاس والنوم السابق للروح يبدأ فى نشر أجنحته وسرعان ما يصبو للتحليق بعيداً وراء ذلك العالم من الوجود الفانى نحو ذلك الذى هو حيز وجود أبدي وغير متحول وأبعد من النجوم :

«إنه هناك يتجول ويحيا الكائن الحقيقى ، بدونما لون أو شكل ، لايمكن لمسه ، إن السبب وحده ، هدى الروح ، يمكن أن يجعلها تتماسك ، وكل المعرفة الحقيقية معرفة عليا» .

فى هذه المحاورة إذن فإن الرغبة الجسدية للتواصل والاحتكاك الحسى مع أجساد أخرى ومع جسد الأرض قد تم تكريمها ، ولكن فقط كاستثارة أو دافع تجاه التوحد الأكثر أصالة للروح العقلانية مع الأشكال الخالدة «للعادلة» ، «التسامح» ، «الفضيلة» ، وأشياء ذلك ، والذى - حسب أفلاطون - يرقد فيما هو أبعد من العالم المحسوس بشكل كامل .

لقد رأينا أن ذلك التحالف بين الروح العقلانية أو «النفس» والأفكار غير المتحولة غير منفصل عن العلاقة بين الذكاء الجديد المتعلم والحروف الواضحة للأبجدية (والتي بالرغم من أنها ليست من خارج العالم المحسوس تمثل نظاماً جديداً تماماً ومستقراً لظاهرة نسبية ، إن كل الأشكال الأخرى للظواهر يمكن لها أن تصبح وكأنها تبدو محلقة بشكل مدهش ، غامضة ، ملتبسة واشتقاقية) وكما هو فى النقد الواضح لدى أفلاطون تجاه الأبجدية والكتابة فى فيدروس تأخذ مكانها داخل المضمون لتأملات أوسع من ذلك ومنفصلة (أو غير مجسدة) بأن الكتابة تُولد ، وهكذا فى المحاورة نفسها فإن تأكيدات الواضحة حول أمزجة الشفاهية - الحية للخبرة يتم إنجازها فقط عبر نص لمواضيع أوسع . إن العالم الإيروتيكى - التشاركى للجسد الحساس والحسى

يستدعى فقط من أجل مساندة العالم غير المحسوس نحو - حسب أفلاطون - الاتجاه الذى يشير إليه ، إن الفكر المتعلم هنا يشهد بمجالة عبر ادعاء أن الحياة الحسية للجسد فى الطبيعة هى مجرد حلفه المساند له ، وما قد كان فى السابق تهديداً للعقل المتعلم الفكرى هو الآن قد جُرد من سلاحه بجعله فى مكان محدد فى داخل المشروع الأعظم للتسامى وهكذا ، فحتى وخصوصاً فى هذه المحاورات الريفية ، حيث الذكاء العقلى يبدو متوازناً تقريباً مع الجسد الشهوانى وحيث هناك الأشجار التى «لا يمكن لها أن تعلم شيئاً» يبدو متوازناً عبر الجنادب المراقبة ، فإنه يمكن لنا أن نكتشف بذور الخسوف الحثي وراء عالم الحروف ، والأرقام ، والنصوص .

الاستشارة الحسية والاحتكاك بالآخر

إنه من اللافت للانتباه أنه لم يكن هناك أى من أساتذة القرن العشرين والأكاديميين المهمين والذين وجهوا اهتمامهم للتغيرات التي أحدثتها التعليم قد درسوا بشكل جاد تأثير الكتابة - وخصوصاً الكتابة الصوتية - على الخبرة البشرية لعالم الطبيعة الأوسع ، إن تركيزهم قد كان عمومًا مركزاً على تأثير الكتابة الصوتية على تكوين واستخدام اللغة البشرية فى نماذج التذكر والأفكار ، أو على التنظيم الداخلى للمجتمعات البشرية ، إن معظم الأبحاث الرئيسية - بكلمات أخرى - قد ركزت على تأثير الأبجدية على تطورات إما داخلية فى المجتمع البشرى أو افتراضياً «داخلية» فى العقل البشرى ، ومع ذلك فإن محدودية مثل ذلك البحث - تحفظاته الصارمة داخل حدود التفاعل البشرى الاجتماعى والدواخل الشخصية - فى حد ذاته يعكس تعصبا خاصاً مرتكزاً تماماً على الثقافة الأبجدية ، فى غياب التعليم الصوتى فإنه لا المجتمع ولا اللغة ولا حتى خبرة «الفترة» أو الوعى يمكن أن تبحث بمعزل عن الأشكال والقوى التعددية وغير البشرية والتي تعبر تأثيراتها إلى كل أنشطتنا (نحتاج أن نفكر فى محاولتنا التى لاتضمنى فقط مع الأرض تحت أقدامنا ، مع الهواء الذى يدور حولنا ، مع النباتات والحيوانات التى نستهلكها ، مع الدفء اليومى للشمس والدورة الشهرية للقمر) ، وبالفعل فى غياب أنظمة الكتابة الرسمية فإن المجتمعات البشرية وصلت إلى معرفة أنفسها أساساً كما قد انعكسوا عبر الحيوانات والأرض الحية التى ينشغلون بها ، هذه الاعتمادية الإستمولوجية واضحة بشكل جاهز فى كل قارة عبر الأمزجة المتعددة للتعريف والمرتبة عمومًا تحت المصطلح المفرد «الطوطمية» .

إنها صعوبة متزايدة علينا نحن المتعلمين أن نجرب أى شئ يقترب من التركيز والوضوح مع الطبيعة المحيطة بنا التى تقدم نفسها بتلقائية إلى أعضاء مجتمع شفاهى أصلى ، ومع ذلك كما قد رأينا فى الفصول السابقة ، ميرلوبونتي وخبرته الدقيقة فى علم ظواهر التلقى بدأت تتكشف تحت سطح كل تجريداتنا المتعلمة علاقة تشاركية

عميقة مع الأشياء ومع الأرض ، تلقى محسوس مشابه بشكل غريب مع الوعى الحى لأشخاص شفاهيين من الثقافات الأصلية ، إذا شئنا أن نستوعب بشكل أفضل التحول المدهش فى الخبرة البشرية للطبيعة والذي تصادف مع تقدم وانتشار الثقافة الصوتية سوف نفعل حسناً بالعودة إلى التحليل الحميم للتلقى الحسى الذى دشنه ميرلو بونتى ، ذلك أنه بدون وعى واضح لما تعنيه القراءة والكتابة عندما تؤخذ بالاعتبار على مستوى خبرتنا الجسدية والأكثر مباشرة فإن أية «نظرية» تخص تأثير الثقافة التعليمية سوف تكون جزئية ومحصية .

بالرغم من أن ميرلو بونتى نفسه لم يحاول أبداً فى مجال علم ظواهر القراءة والكتابة فإن تقديره لأهمية الاستثارة الحسية - تداخل الحواس وامتزاجها - ظهر فى عدد من التحليلات الخبراتية المتصلة مباشرة مع ظاهرة القراءة ، ذلك أن القراءة ، إن حال ما تنتبه إلى نصها الحسى تكشف نفسها كإثارة حسية عميقة فى المقابل ، إن عيوننا تلتقى مع إشارة بصرية أو سلسلة من الإشارات ومع ذلك فإن ماتجده هناك هو سلسلة لا من الصور والخيالات ولكن أصوات ، شيئاً يسمع ، الحروف البصرية كما قد قلنا تقايض عيوننا بأذاننا ، أو بالأحرى إن العين والأذن تُجلبان معاً إلى سطح النص - ورابط جديد يوثق ما بين الرؤية والسمع ويضمن أن ظاهرة تم القبض عليها بحاسة واحدة يتم تمريرها مباشرة إلى حاسة أخرى ، الأكثر من ذلك علينا أن نلاحظ أن هذا التمرير الحسى للحواس يتم عبر توسيط الفم البشرى واللسان ، إنه ليس أى نوع من الأصوات فحسب ذلك الذى يخبر فى فعل القراءة ، ولكن البشرى بشكل محدد ، أصوات حلقية تلك التى تصدر من الفم البشرى ، إنه من المهم أن نلاحظ أن الخبرة المشتركة الآنية ، الآن ، للقراءة «الصامتة» هى تطور متأخر فى قصة الأبجدية ، ظاهرة فقط خلال القرون الوسطى ، عندما قدمت الفراغات لأول مرة ما بين الكلمات فى مخطوط مكتوب (بالإضافة إلى الأشكال المختلفة للإملاء) ، مُمكنة القراء من التمييز للكلمات فى الجملة المكتوبة دونما أن يكون هناك ضرورة للاستماع إليها صوتياً ، قبل هذا الابتكار كان أن تقرأ يعنى بالضرورة أن تقرأ بصوت عالٍ ، أو على الأقل أن تتمتع بهدوء ، بعد القرن الثانى عشر صار ممكناً بشكل متزايد أن تستبطن الأصوات وأن تستمع داخلياً إلى الكلمات (أو الصدى الداخلى للكلمات عند النبس بها) .

إن القراءة الأبجدية إذن تبدأ عبر طريق الشعوان المتداخل للاستثارة الحسية ما بين العين والأذن ، ما بين الرؤية والسمع ، ولكي نكشف تبعات هذه الاستثارة الحسية الجديدة فإننا نحتاج لاختبار مركزية الاستثارة الحسية في تلقينا للآخرين في الأرض .

إن الجسد المجرب (كما قد رأينا في الفصل الثاني) ليس مادة مغلقة على ذاتها ولكنه كينونة متفتحة ، غير مكتملة ، إن هذا الانفتاح واضح في نظام الحواس : إن لدى هذه الطرق المتعددة لمواجهة واستكشاف العالم – الإصغاء بأذني ، اللمس بجلد ، الإبصار بعيني ، التذوق بلساني ، الشم بأنفي – وكل هذه القوى المتعددة أو الطرق تفتح خارجياً باستمرار من قبل الجسد المتلقى والمستوعب مثل دروب منبثقة ومتعددة في غابة ، ومع ذلك فإن خبرتي في العالم ليست جزئية أو متشظية ، إنني لا أجرب بشكل عادي المظهر البصري للعالم بأى شكل ما منفصل عن الجانب السمعي ، أو كثافة وتنوع اللمس الذي تقدمه الأشياء للمستى ، عندما يأتى القط توم – قط الحى – للزيارة ، فإنه لا يكون عندي خبرات مميزة لقط بصرى ، قط سمعي ، ولكن بالأحرى إن القط توم هو المكان نفسه الذي تشترك فيه تلك الحواس وتمتزج في بعضها بعضاً ، متمزجة أيضاً بذلك السطح من فرائه ، وهكذا فإن حواسي المتعددة تتقابل مع بعضها بعضاً في العالم المحيط ، مركزة ومختلطة بذلك الشيء الذي ألتقاه وأستوعبه ، لعلنا قد نفكر بالجسد الحسى كنوع من الدائرة المفتوحة التي تكمل نفسها فقط في الأشياء والعالم . إن الاختلافية في حواسي وكذلك في تلاقيها التلقائي في العالم يضمن أننى كائن مقدّر للعلاقة : إنه أساساً عبر انشغالي مع ذلك الذى هو «ليس» أنا ، ذلك الذى يؤثر ويسبب امتزاج حواسي وتكاملها مع بعضها بعضاً ، أخبر وأتعرّف على وحدتى الذاتية واكتمالى .

وبالفعل ، إن الاستثارة الحسية تتدفق مع بعضها بعضاً عبر حواس مختلفة لتصبح خبرة ديناميكية متماسكة وهى بالفعل فعالة وقائمة داخل نظام واحد للإبصار نفسه ، إن الإبصار العادى يمتزج من عنصرين ، وجهتي نظر هما «العينان الاثنان» ، وحتى هنا فى داخل نظام حسى واحد نكشف انفتاحاً أصلياً أو تفرعاً ، فى هذه الحالة ، جانبين من الوجه كل منه ببوابته للبصرى ، وإنه فقط عبر ذلك التفرع والالتقاء لهذين

الجانبين فى نقطة ما فى مقدمة الجسد يمكن للعالم البصرى أن يصبح حاضراً بالنسبة لى بكل أعماقه .

إن الصور الثنائية المعتادة للبصر غير المركز له جانب من حقيقة مهتزة فقط : لو سمحت لعيني أن تركز على رف أمامى فى الغرفة ، وأثناء ذلك أضع إصبعى أمام وجهى ، أكتشف أن هناك صورتين للإصبع تتراءى أمامى مثل أشباح غير ملموسة وأن ذلك الرف ، بالرغم من مسافته الأبعد عني ، يبدو أكثر تماسكاً وحضوراً فى وعيى من إصبعى الذى هو أمام وجهى ، وفقط عندما أكسر درجة تركيزى على ذلك الرف وأجعل عينائى تتوحد من جديد وتركز على إصبعى يتضح لى آنذاك عبر تأمل الشعيرات الدقيقة والمفاصل لإصبعى وجوده الواضح أمامى .

إن الإبصار الاعتيادى يحتوى على تفرع لوجهتى نظر يتوحد فى إبصار حيوى واحد ، إن أجزاء متفرعة من نفسى تنضم لبعضها عبر الموضوع ، وأنا بدورى أقابل نفسى «هناك» عند تلك الشجرة أو العنكبوت الذى أركز عليه ، إن الرؤية نفسها – بكلمات أخرى – نوع من الاستثارة الحسية بالفعل ، تعاون ما بين حواس متعددة وقنوات ، وأعضاء .

عندما ننتبه بدقة إلى خبرة تلقينا واستيعابنا نحن فإننا نكشف أن تفرع العينين يشجع غالباً التعاون الإضافى للحواس الأخرى ، عندما – على سبيل المثال – أحقق من خلال النافذة نحو طير أسود فى خميلة قريبة فإن عينائى الاثنتين منجذبتان إلى حركة جسد الطائر وهو يلتقط التوت الأحمر من على الأغصان ، فإن حواساً أخرى تنجذب بشكل تلقائى إلى مجال التركيز نفسه ، إن إحساساً بدغدغة ما قد يصاحب على سبيل المثال مراقبتى لحركة الطائر الأسود ، وإذا ما راقبت بدقة قد ألاحظ وهو ينقر ويأكل كل حبة من التوت فى منقاره ، نوع من الريق يتدفق فى فمى له طعم حامض ، أو بالأحرى ، للغرابة ، أبدو وكأننى أشعر ذلك الطعم هناك ، فى داخل فمى ، إننى أحس بفمه عبر فمى فقط .

وشبيه بذلك عندما أراقب غريباً يتعلم قيادة دراجة لأول مرة ، إن جسدى نفسه بالرغم من كونه واقفاً بثبات على الأرض فإنه عندما تتحرك الدراجة وتسقط فإننى أحس بذلك التأثير الحسى للأسفلت على ساقى وذراعى .

إن حواسي هنا سوف يبدو أنها تلحق هناك بما يركز عليه بصرى ، الصدمة الآنية والوجع فى مفاصلى يجعلنى أرمش بعينى ، إن سمعى أيضاً كان يركز على تلك الصدمة وتلك الأصوات الأخرى التى كنت أستمع إليها (الطيور ، ولعب الأطفال) ليس لها وجود بالنسبة لى الآن ، فقط ذلك الغريب وتنفسه بآلم وهو يجردراجته ببطء ويقبل اليد التى أقدمها إليه ، مجبراً نفسه على الوقوف على قدميه ، إنه يهز رأسه ، يضحك قليلا ، ثم يعبس - كل ذلك بطريقة جاهزة للتواصل مع جسدى بأنه على مايرام - ثم يلتفت ليفحص دراجته .

إن تنوع أنظمة حواسى وتفرعاتها التلقائية فى الأشياء التى أقابلها تؤكد هذا التفسير أو تداخل النسيج ما بين جسدى والأجساد الأخرى ، هذه المشاركة الساحرة التى تسمح لى فى أحيان ما أن أشعر بما يشعر به الآخرون . اختلاجات كائن آخر ، إيقاعات وذبذبات صوته ، التشنج أو التراقص فى سلسلة ظهره كلها تجذب انتباهى تدريجياً نحو علاقة مميزة مع بعضها بعضاً ، نحو نظام متناغم ، ومنسجم حتى فى تحولاته، وكلما أطلت تواصلى مع الكينونة الأخرى صارت العلاقة أكثر فهماً واكتمالاً ، وبذلك كلما وجدت نفسى أكثر وجهاً لوجه مع ذكاء أو قوة عقلية أخرى كان ذلك مركزاً آخر للخبرة .

فى لقائى مع سائق الدراجة ، كما فى خبرتى مع الطائر الأسود ، إن التركيز البصرى عززَ ومكّن مشاركة الحواس الأخرى . فى أوضاع مختلفة ربما حواس أخرى تبدأ تلك الاستثارة الحسية : أذنانا عندما نكون فى حفلة سيمفونية ، أو أنوفنا عندما نشم رائحة احتراق أوراق شجر جافة فنستحضر صوراً وخيالات من طفولتنا أثناء فصول الخريف ، جلدنا عندما نلمس أو يلمسنا حبيب ما ، بالرغم من كل ذلك فإن التجربة الحيوية للعينين لها سحر خاص ، فاتحة عمق نهتز له فى كل شئ نبصره ونركز عليه النظر ، داعية بلا تردد الحواس الأخرى إلى تبادل مكثف مع الصخور ، السناجب ، السيارات المركونة ، الأشخاص ، رجل الثلج ، السحب وأشياء أخرى . إن هذه القوة - مغناطيسية الاستثارة الحسية للتركيز البصرى - سوف تبرهن على أهميتها الضرورية لفهمنا واستيعابنا للثقافة والتعليم وتأثيراته على التلقى .

إن أكثر الفصول أهمية في عمل ميرلو بونتي - الذى لم ينهه بسبب موته - بعنوان «التداخلية - التشيزم» - The Chiasm - إن كلمة Chiasm ، مشتقة من مصطلح إغريقى قديم يعنى «التعابر» وهو مستخدم اليوم فقط فى حقل علم الأعصاب ؛ «التعابر البصرى» هو الحقل التشريحي ما بين الجانبين الأيسر والأيمن من المخ ، حيث الألياف العصبية من العين اليمنى واليسرى تتداخلان ، وكما أن هناك تعابرا ما بين العينين الاثنتين اللتين عبر منظور الرؤية الثنائى تتداخلان باستمرار فى شكل رؤية بصرية واحدة ، فهكذا أيضاً - حسب رأى ميرلو بونتي - ثمة تعابر ما بين الحواس المختلفة إلى درجة تجعلها باستمرار فى حالة تعاونية فيما بين بعضها بعضاً ، أخيراً إن هذا التداخل للحواس المختلفة هو مايمكن من التعابر ما بين الجسد واللحم المحيط والى للعالم ، وهو ماندعوه عادة بالتلقى والاستيعاب .

القراءة الصوتية بالطبع تستفيد من تلاقى حواس معين - ذلك الذى ما بين الإبصار والسمع ، وبالفعل ما بين الاستشارات الحسية المتعددة المعتادة للجسد البشرى ، فإن التعابر ما بين الإبصار والسمع دقيق بشكل خاص ، ذلك أن الإبصار والسمع هما الحاستان الاثنتان «البعيداتان» فى الكائن البشرى فى مقابل اللمس والحواس الداخلية الجسدية ، وعلى غير غرار الحواس الكيميائية للتذوق والشم فإن الإبصار والسمع عادة تضعنا على صلة مع أشياء وأحداث تتبدى على مسافة ما من أجسادنا المبصرة والمرهفة الأسماع .

إن تحديقى البصرى يستكشف انعكاس سطوح الأشياء ، وألوانها الخارجية وأشكالها ، وعبر متابعة لعبة الضوء والظل ، وتراقص الألوان ، وتنوع الأشكال المكررة فإن العينان - وهما نفسيهما سطح مشع - تجعلنى على اتصال بالسطوح الخارجية المتعددة والوجوه للأشياء التى تحوم حولى فيما الأذنان أثناء ذلك هما عضوان داخلان أكثر ، إنهما ينبثقان من أعماق جمجمتى مثل برعمين مزهرين ، وإن مشاركتهما تخبرنى أقل حول السطوح الخارجية عن العناصر الداخلية للأشياء ؛ ذلك أن الكينونة السمعية تتنوع مع المنسوج المادى ، كما هو حال النداء الصوتى مختلف من حيوان لآخر معتمداً على حجم وشكل الحلق والحنجرة .

إننى أشعر بصرخاتها المعبرة تتردد داخل جمجمتى أو صدرى حاملة صدئ تلك الأصوات بنسيجها المادى ، وهكذا أتعلم عن اختلافاتها الداخلية المغايرة لى .

إن النظر والإصغاء يجلبني إلى تواصل مع السطوح الخارجية ووزنها الداخلي ، وهكذا فهو يوصلني إلى حيث تلتقي تلك الحواس ، إنني أجرب هنالك التلاعب الداخلي المركب للباطن والخارج والذي هو من مواصفات خبرتي الشخصية نفسها ، إنه هكذا في تلك الالتقاءات في الأرض المحيطة حيث عيناى وأذناى متوحدتان معاً أكون جاهزاً وفي أحسن أحوالى للإحساس بنفسى فى مواجهة قوى أخرى مثلى ، حياة أخرى .

لو أن قناصاً فى المجتمعات الأصلية (أو البدائية) كان يقتفى فريسة لوحده فى الغابة ، ووصلت إلى أذنيه صرخات ما من أعماق الدغل ، سوف يكون رد فعله فى الأغلب هو الإجابة على تلك الصرخة بأن يخفف خطوه ، ويكتم أنفاسه حتى يسمع ذلك الصوت ، عندما يعود مرة أخرى بدقة أكثر سوف ترصد عيناه وتتكشف الدغل وحركات الأغصان فوق رأسه بتحديق سريع ونظرة غير مركزة ، منتبهاً إلى أقل حركة على هامش حقل الرؤية .

حركة خفيفة للأغصان تجذب عينيه إلى تركيز أكثر دقة ، إن اهتمامه الآن محصور فى ظل صغير لتلك الأغصان ، ومع ذلك فإنه لايزال منفتحاً ، متسائلاً ، ومصغياً ، عندما تعود تلك الصرخة تحت قيادة أذنيه ، يبحث بنعومة عن مصدر ذلك الصوت بعينه وفجأة يتضح له شكل قرد ، نصف مختف بين أوراق الأشجار ، وذيله يهتز ، جسده منتصب ، وبرايق ، وفيما تكون عينا رجل القبيلة تنجذبان إلى تركيز مشترك مع أذنيه المصغيتين ، فإن ذلك الالتقاء ، ذلك التعابر يعيد توثيق نظام حواسه ، إنه يشعر بنفسه فجأة فى مواجهة ، ومقتنصاً فى تبادل حيوى مع كينونة أخرى ، ذكاء آخر فى مواجهته .

وبالفعل إن الاستثارة الحسية ما بين العينين البشريتين والأذنين مركزة بشكل خاص على علاقتنا بالحيوانات الأخرى، ذلك بما أنه منذ مليون عام من الإثارة الحارة عند الاقتراب من فريسة أو عند الفرار من حيوانات مفترسة ، عند التراجع ببطء عن أم من القروء تحمى أطفالها أو عند المراقبة بتركيز حركات ثعبان ضخمة مستتار لتجنب ضرباته القاتلة – وإن هذه الحركات عندما يكون البصر والسمع تصبح متداخلة بدرجة يصعب التمييز بينها ، ذلك أن هذه الحواس وظيفية هنا لها دور عضوى موحد وفى قمة نشاطه ، إننا نشعر بأنفسنا نصغى بأعيننا ونراقب بأذاننا ، جاهزين للاستجابة بكامل جسدنا لأى تغيير مفاجئ فى سلوك الآخر .

ومع ذلك فإن أذاننا وعيوننا تنجذب معاً لا عبر الحيوانات فقط وإنما عبر ظواهر أخرى كثيرة فى داخل الأرض ، ومن الغريب أنه «أينما» التقت هاتان الحاستان فإننا قد نشعر فجأة بأنفسنا فى علاقة مع قوى أخرى معبرة ، مركز آخر للتجربة والخبرة ، الأشجار على سبيل المثال يمكن أن تبدو أنها تتحدث إلينا عندما تهزها الرياح ، أشكال مختلفة من الهواء يمكن أن تمنح الشجرة صوتاً مميزاً ، وشخص ما كان قد عاش مابينها سوف يسهل عليه تمييز اللهجات المختلفة لشجرة صنوبر من حديث أو كلام نبتة شوكية أو نار أخشاب ، إن أى شخص كان قد سار عبر حقول الذرة يعرف التجربة غير الخادعة فى كونه مراقباً ومتحدثاً إليه عبر همس العידان والنباتات ، إن صخرة معينة تواجه وتقدم طلباً منا إلى نوع من الإصغاء السمعى ، وهكذا تجذب أذاننا إلى علاقة بأبصارنا فيما نحن نحقق فيها ، أو مع أيدينا عندما نلمسها - ذلك أنه عبر مزاج سمعى فقط نستطيع أن نبدأ فى الإحساس بالكثافة الباطنية لذلك الحجر ، أو الجبل ، كثافته الخاصة وعمقه ، إن هناك توقعاً للأذنين ، نوعاً من الاستيعاب والتلقى الصبور الذى تعيره للحواس الأخرى فى أى وقت نضع فيه أنفسنا فى مزاج سمعى - سواء لصخرة ، أو نهر ، أو بيت مهجور - إن كون الكثيرين من السكان الأصليين البدائيين يفرحون لبلاغة خطاب الأشجار أو الجبال يطرح التساؤل التى فى المجتمع الشفاهى يكون فيها الاهتمام الإصغائى السمعى مشتركاً ربما مع التركيز البصرى من أجل الدخول والولوج إلى علاقة حية مع الشخصية المعبرة للأشياء .





بعيداً عن تقديم تشويه لعلاقتها الحقيقية مع العالم ، المسار الحى للشعوب الأصلية البدائية والشفاهية تلاق موازٍ وحتمى للاستثارة الحسية المباشرة والمنشغلة مع الأرض التى تعيش فيها ، إن الميل الحى لتلقى شكلاً مثلاً لجبل (فيما الظلال تتحرك عبر سطحه) كنوع من التجسيد الممتلئ بالمعاني ، أو الدخول إلى محاورة محسوسة مع السحب واليوم - كل ذلك يمكن وضعه جانباً كنوع من الخيال المشوه أو الهلوسة الفانتازية لو أن مثل ذلك التشارك النشط لم يكن الأساس نفسه للتلقى والاستيعاب ، لو كان التداخل النشط للحواس فى الأشياء التى تقابلها لم يكن طريقتنا الوحيدة لربط أنفسنا إلى تلك الأشياء والسماح للأشياء أن تنسج نفسها فى خبراتنا ، مباشرة التلقى السابق للتأمل هو استثارة حسية بالضرورة ، تشاركي ، وحى ، يفتح الأشياء

والعناصر التي تحيط بنا لا كمواد جامدة ولكن كمواد معبرة ، وكيونات ، وقوى ، وإمكانات .

ومع ذلك فإن معظمنا يبدو اليوم بعيداً جداً عن مثل تلك الخبرة والتجربة ، إن الأشجار نادراً - لو حدث ذلك - أن تتكلم معنا ، والحيوانات لم تعد تقترب منا كرفاق من محيط ذكى مشترك ، الشمس والقمر لم يعودا يستدعيان الصلوات منا ولكن يبدو أن مثل قوس أعمى فوق السماء ، كيف صار أن أصبحت تلك الظواهر غير قابلة لمخاطبتنا ، ولم تعد تستدعى انشغالنا بها والاستجابة لها ؟ إذا كانت التشاركية هي التشكيل والأساس نفسه للتلقى والاستيعاب ، فكيف أصبح ممكناً أن يصل إلى تلك النهاية ، أن نجمد الحياة الحية المستمرة ، وأن نسد التبادل الحى الوحشى ما بين الحواس والأشياء التي تشاغلها سوف يكون نوعاً من تجميد الجسد نفسه ، إيقافه بعيداً عن خطاه ومساره ، ومع ذلك فإن أجسادنا مازالت تتحرك ، مازالت تحيا ، مازالت تتنفس . إذا لم تكن قد أصبحنا نشعر ونجرب التفاعل مع الأرض ككيونة معبرة وحية فإن هذا يمكن أن يعنى فقط أن التفاعل الحى للحواس قد تحول إلى وسيلة أخرى ، نقطة أخرى للتشاركية .

إن النص المكتوب هو الذى يقدم هذا الموقع الجديد ، ذلك أنه أن تقرأ هو أن تلج فى مشاركة عميقة وتواصل أو تعابرية مع الإشارات المحبرة على الصفحة ، فى تعلم القراءة علينا أن نكسر التواصل التلقائى لعيوننا وأذاننا فى المجال المحيط (حيث تنشغل هذه الحواس باستمرار مع الإثارة الحسية من لقائها مع الحيوانات والنباتات والينابيع) بهدف إعادة تزاوج الحواس وتركيزها على السطح المسطح للصفحة . فيما تقوم إحدى عجائز «الزنى» بتركيز عينيها على شجرة صبار وتسمع الصبار يبدأ فى الحديث ، هكذا أيضاً نحن نركز أعيننا على هذه الحروف والإشارات المطبوعة ونسمع أصواتها حالاً ، إننا نسمع كلمات منطوقة ، ونشهد مشاهد ورؤى غريبة ، ويمكن لنا أن نخبر ونجرب حتى حيوات أخرى، وكما أن حيوانات غير بشرية، ونباتات ، وحتى الأنهار «الحية» كانت تتكلم وتتحدث فى يوم ما إلى أسلافنا القبلين فهكذا أيضاً هو «جماد» الحروف على الصفحة الآن يكلمنا ويحدثنا ! إن هذا هو نوع من الحياة التي نأخذها على أنها تحصيل حاصل ، غير أنها حية على كل الأحوال ، وغامضة مثل حجر يتحدث .

وبالفعل ، إنه فقط عندما تحول وتبدل ثقافة ما تواصلها مع هذه الحروف المطبوعة فإن الصخرة أو الحجر يقع في الصمت ، إنه عبر تحول حواسنا فقط وسحرها الحي نحو الكلمة المكتوبة يمكن للأشجار أن تصير خرساء ، والحيوانات الأخرى بكاء .

لكن دعونا نصبح أكثر دقة ، ونستدعي الفارق ما بين الأشكال المختلفة للكتابة الذي تمت مناقشته في بداية هذا الفصل ، كما قد رأينا هناك . الكتابة التصويرية ، والأيدوجرافية (الكتابة الترميزية) وحتى الكتابة الإيحائية مازالت تستفيد أو تعتمد على تواصلنا الحسى مع العالم الطبيعي ، وكما أن آثار وعمل أو دب تعود إلى ما هو أبعد من نفسيهما ، إلى تلك الكينونات التي هي مجرى البحث ، فذلك الصور والرسوم في أنظمة الكتابة الأدنى تستمد أهميتها لا من ذواتها فقط ولكن من الشمس ، والقمر ، والنسر ، والفهد ، والشعبان ، والرعد - من كل تلك المحسوسات ، وليست القوى البشرية فقط ، والتي كانت الرسوم والصور المكتوبة لها نوع من اقتفاء الأثر والتقصي ، ومن المؤكد أن تلك الإشارات والتي هي منقوشة الآن بالأيدي البشرية ، وليست بقرون وحوافر الغزلان أو مخالب الدب مع ذلك فهي طالما قدمت صوراً لمخالب مطبوعة  وسحب  وشمس  وثعبان  ، فإن هذه الصفات مازالت تربطنا بعلاقة بمسار الحقل الذي هو أكثر مما هو بشري .

وعندما فقدت تلك الصفات المكتوبة ، فقط ، كل مرجعيتها الخارجية والواضحة لظاهرة الطبيعي ، المرئي فإننا عندها تحركنا نحو نظام جديد للتواصل والتشاركية ، فقط عندما صارت هذه الرسوم مصاحبة أجبدياً للأصوات التي صنعها البشر بشكل خالص ، وحتى الأسماء والحروف فقدت كل أهميتها الدنيوية الأكثر من البشرية . أن صار الكلام أو اللغة محسوسة كقوة بشرية استثنائية إنه عندئذ فقط حدث أن دخلت الحضارة إلى الحالة والمزاج الكلي لانعكاس الذات للحياة ، أو السحر ، الذي مازال يشدنا إلى تعويذته :

«إننا نعلم ما الذي تفعله الحيوانات ، ماهى احتياجات دبور النحل والدب وسمك السلمون والمخلوقات الأخرى ، لأنه منذ زمن بعيد تزواج البشر معهم وحصلوا على هذه المعرفة من زوجاتهم من الحيوانات ، اليوم الكهنة يقولون إننا نكذب ، غير أننا نعرف ماهو أفضل من ذلك .

إن الرجل الأبيض قد قضى وقتاً قصيراً فقط في هذه البلاد وهو يعرف القليل جداً عن الحيوانات ، لقد عشنا هنا منذ آلاف السنين وقد علمنا منذ زمن بعيد عبر الحيوانات نفسها ، إن الرجل الأبيض يدون ويكتب كل شيء في كتاب حتى يمكن أن يحفظ ولا ينسى ، غير أن أسلافنا تزوجوا الحيوانات ، وتعلموا منها كل طرقها ، ونقلوا تلك المعرفة من جيل إلى جيل» .

إن هذه القراءة الأبجدية والكتابة كانت في حد ذاتها موضع إحساس وخبرة بأنها نوع من السحر ، وكان ذلك واضحاً من ردود أفعال ثقافات صارت فجأة على صلة بالكتابة الصوتية ، إن المصادر الأنثروبولوجية من قارات مختلفة تماماً قدمت تقارير حول أن أعضاء القبائل الشفاهية من السكان الأصليين بعد أن رأوا الأوروبيين يقرأون من كتاب أو من دفتر صاروا يتحدثون عن الصفحات المكتوبة على أنها «أوراق متحركة» ، ذلك أن الإشارات السوداء على الصفحات المسطحة الشبيهة بأوراق الأشجار بدت وكأنها تتحدث مباشرة للشخص الذي يعرف أسرارها .

إن النقوش والكتابات العبرية لم تفقد أبداً هذا الحس بالحروف كقوى باطنية حية ، إن أغلب «الكابالا» - الجسد الخفى للصوفية اليهودية - مركز حول القناعة بأن كل حرف من الحروف الاثنتين والعشرين للأبجدية (ألف - باء) العبرية هو بوابة سحرية أو دليل إلى مجال وفضاء كامل للوجود ، وبالفعل ، حسب بعض مصادر «الكابالا» أنه كان عبر جمع الحروف أن استطاع الواحد المقدس ، المبارك ، أن يخلق الكون الذي مازال يجري ، إن «الكابالين» اليهود وجدوا أن تلك الحروف عندما يتم التأمل عبرها ، تستمر في كشف أسرار جديدة ، عبر عملية (tzeraf - تزييف) التبادل السحري للحروف يستطيع الكاتب اليهودي أن يأخذ نفسه إلى مراحل متلاحقة أكبر من التوحد الإنشائي الصوفي مع المقدس ، هنا - بكلمات أخرى - كان هناك شكل مكثف ومركز للوثنية الحية - تواصل ومشاركة لم تعد تجرى مع الأصنام المنحوتة والصور والخيالات المعبودة عبر القبائل الأخرى ولكن فقط وبشكل كلى مع الحروف المرئية للأبجدية (ألف - باء) .

ربما تكون أكثر الشواهد الناجحة للسحر المبطن لحروف الكتابة يمكن العثور عليها في المعنى الغامض والملتبس لكلمتنا الإنجليزية المعروفة « spell » [ومعانيها العربية تتضمن التالي : نوبة - دور - تعويذة - رقية وكذلك : هجى - تهجى - نوب - سحر .

المتجمة] فيما كانت الأبجدية الرومية تنتشر خلال أوروبا الشفاهية آنذاك ، فإن الكلمة الإنجليزية القديمة «spell» والتي كانت تعنى ببساطة أن تروى حكاية أو قصة اتخذت معنى مزدوجاً : من ناحية أخذت تعنى الآن أن ترتب فى النظام الصحيح الحروف المكتوبة التى تكون اسم شىء أو شخص ، ومن الناحية الأخرى فإنها قد مثلت معادلة سحرية أو تعويذة ، ومع ذلك فإن هذين المعنيين لم يكونا مختلفين تقريباً كما يبدو أن لنا اليوم ، ذلك أن تصف وتنظم الحروف التى تصنع اسم شىء فى النظام الصحيح كان بدقة هو أن تثير سحراً ، أن تؤسس نوعاً جديداً من التأثير على تلك الكينونة ، أن تستحضرها إلى الوجود ! أن تتهجى ، أن ترتب الحروف بشكل صحيح تشكل اسماً أو جملة ، بدأ ذلك فى الوقت نفسه هو أن تطرح تعويذة سحرية ، أن تمارس قوة جديدة ومؤثرة على الأشياء التى تتهاجها ، ومع ذلك نستطيع نحن اليوم أن نستوعب ونلاحظ أنه لى تتعلم التهجئة كان أيضاً وأكثر عمقاً أن تخطو تحت تأثير الحروف المكتوبة نفسها ، أن تلقى بالتعويذة على حواسنا ، لقد كان أن تبادل وتقايض الوحشى والسحر المتعدد لعالم الطبيعة الذكى من أجل سحر مكثف أكثر ومشذب هو سحر الكلمة المكتوبة .

إن الأستاذ الأكاديمى البلغارى تزفيتان تودوروف قد كتب دراسة مضيئة حول الغزو الإشباني للقرتين الأمريكيتين ، معتمدة على دراسة موسعة لوثائق من الشهور الأولى وسنوات الاحتكاك الأول مابين الثقافة الأوروبية وثقافات القارة الأمريكية ، إن الغزو والفتح الصاعق والسهل لمسيكو على يد كورتيز بقى يمثل لغزاً وأحجية للمؤرخين ، بما أن كورتيز كان يقود حفنة من مئات الرجال نجح فى الاستحواذ على مملكة كاملة لمونتيزوما والذى كان يرأس عدداً من مئات الآلاف ، لقد استخلص تودوروف أن كورتيز بنجاحه المذهل والسريع كان فى الأغلب نتيجة للمغايرة والاختلاف مابين الأشكال المختلفة للتواصل والتشاركية المستخدمة فى كلا المجتمعين. إن الأزتيك ، والذين كانت كتابتهم تصويرية فى معظمها ، بالضرورة وجدوا أنفسهم فى تواصل مباشر مع بيئة حية وثنية ، وأكثر مما هى بشرية . «إن كل شىء يحدث وكأنه - بالنسبة للأزتيك - [مكتوب] إشارات اوتوماتيكياً وبالضرورة تأتى من العالم الذى يسكنونه ...» ، إن الأزتيك غير قادرين على استخدام كلماتهم المنطوقة ، أو شخصيات ومواصفات كتابتهم كى يخفوا نواياهم الحقيقية ، بما أن تلك الإشارات تنتمى إلى عالم من حولهم بالقدر نفسه الذى تنتمى فيه إليهم ، أن تكون مزدوجاً مع

الإشارات سوف يكون للأزتيك أن تمضى ضد نظام الطبيعة ، ضد الكلام والمنطق الحى والمحب مع العالم الحى ، والذى يتجسد فيه ويكمن مسار نظامهم القبلى نفسه .

فيما الإسبان ، على كل ، لم يكونوا يعانون من هذه المحدودية ، مسلحين بنظام الكتابة الأبجدية ، جربوا أنفسهم لا فى تواصل مع الأشكال الحسية والمحسوسة للعالم ، ولكن مع بعضهم بعضاً بشكل كلى . غير أن الأزتيك عليهم أن يجيبوا فى أفعالهم كما هو فى كلامهم لكل عالم الطبيعة الحسى والمحسوس الذى يحيط بهم ، فيما الإسبان لا يحتاجون إلى تقديم إجابات وتوضيحات إلا لأنفسهم .

فى تواصل مع هذا السحر الجديد القوى ، وأولئك الرجال الذين يتواصلون فقط وبشكل كلى مع إشاراتهم الذاتية ، والذين كلامهم بذلك بدا وكأنه يطفو بحرية من الأرض والطبيعة التى تحيطهم ، والذين بذلك يستطيعون أن يكونوا مزدوجين وأن «يكذبوا» حتى فى حضور الشمس ، والقمر ، والغاية ، فإن الهنود أحسوا بأن نظامهم مع تلك القوى الحساسة والمحسوسة ، والآلهة ، صار يبدأ فى التسطح والخفوت :

«إن شهادات الرؤية الهندية - التى هى وصفية أكثر مما هى تفسيرية - تؤكد على أن كل شىء قد حدث بسبب أن المايا والأزتيك قد فقدوا السيطرة على التواصل والتحاور ، إن لغة الآلهة قد صارت غير مفهومة وإلا فإن تلك الآلهة قد سقطت فى الصمت والخرس» . «إن الفهم والاستيعاب قد فُقدَا ، إن الحكمة قد ضاعت» (من واقع رؤية المايا للغزو الإسبانى) ... وبالنسبة للأزتيك ، فإنهم قد وصفوا البداية لنهايتهم هم كصمت يسقط : «إن الآلهة لم تعد تتحدث إليهم» .

فى مواجهة ذلك العدوان والعنف من قبل ذلك الشكل الجديد تماماً والمعبر عن ذاته من السحر فإن السكان الأصليين أهل القارتين الأمريكيتين - ومثل أولئك فى أفريقيا ، ومن ثم فى أستراليا - أحسوا بأن سحرهم الخاص وقواهم قد تلاشت وأصبحت غير نافعة ، وعاجزة عن حمايتهم .

(٥)

فى أرضية اللغة

« مُنْهَكًا من كل من يأتى بالكلمات ، كلمات لكنها ليست لغة

مضيتُ إلى الجزيرة المُغطاة بالثلوج .

إن البرية ليس لديها كلمات .

الصفحات غير المكتوبة تنشر نفسها فى كل الاتجاهات !

لقد عثرتُ على آثار لحوافر غزالٍ على الثلج

إنها لغة ، ولكن دون كلمات ،

توماس ترانسترومير

إن الجزء الأول من هذا الكتاب قد أثار هذا السؤال : كيف حدث أن أصبحت الحضارة الغربية مغترية جداً عن الطبيعة غير البشرية ، ومتجاهلة تماماً لحضور الحيوانات الأخرى والأرض ، حتى أصبحت أساليب حياتنا المعاصرة وأنشطتنا تساهم يوماً فى تخريب وتدمير كامل الأنظمة الإيكولوجية البيئية - غابات بأكملها ، وأنهار ووديان ، ومحيطات - وانقراض عدد مهول من الكائنات ؟ أو بشكل أكثر تحديداً ، كيف استطاع الجنس البشرى المتحضر أن يفقد ويضيع كل حواس التلقى والعلاقة مع عالم الطبيعة الحى ، وذلك النظام الذى يؤثر (ويحدد) نشاطات معظم الشعوب والقبائل الأصلية ؟ كيف استطاعت الحضارة أن تفلت من وتترك خلفها طريقة وخبرة التشاركية الحية والتواصل المعروف لكل الشعوب الأصلية ، والثقافات المعتمدة على المكان - الوطن ؟

في الفصل الأخير - على كل - قد وضحنا كيف أن الوثنية الحية لم تُترك أبداً في الخلفية ، إن التواصل والتشاركية للحواس قد تم تحويلها ببساطة للأبجدية . إنه فقط عبر تركيز سحر الاستثارة الحسية للحواس على الكلمات أو الحروف المكتوبة تتمكن تلك الحروف من أن تصبح حية وتتحدث ، «الكلمات المكتوبة» يقول سقراط «تبدو أنها تتحدث إليك كما لو كانت تمتلك ذكائها...» وبالفعل ، اليوم من المستحيل فعلياً بالنسبة لنا أن ننظر إلى كلمة مطبوعة دون أن نرى ، أو بالأحرى نسمع ذلك الذي «تقوله» ؛ ذلك أن حواسنا الآن متزاوجة بالاستثارة الحسية مع تلك الأشكال المطبوعة بعمق يشبه ذلك الزمن الذي كانت متزاوجة فيه مع أشجار الصنوبر والغربان والقمر ، وكما كانت التلال والحشائش تتحدث ذات يوم إلى أسلافنا من القبائل فإن هذه الحروف المكتوبة والكلمات تتحدث الآن إلينا .

لقد رأينا أيضاً أن أنظمة الكتابة الأيقونية - تلك المستخدمة في الكتابة التصويرية بالرسم ، والأيدوجرافية و/ أو العناصر والشخصيات الإيحائية - بالضرورة تعتمد إلى حد ما على تواصلنا الحسي الأصلي مع حقل الطبيعة المحيطة بنا ، إنه فقط مع نشوء الأبجدية الصوتية واقتباسها عبر اليونان القديمة أن حدث أن فقدت الرسوم والصور المكتوبة كل الروابط الواضحة مع الحقل الأوسع للكائنات المعبرة ، إن كل صورة اليوم صار لها مرجعية بشرية محددة وصارمة : إن كل حرف صار الآن مرتبطاً بشكل خالص مع حركة أو صوتٍ للفم البشري ، إن مثل تلك الرسوم والصور لم يعد من الممكن أن تعمل كنوافذٍ مشرعة على حقل القوى لما هو أكثر مما هو بشري ، ولكن فقط كمرآة تعكس الشكل البشري مرة ثانية لنفسه ، إن الحواس التي تواصلت وتشاغلت مع هذه الكتابة الجديدة نفسها قد أقفلت من الداخل المسار الذي أصبح الآن بشرياً تماماً ، هكذا فقط مع تقدم وانتشار الكتابة الصوتية حدث أن بدأت بقية الطبيعة في إضاعة وفقد صوتها .

إن الكيفية القائمة على المركزية البشرية للخبرة والحياة والتي تُعزى للثقافة الأبجدية كانت قد انتشرت خلال أوروبا خلال فترة العشرين قرناً الماضية ، متلقية دعماً عظيماً من ابتكارات الخطوط التي تم تقديمها في غرف الكهنة الذين كانوا ينسخون المخطوطات عبر الراهب الإنجليزي الكوين (٧٣٢-٨٠٤) خلال فترة حكم شارلمان ، ودعماً رئيسياً من ابتكار الطباعة المتحركة عبر جون جايتنبرج (١٣٩٤-١٤٦٨) ، في القرن الخامس عشر ، إن النشر المطبوع وانتشار النصوص الرسمية المطبوعة

الذى جعلها ممكنة قد ساهم فى النهضة وفصل - بشكل عميق - رؤية «الطبيعة» التى كانت تسود فى العهد الرومانسى ، فى القرون الحديثة جعلت الممارسات الصناعية والتكنولوجية ممكنا بهذه المسافة الجديدة عن عالم الطبيعة أن تحمل الوعى الأبجدي معها عبر العالم بأكمله ، متسربة حتى إلى تلك الثقافات التى كانت قد احتفظت بأنظمة كتابتها الأيقونية والأيدوجرافية .

ومع ذلك تبقى هناك على الحواف وحتى فى منتصف تلك الثقافة - الأوحدية المستمرة فى الانتشار ثقافات صغيرة ومحلية أو مجتمعات حيث الطرق الأصلية والتقاليد الشفاهية للخبرة الحياتية مازالت موجودة وتحيا ، ثقافات لم تحول تماماً كلية تواصلها الحسى إلى الكلمة المكتوبة ، إنهم لم يغلقوا أنفسهم بعد داخل الحقل البشرى المغلق للمعانى ، وبذلك بقوا يعيشون داخل أرضية مازالت حية وواعية ويقظة ومعبرة لمثل أولئك الناس ، ذلك الذى نصطلح عليه «باللغة» يبقى ملكية بالقدر نفسه للأرض الحية كما هو للبشر الذين يعيشون ويتحدثون داخل تلك الأرضية ، وبالفعل فإن المسار اللغوى لمثل تلك الثقافات عادة مايكون مرتبطاً - بكيفيات معينة - مع الأرض المعبرة نفسها .

فى هذا الفصل إذن سوف نلقى نظرة على بعض فقط من تلك الطرق الكثيرة التى من خلالها يمكن للمسار المؤلف لثقافة شفاهية أن تنفتح مباشرة على الأصوات المثيرة والأشكال والاختلاجات للبيئة المحيطة بها .

لغة الطيور :

كلما سعينا نحن أصحاب الثقافة المتعلمة أن نفهم ونشغل بمسار الثقافات الشفاهية يتوجب علينا أن نسعى إلى تحرير أنفسنا من ميولنا المعتادة لتخيل وتصور أية لغة كتكوين جامد يمكن أن يتم التخطيط له ، أو وضع قوانين يمكن أن تنظم وتوضع فى قوائم دونما نظام كتابة رسمى ، فإن اللغة الخاصة بثقافة شفاهية لايمكن موضعيتها ككينونة منفصلة عن أولئك الذين يتحدثونها ، وإن انعدام الموضوعة والتشبيهي هذا يؤثر لا على الطريقة التى يجرب ويعيش فيها أهل الثقافة الشفاهية حقل المعانى المتنقلة فقط ولكن أيضاً الشخصية نفسها والتكوين لهذا الحقل ، فى غياب أى تجانس كتابى للكلام فإن البيئة الطبيعية الحسية تبقى الموازى البصرى الرئيسى للمنطوق

المتكلم ، المصاحب البصرى الواضح لكافة المعانى المنطوقة . إن الأرض بكلماتٍ أخرى هى المشهد المنطقى والمحسوس أو القلب والرحم الذى يحدث فيه المعنى ويتضح ويتشعب ، فى غياب الكتابة نجد أنفسنا موضوعين فى حقل المسار كما نحن فى داخل جذورنا المتصلة بالأرض الطبيعية ، وبالفعل فإن المسارين غير منفصلين ، إننا لانعود قادرين على تثبيت اللغة وجعل معانيها حتمية نستطيع تجميدها داخل تلك الأرض .

إذا أصغينا أولاً إلى أصوات لغة شفاهية - إلى حسها ، الإيقاعات ، موسيقا وجرس الكلام ، والتناغمات التى تتخلل خطاب ثقافة شفاهية - فإننا فى الأغلب سوف نجد أن هذه العناصر متناغمة فى طرق متعددة وخافتة مع كونتور خطوط ومساحة الأرض المحلية ، وأعماق وديانها أو المساحات المفتوحة على أبعادها ، ومع الإيقاعات البصرية لتوبوغرافية الأرض ، غير أن الكلام البشرى بالضرورة متناغم أيضاً لكل الصيحات المتنوعة وغير البشرية والصرخات التى تعيش وتحيا فى الأراضى المحلية . إن مثل ذلك التجانس والتناغم هو ببساطة ضرورى وأساسى لأية ثقافة مازالت معتمدة على مراعيها والأرض الطبيعية لقوتها ، تحولات صغيرة فى المناخ والطقس ، تغييرات فى نماذج الهجرة لحيوانات فرائسها ، تحول خافت فى تركيز حساسية القناص لمثل تلك التغييرات هو عنصر ضرورى لكل الثقافات الشفاهية وقوامها ، وإن هذه الحساسية لا بد لها أن تنعكس لا فى المحتوى فقط ولكن فى الأشكال والنماذج نفسها للمسار البشرى .

إن الصيد والقنص لمجتمع شفاهى أصلى يتضمن قدرات وحساسيات مختلفة جداً عن تلك الخاصة بالقنص والصيد فى حضارة تكنولوجية ، دونما بنادق أو بارود فإنه على القنَّاص الأصلى أن يقترب أكثر بكثير من فريسته المتوحشة إذا ما أراد أن يسلبها حياتها ، أقرب بمعنى لا جسد فقط وإنما معنى وعاطفى ، داخلاً إلى مسافة قريبة مع طرق الحيوان الآخر للإحساس والحياة ، إن القناص الأصلى بالمقابل يتوجب عليه أن يسلم نفسه للتعلم من تلك الحيوانات التى سوف يقتلها ، إنه عبر مراقبة وتفحص وملاحظة طويلة المدى ودقيقة مدعمة فى أوقات معينة بطقس التعرف والتقمص ، يطور القناص تدريجياً معرفة غريزية لعادات فريسته ومخاوفها ومتعها وطعامها المفضل وأماكنها المفضلة ، ليس هناك ما هو أكثر ضرورية لهذه الممارسة من تعلم

إشارات التواصل ، والاختلاجات والحركات ، وصرخات الحيوانات المحلية ، المعرفة بالأصوات (والتي عبرها يستطيع قرد أن يشير وينبه بها مجموعته أنه عثر على مصدر جيد للطعام ، أو الصرخات التي بها يشير طائر معين إلى ألم وخطر محدد ، أو تلك التي يجذب بها أنثى إليه) تمكّن القناص من توقع الحركات الكبرى والصغرى للحيوانات المختلفة ، إن الألفة مع صرخات الحيوانات ونداءاتها تزود القناص أيضاً بنظام حواس ممتد ، ووعى بأحداث تحصل في مجال أبعد من مجال رؤيته ، مخفية بأوراق أشجار الغابة أو غير واضحة في ظلام الليل ، الأكثر من ذلك أن القناص البشري المدرب غالباً ما يستطيع أن يجلب مثل تلك الأصوات ويقلدها هو نفسه ، وإن هذا هو ما يمكنه من الدخول بشكل مباشر إلى مجتمع الحيوانات الأخرى .

إن أحد أكثر المعلومات كشفاً في القرن العشرين عن مجتمع شفاهي أصلي متماسك نسبياً تلك المسجلة عبر ف. بروس. لامب من الذكريات الشفاهية لطبيب من بيرو يدعى مانويل كوردوفا - ريوس ، وكان قد تم خطفه في عام ١٩٠٧ ، عندما كان في الخامسة عشرة من العمر والقبض عليه لدى قبيلة صغيرة من الهنود الأماهوشا الذين كانوا يعيشون في أعماق غابة أمازونية ممطرة (مابين مياه جوروا ، بوزوس ، مادر دو دويه ، وأنويا بأنهارها) ربما بقايا قبيلة أكبر تقلصت بسبب دخول صناعة المطاط إلى الغابات ، لقد تم تدريبه بدقة عبر رئيس تلك القبيلة الصغيرة كي يصبح وريثه ، وكان لمدة ستة أعوام يتم تعليمه بدقة طرق القنص ، والقوى الشافية والسحرية في الغابة الممطرة وخصائص نباتاتها ، وطرق التحضير التقليدية واستخدام خلاصات من عروق *ayahuasca* لجلبها عند الضرورة ، وحالات التجلي الروحي والبصري للتردد مع النظام البيئي المحيط للأدغال .

ومن الغريب أن لغة القبيلة والتي بقيت بدون معنى في معظمها بالنسبة لكوردوفا ريوس لمدة ستة أشهر أو أكثر أصبحت مفهومة لأذنيه فقط عندما صارت حواسه متناغمة ومتجانسة مع خفايا بيئة الغابة الممطرة التي كانت تلك الثقافة متجذرة فيها ، لقد أصبح مع الوقت هو نفسه رئيساً للقبيلة ، ومع ذلك فإنه قد فر من الغابة المطيرة في العام التالي بعد محاولات عديدة استهدفت حياته من قبل عصابة مجاورة .

إن وصف كوردوفا ريوس لطقوس القنص المتعددة التي كان قد شارك فيها تقدم شاهداً واضحاً للمدى الذي كانت فيه حواس هؤلاء البشر متزاوجة مباشرة مع الغابة

المحيطة : « كانوا يستجيبون لأقل إشارة صوتية ورائحة ، بشكل حدسى يربطون بينها لكل الأحوال الأخرى فى البيئة ثم يفسرونها ليصلوا إلى أعظم إمكانية لاقتناص الفريسة . الكثير من القناصين المميزين بدا وكأنهم يعرفون عبر حواس إضافية خاصة أين بالضبط يجدون الفريسة المبتغاة ، أو أنهم طوروا بعض الطرق الخاصة لجذب الفريسة إليهم ، بمعرفة كيف يكون تقليد واستخدام إشارات الحيوانات التى يصنعونها للتواصل بين أنواعها فى مختلف الأوضاع ساعد على تحديد مكان الفريسة وجذبها إلى مجال بصرى للقناص الماهر» .

فى مسار المعلومات التى طرحها كوردوفا ريوس نقرأ توصيفات دقيقة لقناصين وصيادين فى أعالي أشجار الفواكه مقلدين أصوات ونداءات الطيور التى تشير إلى وجود فائض مصدر طعام ما ، جاذبين بذلك فرائسهم من الطيور ، نقرأ وصفاً لأحد القناصين والذى عند سماعه لعصاة من القروء تتحرك خلال الغابة الكثيفة فوق رأسه قام بإطلاق صرخة مشابهة لتلك التى يقوم بها قرد - طفل قد وقع من فوق الأشجار إلى الأرض ، إن تلك الصرخة أوقفت حركة القروء وجلبتهم إلى تحت فى مجال بصرى يوازى سهم القناص ، أطلق القناص أسهمه وأصاب اثنين ليطعم عائلته بهما . فيما بعد ، يقوم أصدقاء ورفاق كوردوفا ريوس الأصليون بتعليمه - عبر التقليد - الإشارات الأساسية الصوتية لفصائل الخنزير البرى الذى يقنصونه .

عبر قصص وحكايات الأسلاف حول القنص الحالى يستمر القناصون فى تبادل المعرفة فيما بينهم فيما يتعلق بالمعانى المحددة لنداءات معينة للمخلوقات المختلفة ، معرفة تم الحفاظ عليها عبر اللقاءات والتجارب المتجددة مع تلك الحيوانات فى البرية ، فى أمثلة كثيرة من معرفة صرخات التحذير المحددة للطيور والحيوانات الأخرى الحذرة من القناصين البشر إلى تلك الخاصة بوجود حيوانات مفترسة خطيرة مثل الفهد الذى على البشر أنفسهم أن يتجنبوه .

إن مثلاً تقليدياً مثل ذلك التداخل اللغوى للكائنات وارد فى معلومات أدلى بها رجل يدعى راسى لأفراد آخرين من حملة قنص ، ضمت كوردوفا ريوس ضمنها فيما كان القناصون المختلفون يرقدون فى أماكنهم فى الليل ، ويحدثون بعضهم بالتفصيل عن جهودهم الفردية خلال النهار :

« لقد كان الوقت قد أزف للعودة ولم أكن قد حصلت على فريسة ، وفي اللحظة التي التفتُ فيها لأعود أدراجى نحو المخيم أطلق « تينامو » [وهو نوع من طيور الدغل] نداءً حزيناً فى مكان قريب منى ، وقد رد عليه طيرٌ آخر . أتعرف لماذا تكون نداءاتهم المسائية حزينة لهذه الدرجة ؟ إنهم لا يحبون أن يناموا وحيدين ، وفى وقت الغروب كل منهم يتجول وحيداً بلا هدف ينادى وينادى حتى تأتيه إجابة من مكانٍ ما ، ثم يقترب الاثنان من بعضهما بعضاً مستدلين بنداواتهم ، وهكذا يجدون لأنفسهم شريكاً فى النوم . لقد أجبت على النداء ووجدت نفسى بين الطائرين ، فتراجعت وراء جذع شجرة كبيرة حيث يمكن رؤية الأرض من مسافة جيدة أمامى ، وبدأت فى نداء الطيور لتأتى صوبى . أنت تعرف أنه من الخطر أن تنادى «التينامو» بدون حماية شجرة كبيرة ، إن الفهد أحياناً هو الذى يأتى ليجيب النداء !! والتينامو كذلك طيره المفضل .

أحد الطيرين كان قريباً جداً وبسرعة أطلقت سهمى فى جسمه ؛ رفرف بجناحيه ورفس وأخذ يدور على نفسه ، غير أنه سريعاً ما كان بحوزتى عند جذع الشجرة ، لقد كسرت ساقه ووضعت خطين طويلين من دمائه على جفونى تحت كل عين ؛ لأجلب لنفسى الحظ الطيب» .

إن كل حملة قنص جماعية يسبقها طقس من التحضيرات الدقيقة ، خلالها يتناول القناصون طعاماً محدداً ، ماحين روائحهم الجسدية عبر إغراق أنفسهم فى حمامات مغاطس عشبية ومجففين أنفسهم بدخان أوراق الشجر المحترقة ، إن الحملات نفسها تكون مصحوبة بأناشيد وأدعية لأرواح معينة فى الغابة . إن الممارسات المختلفة للقبيلة - حسب كوردوفا ريوس - تحمل فى داخلها معرفة واضحة للحدود الأبعد من أى نوع من الحيوانات لا يجب أن يقتنص ، إن الإسراف فى القنص لنوع معين من الطيور أو الحيوانات من المعروف أنه يجلب النحس على القناص أو حتى على القرية بأكملها . كوردوفا ريوس - على سبيل المثال - كان قد تعلم أنه إذا ما قتل قائد قطع من الخزائير البرية (مما يجعل الخزائير فى حالة فوضى ومن السهل جداً اقتناصها حتى يحل قائد جديد محل القديم) فإنه يتوجب عليه أن لا يقتل قائد القطيع نفسه مرة أخرى أبداً .

فى أثناء ذلك فإن «أكسومو» - رئيس القبيلة - كان قد رأى وأشرف على مشاغل قنص المجموعة ككل ، كل من الرجال يتم تكليفه عبره بالقنص فى أرضية محددة ، والجميع يأتى بتقاريره يومياً ليرفعها إلى «أكسومو» فيما يتعلق بتحويلات الأمكنة للمجموعات المختلفة من القروء والخنازير البرية ، وعن الفهود وكائنات الغابة الأخرى ، وعبر هذه الطريقة من متابعة الأحداث المستجدة فى الغابة (عبر مسافة ارتحال لعدة أيام وفى كل الاتجاهات من القرية) يستطيع الرئيس عبر إرشاداته وتعليماته أن يقود أنشطة القنص لقبيلته الصغيرة ، معدلاً باستمرار تلك الأنشطة ومستجيباً للحركات الحية للغابة نفسها .

إن رواية كوردوفا ريوس شهادة واضحة للمدى الذى - فى الغابة الأمازونية المطيرة - تكون فيه عوالم الحياة للبشر وغير البشر متداخلة ومعلمة ومرشدة لبعضها بعضاً ، إن أشكلاً مشابهة لمثل هذه التفاعلات يمكن العثور عليها فى كل مجتمع قنص وثقافة أصلية ؛ ذلك أن القنص الجاد مرة أخرى يقتضى من رجال القبائل أن يدخلوا فى علاقة حسية عميقة مع الحيوانات الأخرى ، وهذا التواصل ، كما يجعله كوردوفا ريوس واضحاً لا بد أن يمتد إلى البعد الصوتى ، حيث صرخات الحيوانات ونداءات التواصل يتم بحثها وتقليدها والإجابة عليها عبر البشر القناصين ، وتصبح كما قد كان جزءاً من مفردات القبيلة .

إن أهل القبائل يرتحلون عبر الغابة لمسافة ما من بعضهم بعضاً مثلاً ، وغالباً ما يستخدمون تقليدا لصرخات الحيوانات والطيور ونداءاتها «للتواصل فيما بين أنفسهم» ، كطرق لنداء بعضهم بعضاً دون أن يجذبوا انتباه حيوانات معينة ، أو بشر من المنافسين لهم إليهم قد يكونون على مسافة قريبة منهم ، سوف يكون مذهباً لو أن تلك النداءات المستخدمة باستمرار (الصرخات والتصفير) لم يكن لها تأثير على الخطاب والكلام اليومي للقبيلة ككل ، على العكس فى غياب أى نظام للكتابة الرسمية يمكن لها أن تثبت اللغة المحلية وتعطل التحولات المستجدة الصوتية فى الأرض الحية ، فإن المسار الكلامى الشفاهى لأولئك البشر يبقى مستجيباً بشكل مميز لتعددية الأصوات والإيقاعات للمحيط غير البشرى ، ومتناغماً خصوصاً مع التحركات الصوتية والصرخات للحيوانات المحلية .

لقد تعلمنا من سوسير أن اللغة البشرية قد تشكلت لا من مجرد مجموعة من المصطلحات كل منها يمتلك معنى محدداً ، ولكن كشبكة متداخلة معقدة ، حيث العُقْد أو المصطلحات تمتلك مكانها المحدد أو معناها فقط عبر قيمة علاقاتها المباشرة أو غير المباشرة مع كل المصطلحات الأخرى داخل اللغة ، إذا كان هذا هو الحال بالفعل فإذن حتى مجرد مصطلحات قليلة أو جمل مستعارة مباشرة من الكلام الصوتي للحيوانات الأخرى سوف يخدم للتأثير المبطن كل مستويات اللغة مجزراً اللغة كما هو فى نظام ببنى محدد ، أرضية معينة - مرة أخرى ليس هناك لغة شفاهية أصلية يمكن أن تفهم بشكل أصيل بمعزل عن الأرض والعالم الأكثر مما هو بشرى والمحيط بها ، والذى اللغة نفسها فيه هى نوع من البلاغة الداخلية .

إن سوسير نفسه - على كل - ينكر إمكانية حميمية من هذا النوع ما بين اللغة والأرض ، إن إصراره العنيد على عشوائية العلاقة ما بين الأصوات المنطوقة وذلك الذى تمثله قد قاده إلى تجاهل أثر التقليد الصوتي والرمزية الصوتية داخل حياة أية لغة ، بالرغم من ذلك فإن أبحاثاً أكثر حداثة حول الأهمية الاختلاجية والمستجيبة فى صداها للكلمات المنطوقة قد عرضت أن نوعاً من تقليد الأصوات يعمل باستمرار داخل اللغة : إن معانٍ معينة تتجذب بالضرورة نحو أصوات معينة ، والعكس صحيح (إن كل شاعر يعنى بهذا العمق الأساسى فى اللغة ، حيث أحاسيس معينة تستثار عبر الأصوات نفسها وجرس الكلمات ، وحيث الشكل والإيقاع والفحوى لجمل معينة يحمل بداخله الشخصية المعبرة عن ظاهرة معينة) .

إن التداخل للكلام البشرى مع نداءات وصرخات الأرض المحلية واضح عندما نلتفت بعيداً عن المدار الاستوائى نحو ثقافة شفاهية للشمال البعيد ، مثل تلك الخاصة بهنود الكويكون فى الشمال الغربى لآلاسكا ، إن الكويكون يستوطنون مساحة ممتدة من الريف البرى يمتد حتى شمال الدائرة الأركتيكية مع مخيمات وقرى تقع على ضفاف نهري اليكون والكويكو ، إن لغتهم تنتمى إلى عائلة اللغات «الاثاباسكان» التى يتحدث بها السكان الأصليون المنتشرون عبر الشمال الغربى لأمريكا الشمالية وفى جيوب تصل حتى أريزونا ، إن أسلاف أهل الكويكون ربما يكونون قد استوطنوا آلاسكا منذ زمن قد يصل إلى عشرة آلاف عام مضت ، بالرغم من أن الأبحاث الأركيولوجية لم تستطع تحديد التاريخ الدقيق لانتشار «الاثاباسكان» فى أمريكا

الشمالية . إن الكويكون فى البداية التقوا بالأوروبيين فى منتصف القرن التاسع عشر، وعبر القرن العشرين وببطء قاموا بهجر نموذجهم التقليدى شبه البدوى والمبعثر ، متحولين إلى مستوطنات قليلة مبنية بقرب أماكن تجارية أو مراكز تبشيرية كاثوليكية ، ومع ذلك فإنهم مازالوا يرتحلون بشكل واسع ، مستخدمين قراهم بشكل أكثر كمراكز انطلاق حيث يرتحلون منها فى رحلات قنص وصيد للأسمك وحيوانات الأرض (من أجل الملابس كما هو للغذاء أيضاً) وإلى ما هناك من مهام أخرى فى البرية .

وحسب عالم الأنثروبولوجى والأحياء الإثنى ريتشارد نيلسون والذى قد عاش وعمل عن قرب مع الكويكون فإن اللغة بالنسبة إليهم مجال للحيوانات الأخرى كما هى بالنسبة للبشر ، إن الكويكون يفترضون «أن الحيوانات غير البشرية تتخاطب وتتواصل مع بعضها بعضاً ، وأنهم يفهمون السلوك البشرى واللغة ، وأنهم باستمرار واعين بما يقوله البشر ويفعلونه ... لكن الحيوانات لا تستخدم اللغة البشرية فيما بينها ، إنها تتواصل بأصوات تعتبر شكلها الخاص من اللغة» .

فى معتقد الكويكون أن الحيوانات الأخرى والنباتات كانت فى يوم ما فى الماضى تشترك فى لغة واحدة مع البشر ، إن هذا قد كان فى «الزمن البعيد» ، زمن كان خلاله كل الكائنات الحية «تتشارك فى مجتمع واحد ومروا خلال تخاطر يشبه الحلم من الحيوانات أو النباتات إلى البشر ، وأحياناً بالعكس» . سوف نؤجل حتى الفصل القادم السؤال حول إذا ماكانت قصص حكيث عن «الزمن البعيد» عبر أشخاص من الكويكون تعكس زمناً أصلياً «منذ زمن مضى» فى الماضى - كما هى غالباً ما تفسر حسب وجهة نظر التاريخ حول زمن كان قد استورد لأول مرة فى أراضى الكويكون عبر الحملات الكاثوليكية التبشيرية - أو أن «الزمن البعيد» يفهم بشكل أكثر وضوحاً كبعد متميز أكثر مما هو ماضٍ تاريخى ، فى أى حال وبالرغم من الاختلافات الواضحة بين لغات الحيوانات والبشر منذ أو خارج «الزمن البعيد» فإن المسارات العديدة للبشر والحيوانات مازالت متداخلة ومتوالجة فى الخبرات اليومية المعاشة لأشخاص من الكويكون .

«الكاريبو» - على سبيل المثال - يقال بأنه «يغنى من خلال» البشر عندما يكونون فى أحيائهم ، ضامنين لأناس القبائل أغانٍ يمكن أن يتذكرها أشخاص معينون عند استيقاظهم من النوم ، عندما ينشد أولئك الأشخاص تلك الأغاني فيما بعد فإن

نجاحهم فى العثور على صيد «الكاريبو» يكون مضموناً . شيوخ القبائل أثناء ذلك يصغون عن قرب للصرخات والنواح لطائر «الون» كمصدر إلهام فى تأليف أغانيهم وأناشيدهم ، عندما يرقد أحد عجائز الكويكون فى انتظار الموت . راقب نيلسون إحدى العجائز التى كانت فى زيارة من قرية أخرى وهى تقترب من الشاطئ القريب للبحيرة وتبدأ فى غناء «أغاني الربيع» للكويكون وتغنيها لطائرين من «الون» كانا يتجولان هناك .

«بعد قليل سبح الطائران نحوها ثم توقفا فى الماء على بعد خمسين ياردة منها ، وهناك أجابها ، مألئين الهواء بأصواتهما المدهشة والمرعبة ، عندما تحدثت معها فيما بعد قالت إن طيور «الون» غالباً ماتستجيب لأغاني الربيع بتلك الطريقة ، ولأيام عديدة بعد ذلك تحدث الناس عن روعة تلك الأغاني فى ذلك الصباح» .

إن صرخات طائر «الون» المعتادة ذات فحوى لغوية لدى الكويكون ، وحسب أحد الرجال «أحياناً الناس قد يصطادون الون ، لكن عن نفسى لا أحب أن أقتله ، إننى أحب أن أستمع إليه بقدر ما أستطيع وأن ألتقط الكلمات التى يعرفها» . إن خطاب طائر «الون» الأصفر النادر مايزال أقوى فى تأثيره من طائر «الون» العادى بالنسبة للكويكون : «... إنه يقول الكلمات نفسها ، غير أن صوته مختلف نوعاً ما» .

إن الافتراض بأن الطبيعة كلها واعية ، وأن الأصوات التى تصدرها الحيوانات على الأقل لها وزن المعانى نفسه لكلمات البشر قد قاد الكويكون إلى الإصغاء باهتمام للاختلافات الصغيرة والتنوعات فى نداءات الطيور المحلية ، إن أسماء الكويكون للطيور لها صفة محاكية وشبيهة بها ، وبذلك فإنهم عندما ينطقون أسماءها فإنهم أيضاً يطلقون صدى صرخاتها ونداءاتها ، فالطائر الأركتيكى (Kidagaas - كيداجاس) ، وطائر الشمال (Tiye - تىي) ، والطائر الأسود - الأصهب (it'uhutitséegga - إتهوتلتزيجا) ، وطائر القطب الأسود (K'ootánh - كوت انه) ، وطائر الجنكو الملحى اللون (K'itotláhga - كيت اوتلت اهجا) كلها لها أسماء كهذه ، غير أن المخطوطة المكتوبة لايمكن لها أن تنقل النطق المدهش لتلك الأسماء ، والتى عندما يتكلمها الكويكون يكون لها مميزات شبيهة جداً بمنطق ونطق الطير ، إن تداول - التوالج للنطق البشرى مع غير البشرى يتضح بشكل خاص فى حالة أغاني الطيور الكثيرة والتى تبدو وكأنها تحمل فيها جملاً ومقاطع كاملة من لغة الكويكون .

«إن الكثير من نداءات الطيور يتم تفسيرها ككلمات الكويكون ... والمدهش حول تلك الكلمات كم هي مرآة مثالية لنموذج النداءات تلك ، وهكذا فإن شخصا ما (من خارج القبيلة) يعرف أغاني الطيور يمكن له بسهولة أن يميز أنواعها عندما تنطق الكلمات في لغة الكويكون ، إن الذى يظهر فى تلك الكلمات لا الإيقاع وحده ولكن بعض الجرس الموسيقى أيضاً ، «والشعور» الذى يأتى معه» .

عندما نبحث فى مثل تلك المراسلات نصل إلى ملاحظة أن الأصوات والإيقاعات للغة الكويكون قد تغذت بعمق على تلك الأصوات غير البشرية .

وهكذا فإن الجمل الموسيقية التى تشبه الناي لطائر «الدج» التى تصدح فى الأماكن المعزولة والكثيفة من الغابات تتحدث بكلمات الكويكون (Sook'eeyis deeyo - سوكيين دييو - إنه مساء جميل) إن طيور الدج تتكلم أحيانا وأيضاً بجملة (- Nahuti eeyh - ناهوتل إييه - وتعنى حرفياً إن إشارة روح قد استقبلت) . لقد نطق طائر الدج تلك الكلمات لأول مرة فى «الزمن البعيد» ، عندما شعر بحضور شبح ما فى القرب ، وحتى اليوم مازال ذلك النداء يسمع كنوع من التحذير .

وفى الواقع فإن الكثير من الجمل التى تتحدث بها الطيور تفهم بالرجوع إلى أحداث قد حصلت فى «الزمن البعيد» ، أحداث يعرف عنها أهل الكويكون المعاصرون عبر قصص «الزمن البعيد» الكثيرة التى يحكونها ويعيدونها من جيل لآخر :

«فى يوم من الأيام ، فى الزمن البعيد كافح رجل معدم وجائع فى ثلوج الربيع العميقة ، محاولاً أن يصل إلى مخيم يدعى «Ts'eetee. tlot - تزييتى تلتوت» ، كان يحمل معه عصا رأس مزينة بمحار ذى لون عاجى كان يصل إلى شمال البلاد عبر التجارة مع الأماكن البعيدة على الساحل ، لقد كان ربيعاً صعباً ، صار الرجل أشد وهناً وتعباً ، وازداد وهنه حتى سقط فى الثلوج ومات . فى تلك اللحظة تم تحويله إلى عصفور سنونو بتاج أبيض ، ثم طار نحو محطته ، عندما وصل إلى المخيم أنشد أغنية :

Dzo lo'o sik'its éetee tlot.

وهى تعنى : هنا هو تزييتى تلتوت . لكن هذا قد أصبح متأخراً جداً . إن أى شخص يصغى اليوم لطائر السنونو ذى التاج الأبيض يمكن له أن يسمع هذه الكلمات الحزينة ، وأى شخص ينظر عن قرب ليرى الخطوط البيضاء على رأسه كتذكارات للقواقع تلك التى كان يحملها الرجل فى ذلك اليوم - سوف يجدها .

طائر آخر شائعة رؤيته في الغابة الشمالية هو طائر الجناح الشمعى - البوهيمى وهو يسرع فى أسراب صغيرة من شجرة إلى أخرى ، ناطقاً بزقزقات عالية وحادة . الكويكون يدعونه diltssooga أى ذلك الذى يصدر صريراً .

«حسب قصة من الزمن البعيد ، فإن طائر الجناح الشمعى كان له زوجة غيور جداً كانت قد شدته من شعره ذات يوم ، مانحة إياه ذلك العرف الذى يزين تاجه اليوم ومجبرة إياه على الصراخ حتى صار صوته خاوياً من كل شيء سوى الصرير» .

فى أثناء ذلك ، طائر السيقان الصفراء الأقل ، وهو طائر بحرى ويطير عالياً بشكل مستقيم ، ثم ينطق بنداات ثاقبة فيما هو يهبط من تحليقه :

sigeets sigeets sigeets - «سيتز ، سيتز ، سيتز» - التى تعنى «أنفاسى ، أنفاسى ، أنفاسى» ، فى لغة الكويكون ، أحياناً يقوم شخص ما بالرد عليه «سيتز !» أملاً أن يتلقى من الطائر بعض المؤشرات أو النبوءات حول كم قد تبقى من عمره (دورة أنفاسه) .

الكثير من الطيور والعصافير تقدم مثل تلك النبوءات الصوتية إلى الكويكون ، ذات مرة كانت معلمة نيلسون الرئيسية من الكويكون ومعها جدها قد سمعا الطائر الرمادى يتحدث بصوت بشرى غير معهود :

«إن المطر كان يهطل ، والطائر حط على غصن فى الأعلى ، وكان يبدو مرهقاً ومتعباً . فجأة تحدث بكلمات واضحة : «أخى ... يا أخى ، ما الذى سوف يحدث ؟» الرجل العجوز «الشامان» أصيب بالذهول من ذلك الصوت والقلق من تلك الرسالة . بعد ذلك هطلت الأمطار بغزارة لمدة تسعة أيام ، أغرقت الدببة بفيضاناتها وحطمت جحورها وخلقت فوضى عظيمة . وعند ذلك فهم الناس ماعناه الطير بكلامه» .

غير أنه من بين كل الطيور فإن الرائى والمنجم والمتنبى بينها هو البومة المعظمة ، التى يدعوها الكويكون (nigoodzagha - نيجود زاغا - أى الأذان الصغيرة) أو (nodneeya - نودنييا - المخبرة بالأشياء) ، إن البومة المشرفة تعيش وتتجول فى بلاد الشمال على مدار السنة ، ومن النادر أن ترى ولكن غالباً ماتسمع ، وأحياناً يتم قنصها للطعام ، وحسب الكويكون عندما تتحدث النودنييا إلى أشخاص من البشر فإنها تنطق ماهو من المؤكد والمحقق فقط :

«إنها عندما تهم بحديث النبوءات فإن البومة تبدأ بعمل صوت ذى صرير فى قرعه، ثم تطلق النغمات والأشكال التى يمكن تفسيرها ، إن أكثر الكلمات رعباً التى يمكن أن تقولها هى «سريعا ما سوف تبكى» (Adak'kut daatohtsah – أداكوت دا توهتسه) وهذا يعنى أن شخصاً قريباً منك سوف يموت ، وهى أحيانا تقوم بختم النبوءة بدقة بالاسم ، وبعد ذلك بقليل تتحقق تلك النبوءة» .

ذات مرة منذ سنين عديدة سمع الناس بومة محذرة بوضوح فى تناغم مع كلمات الكويكون «إن الدببة السوداء سوف تبكى» ، والفصلين القادمين ، فشل محصول التوت البرى وصعبت الحياة على كثير من الدببة .

إن نبوءات اليوم ليست دائماً نبوءات نحس ، أحيانا تبدو وكأنها تكرر بلغة الكويكون ، «إنك سوف تأكل معدة شىء ما» منبئة بالخط الطيب فى مسعى قنص شخص ما ، وهى أيضاً تستطيع التنبؤ بالرياح العاتية ، وحسب أحد شيوخ الكويكون : «عندما تصنع البومة صوتاً كالطنن ، مثل هذا ، مممم .. مممم ، فإنه يعنى أن طقساً عاصفاً قادم فى الطريق ، إن نداءات البومة هى التقرير الجوى الوحيد الذى نستخدمه لرصد الطقس» .

أثناء ذلك ، فإن طيور الكروان ، عندما تغنى جملها الموسيقية

«Dodo silinh k'oolkkoy Iséega, tilzoot tilzoot silnee silnee»

«دودو سيلينه كولك كوى إتزيجا ، تيلزوت تيلزوت سيلنى سيلنى» .

«تحت هناك ، إن نسيبى يخبرنى أن أكل أمعاء الكائن» . ومع ذلك فإن أناس القبائل والمنتبهون جداً إلى التحولات فى البيئة المحيطة قد لاحظوا أن أغنية الكروان نفسها تتحول ، علق أحدهم لنيلسون قائلاً : «حتى الطيور تتغير» . إن طيور الكروان لم يعودوا يقولون أغانيهم بشكل مباشر – إنهم يقولونها إلى منتصف الطريق ، كما يفعل طفل حين يتعلم» .

أحد الطيور الغريبة الأخرى فى منطقة الكويكون هو عصفور الثعلب ، والذى نداؤه العالى والمسموع غالباً :

(sitsoo sidziy hulda ghudla ghudla gheeyits)

«سيتسو زيدزى هولدا غودلا غييتس» ، هو أغنية حزينة ومأساوية تفهم فقط عبر الرجوع إلى قصة من الزمن البعيد :

« فى الزمن البعيد كان هناك امرأة جميلة تعيش مع زوجها وجدتها . ذات مرة عندما كان زوجها بعيدا تظاهرت المرأة العجوز بالبحث فى شعر حفيدتها عن القمل غير أنها بدلا من ذلك غرزت مخزان عظم داخل أذنها وكسرتها ، قاتلة إياها . ثم أخذت جمجمتها ووضعتها فى رأسها هى ، متخفية وراءها على أنها هى الزوجة . هى أيضاً وضعت إبرة من العظم فى سرتها وشدتها حتى تخفى ترهلها ، وجلد بطنها المتراكم . أخيراً ارتدت ملابس المرأة الشابة ، ومتظاهرة بأنها هى استطاعت أن تخدع الزوج وتجعله يفكر بأنها زوجته .

غير أنها عندما حملت لحم الصيد من جرابه لم تستطع أن تتحرك بسهولة ، وهكذا كان عليها أن تقدم العذر عن نفسها بالقول بأنها قد أصبحت متبيسة من شدة العمل فى ذلك اليوم . بعد أن ذهبا إلى السرير - على كل - عرف الزوج من تكون . بقى صامتاً وهادئاً حتى الصباح التالى ، ثم قام بقتل المرأة العجوز وسحب جثتها إلى الغابة حيث وجد أيضاً زوجته هناك ترقد ميتة .

ثم تحول جسد المرأة الشابة إلى عصفور صغير طار فى الهواء ، مغنياً :

“Sidziy hulda ghudla gheeylts”

زيدزى هولدا غودلا غييتس - أى «إن جدتى قد غرزت مخزان عظم فى أذنى» .
ومازال عصفور الثعلب يغنى بهذه الطريقة حتى اليوم

إن روى حكايات وقصص الزمن البعيد أمر أساسى ومؤثر على طريقة حياة الكويكون ، بعض دوائر تلك القصص طويل جداً إلى درجة أن حكيها يستهلك أمسيات كثيرة وحتى أسابيع عديدة من الأمسيات ، عبر وصف نشأة الكون والعالم وتطوره إلى شكله الواضح ومن ثم عبر التعبير الخلاق عن العلاقات الرسمية التى توجد ما بين الكائنات المتعددة فى الكون المحيط (بما فيها البشر وكائنات الأرض الأخرى ، الطيور والأسماك والأشجار والنباتات المختلفة وأشكال الأرض الغريبة وأجساد المياه وأشكال الطقس - كل ذلك فى ذلك الزمن الخارج من الزمن اشترك فى مجتمع مشترك

وتحدث بلسان مشترك) إن قصص الزمان البعيد توضح السلوك الصحيح الذى يجب أن يحافظ عليه أهل الكويكون عندما يتعاملون مع الحضور المتعدد والكينونات التى تحيط بهم ، تلك القرابة التى يجب أن يُحتفى ويُحتفل بها ، وتلك المحظورات والمحرمات التى يجب أن تحترم وتبجل إذا ما رغب المجتمع البشرى والأرض فى مساندة بعضهما بعضاً والمحافظة على وجودهما وبقائهما .

قصص الزمان البعيد يتم حكيها فقط فى أواخر الخريف والنصف الأول من شتاء الشمال الطويل ، وبالفعل فإن دارسى علم البشر الأصليين وجدوا أن هذا يمثل دورا بحجم عرض القارة : عبر أمريكا الشمالية ، على الأقل قبل عام ١٩٠٠ . المجتمعات الأصلية استمعت إلى أكثر قصصها قداسة فقط فى الليل فقط فى فصل الشتاء ؛ ذلك أن القصص المحكية فى حد نفسها تحمل سحراً ، وقوة للتأثير لا على الأشخاص وحدهم بل على الأرض الحية فى حد ذاتها ، فى ظلام ليل الشتاء فإن قصة حكيه بشكل جيد ربما تسارع فى جلب الربيع (وهكذا ، فإن الراوى من الكويكون ربما لخص قصة بجملة مثل : «لقد ظننت أن الشتاء قد بدأ للتو ، غير أنني الآن قد مضت جزءا منه» . إن ظلام الشتاء عندما تكون بعض الحيوانات فى حالة نومها الطويل ، وعندما تكون حيوانات أخرى قد رحلت إلى الجنوب والأرض نفسها غارقة فى النوم ، فإن ذلك أيضاً يكون أكثر الأوقات أماناً وطمأنينة لحكى تلك القصص ، خلال الصيف عندما تكون معظم الحيوانات فى الخارج حيوية وحول المكان فإن الحيوانات وبعض القوى الطبيعية الأخرى ربما تغضب وتهيج عند سماع أنفسها واستغلال الزمان البعيد وماحدث لها بشكل مباشر .

ذلك أنه بما أن الحيوانات الأخرى نفسها قادرة على التحدث فإنها أيضاً قادرة على الاستماع وفهم حديثنا الذى نقوله ، علينا أن نكون حذرين فيما نقوله حول الحيوانات وخصوصاً عندما تكون على مقربة ، إن أهل الكويكون يبذلون جهدهم واهتمامهم لكى يتجنبوا الحديث عن حيوانات معينة بشكل مباشر ، مستخدمين تعقيدا فى الكلام مطولا حتى لا يهينوا تلك الحيوانات ، إنه لهذا السبب فى الليل لا يحدث أبداً الحديث عن السناجب الحمراء بأسمائها المعروفة ، ولكن يتم ذكرها عبر كنية موحية (dikink k'alyee – ديكينك كايلى – أى تلك التى بجانب الشجرة) . النساء لكونهن يملكن طاقة روحية كبيرة عليهن أن يتجنبن ذكر القندس (كلب الماء) باسمه الحقيقى ؛

كى لاخيفوه ، وهكذا فإنهم يذكرون الحيوان فقط بشكل غير مباشر ، (biziya - بيزيه - أى الأسود اللامع) أما الوشق وهو حيوان آخر شديد التمكن لدى الكويكون فإنه يدعى عبر النساء بـ «nodooya - نودوييا» وهى كنية غامضة تعنى «شئ ما يدور حولنا» . إن التحدث بشكل غير مبالٍ أو بعدم احترام لتلك المحرمات والمخاوف لأولئك الحيوانات الكثر فى الغابة سوف يجلب النحس للمرء ولعائلته .

إن مثل تلك الطرق الاستعارية للحديث مهمة بشكل خاص خلال موسم القنص ، عندما يكون أقل مظهر من مظاهر عدم الاحترام للحيوان الذى يراد قنصه قد يؤدى إلى فشل محتم ، لا فى الحاضر فقط ولكن فى القنص المستقبلى أيضاً . «إن قنص الدببة السوداء فى كهوفها يتطلب الكثير من طقوس وحركات الاحترام ، بدءاً بالأسلوب المذهب فى الحديث» . إن التحضير لمثل تلك اللقاءات يقتضى أن لايتحدث القناص عن نواياه مباشرة ، وفيما بعد حتى لو نجح فى مسعاها فإنه يجب عليه أن لاخبر بما قد فعله ، فيما بعد ربما فى المساء يمكن له أن يخبر شخصاً ما بشكل موجٍ «لقد وجدت شيئاً ما فى حفرة» ، إن الحديث بشكل أكثر مباشرة من ذلك سوف يهين ويغضب الكائن القوى الذى قد قتله .

وفيما كان العالم الأنثروبولوجى ريتشارد نيلسون يقضى زمناً أطول مع الكويكون فإن تأثير مثل ذلك الأدب فى الحديث بدأ يؤثر حتى على تجربته فى عزلته ، فى البيت على ساحل آلاسكا ، محضراً لرحلته للعودة إلى ديار الكويكون قرر أن يصطاد سمك «هالبيت» ليأخذه لأصدقائه هناك ، ودون أن يضع فى الاعتبار بأنه قد يفشل فى ذلك ذكر لأحد أصدقائه بأنه سوف يأخذ سمكة ضخمة بأكملها إلى قريتهم حتى يروا كيف تبدو ولكن :

«فيما نُطقت الكلمات ، كنت أعلم بأن أهل الكويكون لن يتحدثوا مطلقاً وكأن صيد سمكة هو محض تحصيل حاصل ، فى ذلك اليوم قضيت ساعات فى أماكن كنت أفلح فيها طوال الصيف ، ولم أستطع أن أصطاد أى شئ سوى أسماك صغيرة جداً من أنواع أخرى ، كانت من الصغر بحيث لم يطاوعنى قلبى أن أحتفظ بها ، عندما وصلت إلى قرية الكويكون وأخبرت سارة ستيفنز هزت رأسها مثل أم بلطف وهى تويخ طفلها : إن أكثر شئ كان يمكنك أن تقوله هو أنك سوف تحاول أن تصطاد سمكة ، أو الأفضل من ذلك ، أن لاتقول أى شئ بالمرّة ، وإلا فإنه سوف يبدو وكأنك تتفاخر ،

والحيوان سوف يبقى دائماً بعيداً عن أولئك الناس الذين يتباهون هكذا فى حديثهم» .

بالطبع ، إنه ليس فقط عند التحدث عن الحيوانات الأخرى على الشخص أن يكون حريصاً ولكن أيضاً عند الحديث عن أشجار الغابة والأنهار ، وحتى الرياح والطقس . إن نيلسون وقد قرصه برد الشتاء يذكر نفسه بنصيحة شيوخ الكويكون «حول قبول الطقس كما يأتى وتجنب التعقيبات عليه والتي قد تثيره بسهولة لأمزجة مرعبة وغاضبة» .

كل الأشياء تستطيع أن تسمع وأن تفهم حديثنا ؛ ذلك أن كل الأشياء قادرة على التحدث ، وحتى صوت القعيع الذى يصنعه الثلج الجديد على البحيرات هو نوع من نطق الأرض ، ومحمل بالمعانى :

«فى وقت الخريف سوف تسمع البحيرات تصدر قعيعاً عالياً بعد أن تتجمد ، إن ذلك يعنى أنها تطالب بالثلوج لتغطيها ، حتى تحميها من البرودة...» .

إن مثل ذلك الإكرام والاحترام فى مواجهة عناصر الطبيعة – الحس الواضح بأن الأرضى الحية لا تتحدث إلينا فقط وإنما تصفى أيضاً إلينا – يحمل فى مضمونه أطروحات ميرلو بونتى حول التلقى الاستيعابى ، أن تصفى إلى الغابة هو أيضاً وأساساً أن يشعر المرء بنفسه مُصغى إليه عبر الغابة ، وأن تحقق فقط فى الغابة المحيطة هو أن تشعر بنفسك مكشوفاً ومرئياً ، أن تشعر بأن الغابة تحقق فيك وترقبك .

وبقدر ما يتواصل البشر لا فقط مع النطق المسموع ولكن مع الحركات المرئية والاختلاجات فإن الأرض أيضاً تتحدث إلى الكويكون عبر حركات وإشارات واختلاجات واضحة ، إن الطريقة التى يخلق بها الغراب فى الرياح متحركاً ومتمايلاً من الأعلى للأسفل قد تشير إلى نجاح أو فشل فى القنص ، إن حركات الحيوانات الأخرى قد تشير إلى حضور خطر ما ، أو اقتراب عاصفة ، أو أن الربيع سوف يأتى مبكراً هذا العام ، إن الافتراض المألوف للثقافة الأبجدية أن «قراءة الطالع» هى ضرب من الخرافة والتطير وأنه سلوك غير عقلانى يمنعنا من الاعتراف بالأهمية الفعلية والعملية لرصد الناس الأصليين واهتمامهم المحترم لسلوك الطبيعة المحيطة بهم ، إن

هذه المراقبة والتفسيرات لاختلاجات وتحركات العالم ، وكأنما كل حركة تحمل معنى يتوافق مع وجهة نظر عالمية ، ببساطة لا يتم ذكرها حول انعدام وجود اللامعنى ، ولاشئ من الأحداث بالنسبة إلى الكويكون مجرد مصادفة أو فرصة ، ولكن بالمقابل لأحداث أيضاً هو حتمى بالضرورة . بالأحرى مثل الغراب الذى منحه فى البدء شكله الحالى ، فإن العالم الحسى هو تلقائى ، ولعوب ، وغموض خطير نشارك فيه ، وحقل حى وبلغ للقوى يستجيب باستمرار لأفعال البشر وكلماتهم .

قَصُّ الأرض

لقد بدأنا فى تفحص بعض الشواهد لأطروحة ترى أن اللغة فى الثقافات الشفاهية الأصلية تتم خبرتها لا كملكية خاصة بالبشر وإنما كملكية لعالم الحياة الحسى ، لقد كنا نتقصى أنه فى بعض الطرق للمسار الإنسانى داخل المجتمعات الشفاهية الأصلية ثمة استجابة مباشرة للتعبير المحسوس لدى الكائنات الأخرى ، والعناصر للعالم الحى الذكى . لقد طرحت بعض الأمثلة الواضحة من ثقافة المدار الاستوائى متمثلة فى الأدغال الأمازونية ومن مجتمع شبه القارة الأركتيكية أو الغابات الشمالية ، دعونا الآن نحول انتباهنا بعيدا عن الغابات - سواء الاستوائية أو الأركتيكية - نحو التوازن البيئى الصحراوى فى الجنوب الغربى الأمريكى على وجه الخصوص ، ونحو أراضٍ يستوطنها الهنود الحمر الآباشى الغربيين فى أريزونا .

إن لغة الآباشى مثل الكويكون جزء من عائلة كبيرة «للأتاباسكان» ولغاتها ، غير أن الآباشيين كانوا قد انفصلوا عن الأتاباسكان الشماليين منذ حوالى ألف عام مضت ، وتدرجياً أسسوا لأنفسهم وطناً فى الجنوب الغربى الأمريكى ، فى تحولنا عن ثقافة الكويكون نحو ثقافة الآباشى ، نحن نتحرك من مجتمع أصلى نتيجة لموقعه شبه الأركتيكى كان حتى وقت قريب فى معزل عن التأثير الكامل للحضارة الأوروبية - إلى مجتمع أصلى هو على الأقل منذ حصره وعزله فى مخيمات الهنود الحمر الآباشى فى عام ١٨٧٢ ، وهو محاط ومحصور بمحيط من سكان يتوسعون من حوله من الأوروبيين المستوطنين ، ومع ذلك فإن الآباشى بالرغم من الأجيال العديدة والمواجهات والتقنين والحصار والتغريب القسرى لهم كى يذوبوا فى الحضارة الأوروبية فإنهم قد حافظوا على الكثير من أساليب حياتهم المميزة ودرجاتهم اللغوية ، كيث باسو هو عالم لغة أنثروبولوجية وقد عمل مع آباشى الغرب منذ عام ١٩٥٩ وحتى الوقت الراهن ، وهو يعيش فى سيبيك (من الجملة الآباشية deeschi'bicoh - ديس شى بيكوه أى الوادى ذو الجوانب الحمراء) وهى قرية يسكنها حوالى ألف ومئة شخص وكان يقطنها الآباشى منذ قرون طويلة مضت .

عندما أصبح قادراً على التحدث بلغة الآباشى ومعتاداً على إيقاعات الحياة فى القرية فإن باسو بدأ يلاحظ المرات المدهشة التى يتم فيها ذكر أسماء المكان بشكل معتاد فى مسار حياة آباشى الغرب .

إن الآباشى يبدو بأنه يحوز متعة كبيرة ولذة من مجرد نطق الأسماء الأصلية للأماكن المتعددة داخل وادى سيبيكو ، فعلى سبيل المثال فيما كان يشد سوراً مع اثنين من رعاة البقر الآباشى لاحظ باسو أحدهم يتحدث بهمس إلى نفسه ، عندما أرفف السمع ، اكتشف باسو أن الرجل كان يتلو حلقات طويلة من أسماء المكان - «ولم يقطع ذلك إلا لفظه لبعض نقع التبغ من فمه» - وقد طال ذلك إلى حدود عشر دقائق ، فيما بعد عندما سألته باسو عن ذلك الذى كان يفعله أجاب الرجل أنه كثيراً ما «تحدث أسماء» لنفسه . «إننى أحب أن» ، أخبر عالم الأنثروبولوجيا «أن أمطى بهذه الطريقة فى عقلى» ، آباشى آخر أخبر باسو بأن شعبه يحب أن ينطق بأسماء - المكان «لأن تلك الأسماء طيبة القول» .

إن اللذة الواضحة المستخلصة من ترديد وقول هذه الأسماء يبدو جلياً أنه مرتبط بالذقة التى تمثل فيها أسماء - الأماكن الآباشى الأماكن الفعلية التى يطلقون عليها الأسماء ، باسو نفسه جاب ١٠٤ كيلومتر مربع داخل وحول سيبيكو وداخل هذه المنطقة سجل أسماء الآباشى لـ ٢٩٦ مكاناً ، وقد وجد أن كل ماعدا القليل من أسماء تلك الأماكن يتخذ شكل جملة مكتملة ، كل اسم يطرح مكانه من خلال أوصاف بصرية متوالية ولكن دقيقة ، هنا بعض مثل تلك الأسماء : «أشجار أخشاب القطن الكبيرة تقف منتشرة هنا وهناك» ، «إن الصخور الخشنة والصلبة ترقد فوق فى حشد ملتصق» ، «الماء يتدفق للأسفل على رأس سلسلة منتظمة من الصخور الملساء» ، عند نطق أو سماع مثل تلك الأسماء فإن الأشخاص الآباشيين يشعرون مباشرة بأنفسهم فى حضرة تلك الأماكن ، وهكذا عند تلاوة سلسلة من أسماء الأماكن فإن الآباشيين يعيشون أنفسهم «الارتحال فى عقولهم» . سوف يبدو أن أسماء الأماكن المنطوقة بدقة تخلق التصاقاً حسيماً مباشراً ما بين شخوص الآباشى وأماكن محددة ، ولعلنا نشك بأن المنفعة المستمدة من قول هذه الأسماء بصوت عالٍ تنبع لا من الأسماء فى حد ذاتها ولكن من القوة المغذية للأماكن ذاتها التى ينشد إليها الأشخاص الذين ينطقون بها ، أسماء الأماكن بمعنى آخر تبدو أنها تتخذ قوتها الخاصة وسحرها من الأماكن نفسها التى تمثلها .

إن أهمية الخبرة الخاصة بالمكان الجغرافى للأباشى الغربيين ، والتأثير الناتج عن أماكن محددة فى الأراضى المحيطة على لغتهم اليومية يتضح بشكل خاص فيما يتعلق بالأخلاق و«إتيكيت» مجتمع الأباشى المعاصر ، ذلك أنه بشكل مغاير تماما وغريب على الحضارة الأبجدية فإن الأرض نفسها هى الحارس اليقظ الدائم للسلوك الصحيح داخل ثقافة الأباشى وتقاليدها ، وحسب السيدة أنى بيتشيز (عجوز من الأباشى تبلغ السابعة والسبعين من العمر) :

«إن الأرض دائماً تهذب الناس . إن الأرض تجعل الناس يعيشون بصورة صحيحة . إن الأرض ترعانا . إن الأرض ترعى الناس» .

إن التأثير الأخلاقى للأرض - هذه القوة للأرض لترعى سلوكاً معتنياً ومحترماً فى المجتمع - تتوسطه منظومة كاملة من القصص التى يتم تداولها باستمرار فى القرية ، إن هذه الأقاصيص تتحدث عن أشخاص كانوا قد مروا بالحن كنتيجة لانتهاكات قاموا بها تجاه عادات الأباشى للسلوك الصحيح ، وهى تحكى عن أفراد كانوا ، كنتيجة لتصرفهم الأرعن أو عصيانهم المفتوح لتقاليد الأباشى ، وقد عانوا من الإذلال ، أو الأمراض ، أو الموت ، وعلى غير غرار حكايات العالم الحديث التى تمكن للترفيه ، فإن هذه الحكايات - والتى تدعى ágoddzahi أجودزاهى أى «ذلك الذى قد حدث» - قصيرة بشكل خاطف ، يمكن أن تحكى عادة فى أقل من خمس دقائق ، والأهم من ذلك أن هذه الحكايات دائماً تبدأ وتنتهى بجملة تشير - مع اسم مكان - بدقة إلى مكان الأحداث فى القصة التى حدثت فيها بالفعل .

وهنا مثال لمثل تلك الحكايات :

لقد حدث فى «الأبيض المنتشر والمتساقط إلى المياه» .

«منذ زمن بعيد ، ذهب صبى ليقنص ظبياً ، امتطى ظهر الحصان ، وسريعاً ما رأى ظبياً يقف على جانب الوادى . آنذاك دنا منه وأصابه . لقد قتله ، ثم إن الظبى زحف ليهوى فى قاع الوادى .

ثم إن الصبى نزل إليه هناك ، لقد كان الظبى سميناً وقوياً . هناك قام بذبحه وتقطيعه ، كان اللحم ثقيلاً ، فتوجب عليه أن يحمله فى قطع ، ولقد عانى كثيراً من رحلة الوصول إلى رأس الوادى مع كل قطعة .

الآن قد حلّ الظلام ، ومازال ربيع الظبى راقداً هناك فى قاع الوادى . «لقد أصبح لدى مايكفى من اللحم» ، فكر الصبى ، وهكذا ترك خلفه كمية اللحم المتبقية من الفريسة حيث هى .

ثم حمل حصانه وبدأ فى امتطائه للعودة إلى دياره . ثم إن الصبى أحس بالدوار والدوخة وكاد أن يسقط من فوق حصانه . وبدأ أنفه يرتجف ويحكه وفقد السيطرة عليه ، مثلما يحدث لأنف الظبى . ثم انبثق ألم رهيب وراء عينيه ، آنذاك أصبح خائفاً ومزعوراً مما يحدث له .

الآن عاد إلى الوادى ، كان الظلام دامساً عندما وصل إلى هناك سار ماشياً إلى حيث كانت بقايا الظبى ترقد . غير أنها لم تعد هناك ! ثم ولى عائداً إلى حصانه . امتطاه وجرى به سريعا إلى حيث كان يعيش مع أهله وأقربائه .

بقى الصبى عليلا ومريضا لفترة طويلة ، صلى الناس من أجله فى أربع مناسبات مختلفة ، وبدأ فى التحسن تدريجياً .

بعد حين من ذلك ، عندما بلغ الصبى سن الرجولة ، كان غالباً ما يصاحبه سوء الطالع فى رحلات القنص . لم تعد الأطباء تقدم نفسها إليه . قال لأطفاله :

انظروا إلى الآن ، لقد فشلت فى أن أكون حذراً فى صباى والآن أنا أعانى من صعوبة الزمان فى الحصول على لحم من أجلكم لكى تقتاتوا» .

لقد حدث فى «الأبيض المنتشر والمتساقط إلى المياه» .

إن هذه الحكاية «لذلك الذى قد حدث» توضح النحس الذى يمكن أن يقع على القناص الذى يهمل جوانب الاحترام والتبجيل الذى لابد أن يستمر الحرص عليه مع الحيوان الفريسة أو الطريدة ، أو بشكل أوسع العقوبات والعثرات التى قد تحيط بأولئك الذين يفشلون فى الحرص على السلوك الصحيح فى تعاملهم مع العالم الطبيعى ، ومع ذلك فإن الكثير من تلك الحكايات تتعامل بشكل خاص مع العلاقات الصحيحة التى لابد من الحفاظ عليها مابين الأشخاص الأفراد والمجتمع القبلى الأوسع :

لقد حدث فى «رجال واقفون هنا وهناك» .

«منذ زمن طويل مضى قتل رجل بقرة خارج المخيم . كانت البقرة من ممتلكات رجل أبيض ، تم إلقاء القبض على الرجل من قبل شرطى يعيش فى سيبىكو فى منطقة «رجال واقفون هنا وهناك» . كان الشرطى من الآباشى ، أخذ الشرطى الرجل إلى مقر رئاسة الجيش فى قلعة الآباشى . هناك ، فى قلعة الآباشى ، سأل ضابط رئاسة الجيش الرجل . «ما الذى تريده ؟» قال . قال الشرطى «إننى أريد الرزق والغذاء» . لم يقل الشرطى شيئاً حول الرجل الذى قتل بقرة الرجل الأبيض . فى تلك الليلة تحدث

بعض الناس إلى الشرطى . «من الأفضل أن تبلغ عنه» ، قالوا له . فى اليوم التالى عاد الشرطى إلى ضابط مقر الجيش . «الآن ما الذى تريده ؟» ، قال له . قال الشرطى «بالأمس كنت سوف أقول مرحباً» و «وداعاً» (ك) ولكننى نسيت أن أفعل ذلك . ومن جديد لم يقل شيئاً حول الرجل الذى ألقى القبض عليه . شخص ما كان يتلاعب بالكلمات فى رأسه . عاد الشرطى مع الرجل إلى سيبيكو . أطلق سراح الرجل هناك فى «رجال يقفون فى الأعلى هنا وهناك» .

لقد حدث ذلك فى «رجال يقفون فى الأعلى هنا وهناك» .

إن هذه القصة بشكل خاص تعرض للتشوش الذى يصيب شخص أباشى يسلك سلوكاً مشابهاً جداً للرجل الأبيض ، فى الأعوام المبكرة للمخيم حصدت المجاعة والمرضى أرواح الكثيرين من أهل القبائل ، وهكذا فإنهم من المستوعب تماماً لأهل الأباشى أن أحدهم قد يقتل بقرة رجل أبيض من أجل القوت ، غير أنه لم يكن من المقبول أن أباشى آخر سوف يقبض عليه مع نية إلقائه فى الحبس . وبكلمات أخرى إنه من الخطأ الانضمام إلى الأجانب ضد أعضاء مجتمع الشخص ، أو أن يستعرض المرء عدم احترامه للقبيلة باتخاذ موقفاً وسلوكاً شبيهاً بالرجال والنساء البيض ، وهكذا فإن الشرطى فى القصة وجد نفسه عاجزاً عن تسليم الرجل الذى ألقى القبض عليه ، بالرغم من أنه حاول مرتين فعل ذلك . عاجزاً عن التحدث عن هدفه أهان نفسه ويدا كالأحمق أمام رئيسه فى العمل ، أخيراً أطلق سراح الرجل فى المكان نفسه الذى ألقى القبض عليه فيه .

الآن دعونا نرى كيف أن المكان نفسه الذى تحدث فيه الأحداث وتتكشف يمكن له أن يسهم فى حد ذاته فى الإمكانية العملية لتلك الحكايات ، إن قص أى من تلك الحكايات دائماً ما يكرس بأفعال خاطئة أو مشينة يرتكبها شخص ما فى المجتمع ، إن الحكاية وهى تروى بدقة تفعل فعل المذكر بردود الفعل على الفعل الشائن ، وهكذا عندما يقوم شخص من الأباشى بالإساءة إلى المجتمع عبر أفعال معينة فإن أحد شيوخ أو عجائز ذلك المجتمع سوف ينتظر اللحظة المناسبة - ربما فى أحد تجمعات المجتمع - وسوف يصيب آنذاك الشخص فى الصميم عبر روايته لإحدى تلك الحكايات ، بالرغم من أن الشخص المسىء لا يكشف عنه أو يشار إليه بالاسم عالياً أو مباشرة فإنه سوف يعرف إذا كان «السهم» (الحكاية) قد تم اختياره بذكاء وتصويبه بدقة . إنه هو الهدف لذلك ، سوف يحس بالقصة تخترقه عميقاً تحت جلده وتمتص قواه ، جاعلة إياه يشعر بالمرض والوهن ، ثم إن القصة سوف تبدأ بفعل فعلها فيه من

الداخل ، مجبرة إياه على الرغبة في التحول عن مساره الخاطئ ، حتى «يبدل مكان نفسه» ويحولها نحو الحياة الصائبة والصحيحة وبذلك فإن سلوكه سوف يتغير ، ومع ذلك فإن القصة سوف تبقى معه وتصحبه ، ذلك أنه باستمرار سوف يواجه المكان في الأرض حيث حدث كل شيء ، ربما إذا كان ذلك المكان قريباً من بيته أو موطنه ، سوف يراه في كل يوم ، إن «المكان» - كما يقال - سوف يستمر في تهذيبه وتأديبه له .

باسو نفسه يطرح مثلاً لمثل تلك الحكايات «الذهاب للعمل» على شخص ما ، في يونيو ١٩٧٧ كان متواجداً في حفل عيد ميلاد في سيببكو وكانت تحضره أيضاً امرأة شابة كانت قد ذهبت منذ أسبوعين سابقاً إلى احتفالية ببلوغ فتاة بشعرها مرفوعاً في لفافات شعر ضخمة وردية ، وبالرغم من أن مثل تلك الطريقة في التزين كانت بلا شك رائجة في المدرسة الداخلية خارج حدود المخيم حيث تعيش المرأة الشابة إلا أنها كانت خارجة بصورة قاطعة عن تقاليد الأباشي للظهور بها في احتفال تقليدي محترم ، بعد أسبوعين من ذلك يتذكر باسو - في منتصف محادثة عادية في حفلة عيد الميلاد تلك ، أن جدة المرأة الشابة لأمها حكّت فجأة قصة من تلك الحكايات تتعلق ببرجل الشرطة الذي تصرف في سلوك مثل سلوك الرجل الأبيض ، بعد برهة قصيرة من سماع تلك القصة وقفت المرأة الشابة ومشت بصمت مبتعدة عن الحفل ، وعندما قام باسو - غير متأكد من ذلك الذي حدث - بسؤال جدتها عن ما إذا كانت المرأة الشابة مريضة ، فإن الجدة أجابت ببساطة : «كلا لقد رميتها بسهم» .

بعد صيفين من ذلك قابل باسو تلك المرأة من جديد ، وفيما كان يساعدها في حمل بعض أغراضها للبيت سألها إذا ما كانت تتذكر ذلك الحفل ولماذا غادرت بسرعة مفاجئة في ذلك اليوم ، عندئذ أخبرته بأنها قد رمت بلفافات الشعر بعيداً بعد سماعها لتلك القصة حول الشرطي ، وعندما أشار باسو وهما يعبران إلى المكان الذي حدثت فيه الحكاية «رجال يقفون في الأعلى هنا وهناك» ، لم تقل المرأة شيئاً لدقائق عديدة ، ثم ابتسمت وتحدثت برقة بلغتها : «إننى أعرف هذا المكان . إنه يؤدبنى ويؤبىنى يوماً» .

بهذا الشكل الشفاهي المتميز لرقابة المجتمع إن مكاناً على الخريطة يصبح حارساً للسلوك الصحيح ، إن الحضور المرئي الذي يذكر الشخص بأخطاء قديمة يضمن اهتمام المرء ومراعاته للأخلاق الحميدة ، إن قصص حكايات الأباشي يؤسس رابطاً

مألوفاً تقريباً ما بين الأشخاص الذين تُوجّه لهم تلك الحكايات ومناظر وملامح معينة في الأرض الطبيعية ، وبحسب أحد شيوخ الآباشي :

«إنه لا يهم أن تشيخ أو تكبر فإن ذلك المكان سوف يبقى يؤدبك ويوبخك مثل ذلك الذي يرميك بسهم القصة ، ربما كان ذلك الشخص قد قضى نحبه ، وحتى إذا كان الأمر كذلك فإن المكان سوف يستمر في تأديبك ، إنه كأنما ذلك الشخص مازال حياً يرزق» .

وهكذا فإن الآباشي يقوم بربط الأماكن بأسلاف معينين من أجداده ، وبالفعل فإن الأماكن الأرضية تبدو أنها تتحدث لأشخاص معينين في أصوات أولئك الأجداد الذين قاموا في البداية «بإصابتهم بأسهم» القصص والحكايات ، أو حتى تتحدث بأصوات أولئك الأسلاف الذين بادوا منذ زمن طويل والذين كانت مصائرهم قد رويت في حكايات وقصص الآباشي ، إن حكمة الأسلاف في المجتمع تقيم - كما قد كان - في القصص ، غير أن القصص - وحتى الأسلاف أنفسهم - يقيمون في الأرض .

«لقد كنا نعتاش ونواصل وجودنا من الأرض فقط ، الآن لم تعد تلك هي الطريقة والأسلوب ، الآن نحن نعيش فقط مع النقود والأموال ، ولذلك فنحن بحاجة إلى الوظائف والأعمال ، غير أن الأرض مازالت ترعانا ، نحن نعرف أسماء الأماكن التي حدثت فيها كل الأحداث والأشياء ؛ لذلك فإننا نتجنب السوء ونبتعد عنه» .

غير أنه أن تبتعد وتنتقل عن الأرض يعنى بالضرورة أن تفقد التواصل مع الأماكن الفعلية التي تثيرها أسماء الأماكن ، وهكذا أن تفقد الصلة بالتالي مع القصص والحكايات التي تسكن تلك الأماكن .

«ذات مرة ذهبت إلى لوس أنجلوس للتدريب على الميكانيكا ، لم يكن ذلك جيداً ، بالتأكيد لم يكن جيداً ، بدأت في السكر والشراب ، وفي الضياع في الحانات كل الوقت ، وبدأت في الدخول في مشاكل زوجية مع زوجتي ، حيث أتعارك معها أحياناً ، لقد كان ذلك سيئاً ، لقد نسيت كل شيء عن الأرض هناك بقرب سيبيكو ، لقد نسيت كل الأسماء والحكايات والقصص ، لم أعد أسمعها في رأسي ، لقد نسيت كيف أحيا الحياة الطيبة ، ونسيت كيف أكون قوياً» .

إن باسو ، عالم الأنثروبولوجي ، يقدم شرحاً عملياً لحد كبير لذلك الإسقاط والربط ما بين التعاليم الأخلاقية مع الأماكن الجغرافية .

«إن الجبال والوديان» يكتب «تقف رمزيا لتمثيل الجدات والأخوال والأعمام» ، على الأشخاص أن يكونوا باستمرار متنبهين للحفاظ على السلوك والأخلاق الصحيحة ، وخصوصاً فيما يتعلق بتلك الحالات التي كانوا فيها في مرة ما غير مبالين ومهملين ، ومع ذلك فإن الجدات والأعمام والأخوال الذين صححوا وقوموا في الأصل مثل ذلك السلوك لابد لهم أن يشيخوا في ذات يوم ويندثروا ، بما أن الأماكن والديار الأرضية بالضرورة تبقى وتدوم بعد حياة العجائز والشيوخ ، وهى بالفعل تحافظ على شخصيتها الأساسية عبر أجيال كثيرة متعاقبة ، فإن مثل هذه الأماكن في موقع مكتمل «للدخول» والتدخل كتذكارات رمزية دائم الحضور للدروس الأخلاقية التي تم تلقيها في الماضي .

ومع ذلك فإن اقتراح باسو بأن تلك الأماكن والشواهد في الأرض تخدم غرضاً «رمزياً» (بأنها صارت ترمز إلى التعاليم الأخلاقية) يتضمن درجة غير مضمونة من عشوائية الربط ما بين الدروس الأخلاقية والأرض الطبيعية ، عبر الإيحاء بأن ذلك الربط والإسقاط أميل للمفاهيمية والعملية أكثر منه عضوي ومحتم . إن هذا الاقتراح يضع قناعاً على المدى الذي يجعل تلك الأماكن نفسها محسوسة وحاضرة كمحرض فعال ونشط لتلك الدروس المؤلمة ، المؤلفون الحقيقيون لتلك الأحداث وبالتالي تلك القصص ، لاحظ هنا تركيز باسو نفسه على مبدئية المكان في دوره في الحكى والقصص عند أباشي الغرب :

«لا شيء يعتبر أكثر أساسية للحكي الفعال والمؤثر للقصص لأباشي الغرب «لقصة» أو «حكاية» أكثر من تعريف الأماكن الجغرافية حيث حدثت وتكشفت أحداث القصة ، ذلك أنه مالم يكن المستمعون من الأباشي قادرين على تصور المكان الفعلي للأحداث المروية (إلا إذا ، كما قد قال لي أحد مستشاري «إن عقلك يمكن له الارتحال للمكان ورؤيته بالفعل») إن الأحداث نفسها سوف يكون من الصعب تخيلها ؛ إن ذلك بسبب أن الأحداث في الحكاية سوف تبدو «وكأنها تحدث في اللامكان» ، ومثل هذه الفكرة كما يؤكد الأباشي مزعجة ، غير مقنعة ، وكاذبة ، إن أحداث اللامكان هي استحالة ، كل شيء يحدث يجب أن يحدث في مكانٍ ما ، إن مكان الحدث جانب مهم وعضوي للحدث

ذاته ، ولذلك فإن تحديد مكان الحدث ضرورى جداً للقص والروى الصحيح ، وبالتالي تصور تفاصيل واقعية الحدث» .

إن بأسو هنا يقدم شاهداً واضحاً على الأهمية المركزية للمكان لخبرة وتجربة أباشى الغرب للظاهرة ، ومع ذلك فإنه لا يقدم أى إشارة إلى السبب الذى يجعل الأباشى يضعون كل تلك الأهمية على الأماكن الجغرافية بشكل أكبر منا بكثير ، بالتأكيد أنه لأشخاص من حضارات غير أصلية أيضاً «أن كل الأشياء التى تحدث لابد أنها تحدث فى مكانٍ ما» ، ومع ذلك فإن أغلبنا لا يصرون على التعريف الدقيق للمكان لكل حدث نسمع عنه . لماذا إذن يقوم الأباشى - والثقافات الأصلية على وجه العموم - بإعطاء كل تلك الأهمية والتركيز على الأماكن ؟

إن الإجابة يجب أن تكون واضحة الآن . بالنسبة لأعضاء ثقافة غير كتابية فإن الأماكن ليست مجرد أشياء جامدة ومحايدة ، تذكر أنه فى الثقافات الشفاهية أن العيون والأذان البشرية لم تتحول بعد بمشاركتها الحسية عن المحيط الحى نحو الكلمة المكتوبة ، إن جبلاً معينة ، أخايد ووديان ، ينابيع ، حقولاً ، أو خمائل من الأشجار لم تفقد بعد طاقتها التعبيرية وحيويتها التى تقدم بها نفسها للحواس ، إن مكاناً معيناً فى الأرض ليس أبداً - بالنسبة للثقافة الشفاهية - مجرد مكان جامد ومحايد بالنسبة للأحداث البشرية التى تقع فيه ، إنه مشارك فعال ونشط فى تلك الأحداث ، وبالفعل عبر فضيلة كونه حضوراً حاضناً وقاعدة فإن المكان يمكن أن يُشعر به كمصدر وقوى أساسية تعبر عن نفسها عبر الأحداث المختلفة التى تتكشف هناك .

إنه لهذا السبب بالتحديد فإن تلك القصص لا يتم حكيها دون تحديد للأماكن الأرضية حيث الأحداث فى تلك القصص قد حدثت ، بالنسبة لأباشى الغرب كما هو لأناس التقاليد الشفاهية فإن الأحداث البشرية والتجارب لا يمكن ببساطة أن تكون بمعزل عن الأماكن التى كانت مسرح أحداثها ، وهكذا فإن العالم الأنثروبولوجى هارى هوجير يتحدث عن مجموعة أخرى من الأثاباسكان - الدنى أو الناهاجو - يكتب :

«حتى أصغر الدقائق من الأحداث يصفها هنود الناهاجو فى وصف ذى صلة حميمة بالأماكن الفعلية ، موحياً بأنه مالم تكن الأحداث المروية ذات فضاء جغرافى فإن أهميتها تنقلص نوعاً ما ولا يمكن تقييمها بشكل صحيح» .

ومع ذلك فإنه مرة أخرى الأنثروبولوجى المحترف يفتقد بشكل ما إلى السبب الرئيسى لذلك الطرح ، عبر اقتراح أن الأحداث المروية يجب أن تكون «ذات فضاء جغرافى» فإنه يسمح لنا أن نفترض علاقة خارجية خالصة ما بين الأحداث وأماكنها الجغرافية ، إنه يوحى بأن الأحداث يمكن استيعابها وكأنها تطفو بحرية من أى مكان قبل القذف بالحدث الذى يربطها إلى الأرض . إذا - على كل - كان المكان نفسه عنصراً نشطاً فى خريطة الأحداث فإنه عند ذلك فإن رمز الجذر هو أكثر دقة من الجغرافية ، بالنسبة للثقافة الشفاهية ، خبرت أحداثاً بقيت متجذرة فى التربة المعينة ، التوازن البيئى المعين ، الأماكن المعينة التى منحت لها البروغ .

من قصص الزمان البعيد لأناس الكويكون ومن حكايات الآغودزاهى لأباشى الغرب نبدأ فى معرفة أن حكى القصص والحكايات شكل أساسى للكلام الإنسانى ، طريقة لمسار يتزاوج دائماً مع المجتمع البشرى والأرض ، بين الكويكون ، قصص الزمان البعيد تخدم - ما بين أشياء أخرى - الحفاظ على الصلة ما بين الكلام البشرى والمنطوق المتكلم للكائنات الأخرى ، فيما بالنسبة لأباشى الغرب فإن قصصهم تعبر عن ارتباط عميق ما بين السلوك الأخلاقى والأرض ، وعندما تُسمع فإنها تكون قادرة على التأثير على علاقة قرابية دائمة ما بين الأشخاص والأماكن المحددة .

إن حكى القصص مثله مثل الإنشاد والصلوات سوف يبدو وكأنه طقس احتفالى تقريبا ، عريق وعتيق وطريقة ضرورية للكلام تميل إلى التجذير الأرضى للغة البشرية ، وللأحداث المروية ، كما يذكرنا باسو ، فإنها دائماً ماتحدث فى مكان ما ، وبالنسبة لثقافة شفاهية فإن ذلك المكان ليس مجرد مصادفة لتلك الأحداث ، إن الأحداث تنتمى (كما قد كان) إلى المكان ، وأن تروى القصة حول تلك الأحداث هو أن تجعل المكان نفسه يتحدث من خلال السرد والحكى .

ومع ذلك يتبقى هناك سبب آخر لذلك الربط العميق ما بين حكاية الحكاية والأرضى والمحيطات الأكثر من بشرية ، إنه يسكن فى الكلية الشاملة لقصة فى العلاقة مع الشخصيات التى تفعل وتتحرك بداخلها ، إن القصة تشتمل على أبطالها تماماً كما نحن أنفسنا محتوين داخل الأرضية والمحيط حولنا ، وبكلمات أخرى إننا موضوعون

فى موقع فى الأرض بالطريقة نفسها التى يتموضع فيها أبطال القصص فى القصة ،
وبالفعل بالنسبة إلى أعضاء ثقافة شفاهية فى أعماقها فإن هذه العلاقة يمكن أن تعاش
كشئ أكثر من مجرد التمثيل الرمزى : مع بقية الحيوانات الأخرى ، الصخور
والأحجار ، الأشجار ، السحب ، نحن أنفسنا شخصيات فى داخل رواية كبرى
تتكشف بصرىاً من حولنا ، مشاركين داخل الخيال الواسع أو الحلم الخاص
بالعالم .

زمن الأحلام

بهذه الفكرة نقرب بأنفسنا إلى زمن الأحلام ومعتقداته الشائعة مابين سكان الأبوريجونى فى أستراليا ، إن ثقافتهم المتنوعة - بينتويى ، وأراندا ، وكتيتيجى ، ووارومونغو ، والبريرى ، ومجموعة من الآخرين - قد تكون أقدم الثقافات البشرية التى ماتزال حية فى يومنا هذا ، ثقافات قد تمت فى أشد البيئات الإنسانية خشونة لعشرات الآلاف من السنين (إن الأبوريجونيين الأوائل وآثارهم المكتشفة فى أستراليا مابين أربعين إلى ستين ألف مضت فى تاريخها) فقط ليتم تخريبها فى عصرنا هذا من خلال الاحتكاك بالحضارة الأبجدية ، إن الصمود المدهش لأناس الأبوريجونى لا بد أن يُعزى - على الأقل جزئياً - إلى تورطهم القليل فى عالم التكنولوجيا ، إن علاقتهم بالأرض كانت مباشرة وحقيقية ، وغير مخربة بالوسائط غير الضرورية ، لقد اعتمدوا على أبسط الأدوات - أساساً جمع الثمار ، وأسهم الصيد ، وعصا الحفر - وبذلك تجنبوا الاعتماد على المصادر المتخصصة فيما حافظوا على إمكانية التحرك الكبرى فى وجه تغيرات وتقلبات الطقس .

فى أثناء ذلك ، فإن انعزال قارتهم وكذلك شخصيتها الخارجية غير المرجبة حمت بوضوح هؤلاء الناس من مذابح واستغلال شعوب أخرى طموحة ومتوسعة - حتى اللحظة التى وصل فيها البريطانيون إلى سواحل الأبوريجونى فى عام ١٧٨٨ م .

ماهو ، إذن ، زمن الأحلام - (the Jukurpa) ، أو Alcheringa - الجوكوربا أو الشيرينجا) - الذى يلعب جزءاً أساسياً فى أساطير أستراليا الأبوريجونية ؟

إنه نوع من الزمن خارج الزمان ، زمن مختلف أبعد من أو فى داخل الحضور القوى والواضح للأرض ، حالة سحرية حيث قوى الأرض المحيطة اتخذت أول معالمها فيما يتعلق بعلاقتها ببعضها بعضاً ، وبذلك شكلت الأشكال الواضحة والنماذج التى نعرفها بها اليوم ، إنه ذلك الزمن الذى سبق يقظة العالم بأكمله (زمن مازال موجوداً

فقط تحت سطح الوعى اليقظ) الذى هلّ فى الفجر الذى قام الأسلاف الطوطم بالخروج من نومهم الطويل تحت الأرض وبدأوا فى غناء طريقهم الخاص عبر الأرض بحثاً عن الطعام والحماية والصحة الإنسانية .

لقد كان عالم الأرض نفسه مطرقاً ، بين النعاس والصحو ، وكرجل - كانغارو يحلم (إن السلف - الجد لم يكن للكانغارو فقط بل لكل البشر الذين ولدوا من حلم الكانغارو) ، الرجل السحلية ، المرأة السلحفاة ، الرجل الكانغارو - الوالبي الصغير ، المرأة الوعل ، وغيرهم من أسلاف لا حصر لهم تجولوا وغنوا على سطحه ، شكلوا سطح الأرض ذلك بأفعالهم ، مكونين السهول حيث رقدوا هناك ، الغدران أو حفر الماء حيث تبولوا هناك ، الغابات حيث نفخوا الغبار ، وهكذا .

«غابيجي ، الكانغارو - الوالبي الصغير ، جاء من الغرب إلى أوولدي سوك ، لقد جاء عبر كثبان الرمل الغربية ، مقتريا من شجرة البلوط فى الصحراء السوداء ، كان يحمل قربة ماء من جلد المالى - ميرى أو البودا ، وكانت ماتزال ممثلة ، لقد قطع الكثبان ووصل إلى يولدي ، هناك وضع قربه عند قاعدة تل رملى كبير إلى الجنوب ، ثم تبول فى بقعة صارت اليوم هى أوولدي سوك («أى أنه الماء الذى نشربه اليوم» ، قال الناس فى عام ١٩٤١م) مكث هناك لبعض الوقت ، ثم مضى إلى تل رملى آخر إلى الشمال ، من هناك نظر نحو الشرق ، التل الرملى صار اسمه بيمبالى ، عاد ليلتقط قربه ، وعندئذ رش القليل من الماء ، وهذا هو ما أصبح فيما بعد البحيرة ، غير أنه لم يكن متأكداً إذا ما كان عليه أن يمضى أبعد من ذلك وأخيراً قرر أن يعود إلى أوولدي ، ترك قربه هناك وتحولت إلى تل الرمل الغربى الكبير (لهذا السبب هناك دائماً ماء) ، خيم لبعض الوقت ، ثم قرر مرة أخرى أن يمضى إلى الشرق ...» .

تدرجياً نظراً للعثور على المكان المناسب أو ببساطة مرهقين من العمل على تشكيل العالم فإن كلا من الأسلاف مضى «عائداً» (متحولاً إلى دجانج ، بمصطلح لغة الجنسوينجو) ، محولاً نفسه (أو نفسها) إلى أحد الجوانب التجسيدية للأرض ، و/ أو متحولاً رمزياً إلى نبتة أو حيوان من الكائنات التى يتخذ منها اسمه .

«[رجل العلق] نظر نحو هذه الناحية ، هذا الطريق ، فيما كان قادماً ، رأى مكاناً جيداً ، قال «إننى أفعل هذا ، لأن هذا هو مكان طيب وجيد ، لسوف أستقر . لسوف أمكث هنا دائماً» . الرجل الذى كان يأكل سمكا ، نابيرج - جيدي مى سأل :

«ما أنت؟» ، فقال «إننى أتحوّل إلى علق ، ولسوف أمكث وأبقى فى مكان واحد ، سوف أصبح صخرة ، صخرة صغيرة ، وأمكث هنا ، برأس مسطح ، رأس قصير ، إننى رجل العلق دجانج ، علق يحلم!» ، قال «إننى علق!» وقال «هنا ، أجلس ، إن هذا غديرى يتدفق ، إن هذا لى ، حيث أمكث أنا ، إننى رجل ، دجانج ، يحلم» .

وهكذا فإن كل جد من الأسلاف يترك فى صحوته أثراً متعرجاً من المشاهد والأماكن الجغرافية ، ملامح مستوعبة ومفهومة فى الأرض التى هى نتيجة لأحداث معينة واحتكاكات فى رحلة الجد - السلف ، تبلغ ذروتها فى ذلك المكان حيث مضى الجد - السلف «عائداً» ومتشكلاً كلية فى بعض جوانب العالم الذى نعرفه ونعيشه اليوم .

إن هذه الآثار المتعرجة أو آثار الأحلام سمعية بقدر ماهى بصرية وظاهرة ملموسة ؛ ذلك أن الأجداد - الأسلاف كانوا يغنون أسماء الأشياء والأماكن فى جوف الأرض وهم يتجولون ويهيمنون عبرها ، وفى الحقيقة كل أثر من الأسلاف هو نوع من العلامة الموسيقية يتراعى عبر القارة ، علامة لأغنية ملحمية ، واسعة ، تنبئ أبياتها وتحكى عن مغامرات الأسلاف الكثيرة ، وعن الكيفية التى تشكلت فيها المشاهد والأماكن المختلفة عبرها لتصبح على ماهى عليه (وبهذا ، بشكل غير مباشر ، عن ماهية الأغذية النباتية ، ومصادر المياه ، وصخور الحماية والملاذ التى يمكن العثور عليها فى تلك الأماكن والمناظر) إن المسافة مابين مكانين مهمين على طريق آثار الأسلاف يمكن قياسها أو الحديث عنها كامتداد لأغنية ، ذلك أن الأغنية تتكشف فى سلسلة غير متكسرة أو منفصلة لكوبليه أو أبيات شعر عبر الأرض ، بيت شعر واحد أو كوبليه «لكل زوجين من خطوات أقدام السلف - الجد» . إن الأغنية بهذا نوع من الطريق أو الدرب السمعى أو الخارطة السمعية عبر البلاد ، ومن أجل أن تصنع طريقها فى الأرض فإن الشخصية الأبوروغونية عليها فقط أن تنشد وتغنى مقاطع محلية من الحلم المناسب ، أغنية السلف - الجد المناسبة والصحيحة .

إن القارة الأسترالية مخططة عبرها بالآلاف من مثل تلك «خطوط الأغاني» التى اكتملت ذروتها أو «الطرق عبرها» ، وأغلبها تعبر عبر المناطق القبلية المتعددة ، إن أغنية معطاة بذلك تغنى طريقها عبر عشرين أو أكثر من اللغات المختلفة قبل أن تصل إلى المكان الذى عاد فيه الأسلاف إلى «العودة فى الداخل» ، ومع ذلك فيما اللغة تتغير

فإن اللحن الأساسى للأغنية يبقى هو نفسه ، وهكذا فإن شخصاً من قبيلة الساحلية النابحة سوف يكون قادراً على معرفة خطوط المسافة البعيدة لخط أغنية للساحلية النابحة عندما يسمعها ، وحتى لو أن تلك المقاطع كانت تغنى بلغة غريبة تماماً لأذنيه ... إن المعرفة والعلم بالأجزاء البعيدة لدائرة أغنية شخص ما - بلغة الشخص - تمكن الشخص بشكل واضح من أن يعيش بشكل ما امتدادات معينة للأرض حتى قبل أن يكون هو أو هي قد زار تلك الأماكن . إن التدريب على جزء طويل من دائرة أغنية معاً خلال السمر والجلوس حول نار المخيم فى الليل ، يشعر الأشخاص الأبوروجونيين بوضوح بأنهم أنفسهم يرتطون عبر الأرض فى خيالهم الجمعى ، كما هو الحال بالنسبة للرجل الآباشى «الأسماء المتكلمة» بالنسبة إليه هي «امتطاء لصهوة عقله» .

إن كل جد من الأسلاف ، فيما هو أو هي ينشد أغنيته عبر الأرض خلال زمن الحلم ، يبذر أيضاً خلفه أثراً من «أطفال الروح» عبر خط أثار أقدامه ، إن «خلايا الحياة» هذه أطفال لم يولدوا بعد : إنهم أجنة يرقدون فى نوع من حالة الوعد الممكن فى داخل الأرض ، ينتظرون ، وفيما الممارسة الجنسية ما بين امرأة ورجل يفكر بها عند أناس الأبوروجونيين التقليديين على أنها إعداد للمرأة للحمل فإن الحمل الفعلى يفترض أنه يحدث بعد ذلك بزمان طويل ، عندما تكون المرأة التى حملت بالفعل فى الخارج هناك فى جولتها اليومية لجمع الجذور ، والنباتات للأكل ، ويحدث أنها مشت على أو وطئت (أو حتى اقتربت) من بيت شعر لأغنية .

إن «طفل الروح» الراقد تحت الأرض فى البقعة التى تطوها يتسلل إلى داخلها فى تلك اللحظة ، « ويجد طريقه إلى رحمها ، ويخصب الجنين بأغنية» ، أينما تجد المرأة نفسها عندما تشعر بالتسارع - المرفسة الأولى داخل رحمها - تعرف آنذاك بأن طفل روح قد قفز للتو إلى داخل جسدها من باطن الأرض ، وهكذا فإنها تلحظ وتحفظ المكان الدقيق فى الأرض حيث حدث ذلك التسارع والتوالج ، وتقوم بإبلاغ ذلك إلى كبار قبيلتها ، إن الكبار آنذاك يقومون بتفحص الأرض عند تلك البقعة محددين خط الأغنية المعينة للسلف - الجد المرتبطة بذلك المكان ، وأى مقاطع بالتحديد لأغنية الأسلاف سوف تنتمى لذلك الطفل .

بهذه الكيفية فإن كل شخص أبوروجونى عند الولادة يرث خطأً أو امتداداً معيناً من أغنية كملكية خاصة به ، امتداداً لأغنية هي كما قد كان لقبه وحقه فى امتداد وخط أو نصيب فى الأرض ، فى المكان الذى تخلّق فيه كجنين ، إن هذه الأرض هي ذلك الجزء من الحلم حيث بدأت الحياة فى يومٍ ما ، إنه فى ذلك المكان من الأرض حيث أكثر مكان ينتمى إليه ذلك الشخص ، وعناصر وجوده وكيانه ، وأعماق نفسه وذاته التى هي غير متجزئة أو منفصلة عن تلك الأراضى :

«الشيخ العجوز يعبس ما بين التجاعيد

ينجذب نحو ابتسامة فى الأرض الواسعة ، الحمراء .

لقد لاعبت طفلاً ما ، ومشى كل خطوة على رمالها تلك .

«هل ترى الصخرة تلك هناك ؟

(إن رأسها قد صار أملس ، وناعماً ،

وكأنما قد قطع بحد الماسة ،

ولكن كان ذلك قد تم عمله عبر صخرة أخرى ضمتها مئات الأيادى :

زادت المكان وأعدته لولادة طفل دنجو آخر)

و

بأدى أنا تورى يضرب الصخرة ويداعبها من جديد ،

ومرة أخرى . يقول هو :

أترى هذه الصخرة ؟

إن هذه الصخرة هي أنا! .

إن الأبيات المغناة التى هي الحق الشرعى منذ الولادة لابن القبيلة ، والتى هي الراعى الأساسى لها الآن ، تمده أيضاً بنوع من «الباسبورت» أو جواز المرور للأراضى الأخرى أو الأراضى التى عبرتها الأحلام نفسها ، إنه يعرف بأنه سليل ذلك الجد - السلف الذى يملك بيت شعر من أغنيته ، سليل كائن زمن الأحلام والذى حياته المقدسة وقواه مازالت تعيش فى داخل أشكال تلك الأرض وتجسدها ، لو أنه على سبيل المثال الجد - السلف الذى مشى هناك كان رجل الكانغارو الصغير الوالى فإن

هذا الشخص يقال إنه يملك حلمًا من الويلبي ، أن يكون عضواً من قبيلة الويلبي (والويلبي حيوان يمثل الكانغارو الصغير) إن له وشائج مع كل أشخاص حلم الويلبي ، سواء داخل أو خارج قبيلته ، وإن على عاتقه مسئوليات نحو كائنات الويلبي نفسها ، من غير المسموح له أن يصطادها أو يقتنصها من أجل الطعام ، بما أنها كائنات تمثل إخوته وأخواته . وإن على عاتقه مسئولية كبرى نحو الأرض بجوار آثار حلم الويلبي أو خط الأغنية ، مسئولية للحفاظ على الأرض - كما يجب أن تكون - بالكيفية التي كانت عليها عندما تم غنائها وإنشادها الذي أوجدها في هذا الكون .

وبحسب التقاليد فإنه قد يتوجب عليه عمل ذلك على فترات أن يمضى في «التجوال» ، عبر قيامه بارتحال طقسى عبر آثار الأحلام ، ماشياً الخطوات نفسها التي مشاها جده - السلف ، وفيما هو يمشى فإنه ينشد ويغنى أبيات الشعر التي قالها السلف ، دون أن يغير كلمة واحدة في تلك الأغنية ، مغنيا الأرض في المنظر والمشهد ، وبهذه الطريقة «يقوم بإعادة خلق الخلق» .

أخيرا ، كما قد حول كل سلف من أجداد زمن الأحلام نفسه أو نفسها في نهاية الرحلة إلى جانب من جوانب أو الملامح في داخل الأرض المعاصرة فإنه يتوجب أيضاً على كل شخص من الأبوروجوني أن ينوي - في نهاية حياته أو حياتها - أن يغنى نفسه للعودة إلى داخل الأرض ، إن رجلاً تقليدياً من البينتوبى أو البييتجان تاجارا سوف يعود إلى أرض ولادته وتكونه - إلى خطه أو رقعته المحددة من خط و درب أغنية الأسلاف - لكي يموت هناك ، وحتى تستطيع حيويته وحياته أن تكون قادرة على الانضمام من جديد إلى أرض الأحلام في ذلك المكان .

إن زمن الأحلام هو ليس - مثل الغربى - مفهوماً دينياً مرتبطاً بالكتاب المقدس أو الإنجيل ، حدثاً منتهياً ، وهو ليس مثل التفسيرات العلمية المألوفة لفكرة «الانفجار الكبير» ، حدثاً كان قد حدث ذات مرة وانتهى في الماضى البعيد ، إنه بالأحرى عملية مستمرة - بزوغ مستمر للعالم من حالة النعاس غير المحددة إلى حقيقة يقظة ومكتملة، من اللامرئى إلى المرئى ، من أعماق سر الصمت إلى الأغنية البليغة والكلام . أن يختار الأبوروجونيون الأصليون كلمة (يحلم «Dreaming») كمصطلح إنجليزى ليرجموا تلك الفكرة أو الأطروحة الكونية يشير إلى حسهم بأن الفعل العادى للحلم يشارك مباشرة في زمن أسلاف القبيلة ، وذلك بأن ذلك الزمان ليس تماماً في مكان آخر ، ليس تماماً مغلقاً ومختوماً عليه بعيداً عن الحاضر المستوعب ، إنه بالأحرى الحلم يرقد في العلاقة

نفسها مع الحاضر المفتوح للأرض من حولنا ، كما أن حلمنا وحلم حياتنا نفسها يرقد
فى العلاقة مع وعينا أو خبرة يقظتنا ، إنه نوع من العمق الغامض ، والرمزى .

«انظر إلى هناك ، إن تلك الشجرة هى عصا حفر

تركبتها وراءها امرأة ضخمة عملاقة كانت تبحث عن نمل العسل ،

إن هذه الصخرة ، هى أنف دينغو ،

هناك ، على ذلك الجبل ، آثار أقدام

خلفها وراءه تجانغارا فى طريقه إلى الامبورا ،

هنا ، حفرة صخرة ورنامبى - خطيرة جدا -

والكهف حيث نساء نى - نى هربن

هناك غضب مارابولبا - العنكبوت ،

واتى كوتجارا - الأخوان الاثنان - ارتحلا فى هذا الطريق .

هناك ، يمكنك أن ترى ، أحدهما كان مرهقاً من كثرة ممارسة الحب - إن أثر

أيره قد خط على الأرض ،

هنا ، إن أجساد رجال نملة العسل حيث زحفوا من الرمال -

كلا ، إنهم ليسوا أمواتاً - إنهم مازالوا يأتون من الأرض ، ويتحركون نحو المياه

فى ورامبو - إن الحال هو هكذا منذ سنين طويلة :

إن ما قد حدث ذات يوم يحدث من جديد مرة أخرى وأخرى ،

إن هذا هو القانون ،

إن هذه هى قوة الأغنية .

عبر الغناء نحفظ بكل شيء حياً ،

عبر الأغاني ... تبقى الأرواح معنا كى تبقى أحياء» .

إن ما قد حدث ذات مرة يحدث مرة أخرى وأخرى ، الحلم - الحياة الخيالية

للأرض نفسها يجب أن يتجدد باستمرار ، وفيما رجل أبوروجونى يمشى على خطى

آثار حلم جده - السلف ، مغنياً الوطن إلى المرنى والظهور ، فإنه يصبح فى الحقيقة

السلف - الجد المرتحل ، وبذلك فإن قص الأرض يولد طازجاً من جديد .

إن هذا الانتماء والتعاطف وذلك التوسل لزمن الحلم ليحضر الآن وهنا ، لا يحدث خلال جولات المشى والتجوال الوحيدة والمنعزلة فقط ، ولكن أيضاً وخصوصاً خلال الطقوس الجماعية فى أماكن أحلام محددة ، طقوس حيث مغامرات وتجارب الأسلاف فى تلك الأماكن لا تغنى فقط ، بل يتم أدائها وتأكيدا عبر مشايخ القبيلة ، وحتى نسخة «مفتوحة» ومختصرة لمثل ذلك التأكيد والأداء يمكن أن تعرض درجة مدهشة من المشاركة مع الجد أو السلف – الحيوان (مثل تلك النسخ «المفتوحة» ، أو الاسكتشات يمكن أن تؤدى من أجل الغرباء) . المؤلف بروس شاتوين شهد أحد تلك الاسكتشات فى جلسة سمر حول النار فى المخيم فى الخلفية فى استجابة لسؤال من أحد زملاء شاتوين الباحثين ، حول أهمية تلّ قريب ، أحد رجال الأبوروغونى :

«قام على قدميه وبدأ فى تقليد مهمات (بكلمات مرمية فيها) ارتحالات السلف – السحلية .

لقد كانت أغنية عن كيف أن السحلية وزوجته الجميلة الشابة كانا قد سارا من شمال أستراليا إلى البحر الجنوبى ، وكيف أن أحد الجنوبيين قد أغوى الزوجة وأرسل به إلى موطنه ببديلة .

لا أعرف أى نوع من السحالي كان من المفترض أن يكون : هل كان «سحلية – يهودى» أو «ركاض الشارع» أو أحد أولئك السحالي المتجولة والمجعدة ذات الهيئة الغاضبة بتهديدات حول أعناقها .

كل ما أعرفه هو أن الرجل فى الأزرق جعل أكثر السحالي شبهاً بالحياة التى تتمنى أن تتخيلها .

لقد كان ذكراً وأنثى ، مغويا وغازيا ، لقد كان قوى البنية ، فحلا ، ورحالة متمكنا ، كان يحرك أقدامه السحلية على الجنب ، ثم يتجمد ويبرز رأسه ، يقوم برفع جفنه السفلى ليغطي بؤبؤ عينيه ، ثم يخرج لسانه – السحلى ، نفخ عنقه إلى غضب من الهواء ، وأخيراً عندما حان الوقت له كى يموت اهتز وأربد ، وصارت حركاته أضعف وأوهن ...

ثم انطبق فكه ، وكانت هذه هى النهاية .

الرجل الذى فى الأزرق لوح نحو التل ، وبعظمة شخص ما كان قد حكى أفضل كل القصص الممكنة ، صرخ : هذا .. هذا هو حيث هوا .

إن التل القريب - بكلمات أخرى - هو ذلك المكان حيث السلف - السحلية قد عاد إلى الأرض - قواه الروحية ، أو حياته ، الآن غير منفصلة عن الحياة للتل نفسه .

إن أداء مثل تلك القصص والأغاني والطقوس الاحتفالية يحدث لأسباب تتعلق بالأرض نفسها أكثر منها للشخص البشري في حد ذاتها ، للأرض التي بالطبع يعتمد البشر عليها ، وبكلمات عالمة الأنثروبولوجي هيلين بياني :

«إن صيانة والحفاظ على مكان يتطلب الاثنين معاً العناية المادية الفعلية - على سبيل المثال تنظيف الصخور أو إزالة العفن - والأداء (لطقس) بأشياء تهدف للعناية بالروح التي تسكن ذلك المكان . بدون إجراءات الصيانة والعناية تلك يبقى المكان ، ولكن يقال إنه يفقد الروح التي تجعله يتماسك من الداخل . ثم إنه يُقال إنه يموت وأن كل أولئك الذين يشاركونه الملامح الجسدية والروحية سوف يموتون أيضاً ، وهكذا للحفاظ على السلامة في الحياة فإن الأماكن والبقع الجغرافية في الأرض يجب الاعتراف بها وممارسة كل الطقوس التي تحافظ على حياتها وقوى أحلامها التي تكمن في دواخلها» .

أو كما يكتب بروس شاتوين «إن أرضاً غير مغناة أو منشد لها أرض ميتة» .

في مناسبات معينة ، تقليدياً ، يقوم شيوخ قبائل معينة بصنع القرار بأنه قد أزم الوقت لغناء أغانيهم الدائرية في كامل أماكنها من البداية وحتى النهاية ، سوف يتم إرسال الرسائل بذلك على طول طريق آثار الأحلام ، داعين كل مالكي الأغنية إلى التجمع في أحد بقاع حفر الماء المهمة على طريق الأحلام وعندما يجتمعون فإن كل عضو من القبائل بدوره يغني المقطع الخاص به من آثار أقدام الأسلاف - الأجداد ، إن الترتيب والتوالي الدقيق للأبيات الشعرية المغناة ضروري للغاية ، أن تغني مقطعاً خارج ذلك الترتيب والتوالي يُنظر إليه على أنه إساءة لانسجام ونظام الأرض نفسها .

إنه من المهم الانتباه إلى أن في أستراليا الأبوريجونية (كما هو الحال في أمريكا الشمالية الأصلية الخاصة بالهنود الحمر) هناك درجة عالية من التمييز ما بين علم النساء ومعارفهن وعلم الرجال ، وطقوس النساء وطقوس الرجال ، إن قوة وأهمية حقوق النساء داخل المجتمعات الأصلية الأسترالية قد تم الاعتراف بها حديثاً من خلال الباحثين غير الأبوريجونيين ، ربما بسبب أن علماء الإثنولوجي المبكرين كانوا

رجالاً في معظمهم ، ولذلك لم يكن لديهم الكثير من المداخل إلى علم النساء المقدس ، إنه من الواضح الآن أيضاً أن علم أغنية النساء الأبوروغونيات محروس ومحرض بشكل أكبر عن علم الرجال ، في السنوات المعاصرة كمية محددة من الابتكارات قد حدثت في الاثنين معاً في الأغنية التي تغنيها النساء وتلك التي يغنيها الرجال ، وخصوصاً فيما يتعلق بردود الأفعال تجاه التغييرات التي حدثت في محيط الأرض والطبيعة ، وفي المجتمع الأبوروغوني الذي غزته الحضارة الصناعية ، فإن مقاطع ضائعة من دورة أغنية - على سبيل المثال - يمكن أن يستعاد حلمها عبر أشخاص أكفأ لذلك ، وبالرغم من ذلك فإن علم النساء ومعرفتهن بالأغنية (على الأقل في وسط أستراليا) يميل إلى كونه أكثر محافظة ، وأكثر مقاومة للتغييرات من ذلك الخاص بالرجال ، اختلاف آخر هو : فيما تبدو الطقوس الاحتفالية السرية للرجال أنها تركز بشكل كلي تقريباً على تجديد طاقة وحيوية أماكن وبقع معينة والاحتفال بكائنات محددة ، فإن احتفالات وطقوس النساء المغلقة غالباً ما تتضمن - أيضاً - استخدام الأغاني لإيقاظ القوى السحرية لتلك الأماكن - جاذبين نحوهم قوى الأرض لأهداف عملية مختلفة ، إن مثل تلك الأهداف تتضمن العلاج من الأمراض والعلل (سواء كان المريض أنثى أو ذكراً) ، بالإضافة إلى ممارسة «سحر العشق والحب» - حيث عبر تأثير النساء من العجائز من أجل صالح المجتمع ككل يمارسن السحر لتدفع الرغبات مابين أشخاص معينين .

المكان والذاكرة

فى أستراليا إذن فيما بين أقل الثقافات البشرية تكنولوجية نجد أكثر العلاقات الممكنة والحميمة ما بين الأرض واللغة البشرية ، إن اللغة هاهنا غير منفصلة عن الأغنية والقصة والحكاية ، والأغاني والقصص بدورها غير منفصلة عن أشكال وملامح وتضاريس الأرض ، إن إنشاء أى جزءٍ من دائرة أغنية يصل المغنى البشرى إلى أحد حيوانات أو نباتات أو قوى فى داخل الأرض وتضاريسها ، إلى الرجل التمساح والمرأة شجرة الباندوس ، أو رجل الصاعقة ، إلى كل ماهو أكثر من بشرى من الكائنات التى أنشدت وغنت فى البداية تلك الأبيات الشعرية فيما هى أو هو يتجول عبر أرض الأحلام ، لكنه أيضاً يقنن الإنسان المنشد أو المغنى فى علاقته بالأرض نفسها ، وبتلال محددة ، وصخور ، وينابيع هى الموازى المرئى لتلك المقاطع الغنائية .

إن الارتباط المعاش والحي ما بين اللغة والأرض موضح بشكل جيد بطرفة يحكيها الشاعر الأمريكى جارى سنايدر ، من خلال زيارة قام بها إلى أستراليا فى خريف عام ١٩٨١ م . كان سنايدر يرتحل عبر الصحراء المركزية فى شاحنة بيك - أب ، مصحوباً بعجوز من البينتوبى يدعى جيمى تينغورى ، وفيما تحركت الشاحنة وهى تطوى الطريق بدأ العجوز الأبورجونى فى الحديث بشكل سريع إلى سنايدر مخبراً إياه عن قصة من زمن الأحلام حول بعض أناس الويلبى وتجربتهم مع بعض فتيات السحالى فى جبل يمكنهم رؤيته من طرف الشارع ، وحالما انتهت القصة شرع العجوز فى ،

«قصة أخرى حول تل آخر هناك وقصة أخرى حول مكان آخر . لم أستطع مواكبته ، ولاحظت بعد نصف ساعة من ذلك بأن تلك كانت حكايات وقصص قصب بها أن تحكى أثناء «المشى» ، وأننى كنت أجرب وأعيش نسخة سريعة مما كان يمكن أن يحكى ويروى فى عدد من الأيام خلال الارتحال مشياً على الأقدام» .

حكاية مشابهة رواها شاتوين ، كان مسافراً فى جيب لاندكروزز مع عدد من الأصدقاء ، بما فيهم رجل أبوروجوني كان لقبه لمبى ، وكانوا يقودون السيارة فى بقعة محددة من خط الأغنية . لمبى الذى كان السلف - الجد لعشيرته هو القط الأصلي ، أو تشجلبا (قط صغير له ذيل طويل) لم يكن قد زار هذا المكان على خط أغنية القط الأصلي ، ومع ذلك فإنه الآن تمنى أن يذهب إلى هناك ليرى بعض الأقارب البعيدين الذين كانوا يحتضرون هناك ، فى خلال مدة سبع ساعات من القيادة عبر الريف الخلفى متعثرين فى أنهار جافة وتحت أشجار اللبان جلس الرجل الأبوروجوني بدون حراك على الكرسي الأمامى ، معصورا ما بين السائق أركادى ، ومسافر آخر ، فيما عدا بعض الهزات الصغيرة عند عبور الجيب لجزء من خط الأغنية .

فيما بعد ،

«وصلنا إلى تأثير جدولين : أى أننا قابلنا جدول الماء الذى عبرناه فى الأعلى هناك على الطريق الرئيسى . أما هذا الجدول الأصغر فإنه كان على الطريق للتجلبا - الرجال ، وكنا ننضم إليه فى الزوايا الصحيحة .

وفيما لف أركادى العجلة نحو اليسار فإن لمبى قفز إلى العمل ، مرة أخرى حشر رأسه من خلال النافذتين ، استدارت عيناه بوحشية حول الصخور ، المنحدرات ، النخل ، المياه . ارتجت شفتاه وتحركتا فى سرعة فى التكلم والمقمة من بطنه ومن خلالهما ، خرج فحيح : صوت إعصار يهز أغصان الشجر .

عرف أركادى حالاً ذلك الذى يحدث . لمبى كان قد تعلم بيت شعر جده - السلف القط لإيقاع المشى ، لسرعة أربعة أميال فى الساعة ، وكنا نحن نرتحل على سرعة خمساً وعشرين ميلا فى الساعة .

غير أركادى «جير» السيارة ليخفف من السرعة ، وبدأنا نزحف بمعدل لايزيد عن معدل السير مشيا ، وفى اللحظة نفسها ، وازن لمبى إيقاعه مع إيقاع السرعة البطيئة الجديدة . لقد كان يبتسم . اهتز رأسه طرباً للأمام والخلف . صار الصوت إيقاعاً موسيقياً جميلاً وممتعاً ، وعرفت أنت أنه فيما يتعلق به فإنه كان فى تلك اللحظة يتقمص روح القط - الأصلي» .

إن مثل تلك الحكاية أو الطُرفة تبدى بوضوح تلك المراسلة المحسوسة ما بين اللغة الشفاهية والأرض ، إنه تحالف عميق جداً لدرجة أن المتحدث لابد أن يوازن إيقاعات قصصه وحكاياته أو أغانيه لتلائم درجة إيقاع وسرعة تحركه بين تلك التضاريس ، إنه وكأن أماكن محددة فى الأرض تنبثق منها حكايات أو مقاطع شعرية معينة من خلال أشخاص الأبوروجونى ، أولئك الذين يرتحلون عبرها ، أو لكان الأمر أنه ليس الشخص الأصلي هو الذى ينطق ويتكلم ، ولكن بالأحرى الأرض هى التى تتكلم وتنطق من خلاله أثناء عبوره لها .

إن ذلك التخاطب والمراسلات ما بين الصوت المتكلم - الناطق والأرض الحية ارتباط محسوس وعميق ، رابطة ذات أهمية حيوية للحفاظ على وجود وبقاء واستمرار البشر . فى أرض جافة كخلفية أستراليا حيث موسم الأمطار ليس محدداً تماماً فإن إمكانية أن تتحرك بحسب تغيرات الطقس والمناخ ضرورية وحتمية للاستمرار فى الحياة ، إن دائرة من الحلم الشفاهى تعتبر عملياً منظومة تفصيلية من التعليمات للتحرك خلال البلاد ، طريقة أمنة عبر الأرض القاحلة والموحشة . إن عالمة الأنثروبولوجى هيلين بيانى قد حلت سلسلة مهمة ومتتابة من بقع وتضاريس آثار الأحلام عبر مقطع واحد من خط الأغنية ، ووجدت أن كل بقعة تحتوى إما على مصدر للماء ، أو ملاذ للحماية ، أو مركز حيوى عالٍ لرؤية المنطقة المحيطة ، أو مجموعة من تلك المواصفات الحيوية ، وبالفعل فإن تضاريس وبقاع الأحلام تلك كانت الأماكن الوحيدة التى تمتلك تلك المزايا فى صحراء باستثناء ذلك موحشة وقاحلة .

بيانى وجدت أيضاً أن الأماكن والتضاريس الجغرافية الغنية والفياضة بشكل خاص قد تم عبورها بشكل مألوف ومشترك بأكثر من حلم واحد ، وقد عثر عليها واكتشفت فى مغامرات أكثر من واحد من أسلاف زمن - الأحلام ، وكانت لذلك تعتبر مقدسة لعدد من العشائر الطوطمية ، إن عدد وتعقيدات الطقوس المركبة المرتبطة بأى مكان خاص من أماكن الأحلام تتنوع حسب درجة فيض وثراء المكان بالغذاء أو الماء ، أو الملاذ الذى يمكن أن يوجد فى ذلك المكان .

إن كل شخص عبر الاستعارة أو المتاجرة والمقايضة من أجل الحق فى أن يغنى امتدادات بعيدة من آثار أحلام الشخص أو غيره - ربما يوسع باستمرار معرفته بالطرق المحتملة والممكنة عبر الطرق الريفية التى يمكن له أن يرتحل عبرها فى الظروف

الصعبة ، وبما أن كل مجموعة من الأبولوجوني تتكون من أشخاص من عشائر طوطمية مختلفة أو من الحالمين فإنها سوف تمتلك فى العادة مخارج ومداخل أو منافذ لعدد من خطوط الأغنية ، وكذلك عدداً من الطرق للتحرك كلما ندر الماء أو الغذاء الداعى لذلك التحرك .

إن أغاني الحلم - بكلمات أخرى - تقدم أداة أو آلية سمعية للذاكرة ، طرقاً شفاهية لاستدعاء دروب ومسالك حيوية ومهمة عبر الأراضى الخشنة القاحلة .

ومع ذلك فإن هناك تركيبة للآلية الذاكرة تلك تعمل من خلال الحلم ، إن الطُرفتين أو الحكايتين اللتين ورد ذكرهما سابقاً - كلتيهما تحدث فى سيارات تتحرك - تشيران إلى أن روى أو حكي قصص معينة أو غناء وإنشاد أغانٍ محددة فى حد ذاته ينتج من اللقاء الحسى مع أماكن ويقاع معينة ، وكما أن الأغنية فى تركيبها تحمل ذاكرة عن كيفية التعرف على الأرض فإن مكان تضاريس معينة فى الأرض ينشط ويفعل الذاكرة لأغانٍ محددة وحكايات ، إن الأرض نفسها إذن ، تقدم آليةً بصرية للذاكرة ، منظومة من المفاتيح البصرية لتذكر حكايات زمن الأحلام .

إن أهمية هذه العلاقة الثانية لآلية الذاكرة تصبح واضحة سرعان ما نعترف بأن الأغاني والقصص تحمل فى داخلها «أكثر» من مجرد منظومة للتعليمات للتحرك من خلال المناطق والأراضى المحيطة بكثير ، فيما الوظيفة التوبوغرافية للأغاني واضحة فى أهميتها الحيوية فإن الأغاني والقصص تقدم أيضاً المفاتيح للسلوك فى المجتمع ، إنها تطرح عبر أمثلة متعددة كيفية التصرف ، أو كيفية عدم التصرف وآداب ذلك فى أوضاع معينة ، إن أسلاف وجدود زمن الأحلام الذين تمثلوا فى تلك القصص ليسوا بأكثر أو أقل أخلاقية من أحفادهم فى العالم الحديث ، ومع ذلك فإن الأوضاع التى وجد فيها الأسلاف المختلفون أنفسهم والنتائج الصعبة والمحن التى غالباً ماينتجت عن سلوكيات وأعمال محددة تقدم منظومة جاهزة بالفعل لخطوط إرشادية عن السلوك الصحيح وآدابه لأولئك الذين يغنون أو يسمعون تلك الأشعار اليوم ، محرمات وتابو اجتماعى ، «الإتيكيت» ومفاتيح الآداب مابين مخلوقات وكائنات مختلفة - الطريق الصحيح للقنص والصيد لحيوانات معينة أو جمع محصول أو غذاء أو فواكه ونباتات وأدوية معينة - كل ذلك محتوى فى أغاني زمن الأحلام وحكاياته ، إنها الأرض نفسها

هى المذكر والواعظ الأساسى لتلك التعليمات والوصايا ، بما أن كل ملمح أو بقعة فيها تفعل وتنشط ذاكرة قصة معينة أو مجموعة من الحكايات .

لقد قابلنا مبكراً مراسلات مثيلة فيما بين أباشى الغرب والذين بالنسبة إليهم تمثل الذاكرة الصوتية تعليمات محددة من القصص التى تتفجر عبر الاحتكاك بأماكن معينة حيث تكشف فيها أو حدثت تلك القصص . إن أحد أطروحات هذا الكتاب القوية هى أن التداعى الحسى مابين توبولوجى بصرى من استدعاء سمعى - التداخل المتمازج للمكان الأرضى مع الذاكرة اللغوية - هو عنصر مشترك لكل الثقافات الشفاهية الأصلية تقريباً ، إنه - من الممكن أن نشك - امتداد تلقائى لأعضاء الكائن البشرى ، امتداد يمكن تحويله بشكل متطرف ، ومع ذلك لا يمكن محوه من خلال الكتابة الأبجدية .

وفى الحقيقة ، أنه حتى فى الثقافات الأوروبية ثمة مثال محتفى به لهذا الصبو والاستعداد برغم الشكل المبدل بشكل كلى ، فى كتابها ذى الشهرة المبررة «فى الذاكرة» فإن فرانسيس بيتس تصف تقنيات آلية الذاكرة المستخدمة فى الروى الكلاسيكى لليونان وروما لتذكر الخطب الطويلة (تقنية تتم ممارستها بانتظام عبر الرواة حتى بداية انتشار النصوص المطبوعة خلال نهاية عصر النهضة) وهؤلاء الرواة الخطباء كانوا يتخيلون قصراً فسيحاً ، يمتلئ بالقاعات الكثيرة الواسعة والغرف والمقصورات والتفاصيل الدقيقة من الزينة والنقش ، عند ذلك يقوم الراوى بتخيل نفسه وتصورها بأنه يمشى ويسير عبر ذلك القصر ، وسوف يقوم بإيداع - فى أماكن مختلفة داخل الغرف - سلسلة من الأشياء المختلفة المتخيلة والمرتبطة بالأجزاء المختلفة لخطبته التى يعد لها فيما بعد ، لاستدعاء كامل تلك الخطبة فى تسلسلها الصحيح وتفصيلها فإن الراوى أو الخطيب عليه فقط أن يتصور نفسه مرة أخرى يمشى فى الطريق نفسه عبر قاعات وغرف ذلك القصر من قصور الذاكرة : كل مكان صادفه فى سيره سوف يذكره بمقطع معين أو جملة ليقولها أو الموضوع المحدد الذى عليه أن يطرحه فى تلك النقطة من مسار خطبته . وبدلاً من المعاناة للحفظ وتذكر تلك الخطبة التى أعدها فى حد ذاتها فإن الخطيب يجد أن الأمر أسهل بكثير وأكثر أماناً بأن يربط الأجزاء المختلفة من خطبته إلى أماكن مختلفة فى داخل التكوين الخيالى ، فى توبولوجى متصور من خلال تجواله ومشواره الخيالى ، ولكن فيما الخطيب الكلاسيكى

يتوجب عليه بناء وتحرك فى داخل موازين توبوغرافية فى خيالاته الخاصة فإن البشر الأصليين فى أستراليا يجدون أنفسهم مستغرقين بشكل فعلى فى ذلك الحقل التوبوغرافى - اللغوى ، ماشين ومتجولين عبر أرض حقيقية مادية والتى كل ملمح وبقعة فيها تمثل بالفعل الكلام والأغانى !

فى أستراليا الأبوروجونية - إذن - يمكننا أن نكشف علاقيتين أساسيتين لآلية الذاكرة مابين قصص زمن - الأحلام وسطح الأرض نفسه ، أولاً : الأحلام المنطوقة أو المغناة تقدم طريقة لاستدعاء طرق حيوية من خلال أرضية صعبة ووعرة فى الغالب ، ثانياً : اللقاء المستمر مع ملامح وأوجه متعددة للأرض المحيطة يحرك الذاكرة للأحلام المنطوقة التى تستجيب لتلك الأماكن والبقع وتماهياها فى المعنى والمضمون ، وفيما القصص المغناة تقدم آلية ذاكرة سمعية للتعرف على الأرض ، فإن الأرض نفسها تقدم آلية ذاكرة بصرية لاستدعاء قصص زمن - الأحلام ، وهكذا فإن بشر الأبوروجونى بالنسبة إليهم فإن قصص زمن الأحلام والأرض الحاضرة المحيطة بهم هى آليات ذاكرة مستوعبة ومتوالجة ، وتزدوج فى المعاش الحى فى عملية استثارة متبادلة ، إن الأرض واللغة - فى البعد الذى اللغة فيه متجسدة أساساً فى زمن أحلام الأسلاف - فإن ذلك يكون غير مفصول أو متجزئ .

أخذين بالاعتبار معطيات هذا التداخل التبادلى فى الاعتماد مابين القصص المحكية والأرض الحسية فإن الممارسة الإثنوغرافية للتسجيل الكتابى للقصص الشفاهية، وبالتالى إصدارها بشكل مطبوع - يجب أن يرى كشكل خاص من العنف ، حيث القصص يتم تمزيقها إرباً عن الأرض المرئية بتضاريسها وملامحها التوبوغرافية المتجسدة مادياً والمستثارة عبر تلك القصص ، على سبيل المثال «إن الأرض المتكلمة» لرولان وكاثرين بيرنديت المنشورة حول القصص الأبوروجونية المجمعة من خلال أربعة عقود من البحث هى قطعة مشرفة ودقيقة من البحث الأكاديمى ، ومع ذلك فإنه لايسعفها إلا أن تخيب آمال أولئك القراء الذين يأملون أن يجدوا فى تلك المجموعة من المغامرات المثيرة والحكى الحى مايشبعهم .

إن القصص المطبوعة تبدو غريبة فى أحسن الأحوال وفقيرة جداً فى بنيانها فى أسوأ الأحوال ، شىء ما يبدو مفقوداً ، بعض المفاتيح التى قد تفتح مغاليق المنطق الداخلى لتلك الحكايات، وإن هذا المفتاح هو لاشىء سوى الأرض الحية فى حد ذاتها ،

الحضور التجسدي الفعلى الحى والمعبر عن الأرض المحلية . إن المفتقد هو التوبوغرافية الصامتة ، أو الطبيعة الحية الصامتة للمكان ، التلال الحسية والينابيع التى تقف هناك وتطرح أسئلة المكان الخاصة التى تجيب عليها تلك القصص ، إن الحكايات تستجيب مباشرة إلى الأرض كما أن الأرض تستجيب مباشرة للقصص المغناة أو المحكية . هنا ، مجتثة من مرجعيتها الحسية ، ومحولة إلى أرضية مسطحة بدونما ملامح أو تضاريس فى الصفحة ، فإن القصص العتيقة الأزلية تبدأ فى فقد قواها الخاصة من زمن الأحلام .

فى هذا الفصل درسنا القليل من الطرق التى يمكن فيها المسار الخطابى للثقافة الشفاهية ، التقليدية ، القبلية ، فى الثقافات من أن يبقى مرتبطا لتلك الأصوات المعبرة والأشكال والحركات والاختلاجات الخاصة بالأرض الحية ، فى غياب أنظمة الكتابة الرسمية فإن المسار الإنسانى ببساطة لا يستطيع عزل نفسه عن الحقل الأوسع للمعاني المعبرة التى يشارك فيها ، وبذلك فإن النماذج اللغوية لثقافة شفاهية تبقى مستجيبة بشكل مميز ، ومسئول ، لعالم الحياة لما هو أكثر من بشرى ، أو المنطقة البايولوجية الحية التى تسكن فيها تلك الثقافة وتعيش .

يتوجب أن يكون يسيراً وسهلاً الآن أن نفهم تلك الغربية والاستلاب القهرى لأشخاص أصليين وشفاهيين تم إجبارهم بالقوة على الاجتثاث من أراضيهم التاريخية والتقليدية . إن الأرض المحلية بالنسبة إليهم هى الميزان نفسه لتوازن وانبثاق المعنى ، أن يتم إجبارهم على الاجتثاث من بيئتهم الأصلية (لأى سبب كان اقتصادياً أو سياسياً) هو أن نجبرهم على أن يصبحوا خرساً غير قادرين على الكلام - أو أن نخرب ونعطل ونمنع المعانى من كلامهم ونجعله بدون معنى - هو أن نخلعهم تماماً من أرضية السلام والتواؤم والمعنى ، إنه - ببساطة شديدة - أن نجبرهم على الخروج من عقولهم وفقدهم لها ، إن «إعادة التوطين والتسكين» الضخمة أو «الهجرة الإجبارية» تطرح نفسها فى أجزاء كثيرة من العالم اليوم باسم «التطور» والتنمية (على سبيل المثال «التهجير» الإجبارى للناس الشفاهيين فى إندونيسيا وماليزيا بهدف صنع طريق للتجارة عبر إحراق وإزالة غاباتهم - يجب أن يفهم فى هذا الضوء كأمثلة للمذابح الثقافية والحضارية) .

ومع ذلك فإنه فيما مثل ذلك «التقدم» والتطور الحضارى يزحف إلى الأمام فإن مقاومةً متزايدة قد بدأت فى الظهور فى داخل الحضارة التكنولوجية نفسها ، اشتعلت جزئياً بسبب احترام جديد للطرق الشفاهية والحكمة والوعى بداخلها ، إن أنواع الدراسات المطروحة فى هذا الفصل والمتطرق إليها - دراسات توثيق للاعتماد الحميم للناس الشفاهيين وطرق حياتهم على خصائص للأراضى التى يحيون ويعيشون فيها - هى اليوم يتم رصدها بتأثير متزايد للهجوم - على أرضية قانونية - على الاستغلال والانتهاك الصناعى لأراضى الشعوب الأصلية . إن توثيق ورصد كميث باسو للعلاقة الحميمة ما بين أباشى الغرب وقصصهم التعليمية الإرشادية والأرض المستوعبة تم استخدامه بالفعل بنجاح قانونياً لحماية أراضى ومياه وحقوق أباشى الغرب ، فى أثناء ذلك فإن التوثيق الخاص بآثار أحلام الأبوروغونى يتزايد رصده واستخدامه فى المحاكم الأسترالية للقوانين لحماية الأماكن الحيوية والمقدسة من المزيد من «التطوير والتنمية» .

للاماهوكا ، والكويكون ، وأباشى الغرب ، وقبائل الأبوروغونى المختلفة فى أستراليا - وكما هو بالنسبة للكثير من الثقافات الشفاهية ، الأصلية - فإن اكتمال وفهم لغة بشرية غير منفصل أو مبتور من فهم واكتمال سلامة البيئة المحيطة بهم ، ومن الحيوية التعبيرية للأراضى والكائنات الأكثر من بشرية ، إنها الأرض الحية هى التى تتكلم وتتحدث ، وإن الكلام والنطق البشرى مجرد جزئية من مسار أكبر وأعظم اكتمالاً .

(٦)

الزمن ، والفضاء ، والكسوف الكونى

" علينا أن نقف بمعزل عن التاريخ التقليدى حتى ونحن
نستخدم تسجيلات ووثائق الماضى ، ذلك أن فكرة التاريخ فى
حد ذاتها هى ابتكار ومُنَجَز غريب قامت أطروحاته الأصلية على
رفض السكان الأصليين ، إنه يُشكل خبرة خارج إطار الطبيعة
ويميل إلى تقليص المكان إلى مجرد مسرح تُؤدى عليه الدراما
الإنسانية . إن التاريخ ينظر إلى الماضى أساساً بمنظور السير
الذاتية والأمم ، إنه يبحث عن المبررات فى وعى ، وروحانية ،
وطموح شخصية الرجال وتخليدها عبر الكتابة " .
يوول شيبارد

" إننى أتساءل إذا ما كان للتراب شىء ليقوله ؟ وإننى
أتساءل عما إذا كان التراب يُصغى لما أقوله ؟ "
زعيم شاب ، من قبيلة كيوزيس
(أثناء الغناء لأراضيهم للحكومة الأمريكية فى عام ١٨٥٥ م)

الجزء الأول

مفاهيم جريدية

إن القصص والحكايات فى أعماقها الروائية تكمن خلاصة المعرفة والعلم التى تراكمت عبر أجدادنا وأسلافنا . أن تسمع قصة حُكِيت وكررت فى طفولة الشخص ، وأن يحكيها المرء من جديد عندما يكتسب أحقيته ودوره فى ذلك فيما بعد (الآن هى قد تأثرت بنماذج تجارب الشخص وإيقاعات صوته) هو أن يحافظ بشكل فعال وحيوى على سلامة واكتمال ثقافة أو حضارة ذلك الشخص ، إن المعرفة العلمية والسلوكيات الأخلاقية والمحرمات الاجتماعية واللغة الحقيقية بالفعل نفسها أو طرق التحدث والخطاب للثقافة غير الكتابية تتم المحافظة عليها أساساً عبر الأناشيد والغناء والقصص والأساطير والقصص الخيالية والألغاز وحكايات اقتفاء الأثر ، أى أنه عبر حكي وروى القصص .

ومع ذلك فإن القصص المحكية التى تُروى داخل إطار الثقافة الشفاهية غالباً ما تكون - كما قد رأينا - مرتبطة بعمق بمحيط الأرض الطبيعية والتى هى موطن تلك الثقافة ، إن القصص - بمعنى ما - ذات خصائص وسمات لا يمكن فصلها فيها عن المكان المحدد الذى نشأت فيه ، إن قصص الزمان البعيد لقبايل "كويكون" ، وحكايات "أغودزاهي" "الآباشي" الغرب ، وقصص الأحلام لقبايل "بنتوبى" و "بيتشاتا تاتاجارا" تقدم ثلاث طرق مختلفة حيث القصص القبلية تعزل وتنسج الناس الذين يروونها فى داخل نظام بيئتهم الخاصة بهم ، أو بشكل أكثر دقة هى ثلاث طُرُق حيث الأماكن الأرضية ، الطبيعية يمكن لها أن تتكلم وتتحدث عبر الأشخاص البشرىين الذين يقطنونها ، ذلك أن الخطاب ذا الفحوى والمعنى ليس - فى الثقافة الشفاهية - مُعاشاً كقدرة بشرية محضة ، ولكن كقوى للأرض والطبيعة الحاضرة نفسها ، والتى يشارك البشر أنفسهم فيها ومن خلالها .

إن قصص مثل تلك الثقافات تمنح شواهد - إذن - للقوة المميزة لمناطق حيوية معينة ، الطُرق المميزة التي تنادى فيها وتدعو أنظمة بيئية معينة المجتمع البشرى ، ومع ذلك فإن هذه القصص غالباً ما تقدم شواهد - أيضاً - حول الأماكن المعينة والمواقع فى تلك المناطق الضخمة . فى العالم الأسمى الشفاهى أن تحكى وتخبر بقصص معينة دونما أن تقول بشكل دقيق أين حدثت تلك الأحداث (أو إذا ما كان الشخص يستدعى ويسرد حلمًا أو رؤيا) أن تهمل القول والبوح بالمكان والموقع الذى " مُنحت " فيه الرؤية ، وقد يكون ذلك فى حد ذاته كاذباً ومعطلاً لقوة القص وتأثيره .

إن السحر المُتَقَرِّد المكان أو موقع واضح وجلى مما قد حدث فيه هناك ، مما يحدث ويقع على الشخص أو الآخرين وهم فى حضرته أو فيه . أن تروى عن تلك الأحداث هو ضمناً أن تروى وتتحدث عن القوى المميزة لذلك المكان ، وأن تُشارك بالفعل فى طاقاته وإمكانياته المُعَبَّرَة ، إن الأغاني المناسبة لموقع ومكان معين سوف تشتبك فى أسلوبها ، وإيقاعها الذى يتناسب مع نبض المكان ، ويتناغم مع الطريقة التى تُحدثُ بها الأشياء هناك - مع حِدَّةِ الظلال أو خريف الماء وكلامه فى باطن الأرض ، فى أيرلندا التقليدية فإن الشخص الريفى يمكنه الارتحال إلى نبع بعيد من أجل هدف الاستشفاء من الأرق ، وإلى نبع آخر بهدف تقوية النظر والإبصار ، وإلى آخر أيضاً لتلقى الرؤيا والحرز ضد اللصوص ، ذلك أنه لكل نبع قواه الخاصة به ، مباركته ، ولعناته . إن ألهة مختلفة تعيش وتسكن أماكن مختلفة ، وكذلك الشياطين المختلفة ، إن لكل مكان حيويته ، وأشكال حركته الخاصة ، وهذه النماذج تُشَاغِلُ الحواس وتصلها بطريق معينة ، فارضة أجواء وأمزجة معينة وطرق من الوعي ، وهكذا فإن أشخاصاً ، أميين ، شفاهيين سوف يقولون بشكل صائب أن لكل مكان عقله الخاص ، شخصيته ، وذكاءه ووعيه الخاص به .

تجريدية الفضاء والزمان

فيما تقنية الكتابة تواجه وتنتشر عبر ثقافة شفاهية سابقاً فإن القوة المحسوسة وشخصية أماكن معينة تبدأ تخبو وتنطفئ ؛ ذلك أن القصص التي تُعبر عن تجسّد تلك القوى يتم بالتدريج تدوينها عبر الكتابة ، إن التسجيل الكتابي للقصص الشفاهية يجعلها منفصلة لأول مرة عن الأماكن الفعلية التي حدثت فيها أحداث تلك القصص ، الآن يمكن أن تُحمل تلك الحكايات والقصص إلى أماكن أخرى ويمكن قراءتها في مدن بعيدة وقصية أو حتى في قارات غريبة ، إن القصص سريعاً ما تصبح وكأنها تبدو مستقلة عن أي مكان محدد .

سابقاً كانت قوى الحكايات المحكية متجذرة في طاقة وقوى المواقع المحددة التي تكشف فيها الأحداث ، فيما إعادة قص قصص معينة يمكن أن يحدث عبر استثارة بعض الأوضاع الاجتماعية المعينة ، فإن قيمتها الإرشادية والتربوية وتأثيرها الأخلاقي كان دائماً معتمداً (كما قد رأينا بين أباشي الغرب) على التواصل البصري أو الحسي للشخص مع الأماكن الفعلية حيث حدثت أحداث تلك القصص ،

قصص أخرى ربما استثارت عبر مواجهة مباشرة مع كائنات من الطيور أو حيوانات تم التعبير عن استغلالها في الحكايات ، أو مع نبتة معينة قد بدأت للتو في الإزهار ، أو عبر نماذج الطقس المحلي وتحولات الفصول ، في مثل تلك الأحوال فإن الاحتكاك والتواصل مع التضاريس والطبيعة المحيطة في المنطقة - والمواقع المختلفة أو الأماكن في داخل تلك الأراضي - كان المحرك الأساسي لتوليد تلك القصص الشفاهية ، وكان بذلك أساسياً وحيوياً للحفاظ على تلك القصص والثقافة نفسها .

حالما يتم تدوين القصص كتابة ، على كّل ، فإن النص المرئي يصبح المنشط الأساسي لتفعيل تلك القصص المحكية ، إن الآثار المُحبرة التي خلفها القلم وراءه وهو يرتحل عبر الورقة حل محل الآثار الطبيعية التي تُخلّفها وراءها الحيوانات ، أو أسلاف

المرء فى تفاعلاتهم مع الأرض المحلية ، إن الأماكن نفسها لم تعد مهمة وضرورية لتذكر تلك القصص ، وغالباً ما تبدو وكأنها عَرْضِيَّة تماماً بالنسبة للحكايات ، وخلفية هامشية لأحداثٍ بشرية يمكن لها أن تحدث ببساطة فى أى مكان آخر .

إن العناصر المتقاطعة مع البشرى ، والبيئة المحددة للقصص الشفاهية الأصلية لا تصبح مجالاً للتركيز عليها وغالباً ما يتم حذفها من الحكايات المكتوبة بشكل كامل ، وبهذه الكيفية فإن القصص والأساطير فيما تفقد شخصيتها الشفاهية الأدائية فإنها تفقد أيضاً الروابط الحية للأرض والطبيعة الأكثر من بشرية ، وإن الأرض نفسها مُجردة من القصص الخاصة بها والتي انبثقت فى يوم ما من كل كهف ونبع وأشجار على سطحها تبدأ فى فقد قواها المتعددة ، إن الحواس البشرية مستغرقة فى الكلمات المكتوبة لا تعود مدهوشة فى قبضة الأشكال التعبيرية والأصوات للأماكن المعينة ، إن الأرواح تسقط فى الصمت ، وتدرجياً فإن الشعور الأساسى بالمكان يصبح منسياً ومستبدلاً بأطروحة تجريدية عن " الفضاء " أو الفراغ كفراغ متناسق يخلو من المكان أو فراغٍ عديمى .

بالتأكيد ، عوامل كثيرة مختلفة عن ولكن مرتبطة مع الكتابة ساهمت فى فقدان الحس المكتمل والمميز للمكان ، إن تطور الكتابة فى الشرق الأوسط كما هو فى الصين كان مصحوباً بزيادة ضخمة فى عدد المستوطنات البشرية ، بالإضافة إلى قدر كبير من نمو القدرة البشرية أو قبولها وقابليتها للهيمنة والسيطرة على الأرض وزراعتها ، بالرغم من أن التحركات المبكرة والانتقال من الصيد وجمع الثمار كأساليب حياة نحو الطرق الزراعية الأكثر استقراراً قديمة جداً ، وقد تكون تأثرت وعُززت بسبب التغيرات المناخية فى نهاية العصر الجليدى ، فإنه حالما بدأت الثورة الزراعية فى التنامى ، فإن الكتابة بدأت فى لعب دور مهم فى الاستقرار وبالتالي نشر أشكال الاقتصاد الجديدة . إن القدرة الدقيقة على القياس والوزن وإمكانية الوفرة الزراعية فى المحاصيل فى حد ذاتها قدمت الإمكانية عبر الأطروحات اللغوية والحسابية ، لتمكن الجديد ، والمرتكز بشكل مكثف فى المدن للبقاء والتطور – وخصوصاً عبر الأوقات والأزمات العصبية مناخياً – وبالتالي مكنت التبادل التجارى للمحاصيل ونشوء الدول القومية ، إن التركيز الجديد والكثافة للأشخاص داخل مدن دائمة وعواصم ، والاعتماد المتزايد على تنظيم واحتكار إمكانات طبيعية تلقائية يمكن له فقط أن يكتف من الاغتراب المتنامى للحواس البشرية عن التنوع البرى ، الحى والطبيعى الذى قد تطورت منه تلك الحواس، غير أن

اهتمامى فى هذا العمل ليس بالزراعة أو التمدين - المؤثرات الهائلة التى تمت دراستها فى كتب كثيرة - ولكن بالأحرى اهتمامى بالسؤال الغريب حول الكتابة ، أى بتأثير الكتابة على الحواس البشرية وعلى خبراتنا المعاشة الحسية للأرض والطبيعة من حولنا .

لقد رأينا أن الكتابة الأبجدية تعمل على تهميش الشخصية المتجسدة لخصائص المكان فى الثقافات الشفاهية بطريقتين مميزتين ولكن متصلتين ، إحداهما استيعابية أساساً ، والأخرى لغوية فى المقام الأول . أولاً : القراءة والكتابة كشكل عالى التركيز للمشاركة ، يحل محل التشاركية الأقدم ما بين الحواس البشرية والمحيط الطبيعى للأرض (مؤثراً على تحرير النوايا البشرية من شروط الأرض التى تمليها بشكل مباشر) . ثانياً : إن كتابة وتدوين قصص الأسلاف يعزلها عن أماكنها الخاصة . إن هذا التراجع المزدوج - للحواس والقصص المحكية - عن الأماكن المختلفة التى كانت تحتضنها فى يوم ما قد مهد الطريق لأطروحة خالصة وبدون ملامح «الفضاء» ، وهو مفهوم تجريدى قد أصبح بالرغم من كل شئ يبدو اليوم أكثر أساسية وحقيقية عن الأماكن الطبيعية الأرضية والتى تبقى متجذرين ومتجسدين فيها بالشكل الحى المعاش .

لكن إذا كانت الكتابة الأبجدية عاملاً مهماً فى انبثاق " الفضاء " التجريدى المتجانس فإنه لم يكن أقل أهمية فى انبثاق " الزمان " التجريدى الطولى ، بالنسبة إلى الثقافات الأصلية الشفاهية فإن ذلك التدفق اللانهائى الذى ندعوه " بالزمان " ذو شخصية دائرية مُذهلة ، إن حواس البشر الشفاهيين ما تزال متناغمة مع الأرض والمحيط الطبيعى من حولهم ، ما تزال متحاورة مع الخطاب المُعَبَّر للرياح وطيور وعصافير الغابة ، ما زالت مُشاركة مع الكون الحسى ، إن الزمان فى عالم مثل هذا ليس منفصلاً عن دائرة الحياة للشمس والقمر ، وعن دائرة الفصول ، عن الموت وإعادة الولادة ما بين الحيوانات - عن العود الأبدى للأرض الخضراء ، وبحسب عالم الأنثروبولوجى ألى هلتكرانتز :

" فإن الزمن الغربى ومفاهيمه تتضمن بداية ونهاية ، إن الهنود الحمر الأمريكيين فهموا الزمن كدائرة أبدية الحدوث من الأحداث والسنين . بعض اللغات الهندية الحمراء تفتقد لمصطلحات ذات مرجعية للماضى والمستقبل ، كل شئ يسكن فى الحاضر».

اليوم من السهل لمعظمنا الحياة وسط البنائيات المتحولة على الدوام للحضارة التكنولوجية المتعلمة بأن نستوعب وحتى " نشعر " خلف كل تلك التعاقبات للفصول فى الأراضى الحسية ، ذلك اللهاث المتلاحق للزمان الطولى وغير القابل للعودة للخلف ، غير أنه بالنسبة إلى ثقافات ليس لديها نظام الكتابة فإنه ليس هناك ببساطة نقطة انفصال يمكن من خلالها رؤية وملاحظة التغييرات الباطنة والتنوعات فى الدوائر اللانهائية للطبيعة ، إن هذه التغييرات التى تتم ملاحظتها غالبا ما يفترض بأنها جزء من دوائر أخرى أكبر حجماً ، ذلك أنه بالنسبة إلى العالم الدقيق ، والواضح المرئى - العالم المنفلق على الجنس البشرى بسبب حواسنا المجردة - هو عالم دائرى وهكذا فإنه بكلمات هياها كاسابا ، أو الوعل الأسود ، من "أوغلاسيوس" :

" كل شيء تفعله قوى العالم يتم فعله فى دائرة ... الريح ، فى أقصى قواها ، تدور ، والطيور والعصافير تصنع أعشاشها فى أشكال دائرية ، ودينهم فى ذلك كما هو ديننا . الشمس تشرق آتية وتغرب ذاهبة من جديد فى دائرة . إن القمر يصنع الشيء نفسه ، وكلاهما مستدير ... وحتى الفصول فإنها تُشكل دائرة عظيمة فى تحولاتها ، وداثما تعود مرة أخرى إلى حيث ما كانت . إن حياة البشر دائرة من طفولة إلى طفولة وهكذا فإنها فى كل شيء تتحرك فيه القوى ... " .

إن منحنيات الزمان فى الثقافات الشفاهية يصعب جداً التعبير عنها ببلاغة على الصفحة ، ذلك أنها تخالف النظام الطولى للخط المطبوع ، ومع ذلك للانفعال الكلى ، الحسى ، مع المحيط الطبيعى الأرضى للشخص هو أن يجد الشخص نفسه فى عالم من الدوائر داخل دوائر هى الأخرى داخل دوائر ، إن قصص الأسلاف فى الثقافة الشفاهية يتم ذكرها وتكرارها مراراً - وبهذه الطريقة فقط يتم الحفاظ عليها - وهذا التكرار المنظم يخدم لوصول المجتمع البشرى إلى الرقصة الدائرية اللانهائية فى الكون . إن قصص الخلق الميثولوجية الأسطورية لتلك الثقافات ليست - شبيهة بالطرح الغربى الإنجيلى لخلق العالم - وصفا لأحداث مفترض أنها قد حدثت ذات مرة فى الماضى البعيد ، إنها بالأحرى عبر الحكى نفسه لتلك القصص تشارك بشكل فعال فى عملية ابتكارية خلاقية يمكن أن تُحس بأنها " تحدث فى اللحظة الراهنة " انبعاث مستمر يكون تجدد الفعل والدورى " مطلباً " فعلياً مثل تلك المشاركة : ميرسى إلياد فى عمله المهم والمنير " الكون والتاريخ : ميثولوجيا العود الأبدى " قد أوضح أيضاً مثل أى أكاديمى المستوى والبعد الذى يسكن فيه الناس

الشفاهيون ، الزمان الدائري دورياً يتم تجديده عبر طقس تكرار الأحداث الميثولوجية من القنص والصيد إلى صيد الأسماك وجمع النباتات ، إلى كسب الشريك الجنسي ، بناء منزل ، أو فعل الولادة - إن ذلك هو تعاقب الحدث عبر فاعلية قوى الأسلاف أو الطوطمية في الأزمان الأسطورية .

" إن الأساطير والميثولوجيا تحفظ وتمرر النماذج المقتداة لكل الأنشطة المسنولة التي يعمل وينشغل بها البشر ، عبر فاعلية هذه النماذج للسلوكيات التي تُكشف للبشر في الأزمنة الأسطورية فإن الكون والمجتمع يتجددان بشكل دورى " .

عبر أداء مثل تلك الأنشطة بعناية ، مستخدماً الجُمْلَ نفسها والحركات المتضمنة في الزمان الأسطوري ، فإن الشخص يمكنه فعلياً أن يصبح الكائن - السلف ، وهكذا فإنه يجدد حيوية النظام القائم للعالم (تماماً مثل رجل القبائل البنتوبى في تجواله على قدميه ، ماشياً على خطى سلفه - الطوطم ، يغنى العالم نفسه مرة أخرى إلى الوجود) .

وحتى الأحداث غير العادية ، الاستثنائية تندمج تلقائياً في التعاقب الأسطوري للنماذج الرئيسية ، وهكذا فإن وصول كورتيز إلى شواطئ المكسيك يتم تفسيره لدى الأزتيك كعودة للإله الصغير " كويتزال كوتال " إلى مملكته (إنه تفسير يتم تشجيعه مباشرة واستغلاله عبر كورتيز نفسه) ، وكذلك وصول كابتن كوك إلى هاواي يتم وعيه لدى سكان هاواي الأصليين كعودة لعظمة لونو . بالنسبة للثقافات الشفاهية ، وحتى لمجتمع متعلم جزئياً مثل الأزتيك (والذين كتابتهم الصورية غالباً بقيت التحاماً مستوعباً للأشكال البصرية للطبيعة المحيطة) فإن الأحداث البشرية تتخذ معناها فقط إلى الحد والبعد الذي يمكن تحديده مكانياً داخل كون محكى قصصياً يعيد حكى نفسه باستمرار ، أحداث غير مسبقة ، أحداث فردية لا مكان لها داخل القصص الدائرية ، يمكن أن لا يكون لها مكان أيضاً ما بين الفصول المتحولة أو دوائر الأرض والسماء . إن الطقوس المتعددة للإثارة ، والاحتفالات التمهيدية ، والأغاني السنوية ورقصات القنص والحصاد كلها طرق حيث سكان المكان الأصليون يوظفون فعلياً إيقاعات الكون الأكثر من البشرى ، وهكذا يجسدون إيقاعاتهم الخاصة داخل تلك الأكثر اتساعاً في دائريتها .

إن الأبجدية تحل محل ذلك وتبدله ، من أجل القراءة الصوتية يتوجب علينا أن نفرغ المشاركة المتداخلة الحواس والتبادلية ما بين حواسنا والأرض المحيطة بنا ، إن حروف الأبجدية ، كل منها يعود إلى صوت معين أو حركة صوتية للفم البشرى ، يبدأ فى العمل كمرايا تعكسنا لأنفسنا ، وهكذا فإنها تؤسس انعكاسية جديدة ما بين الأعضاء البشرية وإشارتها نفسها ، دورة قصيرة للتلقى الحسى ما بين تلك الأعضاء والأرض (" الذكاء التأملى الانعكاسى " هو تماماً ذلك اللوب الدائرى الانعكاسى ، هذا " الانعكاس " الجديد ما بين أنفسنا وإشارتنا المكتوبة) إن التجارب البشرية والأحداث تبدأ فى أن تصبح ممتعة بطريقتها ، ومستقلة عن علاقتها مع الدوائر الطبيعية .

إن تسجيل الأحداث الميثولوجية كتابة أيضاً خبرة جديدة للديمومة ، والثبات ، والنوعية غير المكررة لتلك الأحداث ، حالما يتم تثبيتها على سطح الكتابة ، فإن الأحداث الميثولوجية لا تعود قادرة على تغيير شكلها للتناسب مع أوضاع حالية مُستحدثة ، إن الأحداث الحالية يتم تجريدتها وسرقتها من أسطوريتها والميثولوجيا الممكنة لها ، والتشبيه القصصى . عند كتابة الأساطير فإن الأحداث المعاصرة تتطلب تحديداً عارياً ومتميزاً غير معروف بعد ، فيما بعض تلك الأحداث العارية تصبح عرضة للوصف أو التسجيل الكتابى فإنها أيضاً تصبح ثابتة بذلك فى خصوصيتها وتفاصيلها ، وهكذا فإنها تفرض مكانها المحدد فى داخل التعاقب البطئ للأحداث المسجلة ، وهكذا تفعل القصة الشفاهية تدريجياً مانحة الطريق للتاريخ المكتوب ، إن الشكل الدائرى للزمان الأرضى يتلاشى وراء الوعى الجديد للتطور الذى لا يمكن عودته للخلف للأحداث المُشَيَّئة ، والزمان التاريخى الطولى يصبح واضحاً .

لكن الآن دعونا نعود للخلف لدقيقة ، ذلك أنه عبر المناقشة فى هذه الطريقة الملعبونة نوعاً ما لتأثير الكتابة الأبجدية على نشوء مفهوم " الفضاء " و " الزمان " الطولى لربما أكون قد تركت الانطباع بأن الفضاء والزمان كانا دائماً - للناس الشفاهيين ولنا - أبعاداً غير مميزة للتجربة المعاشة ، وإن ثورة التعليم والكتابة ببساطة قد حلت محل الشخصية المعاشة لهاتين الظاهرتين المميزتين بالفعل . فى الحقيقة - على كُل - فإن الاختلاف فى حد ذاته والتمييز ما بين " الفضاء " عن " الزمان " قد وُلِدَ فى حد ذاته من خلال التغيرات والتحولات اللغوية والاستيعابية التى نناقشها نحن ، ذلك أن الزمان الذى هو دائرى أو استدارى هو " فضائى " بالقدر نفسه كما هو زمانى أو " وقتى " .

عدم التمييز ما بين الفضاء والزمان فى الكون الشفاهى

إننا نلامس هنا أحد أهم الحدود التى تمنع التفهم الحقيقى ما بين الغرب الحديث الأبعدى والثقافات الأصلية الشفاهية ، على غير غرار الزمان الطولى فإن الزمان الذى يستوعب دائرياً لا يمكن تجريده بشكل جاهز عن ظاهرة الفضاء أو المكان الذى يمثلته عن - على سبيل المثال - الدورات الدورية الدائرية للشمس ، والقمر ، والنجوم ، على غير غرار الخط المستقيم ، الأكثر من ذلك ، الدائرة تُعلم وتغلق الحقل الفضائى ، وبالفعل فإن الفضاء المرئى الواضح الذى نجد أنفسنا فيه عادة عندما نخطو فى الخارج هو فى حد ذاته محاطاً بلغز دائرى اصطلاحنا على تسميته " بالأفق " أو المدى ، إن رسوم وكونتور الأفق الدقيق يتنوع بشكل كبير فى أراضٍ مختلفة ، ومع ذلك كلما تسلقنا للوصول إلى قمة كبرى فإن الشخصية الدائرية للعالم المرئى تصبح واضحة وظاهرة ، وهكذا فإن الزمان الدائرى ، الزمن المعاش والمجرب لثقافة شفاهية له الشكل نفسه الذى يرون ويفهمون به المكان أو الفضاء ، وكلا الدائرتين هما فى الحقيقة واحد :

" إن اللاكوتا يحددون السنة كدائرة حول حدود العالم ، إن الدائرة رمز للثنتين معاً الأرض (بأفاقها المستديرة) والزمان ، إن تحولات شروق الشمس وغروبها حول الأفق خلال مسار السنة يعكس خطوط وشكل الوقت والزمان ، الوقت والزمان كجزء من الفضاء " .

على المسطحات العالية فى جبال الروكى ، حيث الأفق المرئى متسع وعريض بشكل خاص ، وهى ذات ترتيبات دائرية للصخور والأحجار متجمعة حول الذروة الأساسية ، إنه من المعروف أن ذلك " العَجَل الطبى " مازال مستخدماً لدى الكثير من قبائل أمريكا الشمالية ، وكان يتخذ وظيفة الروزنامة لديهم ، أو بالأحرى إنها تمكن

الشخص ليُعرّف نفسه داخل بُعدٍ ليس فضائياً أو زمانياً بشكلٍ أوحى وخالص . إن الصخرة الضخمة تقع بالتحديد داخل مكان انبعاث الشمس الشمالي ، محددة مكاناً هو بالقدر نفسه في الزمان (عصا الصيف) والمكان ، إن اتحاداً مماثلاً – من ذلك النوع الذي هو " بالنسبة إلينا " بُعدين مختلفين تماماً ، الفضائي والزمني – يوجد ما بين الأزتيك في أوقات الغزو ، بحسب ديبجو ديوران ، راهب إسباني وصل إلى المكسيك في النصف الأول من القرن السادس عشر :

" يكتب ديوران في تقريره أنه ما بين الأزتيك ، الذين يوزعون سنواتهم ويقسمونها دائرياً بحسب نقاط رئيسية ، السنوات التي يهابها الناس كانت للشمال والغرب ، بما أنهم يتذكرون أن معظم الأحداث غير السعيدة قد حدثت تحت تلك العلامات " .

وهكذا فإن مزاجاً دائرياً من الوقت لا يُميز نفسه بشكل جاهز عن الحقل الفضائي والمكاني حيث يجد الأشخاص الشفاهيون أنفسهم غارقين فيه بشكل مُعاش . غير أنه علينا أن نتذكر أن هذا الفضاء المُعاش هو في حد ذاته مختلف جداً عن الفراغ العدمي ، الجامد ، الذي اصطلحت الحضارة الأبجدية على تسميته " بالفضاء " أو الفراغ ، كما قد رأينا أعلاه ، الفضاء بالنسبة للثقافة الشفاهية تتم خبرته مباشرة كمكان ، أو أماكن – كبعد مميز ومستوى وجود يحتوى على أماكن متنوعة لكل منها قوته وطريقته في تنظيم حواسنا والتأثير على وعينا ، على غير غرار تجريدية "فضاء" أبدى ومتجانس فإن المكان من الموازين النوعية الأولى ، حقل نابض يخفق للخبرة والتجربة المعاشة ، قادر على تحريكنا حتى في هدوئه وثباته ، إنه مزاج للمكان ، إذن ، هو الذي دائماً وقتي وزماني ، ولا يتوجب علينا أن نندهش من أن الناس الشفاهيين يتحدثون عما هو بالنسبة إلينا ظاهرة فضائية تماماً ، كانبعاث لعمليات حية وحيوية ، وعن المكان في حد ذاته أو الفضاء كنوع من الديناميكية التي تتكشف على الدوام ، على سبيل المثال تحليل حديث في طوول كتاب للمفاهيم الفضائية ما بين الدني ، أو النافاجو ، يستخلص التالي بالنسبة إليهم :

"الفضاء ، مثل الأشياء أو التكوينات في داخله حيوى ، أى أن كل "التكوينات" ، " الأشياء " ، أو الوحدات المثيلة للعمل والتلقى يجب أن تؤخذ بالاعتبار كوحدات منشغلة باستمرار في العمليات بالكيفية نفسها ، الوحدات الفضائية والعلاقات الفضائية هي "نوعية" بالحس والمنطق نفسه ولا يمكن اعتبارها محددة بوضوح ، وجاهزة ككمية وجاهدة في عنصرها " .

إن المؤلفين يؤكدون - لذلك - أن أطروحة معقدة ومُركَّبة للفضاء - الزمان (أو بكلماتهم " الزمان - الفضاء ") سوف تكون غالباً ترجمة نسبية أكثر لخبرة الناقاد المعاشة ، " عن ماهى تمييز واضح لمفاهيم ذات بُعد واحد للزمان وثلاث أبعاد للفضاء " .

إن حالة مشابهة كان قد اكتشفها عالم اللغة الأمريكي بينجامين لى هورف فى تحليلاته المركزة والمستفيضة حول لغة " الهوبى " خلال مرحلة الثلاثينيات من ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٤٠م ، هورف وجد أنه ليس هناك من مرجع لأى بُعد مُستقل للزمان فى الحقيقة ، ولا مصطلحات أو تعبيرات يمكن أن " تعود أو ترجع إلى الفضاء بطريقة كهذه كأن تستثنى هذا العنصر للوجود أو البعد الذى ندعوه بالزمان أو الوقت ، وهكذا فإنه عبر الإيماء بترك معنى يمكن الرجوع إليه على أنه الزمان أو الوقت " ، إن ما ندعوه " بالوقت " بكلمات أخرى لا يمكن فصله عن خبرة الهوبى بالمكان أو الفضاء :

" فى وجهة نظر الهوبى هذه (تلك التى ندعوها) الوقت أو الزمان تختفى و (ذلك الذى ندعوه) الفضاء يُستبدل ، وهكذا ألا يعود متجانساً وفضاءً مباشراً مفرغاً من الزمان لحواسنا المفترضة أو آليات نيوتن الكلاسيكية " .

إن أطروحات هورف الساحرة كانت غالباً ما تؤخذ ببساطة ، للباحثين وطلابهم ، لتعنى - ما بين أشياء أخرى - بأن ناس الهوبى لا يمتلكون وعياً ووقتياً أو زمانياً من أى نوع ، أو بأن لغة الهوبى جامدة بشكل مطلق ، وليس لديها من طريقة للتمييز ما بين الأحداث الأولى واللاحقة ، أو ما بين أحداث أو مسافات أقل من التى تحدث فى ذلك الذى " نحن " ندعوه بالزمان ، إن مثل ذلك الفهم المغلوط بلا شك قد تم تشجيعه من قبل مبالغات هورف الكثيرة قد قاد العديد من علماء اللغة فى السنوات الحالية إلى تحدى نتائج ومكتشفات هورف ، إن عدداً من الباحثين العاملين عن قرب مع اللغة الخاصة بالهوبى قد ادَّعوا أنهم نقضوا نتائج هورف بشكل كامل ، إن مثل ذلك النقض على كل هو أطروحات فى حد ذاتها معتمدة على قراءة مسطحة ومبسطة لنتائج هورف ، على رفض قائم على أن هورف لم يكن يؤكد غياب الوعى الزمانى ما بين الهوبى ، ولكن بالأحرى غياب - فى مسارهم - لأى مفهوم ميتافيزيقى وما وراء طبيعى للزمان يمكن عزله عن وعيهم الديناميكى بالفضاء أو المكان .

فيما هورف لم يجد أطروحات منفصلة للفضاء والزمان ما بين الهوبى إلا أنه كشف فى لغة الهوبى تمييزاً ما بين نموذجين أساسيين للوجود ، والذى دعاه

اصطلاحياً " بالمتحقق " ، " والمُحقق " ، " المُحقق " يتجاوب بشكل عام مع أطروحتنا عن الوجود " الموضوعى " ، وهو يتكون من " كل ذلك الذى هو ، أو الذى كان مفتوحاً للحواس ... بدون محاولة للتمييز ما بين الحاضر والماضى ، غير أنه يستثنى كل شيء ندعوه بالمستقبل " ، " المتحقق " ، على صعيد آخر :

" يتكون من كل ذلك الذى ندعوه بالمستقبل ، ولكنه ليس ذلك فقط ، إنه يتضمن أيضاً وبشكل غير منفصل كل ذلك الذى ندعوه بالذهنى - كل شيء يظهر أو يبدو أو يوجد فى العقل ، أو كما يفضل أن يدعوه الهوى بالقول فى " القلب " ليس فقط فى قلب الإنسان ، ولكن فى قلب الحيوان ، والنبات ، والأشياء ، وفى الوراثة هناك وفى دواخل كل الأشكال والمظاهر للطبيعة ، وفى قلب الطبيعة (نفسها) ... " .

إن " المُحقق " - بكلمات أخرى - هو ذلك الجانب من ظاهرة واضحة بالفعل بالنسبة لحواسنا ، فيما " المُتحقق " هو ذلك الذى ليس ظاهراً أو واضحاً بعد ، ليس بالحاضر بعد بالنسبة للحواس ، ولكنه مفترض أن يكون نفسياً يجمع نفسه نحو التحقق فى داخل أعماق كل الظاهرة الحسية المحسوسة ، إنه إحساس الشخص ، وشعوره ، وتفكيره ، ورغباته ، إنها كلها جزء من - وبالتالى مشاركة مع - تلك الرغبة الجماعية والتحضير الضمنى فى كل الأشياء - من انبعاث ونضج الذرة ، إلى تشكيل السحب وسقوط الأمطار - وبالفعل إن النوايا البشرية خصوصاً عندما تتركز فى الاحتفالات الدينية والصلوات تساهم مباشرة لذلك الذى يصبح متحققاً فى مثل تلك الظاهرة .

فيما لغة الهوى تنتمى إلى عائلة يوتو أزيك من اللغات فإن دنى المجاورة أو النافاجو يتحدثون لغة من عائلة الأتاباسكان - مثل الكويكون وقبائل أخرى للشمال الغربى البعيد ، منذ زمن أن كان أسلاف الأباشى والنافاجو متجهين فى البداية نحو الجنوب منذ قرون طويلة مضت (إن البدو النافاجو جاؤوا أولاً واحتكوا مع أناس البيوبلو فى وادى ريو الكبير منذ حوالى ستمئة سنة مضت ، وبالتالى تكييفوا وتأقلموا فى صحراء أريزونا منذ ما يقرب من مئتى سنة مضت) على الرغم من ذلك فإن لغة النافاجو أيضاً تبدو أنها حافظت على أطروحة واسعة عن تأثير الرغبة البشرية والخيال على العالم الحادث باستمرار ، إنها أطروحة مماثلة جداً لتلك التى وجدها هورف ما بين الهوى . فى عام ١٩٨٣ م . وفى دراسة عن المواصفات اللغوية للنافاجو تعزى

مبكراً لادعاء مؤلفين بأن "الوجود" بالنسبة للنافاجو ، " يجب أن يُفهم كتحقق مستمر ... (ومثل) سلسلة من الأحداث ، بدلاً من أحوال أو أوضاع تحدث خلال الزمان " ، ثم إنهم يذهبون إلى اقتراح بأن الناس الغربيين ، وذلك الذى يدعونه " المستقبل " يتم معاشته وتجربته لدى النافاجو على أنه :

مثل مخزون من الاحتمالات ، من الأحداث غير المكتملة الحادثة ، والظروف ، إنها (هذه الظروف) مازالت أكثر ذلك الذى «يصبح» (بدلاً من يكون) ويتضمن فى عملية «للتحقق» من هذه الظروف نفسها . إن الكائن البشرى يستطيع - عبر أفكاره ورغباته - أن يمارس تأثيراً على كل تلك «الإمكانات» أو الاحتمالات .

ومن ثم ، فيما كان أى تمييز واضح مابين الفضاء والزمان نجد فى أمثلة لكلا اليوتو - آرتيك والاثاباسكان بمجموعات لغاتها ، تفريقاً طفيفاً مابين المحقق وغير المتحقق فضائياً ، أى أن هناك إحساساً بالفضاء كانبثاق مستمر من الباطنى إلى الخارجى كوجود ، وللنوايا البشرية كمشاركة مع ذلك الانبثاق المحيط .

إن عدم التمييز مابين الفضاء والزمان كان أيضاً واضحاً فى مناقشتنا فى الفصل الأخير حول أطروحات أبورجوني أستراليا من الشيرنجا ، أو زمن الأحلام مثل الزمان - البعيد للكويكون ، فإن زمن الأحلام لايعود إلى الماضى بأى معنى حرفى (إلى زمان أو وقت منته تم الفروغ منه) ، ولكن بالأحرى إلى الزمان ذى الصفة الباطنية النفسية لمحيط الأرض الحاضنة ، إن طرقاً مختلفة من خلال أراضى الحاضر تمتلئ بقصص مختلفة منذ زمن الأحلام ، وبالفعل فإن كل حفرة ماء ، كل غابة ، كل بحيرة أو ينبوع يمتلك حلمه الذاتى ، وحياته الضمنية الخاصة ، إن حيوية كل مكان - الأكثر من ذلك - يتم إنعاشها عبر الاستثارة البشرية ، وإحيائها عبر الأحداث المحكية المتبطنة بداخله ، إن زمن - الأحلام إذن هو أساس المحيط الفضائى والمكانى ، إنه ليس بمنظومة من الأحداث الجاهزة المحددة والساكنة فى ماضٍ منتهٍ ، ولكن إنها العمق نفسه للحاضر المعاش - النوم الأرضى ، أو الحلم ، والذى منه خارجاً تصبح الأرض المحيطة قابلة للاستمرار فى الحاضر ، ومرة أخرى الحلم البشرى ، النوايا البشرية ، الفعل البشرى والغناء يشارك بوضوح فى ذلك الحضور القادم .

إن أمثلة كثيرة أخرى يمكن طرحها ، إن هذه الأمثلة القليلة من الجوانب المتضاربة للأرض يجب أن تكون كافية على الأقل لعرض ذلك «الزمان» المنفصل «والفضاء» ، على أنها ليست أطروحات قاطعة وكلية في الخبرة البشرية ، إنه في الأغلب بدون نظام رسمي للأرقام والأطروحات اللغوية ليس من الممكن التجريد الكامل لحس رسمي «بالزمان» المتطور من الخبرة المباشرة للبيئة الحية المتكونة ، أو ما يوازي الشيء نفسه ، لتجسيد الخبرة الديناميكية للمكان الأرضي إلى حدس «لفضاء» جامد ، ومتجانس ، إذا كانت هذه هي الحال فإن الكتابة إذن يجب أن يُعترف بها كظرف ضروري للاعتقاد بفضاء وزمان مطلق ومميز تماماً .

منفيون فى الكلمة

بحسب ميرسى إلياد فإن العبرانيين القدماء كانوا أول ناس «يكتشفون» حالة الزمان الطولى ، غير المتكرر :

«لأول مرة ، كرّس الأنبياء قيمة للتاريخ ، ناجحين فى تجاوز الرؤية التقليدية للدائرة (المفهوم الذى يضمن أن كل شئ سوف يتكرر للأبد) ، واكتشفوا زمناً ذا بعد وطريق واحد ، إن هذا الاكتشاف لم يكن قبوله كاملاً ومباشراً فى وعى جميع الناس من اليهود ، وبقيت المفاهيم القديمة لزمان طويل قائمة» .

بالنسبة للعبرانيين القدماء أو ما نعرفه عنهم من خلال عدسة التوراة العبرية - إن العودة الدائرية للأحداث الفعلية تطلبت اهتماماً أقل عن تلك الأحداث التى كانت مميزة وغير مسبقة (الكوارث الطبيعية ، والحصارات ، والمعارك ، وأشباه ذلك) ذلك أن هذه الأحداث غير المتكررة كانت مؤشراً لإدارة (يهوى - YHWA) أو الله فيما يتعلق بالعبرانيين . وبمصطلحات إلياد ، فإن هذه الأحداث المميزة وبالتى كانت توابعها غالباً ما تكون مدمرة (إما بالنسبة للعبرانيين أو أعدائهم) قد تم تفسيرها عبر الأنبياء " كغضب سلبى " وعقوبات ، وتعبيرات عن سخط يهوى عليهم ، وبهذا التفسير فإن هذه الأحداث غير المسبقة قد تطلبت نوعاً من الاتساق لم يكن معروفاً من قبل ، وهكذا بدأت فى الوقوف خارجاً عن التجليات الدائرية للظاهرة الطبيعية ، والشعب العبرانى وصل إلى فهم نفسه فيما يتعلق بهذا النموذج الجديد ، وغير المتكرر للزمان ، أى فى العلاقة مع التاريخ .

"لأول مرة نجد تكريساً وقبولاً متزايداً لفكرة أن أحداث التاريخ تمتلك قيمة فى حد ذاتها ، فيما يتعلق بالبعد الخاص بأنها محددة ومقدرة بمشيئة الله " .

ومع ذلك من الضرورى أن ندرك ذلك الذى " لا " يذكره إلياد فى مناقشته - إن العبرانيين أيضاً هم الثقافة الأبجدية الحقيقية الأولى التى نعرفها ، هم أول "أصحاب الكتاب" ، وبالفعل فى حداث تأسيس الشعب اليهودى - الصرخة العظيمة على جبل

سيناء - "نقش" موسى الأوامر التي أملاها يَهُوَى (أكثر أسماء الله مخافةً) على لوحين من الحجارة ، ومن المفترض أنها كانت في كتابة أبجدية (الأكاديميون المعاصرون يحددون الخروج الكبير من مصر حوالى عام ١٢٥٠ ق.م تقريباً، لقد كان في ذلك الوقت تحديداً أن حدث أن الاثنين وعشرين حرفاً للألف - باء شُرِع في استخدامها في منطقة كنعان ، أو فلسطين) .

في الحقيقة إن الوعي الجديد والاعتراف بالزمان غير الأسطوري أو الميثولوجي وغير المكرر في الكتابة العبرانية يمكن استيعابه فقط بالمراجعة للكتابة الأبجدية في حد ذاتها ، إن تسجيل القصص الحضارية عبر الكتابة - كما قد رأينا - يُكَبِّت الأحداث القصصية في مكانها وخصوصيتها ، مزوداً إياها بدوام جديد وغير متحول فيما كتبت في تسلسل ثابت لأحداث متميزة مشابهة ، إن إحساساً جديداً بالزمان كتسلسل غير مُكرر بدأ في فرض حضوره على الإحساس العام وفي تضاد مع الدائرية اللامتناهية للكون ، إن المستويات المتنوعة للكتابة في التوراة العبرانية هي أول تسجيل يتم الحفاظ عليه لهذا الإحساس والمنطق الجديد .

كما قد طرحنا أيضاً الألف - باء القديمة باعتبارها أول نظام كتابة صوتي تماماً مميزاً ومانحاً الأولوية للصوت البشرى ، إن الإسرائيليين الذين تزايد تعليمهم وجدوا أنفسهم في قبضة علاقة حيوية لا مع الأشكال الطبيعية المعبرة من حولهم ولا مع الرسوم الجامدة أو الأصنام المألوفة في الكتابة - التصويرية أو الثقافات الأيدوجرافية، ولكن مع كامل قوى الصوت البشرى ، لقد كان صوتاً سبق بوضوح وتجاوز ، كل حياة فردية - الصوت ، سوف يبدو للأبدية نفسها - ولكنه بالرغم من ذلك خاطب الشعب العبراني مباشرة ، متحدثاً أولاً وأخيراً عبر الحروف المكتوبة .

فيما محيط الأرض الطبيعية المرئي يقدم للثقافة الشفاهية القبلية مع منشط الذاكرة ، لتذكر قصصها الأزلية القديمة - كتابةً أبجدية مكنت القبائل العبرانية من الحفاظ على قصصها الحضارية بشكل منضبط ، حتى عندما كان الناس منقطعين لأجيال كثيرة عن الأرض الفعلية التي حدثت فيها تلك القصص ، عبر حملها للسطح المكتوب القصص الحيوية التي حملها قبل ذلك الأراضي نفسها فإن النص المكتوب أصبح نوعاً من الأرض المتنقلة بالنسبة للناس العبرانيين ، وبالفعل إنه فقط هكذا عبر فضيلة الأرض المتنقلة تمكن اليهود من الحفاظ على ثقافتهم الواحدة ، وبالتالي أنفسهم

فيما تنقلوا في كل مرحلة من مراحل المنفى من الأراضي الفعلية التي حدثت فيها القصص القديمة .

ومع ذلك فإن الكثير من القصص المكتوبة في التوراة هي قصص بالفعل حول ضياع المكان ، المنفى ، إن أكثر القصص قدما في التوراة العبرانية تتشكل حول - منذ البداية - محور النفي ، منذ طرد آدم وحواء من جنة عدن ، إلى رحلة التيه الطويلة للإسرائيليين في الصحراء ، إن الإحساس اليهودي بالمنفى لم يكن أبداً مجرد حالة من الانفصال عن مكان محدد بعينه ، عن أراضٍ محددة ، لقد كان (وما زال) انفصالاً عن الإمكانية نفسها للكينونة الكاملة في الوطن أو البيت ، إن هذا الإحساس الأعمق بالضياع ، هذا الإحساس بالاستعداد الجاهز والدائم لكينونة المنفى غير منفصل كما اقترح عن التعليم الأبدي ، هذا السحر العظيم والصعب الذي كان العبرانيون أول رعاته الحقيقيين .

إن الكتابة الأبجدية يمكن أن تشاغل الحواس البشرية فقط إلى المدى الذي تهدد فيه هذه الحواس - على الأقل مبدئياً - مشاركتها التلقائية مع الأرض الحية ، أن تبدأ في القراءة أبجدياً أن تكون جاهزاً هكذا للضياع من المكان ، مقطوعاً عن الغذاء الحسى للحقل الأكثر من بشرى للأشكال ، غير أنه أيضاً الإحساس والشعور بالمذاق الذي مازال عالقا لذلك الغذاء ، وبذلك التوق والحنين للأمل بأن مثل ذلك التواصل قد يستعاد في يوم ما . «ذلك أن كينونة أن تكون يهودياً (كما يكتب إدmond جيبس) يعني نفى نفسك في الكلمة وفي الوقت نفسه البكاء والعيول لمنفاك» .

إن الألم ، والوجع ، والحزن لهذا المنفى هو تماماً الأثر لذلك الذي تم ضياعه ، والتحدى للحميمية المنسية ، إن القصص في سفر التكوين تتناغم بشكل عميق مع القوى الحية للأماكن ، وإن تلك القوة العالقة هي التي تمنح مثل تلك الرموز القوية للخروج والمنفى ، إن القصص ممثلة بأسماء الأماكن المقدسة ، والكثير من هذه القصص تبدو متمحورة حول الحديث عن أماكن محددة وكيف اكتسبت أسماءها الخاصة ، فيما هذه الأماكن المقدسة لا تبدو أبداً بأنها تمتلك قواها الذاتية تماماً (الكثير - على سبيل المثال ، منها تأخذ قداساتها من واقع أن يهودياً تحدث هناك أو كشف عن نفسه لأحد أبطال تلك القصص فيها) ، إن المكان الأرضي الطبيعي بالرغم من كل شيء يبقى عنصراً بنائياً للفضاء التوراتي .

الأكثر من ذلك أن مسيرة الزمان لقدماء العبرانيين لم تكن تماما طولية ، إن الأيام المقدسة الموصوفة في التوراة مرتبطة عن قرب بالدوائر المزدوجة للشمس والقمر ، الأكثر من ذلك أن الزمان التاريخي غير المتكرر والذي طرحه إلياد يبدو بأنه يتناسب مع الإحساس بالانفصال الوجودي والمنفى ، إنه هكذا إذن في العادات العبرية ، النفي من أبدية جنة عدن (وفيما بعد ، هدم المعبد) ينعكس في المرآة ، في الطرق الأخرى للتاريخ المتعاقب ، بالوعد بالعودة من المنفى ، مجيء المسيح ، ونهاية أو آخرة للزمان المنفصل ، إن مسيرة الزمان للأمام بمعنى أنه أخيرا سوف ينفتح للخارج ، متدفقا من جديد في الأبدية الفضائية للمكان الحي (الأرض الموعودة) ، وهكذا نحو العصر الذهبي للسلام مابين كل الأمم ، إن الأبدية تكمن لا في الجنة المنفصلة (قدماء العبرانيين لم يعرفوا مثل ذلك البعد أو الوجود) ولكن في الوعد بمستقبل متصالح مع الأرض .

إن الزمان والمكان مازالا متأثرين بعمق ببعضهما بعضاً في التوراة العبرية ، إنها ليست أبدا تماما مميزة وذلك أنهم مازالوا يبلغون ، مهما كانوا بعيدا ، عبر الخبرة التشاركية للمكان .

لقد تبقى لقدماء اليونانيين - مسكونين بنسختهم من الأبجدية - أن يشفقوا أطروحة كاملة بدونما مكان عن الأبدية - وجود غير مادي ، وزكى ، لأفكار خالصة تستريح تماما خارج العالم الحسى . إنه من الواضح أن الأبجدية الإغريقية ساهمت في نوع من التجريدية النظرية مختلفة تماما عن تلك الوظيفة لدى الرسل العبرانيين وكتابتهم ، جزئيا يمكن أن يُعزى هذا إلى الاختلاف التاريخي الشديد للمسار العبراني واليوناني ، والتناقض الواضح مابين بشر متنقلين في الصحراء مقابل ناس من أهل البحر الساحليين ، بالإضافة إلى منظومة من التأثيرات على الثقافة والحضارة الإغريقية التي وصلت مثل الأبجدية من البعيد ، ولكنه أيضا من عواقب تغيير أساسى بسيط غير أنه عميق تم تقديمه إلى الأبجدية عبر الكتب الإغريق عندما اقتبسوا هذا النظام للكتابة من الإبداع المبكر للسامية ، يتوجب علينا أن نترك للفصل القادم مناقشة حريصة لهذا التحول الأساسى البنائى وتداعياته الحية المجربة ، هنا نحن بحاجة فقط إلى ملاحظة أن المفكرين الإغريق كانوا أول من بدأ في الطرح التشيئى والموضوعى للفضاء والزمان كأبعاد متميزة ومنفصلة تماما .

غير أنها كانت عملية متشظية ومشتتة ، الناتجة عن الوصف المستفيض ، التحليلي ، والكتابات المتمحصة لأفراد كثيرين ومدارس فكرية ، إن المؤرخين الأوائل مثل هيكاتيوس من ميليتسوس (٥٥٠-٤٨٩ ق.م) ، وهيرودوتس ، (٤٨٠-٤٢٥ ق.م) وثيوسيديدس (٤٦٠-٤٠٠ ق.م) كانوا رواداً في استخدام النثر المكتوب بدلا من الشعر لتسجيل الأحداث الماضية ، لقد مارسوا سخرية جديدة فيما يتعلق بقصص الآلهة والإلهات للبيئة الحية ، وعبر فصل أحداث الماضي عن التقاليد - الملتحمة لإيقاعات الشعر والقصص المغناة ، لقد خلخلوا الزمان نفسه من دائرة الأحداث للأرض الحسية فاتحين الباب للمجال غير المتكرر ، للزمان التاريخي الممتد بلا تحديد في الماضي .

بعد قرن من ذلك سعى أرسطو طاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) إلى تحديد بعد الزمان كما يجعل نفسه مشهوداً في خبراتنا ، لقد استخلص أن «الزمان هو بالتحديد : عدد حركة فيما يتعلق بالسابق واللاحق» إن الزمان ، بكلمات أخرى ، هو الذي يحسب كلما قسنا حركة مابين الدقائق السابقة ثم اللاحقة لذلك المطروح الذي ينجلي ، وهكذا فإن الزمان غير منفصل عن الرقم والتسلسل ، إنه يبدو في كتابة أرسطو طاليس كسلسلة طويلة مستمرة من النقاط ، كل نقطة محددة «للآن» تقسم الماضي عن المستقبل .

بعد ذلك بقليل في نصه المتميز والمؤثر «العناصر» فإن عالم الجبر الإغريقي يوسيليد (٣٠٠ ق.م) طرح عبر تعريفاته وتحدياته الكثيرة أن الفضاء أو المكان نفسه يمكن أن يستوعب كوجود متجانس تماما ، غير محدود ، ذي أبعاد ثلاثة ، إن الشخصية المتجانسة لفضاء يوسيليد كان قد أشير إليه خصوصاً عبر تأكيدات بأن الخطوط المستقيمة المتوازنة - بغض النظر عن المدى الذي تمتد إليه في اتجاهها - لا يمكن لها أن تتقابل ، وفيما يصح هذا الوضع بالنسبة للفضاء المثالي المسطح الذي لا يحمل ملامح أو تكوينات ، فإن العالم المعاش والمجرب الذي نساكنه ونحيا فيه لا ينطبق عليه ذلك عادة ، وبالفعل نحن نعرف الآن أن أجواء الأرض نفسها - سطحها نفسه الذي نساكنه - يحدد الوضع المتوازي ليوسيليد : إن خطين ممكنين مستقيمين يبدآن متوازيين لبعضهما بعضاً على السطح المنحني للجو سوف يلتقيان لاحقاً ويتقاطعان ، مثل مداري الخط المداري والقطب الشمالي ، وإننا مازلنا نرى عادة السطح المنحني للأرض ، بكل عدم عاديته في التضاريس والأماكن (جباله ووديان أنهاره) أن يكون

مجسدا بداخل الفضاء ذى الأبعاد الثلاثة مفتقدا أى انحناءات أو تقاطعات خاصة به ، هو شهادة غرائبية للتأثير الدائم لمفاهيم يوسيليد ، إن افتراضات يوسيليد زودت القواعد الكلاسيكية للأطروحات الغربية العلمية للفضاء منذ النهضة وحتى الأعمال التى أنجزها ألبرت أينشتاين ، وحتى خبرتنا «البديهية» المفترضة اليوم تبقى بعمق تحت تأثير مثل تلك الفرضيات .

فيما التقنيات المتطورة للأطروحات الرقمية والمقاييس لعبت دوراً واضحاً فى تطور هذه الأوصاف المبكرة فإن انتشار التعليم الأبجدي كان يلعب دوره وراء المشاهد ، مبدلاً العلاقات فى التلقى والاستيعاب ما بين الإغريقين والعالم الحسى ، وهكذا تدريجياً يكشف الأبعاد الجديدة والواضحة للفضاء والزمان الذى طبقت عليه الأرقام والمقاييس فيما بعد .

فضاء مُطلق ، وزمن مطلق

ومع ذلك فإن وصفاً دقيقاً «لفضاء» متكامل «وزمن» متتابع ككينونات موضوعية قائمة كان عليها أن تنتظر حتى اختراع الكتابة المطبوعة ، ذلك أنه كان انتشار النصوص المطبوعة (النصوص التي إلى ذلك الوقت كان يتم نسخها بدقة باليد وحفظها مثل الكنوز في مكتبات الرهبان والجامعات) في مجتمع واسع من الأشخاص ، وبالتالي انتشار الأدبيات التي بالتالي توجت كيفية الكتابة الأبجدية وصعدتها بحيث غلبت كطريقة تفكير على الشفاهية التشاركية للخبرة بالطبيعة ، إن التفريق الدقيق ما بين «الزمن» والمكان أو «الفضاء» كان مستحيلاً طالما كانت نسبة كبيرة من المجتمع مازالت تحيا المحيط الطبيعي الحى من حولها ، وطالما كانت الظاهرة المادية (الفضاء) مازالت تُستوعب عبر الكثيرين على أنها تمتلك حيويتها وتلقائيتها وزمنيتها الخاصة ، إن إحراق عشرات الآلاف من النساء أحياء (معظمهن كن مداويات بالأعشاب ، أو قابلات ولادة ، أو من خلفيات ريفية) على أنهن «ساحرات» خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلادى يمكن فهمه بشكل مفيد على أنه الإبادة التي جريت - وكانت ناجحة تقريباً - لآخر التقاليد الشفاهية المحافظ عليها في أوروبا ، آخر التقاليد المتجذرة في الخبرة التشاركية ، المباشرة عن النباتات ، والحيوانات ، والعناصر - بهدف تمهيد الطريق لهيمنة المنطق الأبجدى على العالم الطبيعى الذى يتم إرغامه باستمرار على المنظومة الآلية والمحايدة من أجل تشيئته .

لقد كان إسحق نيوتن فى عمله «الرياضيات الأساسية» لعام ١٦٨٧ الذى استطاع أخيراً أن يمنح تشكيلاً مطلقاً «لزمن» مطلق منفصل «وفضاء» بإطار ضرورى لكونه الذى يدور على عقارب الساعة :

«زمن مطلق ، حقيقى ، وحسابى ، من نفسه ومن طبيعته ، يتدفق متساوياً بغض النظر عن أى شىء خارجى» .

«فضاء مطلق ، له طبيعته ، بغض النظر عن أى شىء خارجى ، يبقى دائماً متشابهاً وغير متحرك» .

عبر هذه التشكيلات قصد نيوتن تمييز «الزمن المطلق» عن ذلك «الزمن النسبي» والذي هو ببساطة نظام التتابع للأحداث المستوعبة ، وأن يميز «الفضاء المطلق» عن ذلك «الفضاء النسبي» والذي هو نظام التعايش المشترك ما بين الأشياء المستوعبة ، وفيما «الزمن النسبي» مجرد علاقة ما بين الأحداث المادية ، وهكذا فإنه لا يكون له وجود بمعزل عن تلك الأحداث ، فإن «الزمن المطلق ، الحقيقي ، والحسابي» هو بالنسبة لنيوتن ، حقيقة مستقلة لا يمكن لنا أن نستوعبها مباشرة ، ولكنها تبطن كل الأحداث المادية وعلاقاتها ، وأيضاً فإن «الزمن المطلق ، الحقيقي ، والحسابي» يوجد مستقلاً عن كل الأشياء المستوعبة ، في حد ذاته هو خالي - عدم ، مثل الزمن المطلق ، إنه لا مقتناه في مده ، لا يمكن خلقه أو تدميره ، ولا جزء منه يمكن تمييزه عن أى جزءٍ آخر .

عبر افتراض وجود ذلك الفضاء الفارغ وغير المتحرك - فإن هذا الفضاء نسبي لأى وكل حركة - استطاع نيوتن بذلك أن يحسب حركة القمر أو الأرض النسبية لذلك الفضاء المطلق ، لقد كان فقط عبر افتراض هذه المرجعيات المطلقة أن استطاع هو أن يشق نظريته حول الجاذبية الكونية ، أو نظرية «الجاذبية» ، بعد طباعة ونشر «المبادئ» فإن نظريات وافتراضات نيوتن فيما يتعلق بالفضاء والزمن تم تحديدها عبر عدد من الفلاسفة ، ولقد وجد نفسه في مناظرات ممتدة مع مفكرين مشهور لهم مثل ليبينز وبيركلي حول سؤال إذا ما كان الشخص يستطيع عقلياً تمييز المطلق عن النسبي بالنسبة للفضاء أو الزمن ، غير أنه بالرغم من أنهم تحدوا الشخصية المطلقة لفضاء وزمن نيوتن ، فإنه لا أحد من هؤلاء المفكرين تحدى الافتراض للفرق المطلق ما بين الفضاء والزمن - ذلك الافتراض الذى صار الآن مشتركاً بأن الفضاء والزمن هما بعدان مختلفان كلية للخبرة والتجربة .

فى عام ١٧٨١م ، قبض إيمانويل كانط فى عمله «نقد العقل الخالص» على المناظرات المتعلقة بالطبيعة المطلقة والنسبية للزمن والفضاء ، لقد اتفق مع نيوتن حول أن الزمن والفضاء مطلقان ، وأنهما كانا مستقلين عن الأشياء والأحداث المحددة ، غير أن كانط كانت هذه الأبعاد المميزة بالنسبة إليه لا تنتمى إلى العالم المحيط إذ إنها توجد فى حد نفسها ، غير أنها كانت أشكالا ضرورية للوعى البشرى ، الشكلا الاثنان اللذان يستطيع العقل البشرى أن يشكل الأشياء التى يستوعبها عبرهما ، وهكذا فإنه فيما أنكر بأن الفضاء والزمن يوجدان بالضرورة بمعزل عن الخبرة البشرية ، فإن عمل كانط بدا وكأنه يؤسس بقوة أكبر من ذى قبل - على الأقل فيما يتعلق بالبشر - «لفضاء» و«زمن» ذى أبعاد مميزة ولا يمكن الفرار منها .

ولا حاجة للقول بأن كتابات كانط لم يمكن ترجمتها للغات النافاجو أو البنتوبى .

الجزء الثانى

الزمن الحاضر الحى

عندما عدت إلى أمريكا الشمالية بعد ارتحالى ما بين أهالى البلاد فى إندونيسيا والنيبال سرعان ما وجدت نفسى تائها ومشوشا وانتابتنى الحيرة تجاه جوانب كثيرة من حضارتى ، افتراضات كنت أراها بديهية فى السابق ، أو تلك التى كنت قد قبلتها منذ طفولتى كحقائق وفرضيات ثابتة غير قابلة للاهتزاز ، الآن صارت واهنة وذات منطق ضعيف بالنسبة إلىّ ، الاعتقاد - على سبيل المثال - «بماضٍ» و«مستقبل» واضح وثابت أين «كانت» مستويات الوجود غير المرئية التى كانت تمتلك قوى كبيرة على حيوات عائلتى وأصدقائى ؟ كل شخص كنت أعرفه بدا وكأنه يبذل جهداً كبيراً فى التفكير والمحاولة للتشبث بالماضى - مهووسين بالتصوير بالكاميرا والتسجيل بالفيديو للأحداث وباستمرار يتحدثون ويتصورون تصورات عن المستقبل - مرسلين باستمرار بدفعات وأقساط لمنازلهم ، وسياراتهم ، وحتى من أجل أجسادهم ، وكنتيجة لكل تلك الانشغالات والهموم حول الماضى والمستقبل ، كل شخص بدا (بالنسبة إلىّ فى حالتى الجديدة التى عدت بها) وكأنه غير واع لدرجة غريبة بالأحداث المتكشفة من حوله «فى الحاضر» ، كانوا يبدون جهلة تماماً وغير مدركين لكل تلك الظواهر التى كان على أن أصفى نفسى لها من أجل التواصل مع السحرة الأصليين فى مسار حقل عملى : حيوات الحيوانات الأخرى ، الحركات الضئيلة الصغيرة للحشرات والنباتات ، كلام الطيور والعصافير ، المذاقات فى الريح ، قطعان الأصوات والروائح ... إن عائلتى وأصدقائى كلهم بدوا جاهلين بالحضور الحسى للعالم ، إن الحاضر بالنسبة إليهم بدا لاشئ أكثر من مجرد نقطة ، لحظة تفصل الآن ما بين «الماضى» و«المستقبل» ، وبالفعل فإننى كلما دخلت أكثر فى حوارات مع عائلتى وأصدقائى كنت أكثر استعدادا للشعور بانقطاع وعيى ، كما لو كان ذلك عبر مسطح من الزجاج العاكس ، عن الحياة الخاصة بالأرض والطبيعة ...

إن هناك تمريناً مفيداً كنت قد صممته آنذاك لأجنب نفسي السقوط بشكل كامل في الجهل الحضارى للزمن الطولى ، وأنت مرحب بك لتجريبه عندما تكون فى المرة القادمة هناك فى الخارج . إننى أحدد نفسي فى مكان أو فضاء مفتوح نسبياً - تل منخفض جيد لذلك بشكل خاص ، أو حقل واسع - إننى أسترخى قليلا ، آخذ عددا من الأنفاس ، أهدق حولى ، ثم أغلق عيني ، وأسمح لنفسي لتبدأ فى الشعور بكامل كتلة ماض ، كامل الأحداث التى قادت إلى هذه اللحظة ، وأدعو إلى وعيى ، أيضا ، كامل مستقبل ، كل تلك المشاريع والإمكانيات التى تكمن هناك منتظرة تحقيقها ، إننى أخيل ذلك الماضى وهذا المستقبل ، كمنطادين منفوخين واسعين من الزمن ، منفصلين عن بعضهما بعضاً مثل كرتين من الساعات الزجاجية ، غير أنهما متصلان فى اللحظة المفردة حيث أقف متأملاً إياهما ، ثم آنذاك ، ببطء شديد ، أسمح لهاتين الكرتين من الزمن فى البدء فى تسريب عناصرهما إلى تلك اللحظة الدقيقة التى مابينهما ، إلى الحاضر ، ببطء وعلى مهل فى البداية تبدأ اللحظة الراهنة فى النمو ، متغذية بذلك التسرب من الماضى والمستقبل فإن اللحظة الراهنة للحاضر تنتفخ بنسب تجعل معها تلك الأبعاد الأخرى تتقلص ، وسريعاً ماتصبح كبيرة وضخمة جداً ، والماضى والمستقبل يتقلصان إلى مجرد عقد على حافة تمدد واسع ، عند هذه النقطة أسمح للماضى والمستقبل بالذوبان تماما ، وأفتح عيني ...

إننى أجد نفسي واقفاً فى منتصف الأبدية ، حاضراً واسعاً وغير محدود ، العالم بكامله يرتاح داخل نفسه - الأشجار على حافة الحقل ، همهمات الجنادب فى الحشيش ، السحب الدائرية تتوالى كالأمواج عبر السماء ومن الأفق للأفق ، فى البعيد ألاحظ الطريق الترابى المنحنى وسيارتى المغبرة تقف على حافته - هذه أيضا تبدو وأنها تملك مكانها فى هذه اللحظة المنفتحة للرؤية ، هذا الحاضر الأبدى ، والروائح - إن الهواء مفعم بروائح من الغابة ، والحشيش ، والتراب من تحت الأقدام - الكثير من الرسائل التى تطوف مايبين العناصر المختلفة فى الأرض المستديرة ، إن البقايا المتآكلة لشجرة صفصاف متلاشية تقف لوحدها هناك فى الحقل لاتبدو فى هذه الأبدية ميتة بالفعل ، إنها محاطة بأحراش محبة ، ويصخور على حافة ذلك الدغل ، ويتحاورون مع هذه الشجرة العجوز حول الظلال ونور الشمس .

أخطو مقترباً ، أرى أن الجذع المتجمع حول الشجرة يعبره خيطان من النمل ، أحدهما يتحرك للأعلى على الجذع والآخر يتجه نحو التربة ، من هذه المسافة القريبة أرى أيضا أن الظلال على الصخرة ليست ظلالا على الإطلاق ، ولكن بقعا من الغصن تنتشر خارجاً من نقط مختلفة من سطح الصخرة ، بأنسجة مختلفة وأحجام - أسود

مطفى ورمادى متكسر وأحمر طحيني عميق - كما لو أنه عبرهم تعبر الصخرة عن أمزجتها الداخلية . أحك ساقى ، من الغريب أن وضوح وتجلى هذا العالم لا يتقلص ، أمشى على الأرض ، أستدير حولى ، وحتى أقف على رأسى ، غير أن هذا الحاضر المفتوح لا يختفى ، عدد من الغربان السوداء المحلقة تتسابق مابين الأشجار مطاردة بعضها بعضاً فى حركات مفاجئة ورشيقة ، أحدها يهبط على الشجرة المتجمدة ، «كاهر ! ... كاهر ! كاهر» الآن ينسل نحو الأرض أمامى مباشرة «كاهر !» ويقف هناك ناظراً إلى ، على جنب ، عبر عينيه البنفسجيتين . إن أجفانه ترمش برشاقة مثل الستائر المعدنية ، إنه ينط من حولى ومنقاره الكبير ينفث «كواهر !» أحاول أن أجيبه ، «كاور !» ويبدأ الطير فى التقدم إلى الأمام ، إن الغراب لا ينط ، أرى ذلك ، لكنه يمشى ، بحمق على هذه الأرض ، أستطيع أن أرى ريشه الصغير مغطيا منخريه على منقاره فيما النسيم يحمله من على الأرض ، وأحس بنفسى محمولا عبر النسيم الدائر نحو حافة الغابة

إن الأشياء مختلفة فى هذا العالم دونما «الماضى» و«المستقبل» ، إن جسدى يرتجف فى هذا العالم مثل الحيوان ، أعرف تماماً أنه فى وقت ما من هذا الوقت ، يتوجب على أن أعود إلى بيتى وكتبى ولكن هاهنا أيضاً بيتى ، ذلك أن جسدى فى بيته ، فى هذا الحاضر المفتوح ، بعقله ومنطقه ، وإن هذا ليس بمجرد توهم أو هلوسة ، هذه الأبدية - إن هنالك شيئاً ما ملحاً تماماً ، مستقراً تماماً ، وغير قابل تماماً للاهتزاز حول هذه التجربة لكى تكون مجرد سراب

إن الصلابة غير المهتزة لهذه التجربة غريبة بالفعل ، إنه يبدو أن له علاقة بتلك الصلة مابين هذه الأطروحة الوقتية التى ندعوها «بالحاضر» والأرض الفضاء المتسعة التى نحيا فيها ، عندما أسمح للماضى والمستقبل بالذوبان ، خيالياً ، فى الراهن للحاضر المعاش ، فإنه عندئذ «الحاضر» نفسه يتمدد ليصبح حقلاً حاضناً فى حضوره ، وهذا الحضور مشع وحى وتلقائى يفرض الشكل الدقيق والخطوط المناسبة للأرض الحسية المحيطة بنا ، وكأن ذلك شكله الأسمى ! إنه ذلك التناسب المدهش مابين المفهوم الوقتى (الحاضر) والمفهوم المكانى (الحضور الحاضن للأرض) الذى يبرر كما أعتقد ذلك الاستقرار النسبى والطبيعة الصلبة لهذه الخبرة ، وهذا يدفعنى للتساؤل فيما إذا كان «الزمن» و«الفضاء» متميزين إلى ذلك الحد الذى نعتقد ، ليس هناك أى جانب لهذا البعد والوجود زمنى بشكل محدد ! ذلك أنه يتألف من أشياء مكانية - فضائية لها كثافتها ووزنها ، وهى مكانيا ممتدة من حولى من كل الجوانب ، من الأشجار القريبة وحتى السحب البعيدة ، ومع ذلك فإنه ليس هناك جانب أيضاً مكانى وجامد بشكل

ثابت ، ذلك أنه كل كائن مدرك - من الصخور وحتى النسيم وسيارتى تلك فى البعيد - يبدو مشعاً بالحياة والحسية فى هذا الحاضر المفتوح ، وإننى غير قادر على فصل المكان عن الزمان ، أو العكس ، إننى مستغرق فى العالم .

فى عام ١٩٠٥ م ، تحدى ألبرت أينشتاين رؤية نيوتن حول الزمن المطلق والفضاء المطلق بأطروحاته حول «نظرية خاصة للنسبية» إن معادلات أينشتاين فى هذا وفيما بعد فى «النظرية العامة للنسبية» لم تتعامل مع الزمان والفضاء ، لقد افترضت بدلا من ذلك وجود كونتينوم ذى وحدة واحدة سماها أينشتاين «فضاء - الزمن» فضاء الزمن ، على كل ، كان مفهوماً تجريبياً عالياً غير ممكن التفكير به بمعزل عن الرياضيات المركبة والمعقدة لنظرية النسبية ، إن كشوفات أينشتاين الرياضية - بكلمات أخرى - فعلت القليل لتحدى فرضية كانت بأن الفضاء والزمان المنفصلين كانا ضروريين وأشكالاً لا يمكن تجنبها فى كل الاستيعاب العادى ، وفيه الفضاء - الزمن يمتلك موضعه داخل النظام المفاهيمى للفيزياء النسبية فإن خبرتنا المباشرة «للاستيعاب» كانت مازال تحت افتراض بأنها متشكلة بحسب الأبعاد المنفصلة للزمان والفضاء .

وهكذا فقد سقطت فى تقاليد علم الظواهر لتدعو للتساؤل ذلك الفرق ما بين الفضاء والزمان على مستوى خبرتنا المفاهيمية المباشرة ، بالطبع إن علم الظواهر لم ينطلق لكى يهدد ذلك التمييز والفرق ، ولكن فقط لمراقبة - بأكبر قدر ممكن من القرب - الكيفية التى تقدم فيها الظواهر نفسها إلى خبرتنا المباشرة ، المعاشة ، وبالفعل فإن علماء الظواهرية مالوا لافتراض - فى البداية - تمييز واضح ما بين الفضاء والزمان ، لقد كان نحو نهاية البحث والاستقصاء فقط فيما يتعلق بظاهرة «وعى الزمان» أن كان إدموند هسيلىر قد بدأ فى طرح أن خبرة الزمان متجذرة فى بعد أعمق للخبرة أى أنها ليست فى حد ذاتها وقتية بشكل محض .

مساعدة هسيلىر ، عالم الظواهرية الألماني مارتين هايديجر ، عاد مرة أخرى وتكراراً إلى التحليل الخاص بالخبرة الوقتية ، فى كتابه الضخم والمهم «الكيونة والزمان» كشف هايديجر ، أن تحت سطح الفكرة الأرسطية للزمان كتسلسل لا نهائى من «نقط الآن» إحساساً منسياً بالزمان وكونه الغموض الحقيقى للكيونة ، كقوة غريبة - مقاومة فى أساسها لكل أشكال التشييء والتمثل - وأنه بالرغم من ذلك تشكل وتصنع الإمكانية لكل علاقاتنا مع بعضها بعضاً والعالم ، إن هذا الغموض لا يمكن تمثيله بدقة بسبب أنه أبداً لا يتماثل مع نفسه ، زمان أساسى ، بالنسبة لهايديجر ، أنه منذ البدء خارج نفسه ، أو «غرائبى» ، وبالفعل الماضى ، والحاضر ، والمستقبل هنا كما قد وصفهم هايديجر «كالغرائبيات» الثلاثة للزمان ، الطرق الثلاثة التى عبرها

الحيوية الديناميكية للوجود تفتحننا نحو ذلك الذى هو خارج ذواتنا ، نحو ذلك الذى هو «آخر» .

ومع ذلك فإن هايديجر بالتدريج وصل إلى الشك بأن هذا الحس الإيحائى المفاهيمى للزمان لا يمكن التمسك به بمعزل عن خبرتنا السابقة للمفاهيمية بالفضاء ، وعليه فإنه فى مقالة مهمة كتبت فى مرحلة متأخرة من عمله مال هايديجر ، نحو بُعد أكثر أساسية ، والذى دعاه هو «الزمان - الفضاء» بُعد وجودى ليس وقتياً بكامله ولا مكانياً بكامله ، حيث «الزمان» و «الفضاء» مشتقان بشكل مصطنع عبر عملية التجريدية .

فى أثناء ذلك فإن موديس ميرلو بونتى عمّق باستمرار أبحاثه حول الخبرة الاستيعابية والتلقى ، وأيضاً وصل فى أعماله الأخيرة للتأكد على بعد وجودى للتجربة أكثر أصالة عن الفضاء والزمان ، ومن حيث تم اشتقاق هذين البعدين منه ، فى ملاحظات عمله حول «المرئى وغير المرئى» يكتب ميرلو بونتى حول «هذا الزمان نفسه الذى هو الفضاء ، وهذا الفضاء نفسه الذى هو الزمان ، والذى كنت سوف أعيد اكتشافه عبر تحليلى للمرئى واللحم» ، غير أن هذا التحليل تم ابتساره عبر موته المفاجئ فى عام ١٩٦١م .

وهكذا فإن كل علماء الظواهرية الثلاثة - هسيرل ، وهايديجر ، وميرلو بونتى - توصلوا بشكل مستقل فى مسار أبحاثهم المنفصلة إلى تصور أن التمييز التقليدى مابين الفضاء والزمان كان غير ممكن من وجهة النظر المباشرة ، لتجربة ما قبل الاستيعاب المفاهيمى ، كان هايديجر وميرلو بونتى الاثنان يطمحان نحو نهاية حياتهما لصياغة نموذج أكثر مباشرة للوعى ، بعد أكثر أساسية والذى خواصه ليست صارمة لا مكانياً ولا وقتياً ، ولكن بالأحرى بطريقة ما الاثنين معاً .

لقد رأينا أن مثل تلك الكيفية من الخبرة مألوفة بالنسبة للشعوب والناس الشفاهيين ، الأصليين ، والذين بالنسبة إليهم الزمان والفضاء لم يكونا منفصلين أبداً ، إن تقاليد علم الظواهر - كما قد يبدو - كانت تطمح نحو إنعاش مثل تلك الخبرة من داخل الوعى نفسه ، جاهدة لتتذكر - فى أعماق الفكرة التأملية الانعكاسية - التلقى الصامت حيث هناك تولد مثل تلك التأملات ، لا أحد من هؤلاء المفكرين كان ناجحاً تماماً فى خلق المصالحة من جديد مابين الزمان والفضاء ، ومع ذلك فإن كتاباتهم الأخيرة تحمل مفاتيح وطلاسم لأولئك الذين يكافحون اليوم لجلب عقولهم وأجسادهم إلى بعضها بعضاً من جديد ، وهكذا من أجل كسب وعى متدفق بالدماء للحاضر .

علم التخطيط (التوبولوجى) الأرضى للزمان

" إننى أبقي واقفًا على هذا التل تحت السحب المكتظة ، جلدى يقشعر بالأحاسيس ، إن الامتداد للحاضر يمسك بجسدى فى قبضته ، إن حواسى الغريزية - الحيوانية كلها يقظة ، أذنائى متآلفتان مع تعددية الأصوات الدقيقة ، الشعيرات الصغيرة على وجهى تسجل كل حركة فى النسيم ، إننى متجسد فى هذه اللحظة المفتوحة ، عضلاتى تتمدد وتتقلص مع الحشائش ، إن هذا الحاضر يبدو لانهائياً ، غير قابل للاستنزاف، ماذا إذن قد صار من الماضى والمستقبل ؟ "

لقد عثرت على طريقى لهذا الامتداد الحى عبر إذابة الماضى والمستقبل فى هذا الحاضر الحسى الذى يحيط بى ويحتوينى ، هل قمت بذلك بإزاحتهما تماماً ؟ لا أظن ذلك ، أنا ببساطة قمت بإزاحة تلك الأبعاد كما يتم استيعابها تقليدياً - كأبعاد وجود مستقلة بمعزل عن الحاضر الحسى ، إننى عبر السماح للماضى والمستقبل بالذوبان فى اللحظة الراهنة للحاضر أكون قد فتحت طريقاً لتعافيهما التدريجى - لم يعودا مستقلين ، أبعاد وجود عقلية ، ولكن الآن كجوانب للحاضر القائم ، لهذه الأرضية التى تحتضن جسدياً ، وهكذا الآن أركعُ فى منتصف هذه الأبدية ، أصابعى العادية تحتضن التربة وعينائى تشربان المسافات ، محاولة أن تكشف - فى الأرض الحية - الماضى والمستقبل أين يمكن أن يسكنا .

ميرلو بونتى فى أحد الأوراق التى عُثر عليها فى مكتبه بعد موته ناقش المجال نفسه : " بأى حس هذه الأرض المرئية تحت بصرى ليست خارجية لـ ... للحظات الأخرى من الزمان والماضى ، لكنها تحتويهم حقيقة وراء نفسها بشكل متبادل ، مع دواخل نفسها ، وليست هى وهم بجوار بعضهما بعضاً " فى " الزمان " .

وهكذا نحن نوجه هذا اللفظ : أين - فى داخل الأرض المرئية - نستطيع أن نحدد مكان الماضى والمستقبل ؟ أين مكانهما فى العالم الحسى ؟

بالطبع يمكن لنا أن نقول إننا نستوعب الماضي من حولنا من كل جهة ، فى الأشجار العظيمة التى تنمو من البذور وتتلف منذ زمن طويل ، فى الضفاف المتأكلة للأنهار ، أو الشقوق المتسعة فى طريق قديم ، وأيضاً إننا نحدق فى المستقبل حيثما ننظر مراقبين سحياً عاصفة تنبثق من الأفق ، أو شبكة عنكبوت تتشكل ببطء أمام أعيننا ، بما أن كل ذلك الذى نستوعبه هو بالفعل بمعنى ما ، يحبل بالمستقبل ، لكن كيف إذن يمكننا " التمييز " ما بين هذين البعدين من الوجود الوقتى أو الزمانى ؟ نحن بالتأكيد نملك حساً بأن الماضي والمستقبل ليسا هما الشيء نفسه ، وبالرغم من ذلك فإنهما مرتبطان بشكل غريب بكل ذلك الذى نستوعبه ، كيف إذن يميزان نفسيهما فى التلقى ؟ لو أننا قلنا أن " الماضي " هو حيث يأتى منه كل مانراه و " المستقبل " هو حيث كل شيء يمضى إليه ، فإننا ببساطة نتوسل السؤال ، مسمين نطاقين واضحين ومع ذلك نبقى عاجزين عن تحديدهما مكانياً فى داخل الأرض المستوعبة ، وكأنما الماضي والمستقبل هما بالفعل حدس خالص للعقل يوجد فى بُعد غير مادى خارج العالم المحسوس ، هذا افتراضياً ما يدعوا الكثير من العلماء والفلاسفة إلى تأكيد أن الحيوانات الأخرى لا تمتلك وعياً حقيقياً بالزمان – لوجود لديها للإحساس بالمستقبل أو الماضي – بما أنها تفتقر لأى ذكاء يمكن له أن يفهم هذا البعد غير الحسى .

كحيوان أنا نفسى أبقي متشككاً فى كل هذه الأطروحات ، كل تلك الطرق التى عبرها تدعى فصليتى من الكائنات امتلاكها لمصدر لحقيقة من المفترض أنها ترقد خارج عالمنا الجسدى المادى وحيث النباتات والأحجار والنباتات تمتلك كينونتها وخارج هذا النطاق الأرضى الذى نتشارك وجودنا فيه مع الحيوانات الأخرى ، ومع ذلك كفيلسوف أشعر بالضغط على لتفسير تلك الغوامض ، تلك " الأزمنة " التى هى بشكل ما " ليست بالحاضر " ، تلك " الأحيان " الأخرى ، وهكذا الآن دعونا نجلب الحيوان البشرى والفيلسوف فى نواتنا معاً ، نحاول أن نحدد مكانياً : " الماضي " و " المستقبل " فى هذه الأرض الحسية .

أولاً ، علينا أن نهتدى ببعض الإرشاد المنهجى من ميرلو بونتي ، والذى فى عام ١٩٦٠ كان يكافح بالفعل لمنح صوت لهذا " الزمان أو التوقيت نفسه هو الفضاء أو المكان ، والمكان هو نفسه الوقت أو الزمان " ، فى عمله الأخير وصف ميرلو بونتي العلاقة ما بين العالم المتلقى والمحسوس والعالم الذى به من افتراضنا كمثال تجريدى غير متجسد بأفكاره : " إنه عبر الاستعارة من تكوين العالم يكون بناء وتشكيل كون

الحقيقة والأفكار بالنسبة إلينا " ، إن هذه الكلمات تؤكد أساسية العالم المادى المتجسد فى ارتباطه بكون الأفكار ، إنها تقترح إن تشكيلات أفكارى غير المادية الواضحة منقولة ومستخلصة كما قد كان من تشكيلات العالم المحسوس والمستوعب . إذا ما قرأنا ميرلو بونتى وكلماته بدقة وقبلنا بإرشادها فإننا نكشف أن ما نصبو للعثور عليه هنا واقتناصه - فى مسعانا العميق - هو جوانب محددة للأرض المستوعبة والتي أعادت خصائصها المحددة أو شكلها إلى تلك الفكرتين المُحَتَّين : "الماضى" ، و"المستقبل" .

إننا نبحثُ - بمعنى ما - عن تشكيل متجاوب أو متمائل مابين التشكيل المفاهيمى للماضى "و" المستقبل "والتشكيل المستوعب للعالم الحسى المحيط بنا .

إذا ما أخذنا نوعاً من طرق ميرلو بونتى ، أنه لمارتين هايديجر علينا أن نلتفت من أجل بنائية دقيقة لوصف " الماضى " و " المستقبل " عبر مسيرة حياته ، من أول وحتى آخر كتاباته ، منح هايديجر اهتماماً خاصاً لظاهرة الزمن ، وإنه هو أكثر من أى مفكر آخر الذى طور علم ظاهرة الأبعاد الزمنية ، فى منتصف مقالة من أعماله الأخيرة " الزمن والكيونة " يسأل هايديجر السؤال ذاته الذى طرحناه نحن أنفسنا : " أين الزمن ؟ هل الزمن فى كل شئ ، وهل يملك له مكاناً ؟ " ثم إنه يذهب إلى التمييز بأن الزمن الذى يبحث فيه عن " الفكرة " المشتركة للزمن كمتابعات طولية " للآن " :

" من الواضح أن الزمن ليس بالاشئ ، وبحسب ذلك فإننا نتوخى الحذر ونقول : هناك وقت . ونصبح حذرين أكثر ، وننظر بتفحص وتمعن إلى ذلك الذى يبدى نفسه على أنه الوقت ، عبر النظر قدماً إلى الكيونة بإحساس الحاضر ، غير أن الحضور بمعنى الحاضر يختلف كثيراً عن الحاضر بصيغة الآن ... " إل " حاضر كحضور وكل شئ من ذلك الذى ينتمى إلى مثل ذلك الحضور يتوجب أن يدعى بالزمن الحقيقى ، بالرغم من أنه ليس هناك من شئ حالى ومباشر حوله من الزمن ، ذلك أن الزمن عادة ما يتمثل فى ذلك الحس من التتابعات لسلسلة محسوبة من (الأوان) " .

إن حركة هايديجر الفلسفية هنا للكشف وراء الحاضر المقدر على أنه " الآن " حس عميق بالحاضر " كحضور " ، يقارب حركتنا نحن التجريبية لـ " الآن " الدقيق عبر إذابة " الماضى " و " المستقبل " كما تتم خبرتهما تقليدياً محددين بذلك أنفسنا فى حاضر متسع ، وفسيح ، ومفتوح ، والذى نحن أيضاً ندعوه " الحاضر

كحضور"، وبحسب هايديجر ، إنه فقط من داخل هذه الخبرة للحاضر كحضور يستطيع ذلك " الزمن الحقيقي " (والذي فيما بعد فى المقالة سوف يدعوه " الزمان - المكان أو الفضاء ") أن يبدأ فى جعل نفسه واضحاً ومشهوراً ، فى حالتنا إن الحاضر قد صمم نفسه كحضور فقط عبر أخذ خطوطه الدقيقة من الأرض الطبيعية المرئية التى تحتضننا ، نحن الآن أحرار فى النظر من حولنا فى هذه الأرض الشاسعة ، من أجل مكان الماضى والمستقبل .

وهايديجر يقدم لنا مفتاحاً مساعداً ، فى " الكينونة والزمان " يكتب عن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل على أنها " الانتشاءات " الثلاث للزمن ، مقترحاً بأن الماضى والحاضر والمستقبل كلها تجذبنا خارج أنفسنا ، إن الزمن مثير فى أنه يفتحنا نحو الخارج ، نحو ماذا ؟ الثلاث انتشاءات للوقت ، بحسب هايديجر ، " ليست تعاقبية فى الشكل الذى يضى فيه الشخص ، بالأحرى هناك ينتمى لكل رحلة وإثارة " حالة " ينتقل إليها الشخص ... " إن كل انتشاءة للوقت تحملنا " ، يقول هايديجر ، نحو " أفق " محدد .

حالما نمح اهتمامنا لهذا الوصف الغريب سوف نلاحظ تجاوباً واضحاً ما بين التشكيل المفاهيمى للزمن ، كما قد وصفه هايديجر ، والتشكيل المتلقى للأرض والطبيعة المحيطة بنا ، الأفق نفسه ! هايديجر يستخدم مصطلح " الأفق " كرمز تشكيلى ، طريقة للتعبير عن الطبيعة المثيرة للزمن ، تماماً كما تبدو قوة الزمن أنها تضمن بأن الحاضر المستوعب دائماً مفتوح ، دائماً مكتشف بالفعل وراء نفسه ، وهكذا فإن الأفق البعيد يبدو وكأنه يمسك بالأرض الطبيعية المستوعبة مفتوحة ، رابطاً إياها دائماً بذلك الذى يرقد فيما هو أبعد عنها .

إن الأفق المرئى ، بمعنى أنه نوع من المنفذ ، ينضم إلى الحاضر للأرض المحيطة إلى ذلك الذى يتجاوز هذا الحضور المفتوح ، إلى ذلك الذى يختفى فيما هو أبعد من الأفق ، إن الأفق يحمل الوعد بشيء أكثر ، شيء آخر ، هنا نحن صنعنا أول اكتشاف لنا : الطريقة التى بالأماكن الأخرى - أماكن غير حاضرة بشكل مباشر فى داخل أرضنا المستوعبة - هى بالرغم من كل شيء متصلة بالأرض والطبيعة الحالية عبر الأفق المرئى ، وهكذا دعونا نسأل : هل من الممكن أن مستويات الوجود أو المجالات التى نبحث عنها ، مكان " الماضى " وذلك الخاص " بالمستقبل " ، هى تماماً وراء الأفق ؟

بالتأكيد هذه خطوة أولى مفيدة ، ذلك أنه من الواضح أنه لا الماضى ولا المستقبل هما تماماً فى مخارج ضمن المفتوح فى الحاضر المستوعب ، ومع ذلك فإنهما يبدوان

متضمنين فى كل شىء، بما أن الأفق متضمن بالفعل لكل ذلك الذى يرقد فيما هو أبعد من الأفق فى داخل محيط الأرض الذى يصل كل شىء فى الحاضر ، يبدو ممكناً أن نفترض أن كلا الماضى والمستقبل يسكنان فيما هو وراء الأفق .

ومع ذلك فإن هذا يدعنى حائراً بعض الشىء ذلك أننى قادر إذن على حساب ذلك الاختلاف ما بين الماضى والمستقبل ، إن الأفق لمحيط الأرض والطبيعة المستوعبة يتم تقديمه كما أعرف عبر العلاقة ما بين جسدى والمجال الفسيح لجسد الأرض ، إن هذا ليس مجرد شىء قد قرأته أو تعلمته فى المدرسة ، لقد صار مشهوداً وحقيقياً بالنسبة لى فى مجال مسار رحلاتى الكثيرة عبر الأرض ، مراقباً الأفق الذى يتراجع باستمرار كلما مشيت نحوه مراقباً إياه متسعاً بشكل غير متوقع ومحيطاً بى حتى وإن كان هو نفسه محتفظاً بمسافته ، ومع ذلك إذا مانظرت خلفى خلال ارتحالى فإننى أرى أن الحافة الغامضة أيضاً تتبعنى ، محتفظة بمسافتها ورأى كما هو الوضع من أمامى ، وتدرجياً مبتلعاً هذه الأراضى عندما أمشى ، أقود السيارة ، أو العجلة بعيداً عنها ، أيمكننى إذن أن أستخلص أن المستقبل وراء ذلك الجزء من الأفق نحو الجهة التى أواجهها ، فيما الماضى وراء ذلك الجزء من الأفق الذى يرقد خلفى ؟ إذن لسوف أحتاج فقط إلى الالتفاف حولى من أجل أن يتحول ماضى إلى مستقبلى ، والعكس صحيح ، غير أن هذا لا يبدو صحيحاً تماماً ، إذا ما ارتحلت نحو الأفق - نحو أى جزء من ذلك الأفق - سوف أقوم بالفعل بالكشف عن أشياء وأماكن جديدة كانت سابقاً فى مستقبلى ، وراء الأفق بالتأكيد أستطيع أن أحاول أن أعكس ، مثلاً عندما أرتحل عائداً نحو المدينة البعيدة حيث كنت أعيش ، لكن فى هذا أنا لست ناجحاً بدقة ، ذلك أن تلك المدينة ، عندما أصل لم تعد حيث كانت ، إن مبنى المدرسة القديم الآن يقف نصف منهار فى حقل كثرت فيه الحشائش المنسية والزهور البرية ، الحرش حيث فى كل ربيع كنت معتاداً على انتظار وصول طيور اللقالق - قد اختفى تحت مجمع ضخمة جديد

لقد تغيرت الأرض ، لا أستطيع ، تبدو رحلة نحو الماضى بالطريقة نفسها التى أستطيع أن أرتحل فيها نحو المستقبل ، ذلك أن الماضى " لا يبقى " ماض فيما هو أبعد من الأفق ، إنه لا ينتظرنى هناك مثل المستقبل .

إن عدم الاتساق الغريب هذا للماضى والمستقبل فيما يتعلق بالحاضر إلى الحد الذى جعل هايديجر يصفه فى مقالته الأخيرة " الكينونة والزمان " فيما فى " الكينونة والزمان " يكتب هايديجر عن الشخصية المركزية ، المثيرة للزمن - للزمن فذلك الذى

يجذبنا خارج نواتنا فاتحاً إيانا لذلك الشيء الآخر - فى هذه المقالة الأخيرة يؤكد على المركزية فى الامتداد الداخلى لطبيعة الزمن ، واصفاً الزمن كغموض باستمرار يقترب منا من الخلف ، ماداً ومقدماً هدية الحاضر الذى بالرغم من ذلك يختفى خلف ذلك الحدث لتلك التقدمة ، إن مثل تلك الأوصاف قد تبدو غريبة ، وحتى غير محبة لآذاننا ، ومع ذلك يتوجب علينا أن نصغى إليها عن قرب ، ذلك أنه حالما نضجت أفكار هايديجر ، فإنه سعى حثيثاً لفك قيود الوعى البشرى من قيود الافتراضات البالية ، بدقة عبر استخدام كلمات مألوفة بطرق غير عادية خاصاً بالمصطلحات ومحرراً إياها من الاستخدام التقليدى ، وهكذا فإن الماضى والمستقبل تمت صياغتهما هنا كقوى خفية تقترب منا ، مقدمة وفاتحة الحاضر فيما بالرغم من ذلك تبقى منسحبة ، ومخفية عن الحاضر نفسه الذى تجعله ممكناً ، فى وصف هايديجر كلا الماضى والمستقبل بيقين مختلفين عن الحاضر المفتوح الذى يجلبانه بالتبادل ، ومع تلك الكيفية التى يخفى فيها المستقبل نفسه فى تقدمه مختلف تماماً عن الطريقة التى يخفى فيها الماضى نفسه فى معطياته ، وبالتخصيص ، المستقبل ، أو ذلك الذى سوف يأتى ، يحفظ حضوره ، فيما الماضى أو ذلك الذى قد كان ، يرفض حضوره ، إن المستقبل يحتفظ فيما الماضى يرفض فى أكثر أوصافه اكتمالاً لتدرج الزمن ، يضع هايديجر الوضع هكذا :

" ماقد كان ، والذى عبر رفض الحاضر يسمح لذلك الذى سيعبر الحاضر والذى لم يعد بالحاضر ، والمجئ نحونا لذلك الذى سوف يأتى ، والذى عبر احتفاظه بالحاضر يسمح لذلك الذى هو حاضر والذى لم يعد حاضراً - الاثنان [يصنعان] تحقيقاً للطريقة للانفتاح الممتد الذى يمنح الحاضر فى المفتوح " .

إن السمة الغريبة للغة هايديجر هنا هى جزء من مشروعه : إنه يحاول أن يجنب استخدام الأسماء لأشكال محددة سوف تجمد التدفق الوقتى ، إنها تماماً تلك الغرابة التى تمكن كلماته من الاقتراب وفتحنا نحو التشكيل الصامت لذلك الغموض الذى ندعوه بالزمن ، إذا ماتفحصنا تلك الكلمات من الداخل من ضمن الحاضر المفتوح للأرض حولنا ، فإننا نقاد للسؤال : أين يمكن لنا أن نستوعب ذلك " الاحتفاظ " وهذا " الرفض " الذى يتحدث عنه هايديجر ؟ أين يمكن لنا أن نبصر ذلك الرفض وهذا الاحتفاظ الذى ينفث ويجعل من الممكن ذلك الحضور الحسى للعالم من حولنا ؟

لقد سبق أن لاحظنا السحر الذى ينفلق به الأفق ومع ذلك يبقى مفتوحاً للأرض والطبيعة الواضحة : تماماً عبر إخفاء أو الأفضل من ذلك الاحتفاظ بذلك الذى يرقد

فيما هو أبعد من ذلك ، وهكذا فإن الأفق يمكن بالفعل أن يتم الإحساس به كاحتفاظ أو تحفظ ، ولكنه من الصعب أن يكون رفضاً .

إن شفاه الأفق للأرض والسماء يمكن أن تلامس بعضها بعضاً غير أنها أبداً غير مغلقة ، ونحن نعرف بأنه إذا ما ارتحلنا نحو الأفق ، سوف يفتح ويكشف لنا تدريجياً ذلك الذي يحتفظ به الآن .

أين ، إذن ، يمكن لنا تحديد مكان الرفض الذي يتحدث عنه هايديجر ؟ هل نتلقى ذلك الرفض من أى مكان حولنا ؟ الأكثر أهمية من ذلك : كيف لنا حتى أن نعرف ذلك الذي نبحث عنه ؟ هنا مرة أخرى ، يقدم هايديجر مفتاحاً فى " الزمن والكينونة " ، يكتب حول الماضى والمستقبل " كغيابات " هى عبر غيابها فى حد ذاتها تهمنا ، وهكذا فإنها تجعل من نفسها محسوسة ضمن الحاضر ، إن هذا التوصيف يساعدنا كثيراً .

الآن على الأقل نستطيع أن نقول ما ذلك الذى نبحث عنه فى محاولتنا لتحديد مكان الماضى والمستقبل ، إننا نقتفى أمزجة الغياب ذلك عبر الطريقة نفسها لكينونة الغياب ، تجعل نفسها محسوسة داخل الحضور الحسى للأرض والطبيعة المفتوحة ، أو بمصطلحات ميرلو بونتي (مصطلحات المرئى وغير المرئى) يمكن لنا أن نقول إننا نبحث عن جوانب معينة غير مرئية للبيئة المرئية ، مناطق معينة غير مرئية والذى يمثل اختباؤها بشكل ما تمكيناً أو ينتج الوضوح المرئى المفتوح للأرض من حولنا ، الأبعد من الأفق هو مجرد غياب كذلك أو مجال غير مرئى .

وهكذا فإنه يجب أن نسأل الآن : هل هناك جانب آخر غير مرئى ، غياب آخر فى منطقة هى عبر اختفائها تماماً ضرورية نوعاً ما للحضور المفتوح للأرض والطبيعة ؟

بالتأكيد هناك تلك الأوجه التى لا أستطيع أن أراها للأشياء أو الأجساد المحيطة بى - جوانب الأشجار التى تواجه الطريق من أمامى ، أو الجانب الآخر لتلك الصخرة المغطاة بالغصن - ومع ذلك فإن مثل تلك الاحتجابات شكلية كلها - بمعنى - لذلك الذى يرقد مخفياً وراء الأفق ، إن الجانب الآخر من هذه الصخرة - على سبيل المثال - محجوب عن نظرتي غير أنه ليس رافضاً لها ، ذلك أننى أستطيع أن أكتشفه عبر المشى إلى هناك ، تماماً مثل ما أستطيع أن أكتشف ذلك الراقد وراء الأفق عبر إطالة رحلتى نحوه .

ماذا عن جسدى الخاص ؟ حسناً ، معظم جسدى حاضراً لوعىي ، وواضح لنظرتي ، أستطيع أن أرى مفاصلي ، أعضاء جسمي ، وحتى أنفى ، بالرغم من أن

ظهري بالطبع مختلف وراء أفق كتفى ، إن ماهو خلف جسدى غير متاح لنظري ، ومع ذلك فإننى أعرف أنه موجود ، وأنه مرئى لطيور الغربان القابعة ، والغابات المخفية فيما وراء الأفق، ماتزال مرئية وحاضرة لأولئك الذين يعيشون فيها هناك .

ومع ذلك فيما أبحث فى الجانب غير المرئى من جسدى سرعان ما ألاحظ منطقة أخرى غير مرئية : تلك لكامل ماهو بداخل جسدى ، ودواخل جسدى ليست - بالطبع - غائبة تماماً ، غير أنها مختبئة عن الرؤية بطريقة مختلفة جداً عن اختفاء ظهري ، أو تلك الأشياء التى ترقد فيما وراء الأفق ، إنها لحظة ، ألاحظ سريعاً وفجأة من الكيفية الشاسعة من الغياب أو عدم المرئى مناسبة تماماً للأرض والطبيعة الحاضرة ، إنه غياب كنت قد أوشكت على نسيانه تماماً ، إنه غياب ذلك الذى هو تحت الأرض .

مثل ماوراء الأفق فإن الغياب تحت الأرض غياب مألوف جداً وضرورى جداً للحاضر المفتوح للعالم من حولنا ، بحيث أننا نأخذه على أنه أمر مسلم به تماماً ، وهكذا فإنه كان صعباً للغاية بالنسبة إلى أن أجلبه إلى الوعى ، لكن حالما فعلت ذلك فإن رؤية هذا المجال الخفى بدأ فى توضيح وإعادة توازن القوى المغناطيسية للمنطقة الأخرى غير المرئية فيما وراء الأفق .

ذلك أن هذين سوف يبدوان المجالين الأساسيين من حيث الأشياء تدخل إلى الحاضر المفتوح للأرض والبيئة الطبيعية ومن حيث أيضاً تخرج منها ، إن الظواهر الحسية المنطقية باستمرار تبدو منها وباستمرار تتلاشى من خلالها ، إن أحد التقاطعات هو ممر للدخول للأمام ، أو فى داخل انفتاح شاسع ، والآخر هو هبوط إلى أو صعود من كثافة معبأة ، فيما الأفق المفتوح يحتفظ بالمرئى لذلك الذى يرقد خلفه فإن الأرض هى أكثر حسماً فى إخفائها لما يرقد فى باطنها ، إن هذا الحسم ، ذلك " الرفض " لمفاتيح الدخول إلى ذلك الذى يرقد فى باطنها هناك فى الأسفل تحت الأرض هو الذى يمكن الأرض بثبات لدعم تلك الظواهر التى تتحرك وتحيا على سطحها ، وهكذا فإنه بالرغم من أن الغياب فيما وراء الأفق وذلك الذى هو تحت الأرض هما مغذيان لبعضهما بعضاً فإنهما يتناقضان بوضوح فى علاقتهما بالحاضر المستوعب . يمكننا أن نصف ذلك التواصل فيما بينهما والتناقض كالتالى :

" إن ذلك الذى هو أبعد من الأفق ، عبر الاحتفاظ بحضوره يقبض مفتوحاً على الأرض والطبيعة المستوعبة ، فيما ذلك الذى هو تحت الأرض عبر رفضه لحضوره ،

يدعم الأرض والطبيعة المستوعبة " . إن التقابلية والتناسق مابين هذين المجالين تحمل تشابهاً غير خفى للتقابلية والتضاد مابين " المستقبل " (أو ذلك الذى سوف يأتى) و"الماضى " (أو الذى قد كان) ، فى وصف مارتين هايديجر السابق الذى يحتفظ بالحضور والذى يرفض الحضور ، كلاهما يتيحان الحضور المفتوح للحاضر . هل نجرؤ فى الشك بأن هذين الوصفين يصفان الظاهرة الواحدة نفسها ؟ أعتقد أننا نستطيع ، ذلك أن هذا التوصيف مكتمل .

عبر قراءة ميرلو بونتي وهايديجر معاً وعبر وضع كلماتهما فى علاقة مع خبراتنا الخاصة ، نكون قد بدأنا فى ملاحظة أن الماضى والمستقبل – هذين البعدين الغريبيين – قد يكونان مكانيين أو فضائيين بقدر ما هما زمنيين أو وقتيين ، وبالفعل لقد بدأنا فى وضع هذين البعدين لكشف أماكنهما فى داخل العالم المحسوس ، إن التجريد المفاهيمى الذى نصلح عليه عادة بلفظ " المستقبل " سوف يبدو بأنه مولود من خلال وعينا الجسدى لذلك الذى هو مختلف وراء الأفق لذلك الذى يتجاوز ، وبذلك يحتفظ مفتوحاً ، بالحاضر الحى . وذلك الذى اصطالحنا عليه عادة " الماضى " سوف يبدو متجذراً فى حسنا الحى بذلك الذى هو مخفى تحت الأرض ، ذلك الذى يقاوم ويرفض وبذلك يدعم الحاضر الحى كأرضية وأفق ، فإن هذه الأبعاد ليست وقتية أكثر مما هى مكانية فى الوقت نفسه ، وليست بذهنية أكثر منها تجسدية وحسية فى الوقت نفسه .

نستطيع الآن أن نكشف كيف استطاع ميرلو بونتي أن يقترب من هذا الاكتشاف عبر قراءة تعليقاته فى نوفمبر - ١٩٦٠ على ضوء اكتشافاتنا :

"بأى حس هى الأرض المرئية تحت ناظرى غير خارجية بالنسبة إلىّ ، وملتصقة نظامياً بـ ... اللحظات الأخرى للزمان والماضى ، ولكن تجعلها فى الحقيقة وراء نفسها تبادلياً ، داخل نفسها ولكنها ليست هى وهم بحذاء بعضهما بعضاً (فى) الزمن " .

ذلك أننا الآن نستطيع أن نفهم هذا الورا أو الخلف وذلك الداخل أو الباطن بطريقة وكيفية دقيقة جداً ، إن الأرض والطبيعة المرئية تملك اللحظات الأخرى من الزمن " فيما وراء نفسها " بدقة فى ذلك الذى ينتظره المستقبل فيما وراء الأفق ، تماماً كما هو وراء أو خلف كل كينونة أراها ، كما هو غير المرئى " الجانب الآخر " للمرئيات الكثيرة المحيطة بى ، والأرض المرئية تملك اللحظات الأخرى من الزمن " فى داخل نفسها " تماماً فى ذلك الماضى الذى يحافظ على نفسه تحت الأرض ، كما هو فى دواخل كل كينونة ألتقاها وأستوعبها ، إن الأرض والطبيعة الحسية – بكلمات

أخرى - ليست فقط مفتوحة في ذلك المستقبل البعيد الذى ينتظر فيما وراء الأفق ولكن أيضاً فى داخل المستقبل القريب ، فى داخل الحقل المحصن بالإمكانات والمنتظر وراء كل شجرة ، من حيث العنكبوت يمكن له فى أى لحظة أن يأتى زاحفاً إلى وعينا ، وإن هذه الأرض والمحيط الحى مدعوم لا بذلك الذى هو أكثر استقراراً وبذوره فى الماضى تحت الأرض ، ولكن بالماضى المحصن الذى يستريح داخل كل شجرة ، وكل واحدة من الحشائش ، وفى داخل كل عضلة وخلية من أجسادنا .

إنه هكذا يمكن لعلماء البيئة وأنظمتها أن يدرسوا الماضى القريب لمكان محدد عبر " الدخول فى قلب "عدد من الأشجار الواقفة من أجل حساب دوائرها الداخلية وتفسير الاتساعات المتعددة لمحيط تلك الدوائر (إن المستوى المتسع بشدة ، أربع عشرة دائرة تطرح فعلاً من المطر الغزير منذ أربعة عشر عاماً مضت فى أعماق الماضى ، فيما سطح دائرة رفيعة بشكل كبير يخبرنا عن عام لم تهطل فيه الأمطار) إن الماضى الأعماق يمكن بحثه عبر حفر " مكانى ترابى " لكشف المستويات المختلفة من التربة وتفسير التشكيل والتكوين لتلك المستويات (مستوى من الفحم ، على سبيل المثال ، يطرح حريق غابة فى أعماق الماضى) فى أثناء ذلك ، علماء الحفريات الأثرية وعلماء الجيولوجيا يحفرون بشكل أعماق فى الأرض فى الحاضر من أجل كشف آثار الأزمنة القديمة .

ذلك الذى قد كان ، وذلك الذى سوف يأتى ليسا فى مكان آخر ، إنها ليست أبعداً مستقلة عن الحاضر الذى نعيش فيه ، إنها بالأحرى الأعماق ذاتها للمكان الحى ، العمق الخفى والمستتر فى أبعاده والعمق المختبئ الذى نقف عليه .

مدفوعين بمسار مركزية المكان لدى الناس الأصليين ، الشفاهيين ، والذى يبدو أنه يفتقد لأى تمييز خالص ما بين " الفضاء " و " الزمان " ، ومدفوعين أيضاً بتحليلاتنا للكتابة وآثارها الواضحة ، كنا نبحت فى إمكانية التصالح ما بين الزمان والمكان ، وإذا كان التفريق ما بين هذين البعدين ليس تفريقاً أو تمييزاً ضرورياً فإن علينا أن نكون قادرين على عرض الإمكانية لطريقة أخرى لرصد الأحداث ، طريقة حيث الجوانب المكانية والزمانية ليسا متميزين فيها .

ولقد نجحنا فى عرض أنه هنالك على الأقل طريقة واحدة لتوحيد الخبرة بالزمان والمكان ، أى أنها بالفعل ممكنة إن تصالح - استيعابياً - الزمانى والمكانى بكيفية تبرر الانفتاح الواضح لذلك الذى اصطالحنا على دعوته " بالمستقبل " والانغلاق الواضح الذى اصطالحنا على دعوته " بالماضى " وبناءً على ذلك فإن مصالحة استيعابية مثل

تلك كان يظن أنها مستحيلة - عادة بسبب المكان أو الفضاء - حتى الفضاء المستوعب كان يفترض بأنه متجانس ، وبذلك يفتقد أى تشكيل متناسق يمكن له أن يتجاوب به مع التناسق الواضح للزمان ، إنه من الواضح - على كل - أنه عندما يكون وعينا بالزمان مرتبطاً بوعينا بالمكان ، المكان نفسه أو الفضاء يتحول ، المكان لا يعود معاشاً على أنه فراغ متجانس كفضاء ، ولكنه يكشف نفسه كذلك الحقل الفسيح والثرى المتشكل حيث نحن منغمسون فيه ، ذلك الاتساع المشع والتشكيل عبر الأرض والأفق معاً ، إنها الأرض تماماً والأفق اللذان يحولان الفضاء التجريدي إلى المكان - الزمان ، وهذه السمات للأرض والأفق قد تم منحنا إياها عبر الأرض ، وهكذا فإننا عندما نسمح للزمان والمكان بالامتزاج معاً فى مكان - زمان متوحدين نعيد اكتشاف الأرض الحاضرة لنا .

لسوف يبدو - إذن - أن الفصل المفاهيمي للزمان والمكان - التفريق الأدبي والتمييز ما بين طولى متقدم وفضاء بلا ملامح ، ومتجانس - يعمل على خسوف الأرض الحاضرة عن الوعي البشرى ، طالما شكلنا حيواتنا بحسب المقاييس الافتراضية بالمكان والفضاء الجامد والخط الطولى للزمان ، فإننا سنكون قادرين على تجاهل أو غض النظر عن اعتمادنا الكبير على الأرض من حولنا ، إنه فقط عندما يكون المكان والزمان متصلين فى حقل واحد متحد للظاهرة يستطيع الحضور الحاضن للأرض أن يصبح واضحاً مرة أخرى بكل قواه وأعماقه ، كالأرضية نفسها والأفق نفسه لكامل معرفتنا .

أعماق الحسّ

إن الأهمية التي قد قاد إليها تحليلنا نحو المكان في ظاهرة مأخوذة على سبيل اليقين كأرض وأفق سوف تبدو غريبة لمعظم القراء ، وبالفعل لكل منا من الذين تربوا في ثقافة تطلب منا أن لا نثق في خبرة حواسنا المباشرة وأن نؤقلم أنفسنا بدلاً من ذلك على أسس حقيقية "موضوعية" ، تجريدية معروفة فقط عبر المقاييس الحسابية والأدوات التكنولوجية والتورطات الأخرى البشرية المحضة ، لكن بالنسبة لتلك الثقافات الأصلية التي مازالت مشاركة في العالم الأكثر مما هو بشري بالنسبة لأولئك البشر الذين لم يحولوا بعد تركيزهم الصافي من الأرض والطبيعة الحية نحو النظام البشري الخالص للإشارات - فإن الغاز ما هو تحت الأرض وما وراء الأفق (ما هو بدواخل الأشياء والجانب الآخر من الأشياء) تبقى محسوسة كفواض قوية شاسعة ، مجالات أساسية من حيث ذات يوم دخلت الكائنات إلى العالم الحى ، ومن حيث ذات يوم سوف تخرج منه .

على سبيل المثال ، بين معظم القبائل الأصلية للجنوب الغربى الأمريكى حيث أعيش - بما فيهم ما بين آخرين ، الهوبى ، والزونى ، والتتوا ، والكيريسان ، وشعوب الناقاجو - الناس يعتقدون أنهم قد جاؤا إلى هذا العالم من تحت الأرض ، بحسب الزونى وحكايات البعث لديهم أو الخلق فإن كل الناس (البشر والحيوانات الأخرى) عاشوا في الأصل في العالم المظلم الرابع تحت الأرض في داخل هذا الكون ، ثم استدعاهم من هناك بواسطة الشمس ، التي مع القمر يسكنان العالم المُنير فوق سطح الأرض ، وهكذا فإن الحيوانات - الناس جمعوا كافة مآلدهم من أشياء مقدسة لصناعة المطر ، ولجذب البذور كي تنمو ، وتسلقوا إلى الأعلى على قسبة من خلال كل العوالم الأربعة تحت الأرضية - من خلال عالم الرماد ، وعالم رائحة السلفور ، وعالم الضباب ، وعالم المجنحين بالريش - حتى انبعثوا أخيراً في العالم ، من السيبابو ، أو مكان الانبعاث انتشر الناس آنذاك وبدأوا في الاستقرار في الأراضى .

إن الانبعاث أحدُ المعتقدات الأكثر قداسة وانتشاراً ما بين سكان أمريكا الشمالية الأصليين اليوم ، بالرغم من أنه واضح بشكل خاص في الجنوب الغربى في تكوين

القصة حول انبعاث الناس من تحت الأرض متسلقين عادة على قصبه أو عصا أو شجرة ، تشابهاً مع انبعاث الذرة من التربة والنباتات والمحاصيل الأخرى لدى القبائل الزراعية في الجنوب الغربي ، إن البشر الذين يتسلقون من تلك الأعماق بحثاً عن ضوء الشمس والمطر هم مثل الذرة التي تنمو من خلال التربة .

غير أن هذا الانبعاث قريب أيضاً من العملية التي تولد بها كل الثدييات بما فيها البشر في هذا العالم ، منبعثين من الظلمة لأرحام أمهاتهم إلى الأرض الفسيحة ، المفتوحة ، " عندما صعدنا إلى سطح هذه الأرض ، كنا مثل طفل يولد من خلال رحم أمه " . في الواقع حكايات مبكرة لانبعاث الزوني سُجِّلت في القرن الماضي ، تصل فترة طويلة من قبل الوجود البشري ، أخبار عن أن الشمس كانت تعيش مع الأرض ، وهكذا فإن الحياة قد حُبِلَ بها في أعماق الرحم الرابع للأرض ، وهكذا فإن الانبعاث يمكن أن يفهم كولادة جماعية لكل الناس – وكل الحيوانات والنباتات – بعد فترة طويلة من التخلّف في الأعماق المظلمة للأرض .

إن أكثر الاحتفالات الطقوسية المقدسة لدى قبائل البويبلو المتجولة تأخذ مكانها في " الكيفا " ، تحت الأرض أو غرف جزئية تحت الأرض تدعى أيضاً " الأرحام " عبر عدد كبير من أناس البويبلو ، يدخل الشخص " الكيفا " عبر النزول عبر سلم من خلال حفرة على السطح ، وبعد الاحتفال الطقسي يغادر الشخص " الكيفا " عبر تسلق السلم نفسه خابراً من جديد ، ومجدداً الانبعاث الرئيسي من عالم ماتحت الأرض . في الواقع أنواع كثيرة من الفتحات الأرضية – حفر ، كهوف ، أخاديد ، ثقوب صغيرة في الأرض وحتى في الصخور – كلها تعتبر " سيبابو " عبر بشر البويبلو ، وهكذا فهي تذكرهم بأصولهم تحت الأرض التي تدعم وجودهم الآن .

إن الخبرة الفردية للولادة تتصل هكذا بالانبعاث الجماعي للحياة من تحت الأرض ، وشببها بذلك الموت البشري ، بالنسبة للبشر الشفاهيين هو ليس مجرد حدث شخصي ولكنه أيضاً تحول في الأرض ، عملية حيث عبرها تتفتح حسية الفرد ووعيه للخارج للانضمام إلى الحقل المحيط لما هو أكثر من بشري من الحواس ، في حكاية قديمة للباوني ، الرجل الميت يعود كشبح ، قائلاً : " إنني في كل شيء ، في الحشائش ، والماء " ، إن الميت لا يترك العالم المحسوس ساعياً نحو جنة غير مادية ، وبالأحرى فإن طاقة وحيوية شخص قد مات غالباً ما يُعتقد بأنها ترتحل إلى ما هو أبعد من الأفق المرئي ، إلى أرض قريبة حيث كل الأجداد والأسلاف يجتمعون فيها تقليدياً ، ومن حيث ما زالوا يؤثرون على الأحداث على سطح أرض الأحياء ، فيما بين أناس البويبلو الذين

سبق ذكرهم - على سبيل المثال - يُعتقد أن الأموات يرتحلون إلى قرية " الكاشيناس " والتي هي بالنسبة إلى الزنوى مكانها محدد تحت بحيرة يتم الارتحال إليها خلال سبعة أيام إلى الغرب ، " الكاشيناس " الأسلاف الأشبه بالآلهة عادة ما يعودون بانتظام إلى أناس البويبلو من أجل الاحتفالات الطقسية الموسمية حيث يتم تمثيلهم وتشخيصهم ، أو يتمثلون عبر الراقصين الذين يرتدون الأقنعة ، غير أن الكاشيناس يزورون أيضاً أناس البويبلو أيما وقت يشاؤون كسحب محملة بالأمطار تقترب من ما وراء الأفق ، حاملة السائل المانح للحياة والضرورى جداً للذرة والنباتات الأخرى التى يعتمد عليها البشر الرعويون والزراعيون :

" إن الهوبى - مثل البويبلو الآخرين - يعتقدون بأن أسلافهم يخصبون السحب ، ويجلبون الأمطار التى سوف تنعش وتغذى محاصيلهم التى تعتمد عليها حياتهم وقوتهم ، إن ضرورة الموت ... تصبح أكثر أهمية لذلك ... الموت يجلب إلى الوجود الأسلاف الذين يتحولون إلى سحُب والكاشيناس الذين يجلبون المطر ، السائل الذى يغذى الذرة والأغذية الأخرى التى بالتالى تغذى الهوبى أنفسهم ، وفى الدائرة الأبدية الموت يغذى الحياة نفسها " .

مابين القبائل الأخرى غير الزراعية أيضاً الموتى غالباً ما يُعتقد أنهم يرتحلون إلى أرض فيما وراء الأفق ، من حيث يمكن لهم العودة فيما بين الأحياء متخفين كحيوانات أو عناصر طبيعية أخرى ، وبالفعل لعدد كبير من أهل القنص إن المجال فيما وراء الجبال ، أو ما وراء المحيط كان حيث فصائل كثيرة من الحيوانات تسكن عندما لم يكونوا ظاهرين فى الأرض الطبيعية الحالية ، مجال حيث الغزال أو سمك السلمون كان يُعتقد أنهم يخلعون أقنعتهم وتخفيهم الحيوانى ويحيون فى شكل شبه بشرى. لطرح مثال واحد لذلك فإن هنود سكاغيت الحمر فى الشمال الغربى لأمريكا الشمالية آمنوا بأن أسماك السلمون عندما لاتكون تسبح فى الأنهار فإنها تحيا فيما وراء الأفق فى شكل بشرى ، وهكذا فى القرن التاسع عشر ، عندما ارتحل عدد من هؤلاء الهنود الحمر إلى الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ورأوا الفائض من البشر ذوى البشرة الشاحبة يعيشون هناك جلبوا معهم تقارير بأنهم قد وصلوا إلى بلاد السلمون وأنهم قد رأوا أسماك السلمون ، تتمشى هناك على أنها كائنات بشرية .

أما بالنسبة إلى قبائل السهول الأمريكية - على الأقل فى القرن التاسع عشر - فإن سكن الموتى فيما وراء الأفق كان من المعتقد أنه كان أرضاً ممثلة دائماً بفائض من النباتات الغذائية والوعول البرية - " أرض القنص السعيدة " فى الأسطورة

المعروفة - فيما بعض الأفكار والأطروحات للشعوب الأصلية مثل هذه حول أراض خصبة وغنية حيث كان الأسلاف يعيشون كانت على الأرجح المصدر حتى لمعتقدات مسيحية حول الجنة السماوية . إنه من المهم ملاحظة أنه بالنسبة للشعوب والناس الشفاهيين فإن مثل تلك المجالات لم تكن أبداً مقطوعة عن العالم الحسى للحاضر المعاش ، لم تكن منعكسة تماماً خارج العالم المعاش والمجرب ، غير أنها كانت محسوسة كشيء غامض ، مختلف في أعماق العالم الحسى في حد ذاته .

إذا بذلنا بعض الاهتمام بحياة ونشاط القوى الكونية العظمى - الشمس والقمر ، وتكتلات النجوم - سوف نرى أن حتى هذه الكينونات المطروحة عادة كأعلى سمو عمودى تصاعدى فإنها تبدو أنها تنبعث من وتعود إلى الأراضى التى هى فيما وراء الأفق ، وهكذا فإن هوند الشوشونى الحمر - على سبيل المثال - أكدوا أن الشخص الميئ " يتبع الدرب الحليبي " نحو أرض الموتى وهذا لا يحتاج إلى الإشارة ، كما يدعى بعض علماء الأنثروبولوجيا بأن الشوشونى يؤمنون بالجنة السماوية ، ذلك أن الدرب الحليبي هو مجرد آثار خطوات أو " طريق " تتبعه أرواح الموتى ، وهذا الأثر - كما نرى بوضوح - يقود بدقة إلى ما وراء الأفق .

مع ذلك يجب علينا هنا أن نشير إلى الالتباس الغريب ، إن ماهو أبعد من الأفق أو وراءه هو ذلك المجال حيث تذهب الشمس عندما تغادرنا ، والمجال الذى منه تنبعث عند الفجر ، إنه حيث يذهب القمر ويعود من هناك ، غير أننا نستطيع القول أيضاً بأن الشمس تفرق فى عالم ماهو تحت الأرض ، والقمر ينبعث من تحت الأرض ، ذلك أننا عندما نبذل اهتماماً قريباً لخبراتنا الحسية المباشرة لبزوغ وغياب القمر نرى أن رحلته فيما وراء الأفق هى أيضاً معاشة كحركة تحدث على الأرض وفيها ، وبالفعل فإن بزوغ الشمس فى كل صباح هو انبعاث أيضاً من تحت الأرض كما هو انبعاث الخنزير البرى مع نهاية الشتاء ! وهكذا ، على سبيل المثال هذه هى الكلمات لكتاب من الكيوا يدعى من سكوت مومادى :

" (أين تعيش الشمس ؟) ... بالنسبة للطفل الهندى الأحمر الذى يسأل السؤال ، يجيب والداه ، (الشمس تعيش فى الأرض) . إن راصد الشمس فيما بين أناس البويبلو فى الريبو جراند والذى تتضمن مهمته المقدسة أن يراقب فى كل يوم النقطة ذاتها من حيث تنبعث الشمس على خط السماء - يعرف فى الأعماق ضمن كينونته أن الشمس حية وأنها غير قابلة للتقسيم مع الأرض ، وهو يرجع فى كلماته إلى المكان الشرقى على أنه " بيت الشمس " ... هل يتوجب على شخص ما أن يقول للشمس :

"أين تذهبين ؟ " إن الشمس لابد أنها سوف تجيب : " إننى ذاهبة إلى البيت " ، وإنه يفهم حالاً أن البيت هو الأرض ، كل الأشياء حية فى هذا الاتحاد العميق حيث الكل عناصر ، كل الحيوانات ، كل الأشياء ... إن أبى يتذكر ذلك ، كولد كان قد راقب باندهاش وشىء مثل الخوف الرجل العجوز كوى - خان - هول ، " طائر التين " يقف فى الضوء الأول ، ذراعاه ممدودتان ووجهه المرسوم مثبت نحو الشرق ، (راصداً الشمس خارجة من الأرض) .

من وجهة نظر علم الظواهرية يعتقد أن المدار الضوئى للشمس يرتحل نحو الأرض كل مساء ، متحركاً طوال الليل عبر كثافة ماتحت الأقدام كى ينبعث مع الفجر فى الجانب المعاكس للعالم المرئى ، بالنسبة إلى بعض الحضارات أو الثقافات الأصلية فإنه بدقة خلال هذه الرحلة عبر الأرض تقوم الشمس بتخصيب الأرض التى تحبل بالحياة النارية مانحة البزوغ للأشياء الحية - البشر وغير البشر - والتى تُنوع على سطح الأرض .

وهكذا فإن الرحلة إلى ما وراء الأفق يمكن أن تقود نحو ما تحت الأرض ، والعكس صحيح ، نحن نبدأ برؤية بعض الضوء من هويتها السرية ، بالنسبة للناس الشفاهيين ، تلك المناطق التوبوغرافية التى اصطلاحنا على تسميتها " بالماضى " و" المستقبل " - الكيفية الغريبة التى عبرها هاتين الكيفيتين من الغياب تستطيع بالرغم من كل شىء التحول من واحدة إلى أخرى ، والتحديد فى بعضها بعضاً ، مثل الأمزجة إنه هكذا فإن الكثير من الثقافات الأصلية لديها اصطلاح واحد لتحديد الماضى العميق والمستقبل البعيد . فيما بين الأنويست فى جزيرة بافين على سبيل المثال ، فإن المصطلح Uvatiarru يوفاتيارو يمكن ترجمته على أنه كلا الاثنين " الماضى البعيد " و " المستقبل " إن دائرية الماضى البعيد والمستقبل البعيد أو ذلك الذى قد كان إلى ذلك الذى سوف يأتى قد يبدو أنه يأخذ مكانه باستمرار ، فى الأعماق هناك تحت الحاضر المرئى ، فى ذلك المكان حيث الأراضى غير المرئية فيما وراء الأفق تبدو فى الكشف ثقافة غير مرئية تحت أقدامنا .

إن مارتين هايديجر والذى بأوصافه الدقيقة للماضى والمستقبل قد ساعدنا فى الانتباه إلى هذين المجالين كبعدين حقيقيين لمجال التلقى والاستيعاب - لم يكتب حول هذين البعدين الوقتيين فقط ، على كل ، ولكن عن " ثلاثة " بما فيها الحاضر ، فى " الكينونة والزمان " ، أكد هايديجر أن الحاضر يمتلك إثارته الخاصة ، وتجاوزه المنضبط ، هو ملكه " حيث " يرتحل الشخص فيه ، إن نتيجة ذلك ظاهرة يمكن

إخفاؤها لا ضمن الماضي أو المستقبل فقط، ولكن أيضاً ضمن الكثافة نفسها للحاضر في حد ذاته ، فى كون أن هناك بعداً خفياً ، مغناطيسياً ، فى قلب الحاضر المحسوس ، حيث الظاهرة يمكن لها أن تنسحب خارج ذلك الذى ينبعث باستمرار ، وهكذا فى " الكينونة والزمان " ، يكتب هايديجر بأنه " حتى فى الحاضر نفسه ، هناك دائماً تلعب نوع من المقاربات والجلب ، أى نوع من الحضور " . كما لو أنه بشكل مركب هناك ، هناك نموذج للغياب أصلى كلياً بالنسبة للحاضر ، والذى منه الحاضر نفسه يصبح حضوراً : " فى الحاضر ، أيضاً ، الحضور يُمنح " .

هل هناك إذن كيفية أو مزاجية أخرى للغياب أو اللامرئية خاصة بشكل كامل بالأرض والطبيعة المفتوحة ؟ لقد لاحظت بالفعل ، هنا فى ضمن الحاضر الراهن المستوعب الطبيعة الخفية لذلك الذى يرقد فيما وراء جذوع الأشجار ، والأحجار التى تحيط بى ، من ما يتجاوب للشخصية غير المرئية لذلك الذى يرقد فى الجانب الآخر لهذه التلال القريبة ، وبالتالي إلى تلك الأراضى الكاملة وراء الأفق للحاضر الراهن ، من حيث كينونات كثيرة تدخل الأراضى المرئية وإلى حيث ظواهر عديدة تنسحب ، تتأخر ، وأخيراً تنتهى تماماً من مجال الرؤية ، لقد تعرضت أيضاً إلى الشخصية الخفية والمتوارية لذلك الذى يرتاح فى الداخل ضمن جذوع تلك الأشجار ، وداخل الأحجار والتلال الذى يتجاوب بالتالى للطبيعة غير المرئية لما هو تحت الأرض حيث تنبثق الكائنات ، وداخل ذلك الذى يتعثرون بداخله ، ويتحللون ، ويختفون ، هل هناك أسلوبية أخرى واضحة للغياب فى الكثافة نفسها للحاضر الراهن تمتلك خصائصها المميزة ، وليست مجرد تعديلات لما تحت الأرض أو ما وراء الأفق ؟

بعض أنواع التخفى مُركب ، وهو فى الخارج بشكل جاهز ، من حيث الأرض المرئية نفسها باستمرار تأتى إلى الحاضر ؟

لربما أكون أدفع هذه المنهجية إلى حد زائد فى محاولة لتحديد لا الحاضر المتحفظ عبر المستقبل والحاضر الراض عبر الماضى لكن أيضاً هذا التخفى للحضور من داخل الحاضر نفسه . بالنسبة للآن ، أكثر من ذى قبل ، أشعر بالحيرة والتشوش - غير قادر على القبض على المعنى أو استيعاب ذلك الذى أبحث عنه ، حتى وأنا أحقق هناك فى الخارج عبر تلال الأشجار ، عقلى يبدو متورطاً بتلك الأسئلة ، بأفكار وإسقاطات تحول بينى وبين الإحساس المباشر والاستجابة للأرض الحية من حولى ، أحاول أن أسترخى ، وهكذا أبدأ فى التنفس بعمق أكثر ، مستمتعاً ببرودة النسيم وهو يتدفق من خلال أنفى ، شاعراً بصدري ومعدتى يتمددان ببطء ويتقلصان ، إن تفكيرى

يبدأ فى الاسترخاء والثرثرة الباطنية، بالتدريج تتخذ إيقاع التنفس والزفير والشهيق والكلمات نفسها بدأت فى الذوبان طائفة للخارج مع كل نفس لتمتزج مع التنفس الصامت للأرض ، إن المونولوج الداخلى يتناغم ببطء مع حركة أشجار الصنوبر والسحب المشبعة بالمطر .

فراشة تحوم عن قرب ، أجنحة مذهبة تبحر فى النسيم الناعم مع بعض الخفقان اللحظى لأجنحتها قبل أن تستقر على وردة بيضاء ، إن الحشائش تتقافز مع النسيم ، فيما الزهور البرية ترتجف بتلاتها ، منتظرة الحشرات المهمة التى تتحرك من واحدة لأخرى ، الأريج يفوح من البتلات الجديدة على الأوركيد الضخمة، عند الجدول تهتز لا عبر الكائنات المجنحة ولكن عبر أنفاس أنفى التى تصل إليها من البعيد ، متحركة مثل شبكات العنكبوت على النسيم الناعم ، إن جسد الحساس الآن يستيقظ بوضوح فى العالم ، وتدرجياً أصبح واعياً بمزاجية وكيفية ثلاثة للأمري ، ببعد غير مرئى حيث أنا غارق من خلاله بعمق إلى درجة أننى الآن حتى أستطيع بصعوبة جلبه إلى الوعى الكامل ...

إنها لامرئية الهواء .

(٧)

نسيان وتذكُّر الهواء

« دعونا نجلسُ هنا .. في البراري المفتوحة لا يمكن لنا أن نرى الطُّرُق السريعة أو أى سور . دعونا لا نصنع بطانيات لنجلس عليها ، ولكن نُحس الأرض بلجسادنا ، والتربة ، والحشائش البرية . دعونا نجعل من الحشائش فراشنا ، شاعرين بحدتها ونعومتها . دعونا نصبح مثل الأحجار ، والنباتات ، والأشجار ، فلنكن حيوانات ، نفكر ، ونُحس مثل الحيوانات . أصفوا إلى الهواء . يمكن لكم أن تسمعوه ، تُحسوا به ، تتلقوه " Woniya Wakan " وونيا وَاكان - « الهواء المقدس » - الذى يُجدد الجميع عبر أنفاسه . وونيا ، وونيا وَاكان - الروح ، الحياة ، النَّفس ، التجدد - إنه يعنى كل ذلك . وونيا : نحن نجلس معاً ، لاتلمسوا ، ولكن ثمة شيء ما هناك ، إننا نحسُّ به فيما بيننا كحضور ، طريقة جيدة ، حسنة للبدء فى التفكير حول الطبيعة ، الحديث عنها ، بالأحرى تحدثوا إليها ، تحدثوا إلى الأنهار ، إلى البحيرات ، إلى الرياح كما نتحدث إلى أقربائنا » .

جون فاير ليم ديير

أى غموض هو الهواء ، أى لُغز هو لهذه الحواس البشرية ! من جانب ما الهواء هو أكثر أشكال الحضور طوعية فى التسمية ، يحيط بى ، يحضننى ، ويدأعبنى من الجانبين : الداخل ، والخارج ، متحركاً بأواجه على بشرتى ، متدفقاً من بين أصابعى ، مستديراً حول ذراعى ووركى ، ملتقاً على سطح فمى من الداخل ، متسللاً بيسر عبر عنقى وحنجرتى ليملاً رثتى ، وليغذى دمى ، وقلبى ، وذاتى ، لا أستطيع التصرف ، لا أستطيع التكلم ، لا أستطيع التفكير بفكرة واحدة دونما المشاركة لهذا العنصر المتدفق . إننى غارق فى أعماقه كما السمكة فى أعماق البحر .

مع ذلك فالهواء - من جانب آخر - هو أشد أنواع الغياب المعروفة لهذا الجسد ، ذلك أنه تماماً غير مرئى ، إننى أعرف جيداً أن ثمة شىء ما هناك - أستطيع أن أحس وأشعر به متحركاً فى مواجهة وجهى وأستطيع أن أتذوقه وأن أشمه ، وأستطيع حتى أن أسمع به وهو يتحرك فى داخل أذننى وعلى أغصان الأشجار ، ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أراه ، أستطيع أن أرى الحركة الثانية التى يدخلها إلى تحويل أشكال السُحُب ، الطريقة التى يحنى بها أغصان أشجار القُطن ، وإرساله بالتيارات على سطح النهر ، خفقات أجنحة الريش لنسرٍ يحلق فى السماء فوق الرؤوس ، صوت ورقة شجر وهى تسقط ، شبكة عنكبوت وهى تُنسج ، الحركة البطيئة لبذرة عبر المكان ، كل ذلك يجعله واضحاً ، لعينى ، الحضور الحسى للهواء . ومع ذلك فإن هذه العيون لا تستطيع أن ترى الهواء نفسه .

وعلى غير غرار السمة والشخصية الخفية لذلك الذى يرقد فى ما وراء الأفق ، وعلى غير غرار الطبيعة غير المرئية لذلك الذى يسكن تحت الأرض فإن الهواء غير مرئى فى مبدئه ، ذلك الذى هو اليوم يرقد فيما وراء الأفق يمكن على الأقل أن يتجلى جزئياً عبر الارتحال نحو المستقبل ، كما أن ذلك الذى ينتظر تحت الأرض يمكن بكيفية ما أن يُكشف عبر الحفريات فى الماضى والقديم .

غير أن الهواء لا يمكن أن يكون أبداً منفتحاً لعيوننا وأبصارنا ، لا يمكن تجسيده ، إنه غير مرئى فى حد ذاته ، إنه الوسيلة التى عبرها يمكن لنا أن نرى كل شىء آخر على أرضية الحاضر .

وهذا اللغز غير المرئى هو الغموض نفسه الذى يمكّن الحياة من أن تحيا وتعيش ، إنه يوحد أجسادنا المتنفسّة لا مع ما تحت الأرض فقط (مع الحياة الغنية للتربة ،

الأملاح والمعادن فى الصخور والأعماق) وليس مع ما وراء الأفق فقط (مع الغابات الكثيفة والمحيطات) ولكن أيضاً مع دواخل الحياة لكل ذلك الذى نستوعبه فى الحقل المفتوح للحاضر المعاش - الحشائش وأوراق الأشجار ، والغريان ، والحشرات والسحب المتجولة . ذلك الذى تتنفسه النباتات وتلقى به إلى الخارج نحن الحيوانات نتنفسه ونأخذه إلى الداخل ، وذلك الذى نخرجه فى أنفاسنا تتنفسه النباتات فى الداخل : الهواء ، يمكن لنا أن نقول هو الروح للأرض المرئية ، المجال السرى من حيث كل الكائنات تتزود بغذائها وقوتها ، وكما هو الغموض نفسه للحاضر المعاش إنه أكثر أشكال الغياب حميميةً ، من حيث الحاضر هو حضور ، وهكذا هو مفتاح الحضور المنسى للأرض .

لا شيء أكثر ألفة بالنسبة للثقافات الأصلية الكثيرة والمتنوعة حول الأرض من الاعتراف بالهواء ، والرياح ، والنفس كجوانب لقوى مقدسة واحدة ومتفردة . عبر فضيلة حضوره الطاغى ، ولا مرئيته المحضة ، وتأثيره المؤثر والمحقق لكل كيفيات الظاهرة المرئية فإن الهواء للناس الشفاهيين هو المعيار الأسمى ذلك الذى لا يوصف ، غير القابل للمعرفة ، ومع ذلك لا يمكن إنكار حقيقته وتأثيره وحضوره ، إن روابطه الواضحة مع الكلام - الحس بأن الكلمات المنطوقة هى أنفاس متشكلة (حاول نطق كلمة واحدة بدون الشهيق والزفير فى الآن نفسه) ، وبالفعل إن كون الجمل المنطوقة تتخذ قواها التواصلية من تلك الوسيلة غير المرئية التى تتحرك فيما بيننا - تمنح الهواء جمعاً مع المعنى اللغوى والفكرة ، وبالفعل فإن عدم القدرة على وصف الهواء يبدو متصلاً بعدم القدرة على وصف الوعى فى حد ذاته ، وعلينا أن لا نندهش أو نستغرب لكون الكثير من الناس الأصليين يرون الوعى أو « العقل » لا كقوى تسكن داخل رؤسهم ، ولكن بالأحرى كقيمة هم أنفسهم فى « داخلها » ، بالإضافة إلى الحيوانات الأخرى والنباتات والجبال والسحب .

وبحسب روبرت لولور (باحث كان قد عاش ودرس فيما بين الثقافات الأصلية فى أستراليا) ما بين شعب الأبوروجونى فإنهم يميلون إلى اعتبار الكينونات المرئية من حولهم - الصخور ، الأشخاص ، أوراق الأشجار - على أنها تجوهر مثل الكريستال وانعكاساته وعى الوعى ، فيما الوسيلة غير المرئية ما بين الكينونات تتم

معايشتها كما يدعوها الغربيون « اللاوعى » ، المجال الإبداعى ولكن غير المرئى من حيث ييزغ مثل ذلك الوعى . وهكذا فإن « الشيرينجا » - " Alcheringa " ، أو زمن الحلم - الذى يحتوى على مجال شبيه بالحلم فى أحداثه من حيث الحاضر المرئى ينبعث باستمرار - يسكن لا بداخل التلال وتضاريس الأرض المحيطة فقط ولكن أيضاً فى الأعماق غير المرئية للهواء نفسه ، فى الكثافة للوسيلة نفسها التى تتدفق بداخلنا ومن كل ما يحيط بنا ، إن هذا يقود شعب الأبوروغونى فى أستراليا لمنح أهمية بالغة للظاهرة الجوية المتنوعة ، إن برق الرعد تتم تجربته كدفعات عنيفة من أعماق الحلم ، الطيور والعصافير الذين يُجَنَحون طريقهم عبر اللامرئى غالباً ما تتم خبرتهم والإحساس بهم على أنهم رُسل للوعى ، فيما قوس قزح (ثعبان قوس قزح) الذى يتقوس عالياً عبر السماء ثم يغطس من جديد فى أعماق الأرض يُحَس بأنه يمثل ويُشخَّص كل القوى الخطيرة ، القهرية ، مع ذلك فإنها قوى مانحة للحياة فى الأرض ، ذلك أن قوس قزح يتم إدراكه على أنه « الحافة » نفسها للحلم ، وعلى أنه المكان حيث مواطن إمكانيات اللاوعى ، غير المرئى يبدأ فى التمثل للرؤية التى تصبح ممكنة له .

الرياح والأرواح فى السهوب الكبرى

إن الهواء الموجود فى كل مكان ومع ذلك فإنه غير مرئى بطبيعته يجعل المعتقدات الأصلية والتعاليم الخاصة بغموض هذا العنصر فيما بين أكثر الأمور قداسة وسرية فى التقاليد الشفاهية ، إن التعاليم الأصلية فيما يتعلق بالرياح أو النَّفس من الأمور الصعبة للغاية لمتابعتها وتسجيلها ، ذلك أنه لتمنح صوتاً لها دون ضرورة لربما يكون بمثابة انتهاك للغموض والقدسية لهذه القوة المحيطة بنا ، ذلك الحضور الغامض والجاذب (أو الغياب) والذى هو من الواضح أنه ضرورى وحتمى لحياة المرء ولحياة الأرض .

إننا نعرف بالفعل أن الهواء كان قوة مقدسة غير مألوفة لمعظم الشعوب الأصلية لأمريكا الشمالية فيما بين الهنود الحمر فى الجنوب الشرقى - على سبيل المثال - فإن الإله الخالق - الإله الوحيد المساوى أو الذى يتجاوز الأرض والسماء بقواه - يُدعى "Hesakitumese" « هيساكيكوميسى » أى سيد النَّفس ، إن هذه الكينونة هى التى ترسل بالضباب ، والرياح ، والأجواء والمناخات الأخرى عبر الأرض ، ومؤثرة على مصائر البشر .

وبالنسبة لشعب « اللاكوتا » فإن أعظم مقدس أو "Wakan" « واكان » فهو جانب من « الواكان تانكا » ، الغامض العظيم ، هو « التاكو شانشكان » أى السماء المحيطة ، يعرفها سحرة الشامان على أنها ببساطة « الساكان » ، تاكو شانشكان يُحس بأنها فى كل مكان ، الروح الحاضرة فى كل مكان ، وهى تخترق الحياة ، والعاطفة ، والحركة ، والأفكار فى كل شىء ، ومع ذلك فإنها مرئية لنا فقط على أنها زرقة السماء (إنها تلك الألوهية التى يقوم بعض الأشخاص المعاصرين من اللاكوتا

بدعوتها ، بالإنجليزية ، الروح العظيمة) « تات » - الريح - يخلقها الساكّان من عنصره ، لكى تكون مصاحبة للساكّان ولكى تحمل أوامره وأمانيه ورسائله عبر العالم . (الساكّان والتيت - السماء والريح - يتم الحديث عنهما أحياناً على أنهما الكينونة ذاتها بالنسبة لسحرة الشامان من اللاكوتا) ، ولقد كان هوتيت هو الذى ضاعَ آيت - امرأة جميلة من شعب البافالو - ومن هذا التزاوج منح الولادة لريح الشمال ، وريح الشرق ، وريح الجنوب ، وريح الغرب (بالإضافة إلى «يم» ، الإعصار الصغير أو غبار الشيطان) . إن هذه الرياح الأربع هى التى تشكل وتمنح سحرها الخاص لكل طقس من الطقوس التى يمارسها اللاكوتا اليوم .

أثناء ذلك فإن غليون السلام هو أكثر الأشياء « واکان » من كل ممتلكات اللاكوتا ، منحوت من صخرة الغليون القرمزية التى توجد فقط فى سهوب الشمال - صخرة تُعتبر خلاصة دماء الأسلاف المتخثرة - فإن الغليون المقدس يتم تدخينه وإشعاله فى طقس شعائرى خلال كل الاحتفالات المتنوعة للاكوتا ، من رقصة التعرق حتى رقصة الشمس ، إن دخان الغليون يجعل العالم غير المرئى مرئياً للتنفس ، وفيما هو يتصاعد من الغليون فإنه يجعل التدفقات والأمواج فى الهواء نفسه مرئية ، يجعل الاتصالات غير المرئية مرئية ما بين أولئك الذين يدخنون الغليون فى تقدمة وكل الكينونات الأخرى التى تحيا فى داخل هذا العالم : الناس ذوى الأجنحة ، الآخرين الذين يمشون والناس الزاحفين ، والكائنات ذات الجذور المتعددة - الأشجار ، الحشائش ، البرسيم ، العفن - الأكثر من ذلك فإن الدخان المتصاعد يحمل صلوات أهل اللاكوتا إلى كائنات السماء : إلى الشمس والقمر ، إلى النجوم ، إلى كائنات البرق والسحب ، وإلى كل تلك القوى التى يحتضنها « الوونيا واکان » أو الهواء المقدس .

« وونيا واکان - الهواء المقدس - الذى يجد الكل والجميع عبر أنفاسه ، وونيا ، وونيا واکان - روح حياة ، نفس ، تجدد - إنه يعنى كل ذلك . وونيا - نجلسُ معاً ، لا تلمسوا ، لكن ثمة شىء ما هناك ، إننا نحسه فيما بيننا ، كحضور » .

فى افتتاح أى طقس احتفالى فإن الشخص - المداوى بين اللاكوتا يملأ ويشعل الغليون المقدس ، ثم قبل تدخينه بنفسه يقدم قطعة الفم إلى ريح الغرب ؛ ذلك من أجل أن تشارك تلك الريح بنفسها فى التدخين ثم بدوره عارضاً الغليون للتدخين لريح

الشمال ، ثم ربح الشرق وأخيراً ربح الجنوب ، فيما رسل الآلهة - الرياح - هي أول القوى التي يتم مخاطبتها في أى احتفال .

إن رياح الاتجاهات الأربعة هي أيضاً مربوطة بعمق بالحس الدائرى للمكان والزمان ، شامان عجوز من اللاكوتا يدعى « سورد » سيف ، تمت محاورته في بداية القرن العشرين ، ذكر أنه في أى احتفال بعد تقدمة قطعة الفم من الغليون المُشعل لكل من الرياح الأربعة فإنه :

« يتوجبُ على الشامان أن يحرك الغليون بالكيفية نفسها حتى تشير قطعة الفم من جديد نحو الغرب ، وأن يقول : مدوراً ، فإننى أكملُ الأرباع الأربعة والزمان . إنه يتوجبُ عليه أن يفعل ذلك لأن الرياح الأربعة هي الأرباع الأربعة للدائرة والجنس البشرى يعرف لحيث يمكن أن تنبعث منه ، والغليون يجب أن يكون تقدمة مباشرة نحو تلك الرياح ، إن الأربعة أرباع تحتضن كل ذلك الذى هو فى العالم وكل ذلك الذى هو فى السماء ، من أجل ذلك عبر إدارة الغليون فإن التقدمة تصبح لكل الآلهة ، إن الدائرة رمزٌ للزمان ، لوقت النهار ، وقت الليل ، وقت القمر ، وهى دوائر فوق العالم ، وزمان السنة هو دائرة حول حدود العالم ، من أجل ذلك فإن الغليون المُشعل وقد تحرك فى دائرة كاملة هو تقدمة لكل الأزمنة » .

بعد إكمال الدائرة فإن الشامان يُشير بقطعة الفم فى الغليون نحو السماء ، ويقدمه للريح «تيت » أبى الرياح الأربع ، أخيراً إذن « يتوجب على الشامان أن يدخن الغليون وفيما يفعل ذلك يجب عليه القول : إننى أدخن مع الروح العظمى . دعونا نحصل على يومٍ أزرق » .

الهواء ، والوعى فيما بين الدنى أو النافاجو

فيما الهواء يُعتقد أنه مقدس عبر كافة شعوب أمريكا الشمالية الأصلية فإن أكثر الوثائق المطولة لتفسير الهواء ربما تكون لشعوب الدنى ، أو النافاجو ، ولفهوم « نيلشى » الهواء المقدس ، وقد أسىء فهم ذلك لزمن طويل عبر علماء الأنثروبولوجيا ، بأن مصطلح النافاجو « نيلشى » يعود إلى الجسد الكامل للهواء أو المناخ بما فيه الهواء عندما يتحرك ، وكذلك الهواء فى دوائره بداخلنا ونحن نتنفس ، وبحسب جيمس كيل ماكنيل ، فى كتابه الموثق « الريح المقدسة فى فلسفة النافاجو ، نيلشى » « تعنى الريح ، الهواء أو الجو » ، وهى ضرورية لكل الطبيعة ، وذلك الذى يكفل الحياة والحركة والكلام والوعى لكل الكائنات ، الأكثر من ذلك فإن الريح المقدمة تخدم كوسائل للتواصل ما بين كل الكائنات والعناصر فى العالم الحى . إن نيلشى بذلك ذو أهمية مركزية محضة للدنى ، أو النافاجو ووجهة نظرهم من العالم » .

بالرغم من أن نيلشى مفهوم لدى النافاجو على أنه متفرد ، وظاهرة متحدة ومتجانسة ، فإن الريح فى كليتها هى أيضاً مفترض بأنها مُشكّلة من جوانب كثيرة متنوعة ، جمع للرياح الجزئية كل منها لديه أسماؤه بلغة النافاجو ، أحد أولئك - " Allch'i hwii Sizilini " أو « الريح ضمن الواحد » - يعود إلى ذلك الجزء من كامل الريح التى تدور فى دواخل كل شخص ، إن هذه الفكرة قد تم إساءة فهمها مبكراً من قبل البعثات التبشيرية ، وعبر المبشر المهم / وعالم الأجناس الأب بيراد هيل ، على أنها ظاهرة مرتبطة بالروح الشخصية فى المعتقد المسيحى ، وهكذا فإن « الريح فى داخل الواحد » ، تم تفسيرها - حتى حديثاً - على أنها الروح غير المادية أو النفس ، كينونة كاملة تماماً تدخل الشخص عند مولده ، وتتصرف كالمرور الداخلى لحياته أو حياتها والسلوك ، ومن ثم فإنها ترحل من الشخص عند مماته ، وفقط حديثاً

قام بعض علماء الأنثروبولوجيا مثل «ماكينلي» بمحاولة الخروج من عُصَابَات العمى التفسيرية التي فرضها عالم وجهة النظر المسيحية من أجل الاعتراف بأن القوى السائدة في الحضارة الغربية بالنسبة للروح الداخلية الخالصة أو العقل قد عاشها النافاجو كمعطيات للرياح المحيطة أو الجو والمناخ في العموم ، إن «الرياح في داخل الواحد» ليست بأى طريقة متجانسة ومستقلة ، ذلك أنه عبر العمليات المستمرة للتبادلية مع الرياح المتنوعة المحيطة بالواحد والتي هي بالفعل جزء كامل من الرياح المقدسة في حد ذاتها يمكن لنا أن نقرب من الخبرة الشفاهية للهواء عبر تأمل كلمات عجائز النافاجو أنفسهم ، وعبر البحث في التأثير المهيمن للرياح ، أو الهواء ، في داخل كون النافاجو أنفسهم .

«الرياح وُجِدَتْ أولاً كشخص ، وعندما بدأت الأرض في الوجود كانت الرياح ترعاها ، لقد بدأنا في الوجود حيث الظلمة ، راقدين على بعضنا بعضاً حدثت . هنا ، ذلك الذي كان ينام في الأعلى أصبح الفجر ، ناشراً بياضه ، ذلك الذي كان رقاداً فوق بعضنا بعضاً آنذاك ، هذه هي الرياح ، إنها (الرياح) كانت ظلمة ، لهذا السبب فإنه عندما يحل الظلام عليك ليلاً فإنه يتنفس نسيماً بديعاً ، إنه هذا ، إنه شخص ، يقولون هم . من هنالك عندما يحل الفجر ، جميلاً متحولاً إلى خطوط بيضاء عبر الفجر ، فإنه عادة يتنسم . إن الرياح توجد بجمال ، إنهم يقولون . في الخلف هناك في عوالم تحت الأرض ، كان ذلك شخصاً على ما يبدو .»

في عوالم تحت الأرض بالفعل في تلك الأزمنة أو المجالات تحت التربة ، سابقاً لابتعاث البشر المقدسين في عالم الحاضر ، وُجِدَتْ الرياح وقدمت كلا الأمرين : التنفس والإرشاد إلى الآخرين المقدسين ، مثل الإنسان الأول ، الإله المتحدث ، ومناداة الإله ، عندما انبعث هؤلاء البشر المقدسون من التربة إلى عالم الأرض هذا بسطحها كانوا مصحوبين بالرياح ، وكان بالفعل التمييز قائماً على أنها رياح الظلام والفجر ، الرياح الآن تميز نفسها أكثر إلى الرياح الزرقاء للظهيرة والرياح الصفراء للغروب ، إن هذه الرياح الأربعة انتشرت من مكان الانبعاث ثم حددت الأرض أماكنها عبر الاتجاهات الأربعة ، عبر الأفق في العالم - امرأة الفجر في الشرق ، فتاة الأفق الأزرق

فى الجنوب ، ولد الأفق الأصفر (أو غروب المساء) فى الغرب ، ورجل الظلمة (أو الليل) فى الشمال (إن الأسماء الدقيقة لتلك الرياح تتنوع من أغنية لأخرى ، غالباً يتم الحديث عنها ببساطة على أنها الريح البيضاء ، والريح الزرقاء ، والريح الصفراء ، والريح المظلمة) . إن هذه الرياح الأربع - أو الأربعة كلمات ، كما تُسمى - يُقال بأنّها وسائل التنفس للجبال الأربعة المقدسة التى تتعالى بوضوح على حافة كون النافاجو ، واحد فى كل اتجاه . « إنها (أى الرياح) تقف بدواخل الجبال ، تلك (الجبال) منذ ذلك الوقت عبرها ، هى مقدساتنا حتى نهاية الزمان » . شبيه بذلك ، الشمس والقمر يمتلكان رياحهما الخاصة ، والتى هى وسائلهما للحياة والتنفس ، رياح أخرى تحيط وتتحرك فيما بين هذه القوى الكبرى ، على اعتبار أنها وسائلها للتواصل مع بعضها بعضاً ومع الظواهر الأخرى ، من منزلها المقدس فى كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة فإن الريح المقدسة يُقال أنها تقارب وتدخل إلى الظواهر الطبيعية المتنوعة للعالم ، وهكذا لتقدم وسائل الحياة ، والحركة ، والفكرة ، والكلام للنباتات ، والحيوانات ، وكل الناس فوق سطح الأرض ، بما فيهم أهالى النافاجو أنفسهم .

إن الريح كما يعتقد الدنى حاضرة فى داخل الشخص منذ اللحظة نفسها التى تم الحبلُ به ، عندما ريحان : إحداهما من سوائل الجسد من الأب وأخرى من سوائل الأم تشكّلان ريحاً واحدة فى داخل الجنين ، إنها حركة تلك الريح هى التى تُنتج الحركة والنمو فى تطور الجنين ، عندما يُولد الطفل ، يقول النافاجو إن الريح بداخله « تطلقه وتكشفه » ، وأنه آنذاك عندما يبدأ الطفل فى التنفس فإن ريحاً أخرى « محبطة » تدخل إلى الطفل ، إن هذه الريح قد تكون أُرسِلت من أحد الجهات الأربع عبر الأفق ، أو من الشمس ، أو القمر ، أو من الأرض والتربة نفسها - وبالفعل من الممكن أن يكون من أية ظاهرة طبيعية - بالطبع إن الريح المعينة التى تدخل مع النفس الأول سوف يكون لها تأثير قوى وفعال على المسار الكلى لحياة ذلك الشخص ، ومع ذلك فإن رياحاً أخرى سوف تدخل فى أوقات أخرى فيما بعد فى تطور الطفل ، وهكذا وكما يكتب ماكينلى « إن الطفل الذى ينمو يُعتَقَد بأنه باستمرار موضوع تحت تأثير الرياح الموجودة من حوله » .

وبالرغم من أنها غير مرئية فإن الريح المقدسة يمكن إدراكها عبر دورانها وأثار حركتها التى تتركها باستمرار فى العالم المرئى ، إن الرياح التى تدخل الكائن

الإنسانى تترك علاماتها أو آثارها - حسب معتقدات النافاجو - فى خطوط ونماذج الدوائر التى ترى على أصابع اليد والقدم ، وفى النماذج الدائرية التى يصنعها الشعر وهو ينبعث من رؤوسنا ، وكما يشرح أحد كبارهم :

« إن هناك خطوطاً ودوائر على حافة أصابعنا ، إن الرياح تلتصق هناك ، إنها الطريقة نفسها التى تلتصق بها فى أصابع أقدامنا ، والرياح توجد علينا هنا حيث البقع الناعمة ، حيث هناك استدارة ، على قمم رؤوسنا بعض الأطفال لديهم دائرتان ، البعض يملك واحدة فقط ، أنت ترى ، إننى أقول أن أولئك (الذين يملكون اثنتين) يعيشون عبر وسائل الرياح ، إن هذه (الرياح التى تلتصق) بالدوائر على أطراف أصابعنا تُمسك بنا وتشدنا للأرض ، وتلك التى على أطراف أصابع أيادينا تشدنا إلى السماء ، وبسبب هذه نحن لا نسقط عندما نتحرك من حولنا . »

الأبعد من ذلك ، إنها الريح التى تمكنا من الكلام ، لقد لاحظنا بالفعل من قبل أن الرياح الأربعة للاتجاهات تُسمى أيضاً « الكلمات الأربعة » بما أننا نتحدث فقط عبر وسائل التنفس ، الريح نفسها - النفس الجماعى - يُقال أنها تقبض بقوة اللغة :

« إنه فقط عبر وسائل الريح يمكن لنا أن نتحدث ، إنها توجد على طرف ألسنتنا . »

ملخصاً هذه المفاهيم المتنوعة ، يكتب ماكينلى :

« بحسب معتقدات ومفاهيم النافاجو إذن فإن الرياح توجد فى كافة ما حولنا وفى دواخل الفرد ، داخله وخارجه عبر أعضاء التنفس ودوائر سطح الجسد ، ذلك الذى بالداخل وذلك المحيط بالشخص هو الشيء نفسه وهو قدسى . »

أخيراً ، والأعمق من ذلك فإن هذه الوسيلة غير المرئية التى يستغرق فيها الجسد هى التى تزودنا بالقدرة على الفكرة الواعية ، لقد ذُكرَ بالأعلى أن الجبال المقدسة فى الاتجاهات الأربعة لديها رياح متنوعة تتحرك فيما بينها كوسائلها للاتصال والتواصل مع بعضها بعضاً ومع الكينونات الأخرى ، إن الريح غير المرئية التى تدور بدواخلنا ومن حول كل شخص فرد يُفترض أنها تتكون جزئياً من مثل تلك الرياح المرسلة من الاتجاهات الأربعة ، اثنان من تلك الرياح غالباً ما يتم الحديث عنهما على أنهما الرياح

الصغيرة أو أطفال الريح ، يُعتَقَد أنها « وسيلة المعرفة » للشخص ، إن هاتين الريحيتين الصغيرتين تعلقان بدوائر آذاننا الاثنتين ، وإنه من هناك يمكن لهما أن يقدموا الإرشاد إلينا ، محذرينا من صعوبات قريبة ، ومساعدتين إيانا للتخطيط وصنع الاختيارات . عندما يجد شخص من الناقاجو نفسه مفكراً عبر الكلمات فإن ذلك يُقال بأنه صوت إحدى أو كلتا الريحيتين الصغيرتين تتحدثان عبر أذنيه ، بالطبع فإن أطفال الرياح هؤلاء مجرد موجات صغيرة ببساطة فى داخل الجسد الفسيح للنيلشى - الريح القدسية - التى توجد فى كل مكان ، وبكلمات أحد عجايزهم : « تلك التى تدعى طفل الريح ، إن ذلك مثل الحياة فى الماء » أى أنه ، طفل الريح غير منفصل عن الجسد الدائر للهواء الذى نغرق فيه بكاملنا .

إن مثل تلك الرياح الصغيرة من الجهات الأربع تحيا لا فى الأذان البشرية فقط ولكن فى آذان أو أشباه الأذان من الجوانب لكل الأشياء الحية ، مزودة إياها بوسائل السمع والمعرفة ، والتواصل مع الآخرين ، إنه هكذا إذن الحيوانات الأخرى - على سبيل المثال - تعرف ما الذى نفكر به نحن البشر حولهم ؛ « عندما نفكر بهم بشكل طيب - الخيول ، وقطعان الماشية ، والماعز ، وكل شئ نحيا به - إنهم يعلمون به عبر وسائل الريح ، إنهم يعرفون تفكيرنا » . بعض كبار السن يقولون إنه فى هذه الأيام الرياح الصغيرة من الجهات الأربع لم تعد تنصحن أو تتحدث إلى أهالى الناقاجو بوضوح شبيه بما كان فى الماضى ، لكن مثل تلك الرياح الصغيرة ما زالت تتحدث بوضوح فى آذان حيوانات أخرى ، مخبرة إياها عن ذلك الذى يحدث فى العالم ، وحيوانات مثل الكيوتى أو البومة غالباً ما توصل تلك المعرفة إلى أهالى الناقاجو ، محذرة البشر من أحوال خطيرة عبر أصوات معينة وسلوك معين .

الآن ، عندما نرجع إلى الرياح المتعددة والمتنوعة (مثل رجل الفجر أو امرأة الفجر ، وامرأة السماء الزرقاء ، ورجل الغروب ، والريح المظلمة وطفل الريح ، والريح الدائرية ، والريح اللامعة ، وريح الظلمة الزاحفة ، ورياح أخرى) . فإن الناقاجو لايتحدثون عن كيونات تجريدية أو مثالية فكرية ولكن عن ظواهر فعلية - عن ذر الرياح ، النسائم ، الأعاصير ، الهبوب ، وأنفاس يستوعبونها عبر الوسيلة المتدفقة التى تحيط بأجسادهم وتسرى عبرها . إن الاعتقاد العميق بالوحدة الشاملة للنيلشى ،

يعتقد النافاجو أن كل تلك الرياح الجزئية تعبيرات داخلية لغموض واحد غير قابل للانتقاص منه ، ومن الواضح أن ذلك قد وُلِدَ عبر الرصد والملاحظة للتعددية الطقسية التي صنعتها أنفاسها - أو عبر الحرارة المرتفعة في موجات من أثر الشمس ، أو أغصان الأشجار كما تنقسم في مهب الريح ، أو الارتجافات الدقيقة لذيل ثعبان الجرس . إن كل تلك الشواهد للأمواج الهوائية المحيطة بهم ويدواخلهم ليست قوى مستقلة تماماً ولكنها بالأحرى تعبيرات لحظية بلاغية في ضمن ودواخل الجسد الفسيح للهواء في حد ذاته .

غير أنه من الواضح أن هنالك نوعاً من الاستقلالية الإقليمية أو الهوية للرياح المختلفة والتي هي جزء من الأجواء الكلية - الهواء الدافئ والجاف العالق بالمناطق الرملية في كل فترة مما بعد الظهر من الواضح أنه مختلف عن النسيم البارد الذي يهب عبر أشجار القطن على ضفاف النهر ، بالنسبة للنافاجو هناك رياح غير متوقعة أيضاً كرياح ثابتة ، رياح مساعدة ورياح ضارة ورياح خطيرة محددة ، على سبيل المثال يمكن لها أن تبدل شخصية الرياح الطيبة في دواخل الكائن أو الشخص الحي ، أو يمكن لها أن تجلب صعوبات وأذى إلى المجتمع أو إلى الأرض ، إن كل شخص يجب أن يستقصي ويبحر عبر هذا العالم من التأثيرات غير المرئية المتنوعة بحذر واهتمام كبير مقوياً صلاته مع الرياح الطيبة المتنوعة عبر احترامه للأرض نفسها ، جاهدًا لوضع حياته في تناغم أو "Hozho" « هوشو » ، مع الاتجاهات الأربع ، وفي تواصل مع الأرض والسماء ، مع الشمس والقمر والنجوم .

مثل الجبال في الاتجاهات الأربع ، ومثل الحيوانات والنباتات الأخرى فإن البشر أنفسهم أحد الأماكن التي تعيش وتتجول فيها الرياح ، واحد من مراكزها المتعددة ، وتماماً مثل ما تتغذى وتتأثر بالهواء عموماً فكذلك أيضاً أفعالنا وأفكارنا تؤثر في الهواء بدورها ، أي بمعنى أن الفرد ليس حيادياً فيما يتعلق بالهواء المقدس ، وبالأحرى هو يشارك فيه كأحد أعضائه ، إن رغباته ونواياه (ريحه الداخلية) تشارك مباشرة في حياة الريح غير المرئية من كافة ما حوله ، وبذلك يمكن إشغال والتأثير الكامن على أحداث في الأراضي والطبيعة المحيطة سرحتي ، ببعض المقاييس ، إضفاء الخصب على الأمطار ومياه السحب ، واختمار البذور ، وتزاوج الحيوانات وتكاثرها

فى المواسم ، وبذلك فإن التركيز فيما بين النافاجو ، وبالفعل فيما بين الكثير من الشعوب الأصلية ، على تركيز الأفكار والصلوات من أجل التأثير ومساعدة الانبعاث المستمر لأحداث أرضية مثل تلك من غير الواضح (الضمنى ، غير المرئى) وإلى الفعلى والواضح (المرئى) من أشكال الوجود .

إنه عبر هذه القوى الطقوسية للكلام والغناء يستطيع النافاجو ويتمكنون بقوة كبيرة من التأثير والتبديل للأحداث فى الكون المحيط بهم ، وبحسب جارى ويذيرسبون فى دراسته المهمة حول « اللغة والفن فى كون النافاجو » فإن النافاجو يعتبرون فعل الكلام والخطاب على أنه تشكيل خارجى للأفكار « إنه فرض للشكل على العالم الخارجى » ، حيث يمكن عبر ذلك تحويل وتغيير مجرى الهواء المحيط بهم ، وبسبب أن الهواء أو الريح هو الوسيلة نفسها والوسيط حيث القوى الطبيعية الأخرى تحيا وتتصرف ، فإنه عبر تحويل الهواء عبر الغناء فإن المغنى يمكن له أن يؤثر بشكل باطنى على نشاطات القوى الطبيعية العظمى نفسها .

عندما يكون شخص من النافاجو راغباً فى تجديد أو إعادة بناء فى العالم ، لحالة الانسجام والتناغم للصحة والجمال والتي يعبر عنها أهل النافاجو بكلمة « هوشو » فإنه يتوجب عليه أولاً أن يسعى - عبر إقامة الشعائر - إلى خلق ذلك الانسجام والتناغم والسلام فى داخل كينونته وذاته نفسها ، مع تأسيس مثل ذلك « الهوشو » فى داخل نفسه فإنه يستطيع أننذ بنشاط نقل تلك الحالة من التوازن والصحة والعافية إلى الأكوان المحيطة الأخرى ، عبر تحويل قوى الأغنية أو الصلاة ، أخيراً بحسب ويذيرسبون :

« بعد أن يكون الشخص قد عكس الهوشو فى الهواء عبر شكل شعائرى وطقوسى فإنه حينئذ مع نهاية ذلك الطقس ، يتنفس ذلك الهوشو من جديد معيداً إياه إلى نفسه ، ويجعل نفسه جزءاً من ذلك النظام ، والانسجام ، والجمال الذى كان قد عكسه فى العالم عبر طقوس ووسائل الكلام والغناء » .

إن هذا الاقتباس الصغير من ويذيرسبون يجعله واضحاً بشكل خاص ذلك التواصل ، وحتى الشخصية الدائرية للعلاقة ما بين أهالى النافاجو والكون الحى الحميم الذى يتجلى فيهم ويتضمنهم . إنهم خاضعون ومحايدون فى الوقت نفسه

باحترام للقوى الأخرى لهذا العالم ، أو بالأحرى إنهم - كلا الجانبين - محايدون خاضعون ونشيطون وفعالون في الوقت نفسه ، ممارسون الشهيق والزفير ، ومتلقون التغذية والإنعاش من الكائنات المختلفة ومغذيتها بنشاط وفاعلية بدورهم ، كما يُقال ويُنطق في طرق المباركة وطقوسها :

« مع كل شيء يملك حياة ، مع كل شيء يملك قوة الكلام ، مع كل شيء يملك القوة للتنفس ، مع كل شيء يملك القوة للتعليم والإرشاد ، مع ذلك في البركة والمباركة سوف نحيا » .

بالنسبة للناثاجو إذن فإن الهواء - وخصوصاً في قدرته للتزويد بالوعي ، الفكرة والكلام - له خصائص كان الأوروبيون بحضارتهم الأبجدية تقليدياً قد اعتبروها داخلية وخاصة « بالعقل » أو « النفس » البشرية الفردية ، ومع ذلك فعبر إغراء هذه القوى للهواء ، وعبر الإصرار على أن « الرياح بداخلنا » مستمرة بشكل خالص مع الريح في العموم - مع الوسيلة غير المرئية التي نغرق فيها ونوجد - فإن كبار الناثاجو قد اقترحوا بأن ذلك الذي ندعوه « العقل » ليس بملكنا ، أي أنه ليس خاصية أو ملكية بشرية ، وبالأحرى فإن العقل كريح خاصة وملكية للعالم المحيط ، حيث البشر - مثل بقية الكائنات - يشاركون ويتعايشون ، إن وعى شخص ما ، الإحساس بالذات الشخصية نسبياً أو النفس هو ببساطة ذلك الجزء من الهواء المحيط الذي يدور في الداخل ، عبر وحول جسد شخص معين ، وبذلك فإن ذكاء شخص ما يُفترض منذ البداية بأنه مشارك كلياً مع النفس الدائرة للأرض ، إن أى أذى غير ضرورى يقع على الأرض يُحسّ تماماً في دواخل وعى كل أولئك الذين يحيون بداخل تلك الأرض ، وهكذا فإن الصحة ، والتوازن ، والعافية لكل شخص أمر غير منفصل عن الصحة والعافية العامة للأرض والطبيعة المحيطة .

إن تعريف الناثاجو وربطهم بالهواء - حدسهم بأن النفس ليست قوى غير مادية تسكن بداخلنا ، وإنما بالأحرى غير مرئية ، ومع ذلك فعبر وسيلة ممكنة حيث نحن (مع الأشجار ، والسنجاب ، والسحب) مستغرقون - لابد أن يبدو غريباً في بادئ الأمر وحتى غير منطقي بالنسبة لأشخاص من السلالة الأوروبية ، مع ذلك فدقائق قليلة من البحث « الإبيستمولوجي - في علم الاشتقاق والصرف » سوف

يكشف أن ذلك التعريف والإسناد ليس غريباً تماماً بالنسبة للحضارة الأوروبية كما قد يفترض المرء ، وفى الواقع فإن مصطلحنا الإنجليزى - "Psyche" النفس - مع كل مشتقاته العصرية الحديثة مثل « علم النفس » - "Psychiatory" ، "Psychology" و "Psychotherapy" الطب النفسى ، والعلاج النفسى - فإنها كلها مشتقة من الكلمة اليونانية Psychê والتي تمثل لا « الروح » أو « النفس » المحضة فقط ، أو «العقل» ولكن أيضاً « النفس » ، أو « التنفس » أو « هبة الهواء » ، إن الاسم اليونانى نفسه كان قد تم اشتقاقه من الفعل "Psychin" ، والذي يعنى « أن تتنفس » ، أو « أن تنفخ » فى حين أن كلمة يونانية قديمة أخرى للـ « الهواء » ، الريح ، والنفس - هي مصطلح "Pneuma" ، من حيث اشتقنا مصطلحات وكلمات مثل "Pneumatic" و "Pneumonia" - أيضاً وفى الوقت نفسه فإنها تمثل ذلك المبدأ الحيوى الذى تدعوه اللغة الإنجليزية "Spirit" أى « الروح » .

بالطبع الكلمة روح فى حد ذاتها بالرغم من كل مضامينها الأثرية وغير الحسية ، مرتبطة مباشرة للتجسيد نفسه لنظام التنفس عبر الجذر المشترك فى الكلمة اللاتينية "Spiritus" والتي تمثل كلا « النفس » و « الريح » ، وشبيه بذلك الكلمة اللاتينية للروح « أنيما - anima » - من حيث قد تطورت مصطلحات إنجليزية مثل "animal" - حيوان - "animation" باعث للحياة ، "animism" حيوية - نشاط ، و "unanimus" جماعى وكلى ، (بمعنى بعقل واحد جماعى أو روح واحدة) وكذلك يمثل « الهواء » و « النفس » ، الأكثر من ذلك أن تلك لم تكن معان منفصلة ، إنه من الواضح أن أنيما - "anima" ، مثل "Psyché" ، فى الأصل كانت تسمى ظاهرة عناصر تشكل بشكل ما كلا الأمرين : ذلك الذى ندعوه الآن « الهواء » وذلك الذى نصلح عليه الآن بمصطلح « الروح أو النفس » أما الكلمة الأكثر تخصيصاً فى اللاتينية "animus" ، والتي تمثل ذلك الذى يفكر بدواخلنا « فإنها كانت مشتقة من الجذر الهوائى نفسه "anima" الذى هو نفسه مشتق من مصطلح يونانى أقدم ، يعنى « الريح » .

إننا نجد ارتباطاً مثيلاً بذلك « للعقل » - "mind" مع « الريح » "wind" والنفس أو التنفس "breath" فى عدد كبير من اللغات القديمة .

وحتى كلمة موضوعية ومحترمة علمياً مثل الجو "atmosphere" فإنها تعرض روابط قديمة في أصولها مع الكلمة السنسكريتية "atman" - أتمان ، والتي تمثل « الروح » تماماً كما تمثل « الهواء » و « التنفس » . وهكذا فإن مصطلحات كثيرة عظيمة تعود إليها الآن تعود إلى الهواء كوسيلة محايدة وسلبية تماماً وغير حساسة هي بوضوح مشتقة من كلمات كانت قد ميزت الهواء وعرفته مع الحياة والوعي ، وكلمات تبدو الآن أنها مصممة لتشخيص عقل غير متجسد مادياً أو روح هي مشتقة من مصطلحات وكلمات كانت في يوم ما تسمى التنفس والأنفاس والنفس على أنها المادة نفسها لذلك اللغز والغموض .

إنه يصعب أن نتجنب الاستنتاج أنه بالنسبة للحضارات والثقافات القديمة لحوض البحر المتوسط وعلى مستوى ليس بأقل من ذلك الخاص باللاكوتا والناغاجو - فإن الهواء كان في يوم ما حضوراً متفرداً ومقدساً . وكصدر مُجرب ومعاشر لكلا النفس والروح ، سوف يبدو أن الهواء قد كان في يوم ما محسوساً بأنه الأمر والشئ في حد ذاته للوعي ، الجسد الخافت للعقل ، وهكذا بما أن الوعي بعيداً عن أن يكون مُجرباً كنوعية تميز البشر عن بقية الطبيعة كان في الأصل قد أُحس به على أنه ذلك غير المرئى الذي يضم المخلوقات البشرية إلى الحيوانات الأخرى والنباتات إلى الغابات والجبال ، ذلك أنه قد كان غير المرئى أو غير المُبصر ولكنه الوسيلة المشتركة للوجود .

ولكن كيف إذن أن أصبح الهواء فاقداً لمزاياه النفسية ؟ كيف صارت النفس منسحبة بدقة عن العالم المحيط بنا ، تاركة شجرة الصنوبر ، والعناكب ، والأحجار ، وسحب العاصفة دونما ذلك العمق النفسى الذى كانوا جميعاً يحيون فيه (بدونما ، بالفعل ، أى ارتباط نفسى أو حتى اتصال نسبى) ؟ كيف صارت النفس ، الروح ، أو « العقل » متراجعين أو متراجعة بانسحاب كلى نحو الجمجمة البشرية ، تاركة الهواء نفسه كحضور نحيف ، شاحب ، ومضمون سلفاً ، موازياً بشكل مألوف اليوم بمجرد الفضاء الفارغ ؟ واصل القراءة .

الريح ، والنَّفَس ، والكلام

مثل الكثير من اللغات العتيقة واللغات القبطانية فإن اللغة العبرية تمتلك كلمة واحدة لكلا الكلمتين "روح" و "ريح" - والكلمة هي "ruach" ، والمدهش هاهنا هو المركزية الواضحة لـ "ruach" الريح الروحية بالنسبة للتدين العبري المبكر ، إن مركزية روح - "ruach" ، وارتباطها القريب مع القدسي والإلهي يتضح في الجملة الأولى نفسها للكتاب المقدس العبري :

"عندما بدأ الله في خلق السماء والأرض - كانت الأرض فارغة ، غير متشكلة ، وكانت العتمة على السطح للأعماق والريح "ruach" من الله تهب على المياه ..."

في أول بداية الخلق وحتى قبل وجود الأرض أو السماء كان الإله حاضراً كريح تتحرك فوق المياه ، تذكر الأهمية المشابهة للريح لدى النافاجو وقولهم بأن : "الريح وجُدت أولاً ... ثم عندما بدأت الأرض في الوجود قامت الريح برعايتها" ، والنَّفَس - كما قد علمنا من خلال الجزء الثاني من التلمود - هو أكثر عناصر الارتباط حميمية رابطة البشر والمقدس والإلهي ، إنه ذلك الذي يتدفق بأكثر الوسائل مباشرة ما بين الإله والإنسان ، ذلك أنه بعد أن شكل الله أرضياً (آدم) من طين وغبار الأرض أو الأديم (adamah - أدمه بالعبري) نفخ في الأرض نَفَس الحياة ، واستيقظ البشر ، وبالرغم من أن "ruach" قد تستخدم لتعني النَفَس ، فإن الكلمة العبرية المستخدمة هنا و neshamah - نِسْمَه ، تعود إلى النِسْم والتنفس ، والنسمة والروح ، فيما "ruach" في عمومها إلى الريح ، أو الروح ، في العموم neshamah - نِسْمَة تمثل عادة الجانب الشخصي والفردى أكثر من الريح ، ريح أو نَفَس جسد محدد - مثل "الريح من الداخل" لشخص من النافاجو ، بهذا المعنى فإن neshamah تستخدم أيضاً لتمثل الوعي الواعي .

نحن المعاصرين والحديثين نميل إلى رؤية الثقافة العبرية القديمة عبر العدسات المرتحلة للأفكار الإغريقية والمسيحية وحتى الدراسة اليهودية ، والكثير من فهم الذات اليهودية الحديث تأثر بشكل كبير وتم تلقيه عبر عصور من التفسيرات الهيلينية المسيحية ، إنه بهذه الكيفية أن صار الكثير من الأشخاص اليوم يربطون العبرانيين القدماء مع مفاهيم وأفكار بالية على أنها الاعتقاد بجنة وجحيم غير أرضيين ، أو عقيدة فى روح شخصية غير مادية أو تجسدية وخالدة ، ومع ذلك فإن مثل تلك الأطروحات الثنائية ليس لها من مكان حقيقى فى الكتاب المقدس العبرانى ، إن الاهتمام الدقيق والحذر للشواهد تقتصر أن التدين العبرى القديم كان أكثر تجسدية مادية ، وأكثر تفاعلاً مع الأرض الحسية مما نفترض بحكم العادة .

بالتأكيد أن قدماء العبرانيين كانوا - كما قد رأينا - من بين أول المجتمعات الذين صنعوا استخداماً للغة الصوتية المكتوبة ، وكانوا من أوائل من امتلك الأبجدية ، الأكثر من ذلك على غير غرار آخرين من الأقوام السامية لم يقصروا استخدامهم للأبجدية على التسجيلات الاقتصادية والسياسية ، لكنهم استخدموها لتسجيل قصصهم القديم وقصص أجدادهم وأسلافهم ، وعاداتهم وقوانينهم وتشريعاتهم ، لقد كانوا ربما أول قوم يحولون بشكل كلى مشاركتهم الحسية بعيداً عن الأشكال للطبيعة المحيطة نحو منظومة صوتية لغوية خالصة من الإشارات ، وبذلك كانوا يجربون الاستقلالية الإبستمولوجية العميقة عن البيئة الطبيعية التى صارت ممكنة عبر هذه التكنولوجيا الجديدة والقوية ، أن تتم المشاركة الفعلية بنشاط مع الأشكال المرئية للطبيعة صار يُعتبر نوعاً من الوثنية بالنسبة لقدماء العبرانيين ، "إنها لم تكن الأرض ولكن الحروف المكتوبة التى صارت تحمل الآن الحكمة القديمة" .

ومع ذلك فبالرغم من أن العبرانيين رَفَضُوا كل أشكال الانشغالات الحيوية مع الأشكال المرئية للعالم الطبيعى (سواء مع القمر ، والشمس ، أو تلك الحيوانات - مثل الثور المقدس لأقوام أخرى فى الشرق الأوسط) غير أنهم بالرغم من ذلك احتفظوا بعلاقة تواصلية مع الوسيلة غير المرئية أو الوسيط مع ذلك العالم - مع الريح والنفس .

إن قوة هذه العلاقة يمكن استخلاصها مباشرة من خلال التكوين نفسه لنظام الكتابة العبرية الأبجدية (الألف - باء) إن هذه الأبجدية القديمة التاريخية فى تضاد مع اشتقاقاتها الأوروبية لم يكن لديها حروف لذلك الذين صرنا ندعوه "بالحروف الساكنة" "the Vowels" ، إن الحروف الاثنى والعشرين للألف باء العبرية كانت كلها متحركة ؛ لذلك فمن أجل أن تقرأ أيضاً مكتوباً بالطريقة العبرية التقليدية كان على الشخص أن يستخلص نطق الحروف الساكنة والحركات الصحيحة صوتياً عبر عموم النص ، ثم يضيفها عند القراءات الصوتية للمقاطع المكتوبة .

إن انعدام الحركات المشكّلة هو مجرد تفسير جزئى عبر التشكيل اللغوى للكلمات فى اللغات السامية ، حيث الكلمات مع التشكيل نفسها من الحركات (عادة ما يتم جمعها فى مقاطع من ثلاثة) تميل إلى معنى مقارب لبعضها بعضاً ، إن هذا التشكيل اللغوى ضمن أن شخصاً فصيحاً فى اللغة العبرية يمكن - ببعض الجهد - له قراءة النص العبرى دون مساعدة أو استعانة بحركات التشكيل المكتوبة .

بالرغم من ذلك ، فإن حروفاً إضافية للتشكيل الصوتى كانت سوف تسهل القراءة بشكل كبير لقدماء العبرانيين ، إن واقع أن بعض العبرانيين اللاحقين يكتبون أخذين إرشادهم من الممارسة المعهودة للكراميين أحياناً ما كانوا يستخدمون الفتحة والضمّة والكسرة لاقتراح نطق صوتى معين - هو شاهد على أن افتقاد الحركات الصوتية المكتوبة كان بالفعل محسوساً كصعوبةٍ وعثرةٍ لغويةٍ ، عندما ، فى القرن السابع ق.م ، إشارات الحركات فى شكل نقط صغيرة وخطوط مقدمة تحت وفوق الحروف تم تقديمها أخيراً إلى النصوص العبرية ، الفائدة من تلك الإشارات أو العلامات جعلها عنصراً معتاداً ومهماً للكثير من النصوص العبرية فيما بعد .

سبب آخر، ربما يكون أكثر أهمية لغياب الحركات المكتوبة فى الأبجدية الألف - باء التقليدية كان له علاقة بطبيعة النطق الصوتى لتلك الحركات فى حد ذاتها ، فيما التشكيل هو تلك الأشكال التى تقوم بها الشفاه ، أو الأسنان ، أو اللسان ، أو اللثة ، أو الحنجرة ، فإن الجرعات المتدفقة لحظياً من النفس وما إلى ذلك تمنح شكلاً للكلماتنا وجُمْلنا ، فإن حركات التشكيل هى تلك الأصوات التى تُصنّع عبر حركة النفس

نفسه ، أى أن حركات التشكيل ليست بأى شىء آخر سوى صوت النَّفَس ، والنَّفَسُ
لقدماء الساميين كان الغموض فى حد ذاته للحياة والوعى ، غموض غير منفصل عن
الـ Rouch غير المرئية – الريح المقدسة أو الروح ، إن النَّفَسُ كما قد لاحظنا ، كان
العنصر الحيوى الذى نفخ فى آدم عبر الله ذاته ، والذى بذلك قد منح الحياة والوعى
للجنس البشرى ، إنه من الممكن إذن أن الكتبة العبرانيين قد امتنعوا عن خلق حروف
متميزة للأصوات التشكيلية بهدف تجنب صنع تمثيل واضح وتجسيد لغير المرئى . أن
تخلق تجسيدا أو تمثيلاً مرئياً لحروف التشكيل لأصوات النَّفَس ، كان سوف يكون
تجسيدا ، كما هو غير قابل للتجسيد ، أن تمنح الوضوح والشبه المرئى للقدسى
والإلهى كان سوف يكون تمثيلاً مرئياً للغامض والذى فى جوهره المقدس نفسه ، الريح
القدسية ، ولذلك فإن هذا لم يفعل آنذاك .

بالطبع نحن لا نعرف إذا ما كانت فكرة تخيل الحركات الصوتية التشكيلية أو
أصوات النَّفَس كانت حتى قد حدثت أو مرت بأذهان الكتبة الساميين القدماء ، إنه من
الممكن تماماً أن كانت علاقتهم مع الريح والهواء ، وإحساسهم بالمقدس فى ذلك
العنصر قد أعار سحر تواصله لكل الكلام المنطوق ببساطة قد استثنى مثل تلك الفكرة
من حتى طرحها ، على أى حال ، سواء كان التجنّب لأطروحة التشكيل الصوتى
المكتوب كان واعياً أو غير ملتفت إليه ، فإن غياب حركات وحروف التشكيل المكتوبة
تسير إلى اختلاف عميق ما بين أبجدية الألف باء القديمة السامية والألف باء المشتقة
منها والتي تتبعها الأوروبية .

على سبيل المثال ، على غير غرار نصوص كان قد كتبها الإغريق أو الرومان فى
أبجديتهم فإن نصاً عبرياً ببساطة لم يكن من الممكن خبرته كمزدوج – بديل ، أو واقف
– على استعداد – للعالم الحسى ، الأرضى ، إن الحروف العبرية والنصوص لم تكن
كافية فى ذاتها بهدف أن تُقرأ ، كان لابد من الإضافة إليها متخذة روحها من نَفَس
القارئ ، الهواء غير المرئى ، الغموض نفسه الذى يسكن الأرضى الحية ، كان أيضاً
ضرورة لإحياء الحروف المرئية ، لجعلها حية وقادرة على الكلام ، إن الحروف فى حد
ذاتها هكذا بقيت خارجياً معتمدة على عالم الحياة التجسيدية ، بعناصرها – لقد تم

تنشيطها وتفعيلها عبر النَّفس نفسه لذلك العالم ، لم يكن من الممكن قطعه من ذلك العالم من دون فقدان كل قواها ، بهذه الكيفية فإن غياب حروف التشكيل وحركاته المكتوبة ضَمِنَ أن اللغة العبرية والتقاليد بقيت مفتحة للقوى لذلك الذى يتجاوز المجتمع البشرى المحض – لقد ضمن أن المنطقية العبرية سوف تبقى متجذرة بالرغم من كل شيء فى الأرض الحية (فيما الكتاب المقدس العبرى سوف يصبح – كما قد رأينا – نوعاً من أرضية الوطن المتجولة بالنسبة للبشر اليهود ، فإنه لا يمكن تماماً أخذه من مكان الأرض المتنفسه نفسها والذى تعتمد تلك النصوص عليه ، وهكذا فإن القضايا الملحة والمكررة للمنفى والحنين الطويل للعودة يتكرر عبر التاريخ اليهودى منذ القدم وحتى الوقت الحالى) .

إن غياب حركات التشكيل المكتوبة فى العبرية القديمة تضمن أن القارئ للنص العبرى التقليدى كان عليه بشكل فعال أن "يختار" النَّفس الصوتى المناسب أو حركات التشكيل ، ومع ذلك فإن حركات وحروف تشكيل مختلفة كانت غالباً ما تُنوع الحركات الساكنة (كما تغير المعنى للجمع الساكن "RD" فى اللغة الإنجليزية ، سوف يتنوع بحسب إذا ما أدخلنا ضمة أو واو (O) صوتية طويلة فيما بين هذين الحرفين الساكنين "Road" ، أو كسرة أو ياء طويلة "e" "Read" ، أو فتحة "i" "Ride" ، أو حرف "e" "Red") .

إن القارئ للنص العبرى التقليدى يتوجب عليه أن يختار بفاعلية أحد وسائل النطق ويُغلبها على الأخرى ، بحسب المعنى المناسب داخل النص المكتوب ، ومع ذلك فإن المعنى الدقيق لتلك الفحوى سوف يكون قد تم تحديده عبر حروف التشكيل المحددة التى كان القارئ قد اختارها .

إن النص العبرى التقليدى – بكلمات أخرى – يتطلب بشكل واضح وخارجى المشاركة الواعية للقارئ ، إن النص لم يكن أبداً مكتملاً فى حد ذاته ، إنه يتوجب أن يفعله القارئ وينشغل به عبر تلك المهمة ، وأن يمنح بزوغاً لقراءة محدودة ، فقط بالعلامة – فقط عبر كونها قد أخذت وفسرت بشكل فعال عبر قارئ محدد – استطاع النص أن يصبح مليئاً بالمعانى ، ولم يكن هنالك معنى محدد ، مفرد ، إن الالتباس

تضمن افتقاد حركات التشكيل المكتوبة التي تضمن تلك القراءات المختلفة ، الظلال المتنوعة للمعنى كانت دائماً محتملة .

إن بعض أشكال المشاركة الفعالة ، كما قد رأينا ، ضرورية لكافة أشكال أفعال القراءة الصوتية ، سواء في الإغريقية ، أو اللاتينية ، أو الإنجليزية في نصوصها مثل هذا النص ، غير أن التشكيل الخالص الساكن لنظام الكتابة العبرية كان يستوجب هذه التشاركية – التفاعل الإبداعي ما بين القارئ والنص واع بشكل خاص وخارجي ، إنه ببساطة لم يكن من الممكن أخذه على سبيل المتاح والمضمون ، أو نسيانه ، وفي الحقيقة إن الانشغال المستعد للانشغال مع النص كان قد صار ضرورة عبر غياب حركات التشكيل الصوتية المكتوبة ، قد أعار "تفاعلاً عميقاً" أو "تأويلاً" لشخصية المجتمع اليهودي وفهمه لأكثر تعاليمه قُدسية . إن الأستاذ العالم بارى هولتز قد تماشى مع هذا الفهم في مقدمته لكتاب حول النصوص المقدسة في اليهودية :

"إننا نميل عادة للتفكير في القراءة على أنها مهمة محايدة وسلبية ، ولكن بالنسبة لتقاليد النصوص اليهودية كانت أي شيء آخر سوى ذلك ، إن القراءة كانت تواصلاً حماسياً ، حميماً وفعالاً مع كلمة الله الحية ، لقد كانت تتضمن تحدياً لكشف معانٍ سرية خفية ، وتفسيرات غير مسموعة ، قضايا ذات وزن وأهمية كبرى . إن قراءة فعالة وفي الحقيقة متفاعلة كانت منهجهم وطريقتهم للاقتراب من النص المقدس المدعو بالتوراة وعبر عملية القراءة تلك للعثور على شيء ما كان جديداً تماماً وعتيقاً جداً في الوقت نفسه ...

عبر "التفاعلية" إنني أعني أن أقترح أنه لبعض الحاخامات لهذا التقليد ، إن التوراة دُعَت لاستجابات حية وديناميكية ، إن النصوص العظيمة بدورها هي التسجيل لتلك الاستجابات ، وإن كل نص بدوره يصبح المناسبة لتعليق تالٍ وتفاعل ، إن التوراة تبقى حية بشكل لا متناه بسبب أن القراء لكل جيل يُتبع أو يُستجد يرونها هكذا ، آخذين قداستها بشكل جاد ، ومضيفين عطاءاتهم ومشاركاتهم إلى القصة ، بالنسبة للتقاليد فإن الثورة تتطلب التفسير والتأويل" .

أى أن القارئ يجب عليه أن يستجيب بشكل فعال للتوراة ، ويجب أن يجلب إبداعه الفردى الخاص إلى حوارٍ مع التعاليم من أجل أن يكشف معانٍ جديدة وغير مسبقة ، إن اليهود يجب أن يدخلوا فى محاوراة مع التعاليم المُتلقاة لأسلافهم ، أن يسألوها ويناقشوها ويجاهدوا معها . إن الكتاب المقدس اليهودى ليس أطروحة جاهزة من القصص والقوانين غير المتغيرة والجامدة ، إنه ليس جسداً ثابتاً لحقائق دوغمائية ولكنه لغز حى لابد من مساءلته ، والصراع معه ، وتأويله وتفسيره بشكل طازج وحى مع كل جيل ، ذلك أنه ، كما يُقال - إن الإرشاد والهداية التى يمكن للتوراة أن تقدمها فى جيلٍ ما مختلفة تماماً عن ذلك المنتظر تقديمه إلى جيل آخر .

إن هذه التقاليد المستمرة للتأويل النصى والشروحات والتعليقات ومن التعليقات المتراكمة فوق تعليقات أخرى قد منحت البزوغ للنصوص الكثيرة السابقة للكتاب المقدس فى التقاليد اليهودية ، من الميشنا ، والتلمود ، ومجموعات الميراش (أو المدارس) ، إلى الزوهار (أو السحر) وأعمال الكابالا اليهودية الأخرى ، إنها فى مجموعها كل تلك النصوص تُعرف على أنها "التوراة الشفاهية" ، بما أنها كلها تأصلت فى النقاش الشفاهى والتعليقات والشروحات على "التوراة المكتوبة" ، وعلى التعاليم المباشرة التى كشفها موسى - أول كاتب يهودى - على جبل سيناء ، إن عملية تدوين التعليقات والتأويلات الشفاهية مع نية المحافظة عليها بدأت فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

إن أول تلك التجميعات هو التلمود ، وهو اليوم يُطبعُ بالمستوى الأساسى للنص ، الميشينه ، فى قلب كل صفحة ، ومع التعليقات المصاحبة على النص مرصوفة من حولها فى مستويات متلاحقة ، كما قد كانت ، وهكذا فإنها بترتيبها الواضح المرئى فى التلمود تعرض حساً بالنص المكتوب لا كمادة نهائية ومحدودة ولكن كعملية عضوية ، ذات نهايات مفتوحة للتفسير والتأويل نحو كينونة متطورة وقابلة للمواجهة والانفعال بها .

قوة الحروف

ومع ذلك فإن هذا الحس بالنص المكتوب على أنه غموض حى ومُعاش ليس فى أى مكان أكثر وضوحاً منه فى الكابالا - التقاليد السحرية للصوفية اليهودية - وذلك أنه هنا ليس هو النص فقط بكامله ولكن "الحروف" نفسها التى يعتقَدُ بأنها حية ! إن كل حرف من الألف - باء الأبجدية يفترض أهل الكابالا بأن لديه وفيه الشخصية الخاصة به ، سحره العميق الخاص ، وطريقته فى تنظيم وجود كامل من حوله ، وبسبب أن الوصايا المكتوبة كانت قد أُمليت بشكل محدود ومحسوم إلى موسى عبر الله مباشرة على جبل سيناء فهكذا إن الحروف المكتوبة تشكل أو النصوص العبرية - الحروف الاثني والعشرين للألف باء الأبجدية - يُفترضُ بأنها الآثار المرئية للنطق الإلهى والمقدس .

وبالفعل فإن بعض علماء الكابالا ادعوا بأنه كان عبر الجيل الأول للحروف الاثني والعشرين ، ثم بعد ذلك ضمهم إلى مثل ذلك النطق على أنها "ليكن هناك نور" ، أن الله تحدث الكون المرئى نفسه ونطقه إلى الوجود ، إن الحروف ، أى بمعنى ما ، هى تركيز منطقي وحسى لقوى الخلق نفسها .

إنه عبر التأمل ، عند القراءة ، لا على الجُمْل المكتوبة والعبارات ، ولا حتى على الكلمات ولكن على وفى " الحروف" بمفردها التى تحققُ فيه من سطح الورقة ، يستطيع الصوفى اليهودى أن يدخل فى تواصل مباشر مع الطاقات الإلهية ، عبر حساب وجمع واستبدال الحروف لعبارات وجُمْل محددة وكلمات حتى تفقد الكلمات (نفسها) كلّ أو أى معنى واضح وفقط الحروف تقف فى المقدمة بكامل عُريها المركز . كان عالم الكابالا يستطيع أن يجلب نفسه إلى مراحل وأحوال تزداد وتتصاعد فى وعيها ، مُوقِظَةً القوى الإبداعية الخلاقة التى كانت قبل ذلك ترقد نائمة فى دواخل

جسده ، فى بعض الأحيان عندما يكون الممارس يقرأ بتلك الكيفية السحرية المركزة "فإن الحروف تنبعث فى الحياة بحسب ما يناسبها" ، وتبدأ فى "التحدث" مباشرة إلى الصوفى ، على الأقل واحد من الممارسين كان متنبهاً ليرى تلك الحروف المكتوبة وهى تتمدد "لتصبح فى حجم الجبال" أمام عينيه ، آخرون كانوا قد سجلوا بأن لحساب وجمع وإعادة حساب وجمع الحروف ، كانوا قد رأوا الحروف فجأة "تتخذ أجنحة وتطير عالياً من سطح الصفحة !" .

إن معرفة قريبة بالحروف الحية ومعرفة عملية بطاقتها الفردية كان من المفترض أن تمنح عالم الكابالا قدرات سحرية يمكن عبرها أن يهون من المعاناة والآلام ، والأمراض ، ويعين بها العالم من حوله ، إن علماء الكابالا بكلمات أخرى ، اعتبروا الألف - باء (الأبجدية) ، على مستوى عالٍ من الكثافة والألوهية فى شكلها من أشكال السحر ، ولذلك فإنهم طوروا يشكل واعٍ مشاركتهم الصافية مع الحروف المكتوبة .

بما أن حروف الألف - باء الأبجدية أيضاً فى أحيان ما تخدم على أنها أرقام بالنسبة لليهود (مع الحرف الأول ، أَلِف ، مشيراً إلى رقم ١ ، الحرف الثانى ، باء ، رقم ٢ ، وحتى الرقم ١٠ ، ومع الحروف الأخرى ممثلة ٢٠، ٣٠، ٤٠ ، ... إلخ، وكذلك حروف أخرى تمثل ١٠٠، ٢٠٠، ٣٠٠، ٤٠٠) كلمات مكتوبة وعبارات يمكن أيضاً أن تقارن عبر حساب القيمة الرقمية الكاملة للحروف التى تُشكلها . إن أحد الوسائل أو التكنيكات فى الكابالاية تدعى gematria بمعنى جمع طرح ، عبر الاثنين معاً الاستبدالية للحروف وحساب قيمتها الرقمية فإن الصوفيين يستطيعون أن يعرضوا الموازى الخفى والمراسلات فيما بين الكلمات المختلفة والأسماء المتضمنة فى النص . (Elohim) بمعنى "الهم" على سبيل المثال ، أحد الأسماء الأكثر قدسية لله فى الكتاب المقدس العبرى ، يمكن أن تُرى على أنها تمتلك نفس القيمة الرقمية مثل الكلمة العبرية للطبيعة (hateva) (طبيعة) ، كشاهد للوحدة الخفية ما بين الله والطبيعة ، (مثل تلك الأطروحات الكبرى ، التى تربط ما بين الله والطبيعة - هى مألوفة لعدد كبير من ممارسي الكابالا - قد تدهش علماء البيئة المتنوعين اليوم والذين يهتمون الدين العبرى بأنه قد نفى كل القدسية عن العالم الطبيعى) .

وبالفعل ، فإن كل أسماء الله الكثيرة فى الكتاب المقدس العبرى والحروف التى تُشكلها ، لها وضع أساسى فى نظرية الكابالا ، مقدمة مفاتيح ضرورية للممارس الذى يسعى إلى الخبرة المباشرة مع الإلهى والقُدسى ، مُعْظَمُ بين هذه الأسماء الاسم الرباعى الأضلاع ، ذو الحروف الأربعة YHWH ، "يَهْوَه" ، غالباً ما يكتب فى النصوص غير العبرية على أنه Yahweh (يهويه) ، والكيفية الحقيقية لنطق هذه التشكيلية الرباعية الحروف العظيمة والقوية يُقال إنها قد نُسييت منذ القديم ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض أكثر الممارسات الكابالية المكثفة تتضمن نطق كل حرف من هذه التشكيلية الرباعية الأضلاع بشكل منفصل ، جامعة إياه بدورها مع كُلٍ من الاحتمالات الخمسة للنفس الصوتى ، أو حركات التشكيل ، إن ممارسة أكثر تفصيلاً ويُعتقد أنها خطيرة للغاية تتضمن عزل كل حرف فى التبديل والجمع ، مرة فى كل وقت ، مع كل الحروف الأخرى للألف - باء الأبجدية ناطقين كل واحدة من تلك التشكيلات ، بدورها ، مع كل تشكيل حرف صوتى مختلف ، عبر التلاوة الدقيقة لذلك المحتوى على شكل أَرْضَى فى شكل إنسان بشرى ، كان يُقال أن ذلك يُمكنُ الشخص من جلب الشكل الخزفى الطينى - agolem (غَلِيم) - إلى الحياة .

إن مفتاحاً للسحر المتعاطف يتضمن فى هذا المحتوى يمكن أن يُوجد فى تعاليم القرن الثالث عشر لعالم الكابالا العظيم إبراهيم أبو لافيه ،والذى أكد أن حركات التشكيل المنطوقة والحروف المصمتة المكتوبة متداخلة ومتشابهة "مثل الروح والجسد" أن تجمع حروف التشكيل المحترقة - النفس الصوتى - مع الحروف الساكنة المرئية كان نوعاً من تنفس الحياة والنفخ فى الطين ، كما كان YHWH "يهوه" قد أعارَ أنفاسه لأبى البشرية آدم .

أخيراً يتوجب علينا أن نُقرُّ بالأهمية المتسعة فى داخل التقاليد الصوفية اليهودية للنفس والتنفس فى حد ذاته ، فى القرن الثالث عشر فى "السُحار" أهم نصوص الكابالية ، الشخصية الأساسية ، الكاهن شيمون فى فصيلة يوهيه ، أصرَّ أن الاتحاد ما بين البشر والله يمكن التأثير عليه بشكل أفضل عبر وسيلة التنفس ، وبحسب الكاهن شيمون فإن الملك سليمان قد تعلم من أبيه الملك داود تقنيات

التنفس الخاصة ببعث النَّفْسِ الْقُدْسِي ، التطلع إلى الإلهي ، "عبر تعلم وممارسة الأسرار الخاصة بالنَّفْس ، كان سليمان يستطيع أن يجلو الحجاب الجسدي للطبيعة عن الأشياء المخلوقة وأن يرى الروح بدواخلها " . بكيفية مذهشة من بقايا احتفالات طقوسية للناقاجو أو اللاكوتا فإن ابن الكاهن شيمون ويدعى إليعزار بدأ في جلسة صلاة عبر الأداء السحري ليأمر "الرياح أن تأتي من كل الاتجاهات الأربع وأن تملأ أنفاسه" ، وأمر وأرشد صحبه أن يديروا الهواء المتنفس من كل الجهات الأربع بالتبادل في داخل أجسادهم ، في مكان آخر في "السُّحَار" فإن أحد أصحاب الكاهن شيمون يتحدث حول "نَفْسِ الروح" المرسل من قِبَلِ YHWH يهوه ليدخل إلى جسد الشخص الفاضل عند الولادة ، وشديد الشبه "بالريح من داخل الشخص " لدى أهل الناقاجو ، "فإن نَفْس - الروح الذي يدخل عند الولادة يُرشد ويدرب الكائن الإنساني ويُعدّه لكل صراط مستقيم" إن هذا الحس بالولادة كوسيلة ما بين الفرد والإلهي يُطرحُ ممثلاً في تعليق صلاةٍ من القرن التاسع عشر لأحد سادة الهادية (والهادية كانت موجة مشعة للصوفية اليهودية اكتسحت يهود شرق أوروبا في القرنين الثامن والتاسع عشر) :

"إذا كانت الصلاة خالصة وغير ملوثة

فبالتأكيد إن النَّفْسِ الإلهي

الذي يتصاعد من شفاهك

سوف ينضم إلى نَفْسِ الجنة

والذي دائماً يتطاير إليك

من الأعلى ...

وهكذا فإن ذلك الجزء من الله

والذي هو بداخلك

يعود إلى التوحد مع منبعه " .

ومع ذلك وهكذا فإن النَّفْس المقدس لا يدخل فقط إلى بنى الإنسان (مقدماً الوعى والإرشاد) ، ولكنه أيضاً يُحْيى ويحافظ على كامل العالم الحسى ، مثل الريح نفسها ، فإن نَفْس الله يحيط بالطبيعة كلها . فى نص كلاسيكى بعنوان "البوابة للوحدة والعقيدة" فإن سيد الهادية فى القرن الثامن عشر شنير زالمان للادى يصف كيف أن المقاطع الصوتية والحروف للنطق الإلهى الخالق مثل "ليكن هناك الضياء والنور" أو "فليجلب الماء قُدماً حشود الكائنات الحية" ، بالتدريج يحى عبر سلسلة مركزة من الحسابات الرقمية والحرفية الأسماء الدقيقة ، ومن ثم الأشكال المحدودة لكل كينونات وكائنات الطبيعة (فى العبرية مصطلح واحد ، davar دافار ، تعنى المعنيين "كلمة" و "شئ") ، ومع ذلك فإنه بدون التدفق المستمر للنَّفْس الإلهى ، والذى يَدعوه شنير زالمان "نَفْس فمه" فإن كل الحروف التى تقف بدواخل الأشياء فى هذا العالم - كل الحروف بتركيباتها التى تُجسّد فى الخصوص الحيوانات ، والنباتات ، والأحجار - سوف تعود إلى منبعها غير مختلفة أو متميزة فى التوحد الإلهى ، وإن العالم المحسوس والحسى إلى جانب الكائنات الحسية ، سوف يفنى ، وتاماً مثل ما الحروف المتحركة فى النص التقليدى العبرى تعتمد - لقواها التواصلية - على النَّفْس الصوتى الذى يُحييها ، فذلك الحروف القدسية الإلهية والحروف المتشكلة بتركيباتها والتى تكون الكون المادى الفيزيائى معتمدة على النَّفْس الإلهى والذى باستمرار ينطق بها كى تكون ، إن كل الأشياء تتجاذب وتهتز مع "النَّفْس لفمه" .

وإنه عبر هذه الخاصية للنَّفْس المستمر تتمكن الطبيعة من التجدد دائماً ، إن العالم من حولنا أمر إلهى مستمر ومتتابع ! وهكذا فإن نشاط الخطاب والكلام مثل التنفُّس يربط البشر لا مع الله فقط ولكن مع كل ما يحيط بنا ، من الأحجار وإلى العصفير ، إن هذا موضح ببساطة فى تعليق صلاة آخر للهادية :

"انظر إلى صلاتك على أنها تحرك الحروف

حيث الجنة والأرض

وكل الأشياء الحية قد خُلقت .
 إن الحروف حياة الجميع ،
 عندما تُصلى عبرها ،
 فإن كل الخلق ينضمُّ إليك في الصلاة .
 إن كل شيء من حولك يمكن رفعه ،
 وحتى أغنية عصفورٍ عابر
 يمكن لها أن تنضم إلى مثل تلك الصلاة .

أخذين بالاعتبار الأهمية الباطنية الموضوعية على الريح والنفس في التقاليد العبرية قد ننجرُّ إلى التساؤل حول إذا ما كانت منذ زمن طويل قبل استخدام الكتابة الصوتية والأبجدية (الألف - باء) ، التوحيد لدى إبراهيم وسلالته كان قد وُلد عبر طريقة جديدة من خبرة الهواء غير المرئى ، حس جديد للاتحاد لذلك الحضور غير المرئى الذى يتدفق لا فقط بداخلنا ولكن فيما بين كل الأشياء ، مانحاً إيانا الحياة والكلام حتى فيما هو يتحرك ويحرك الحشائش المتراقصة والسحب المتجمعة ، هل من الممكن أن قوى عظمى كانت فى يوم من الأيام تتمثل كإله محلى للعاصفة صارت موضع تعميم عبر أحد القبائل البدوية المتجولة ، لتكون تلك القوى الكبرى للجو والطقس المحيط نفسه ؟ إننا نعرف أن الغموض المفرد العائد إلى أبناء وأطفال إبراهيم كان قوى غير محددة أو مقننة كان لا يمكن تحديدها مكانياً ضمن أية ظاهرة مرئية ، وكان لا يمكن تشكيلها فى صورة أى وثن أو صنم . وسابقاً لاستخدام الكتابة عبر موسى ، ثم الكتبة التالين ، على أى حال ، فإنه قد يكون أن تلك القوى لم تكن هشة ولكن ببساطة غير مرئية ، إنها كانت قد تمت خبرتها لا كقوى تجريدية تماماً "خارج" الطبيعة الحسية ولكن كممثل الوسيلة غير المرئية أو الوسيط ، الروح ، الريح أو الروح التى تُحى العالم المرئى .

إنه من المميز والمدهش جداً أن أكثر أسماء الله قداسة ، الحروف الأربعة ، تتشكل من أكثر الحروف الشبيهة بالنفس Y و H و W ، والتي كانت أحياناً تُستخدَم عبر قداماء الكتبة لتقف ممثلة لحروف تشكيل معينة ، إن أكثر أسماء الله قدسية سوف يبدو هكذا على أنه أقرب الأشباه للنفس الناطق - اسمٌ متحدث به كما قد كان عبر الريح . بعض الدارسين المعاصرين للكابالا يقترحون أن النطق المنسى للاسم قد يكون متضمناً لتشكيل المقطع الأول ، "Y-H" ، فى همس النفس الداخل ، والمقطع الثانى ، "W-H" ، فى همس النفس الخارج ، إن كامل الاسم هكذا يشكّل دائرة مفردة للنفس ، إذا كانت شكوكهم صحيحة بأى شكل من الأشكال فإنّ إن الغموض التاريخي الذى تطرحه رباعية الحروف هذه قد لا يكون منفصلاً عن غموض التنفس - هذا الشهيق والزفير الذى يربطنا إلى غير المرئى .

طارحين كل التساؤلات جانباً - على كُلٍ - يتوجب أن يكون واضحاً من المناقشة المطروحة أن العنصر التشكيلى المتحرك للمخطوطة العبرية والكتابة قد شجعت علاقة متميزة وخاصة مع النصوص المقدسة ، ومع القدسى والمقدس فى العموم . فى الخصوص إن غياب الحروف التشكيلية الساكنة من الكتابة قد شكلت : (١) علاقة واعية متداخلة ومتشابكة مع النص - وحتى بالنسبة للبعض ، مشاركة خارجية حية مع الحروف المكتوبة نفسها ، (٢) احتراماً مستمراً ومتواصلاً للهواء - لذلك الوسيط غير المرئى الذى يحرك وينشط الحروف المرئية فيما هو يحيى ويسكن الأراضى والمحيط المرئى . وفيما بالتاكيد هم قد طوروا مسافة أدبية جديدة عن العالم المحيط للطبيعة فإن العبرانيين - أول "أصحاب الكتاب" - بالرغم من كل شىء احتفظوا بعلاقة شفاهية عميقة مع الوسيلة غير المرئية أو الوسيط لهذا العالم ، مع الريح والنفس .

نسيان الهواء

إنها بدقة هذا الوعي الشفافى بالأعماق غير المرئية التى تحيط بنا - هذا الحس
بالهواء غير المرئى كغموض ساحر يربط ما بين البشر وعوالم ما هو أكثر من بشرى -
هى التى كانت قد شطرت وفُصلت عبر قدماء الكتبة الإغريق .

عندما قاموا باقتباس الأبجدية السامية العتيقة الألف - باء ليقوموا باستخدامها
والانتفاع منها ربما فى القرن الثامن ق.م ، فإن الكتبة الإغريق اتخذوا (مع بعض
التعديلات) فى الكتابة الأشكال والأسماء أيضاً للحروف السامية الأولى ، ومع ذلك -
كما قد ذكرنا فى الفصل الرابع - فإن تلك الأسماء لم تمثل مرجعية خارجية للإغريق ،
كما كانت بالنسبة للعبرانيين ، تذكر إنه بالنسبة للعبرانيين ألف (بالإغريقية : ألفا)
كانت تُمثل لا الحرف الأبجدى الأول فقط ولكن أيضاً وبشكل حيوى وأساسى
أكثر الثور أو الجاموس ، وكذلك الباء (بيتا بالإغريقية) كانت تعنى بيت ، و"ج" تعنى
جمل ، ... إلخ .

لكن بالنسبة إلى الإغريق فإن هذه الكلمات كانت مجرد تسميات للحروف فى حد
ذاتها ، ولم يكن لها أى أهمية أخرى أو معنى آخر رمزياً ، وفيما الأسماء للحروف
تشظت معانيها وأهميتها الرمزية الخارجية الخاصة بالعالم فى الانتقال والتحول حول
البحر الأبيض المتوسط فإن أى تشابه أو تمثّل للكتابة التصويرية أو المرسومة ما بين
الحروف المكتوبة وتلك الظواهر فى الطبيعة والعالم (الجاموس ، البيوت ، الجمال ، إلخ)
كان قد نُسى أيضاً ، فى المرحلة نحو اليونان - بكلمات أخرى - فإن الحروف المكونة
للألف - باء تخلصت وتركت وراءها روابطها البصرية وفحواها مع حياة العالم المحيط
وبذلك فإنها أصبحت أكثر تجريدية كمنظومة رمزية .

غير أن الإغريق أدخلوا وقدموا أيضاً عنصراً جديداً غريباً إلى الأبجدية ، ابتكاراً كان سوف يزيد بالضرورة من القدرة التجريدية لهذا النظام الكتابي أكثر بكثير من العوامل المذكورة سابقاً أعلاه ، ذلك أن الكتبة الإغريق قدموا وأدخلوا نظام الحركات الصوتية المتحركة إلى النظام السابق الساكن للحروف .

فى الواقع ، الكثير من الحروف الجديدة كانت قد تم تبنيها واقتباسها من النظام القائم بالفعل للحروف السامية الموجودة ، صفات وشخصيات محددة فى الألف - باء السامية كانت تمثل سواكن لم يكن لها من وجود فى اللغة الإغريقية ، وقد كانت هذه كما يبدو حروفاً فائقة الصعوبة مما دعى إلى تعديلها عبر الكتبة الإغريق لتُمثل أصوات أو حركات متحركة . إن الحرف أُلِف على سبيل المثال لم يكن حرفاً متحركاً ولكنه ساكن فى الاستخدام العبرى العتيق ، لقد كان يمثل فتحة فى القصة الهوائية سابقة لنطقه ، وبما أن الإغريق لم يكن لديهم استخدام أو منفعة من الساكن ، فإنهم قاموا باقتباس ذلك العنصر والذى دعوه (أُلِفا) ، ليمثل صوتاً للحركات هو A وحروف أخرى عبرية تم استبدالها لتُمثل حركات الكسرة والفتحة E ، ا والضممة O ، أخيراً قام الإغريق بإضافة حرف Upsilon ، والذى أصبح بمرور الوقت هو الحرف الرومانى U .

إن الأبجدية الناتجة عن ذلك كانت مختلفة جداً ونوعاً آخر من الأدوات عن الخلق السامى المبكر لها ، إنه ذلك الذى سوف يكون له تأثير مختلف جداً على الحواس التى تنشغل به ، وعلى اللغات المختلفة المتنوعة التى اقتبسته على أنه ملكها الخاص وصنيعتها ، ذلك أن إضافة حركات التشكيل المكتوبة مكنت من إمكانية أكبر بكثير لكتابة وتسجيل المنطوق المحكى على السطح للصفحة ، إن نصاً مكتوباً بالأبجدية الجديدة لم يكن فيه أى من الغموض والالتباس الذى - كما قد رأينا - كان جزءاً من النص العبرى التقليدى ، فيما بالنسبة لأى نص عبرى بطول كاف كان هنالك إمكانيات متعددة ممكنة لقراءته ونطقه ، أو قراءته ، كل منها سوف يدعو إلى منظومة مختلفة نسبياً ومعانٍ أخرى ، وإن نصاً إغريقياً مقارناً بذلك سوف يكون أميل إلى قبول معنى واحد صحيح للقراءة ، إنه هكذا أصبحت النصوص المكتوبة بالإغريقية (ومن بعد

بالرومانية) أبجدية لم تكن تدعو إلى ذلك النوع من التفسيرات والتأويلات النشيطة والمتغيرة والمتجددة باستمرار والتي كانت ضرورية ومطلوبة للنصوص العبرية ، إن المشاركة التفاعلية المرتبطة بالقراءة - فى تحويل سلسلة من الإشارات البصرية الواضحة إلى سلسلة الأصوات - يمكن لها الآن أن تصبح مألوفة تماماً ، أليفة وآلية ، ذلك أنه لم يكن هناك من اختيارات فى كيفية نطقها الصوتى خارج النص ، إن كل المفاتيح لمشاركة الشخص تمت تهجئتها وتوضيحها على الصفحة ، متصلة نسبياً بالنصوص السامية ، إذن فإن النصوص الإغريقية كان لها استقلال مدھش ، لقد بدا أنها تقف وحتى تتحدث بطريقتها الخاصة بها .

ومع ذلك فإن الدقة البادية والاكتفاء العملى للأبجدية الجديدة تم إنجازها بثمن فادح جداً ، ذلك أنه عبر استخدام العناصر والشخصية الواضحة لتمثيل النفس المسموع الصوتى ، فإن الكتبة الإغريق بالتالى قاموا " بإلغاء قدسية " النفس والهواء عبر تقديم وتزويد تمثيلات بصرية لذلك الذى قد كان - بمحض طبيعته - غير مرئى ، إنهم أعدموا الغموض للمناخ والجو المحيط وجعلوه عديمياً ، ناقضين عدم القبض على ذلك العنصر والذى كان كلا الأمرين هنا وفى الوقت نفسه ليس بها ، حاضراً للجلد والبشرة ومع ذلك فإنه غائب عن الأعين ، عظيم ومتسام ويفوق كل شئ فى الوقت نفسه .

إن عظمة الهواء المذهلة قد سكنت تماماً فى طبيعته غير المقبوض عليها وغير المرئية ، إن قدرته على منح الحركة والحياة للطبيعة المرئية فيما يبقى - فى حد ذاته - غير مرئى وغير قابل للقبض عليه ، إن الكتابة العبرية كانت قد حفظت ذلك الغموض عبر الامتناع عن تمثيل الهواء نفسه رمزياً على الحجر أو الصفحة - عبر رفض تصويره خيالياً أو عبر الرسم ، أو تشيئته . إن ذلك الدفق غير المرئى الذى يحافظ على الأمرين : الكلمة والعالم المرئى ، عبر كسر هذا المحرّم أو التابو ، عبر تحويل غير المرئى إلى مرئى مُسَجَّل فإن الكتبة الإغريق قد أثروا فى إذابة تلك القوى الحيوية والأساسية للهواء .

إن تأثيرات هذا الذوبان والاضمحلال على مستوى التلقى لم تكن ، بالطبع ، واضحة تماماً دفعة واحدة فى اليونان ، كما قد رأينا كانت الأبجدية الجديدة قد لاقت

معارضة ضخمة ورفضاً في شكل ثقافة شفاهية متطورة جداً ومزدهرة ، وهكذا فقد استغرقت عدداً من القرون لتجعل من نفسها محسوساً بها داخل المسار المشترك المعتاد للمجتمع ، وفي زمن متأخر مثل منتصف القرن السادس ق.م . فإن الفيلسوف أناكسيمينز كان مازال قادراً على تأكيد التالي :

"وكما أن النَّفْس Psychê كونها الهواء ، تمسك بالكائن ليتماسك ويتمنحه الحياة ، فكذلك النَّفْس والهواء يقبضان بالعالم والكون بكامله ليتماسك ويتمنحه الحياة" .

بعد قرن ونصف من ذلك عندما صارت الأبجدية تُدرّس أخيراً داخل المنهج التعليمي وبذلك صارت منتشرة خلال الثقافة والحضارة الإغريقية ، فإن أفلاطون وسقراط كانا قادرين على تحويل التعامل مع مصطلح النَّفْس – Psychê – والذي بالنسبة إلى أناكسيمينز كان مرتبطاً تماماً مع النَّفْس والهواء – مستخدمين المصطلح الآن للإشارة إلى شيء ما ليس فقط غير مرئي ولكنه غير مدرك تماماً .

إن Psychê لم تكن أبداً جزءاً من العالم الحسى المحسوس ، ولكنها كانت بالأحرى كلمة حول بُعد آخر ، غير حسى أو تجسدي بالمطلق ، إن كلمة Psychê كانت بمعنى آخر لم تعد قوى غير مرئية ومع ذلك قوى فعالة مشاركة باستمرار عبر فضيلة التنفس مع الجو المحيط ، ولكن ظاهرة تجريدية إلى حد كبير صارت الآن مُتضمنة داخل الجسد الحى كما لو أنها فى الحبس .

لقد رأينا مُسبقاً كيف أن العلاقة الجديدة التى كتب أفلاطون حولها ما بين النفس الخالدة والمجال المتسامى "للأفكار" الخالدة ، كانت فى حد ذاتها معتمدة على التحالف الجديد ما بين الثقافة الأدبية للكتابة والحروف المرئية (والكلمات) للأبجدية ، نستطيع الآن أن نكشف أن هذه العلاقة ما بين النفس والأفكار غير المتجسدة كانت معتمدة أيضاً على النسيان التدريجى للهواء والنَّفْس ، وهذا فى حد ذاته أتاح الإمكانية عبر انتشار التقنية الجديدة ، ذلك أنه كان فقط عندما صار الهواء غير المرئى فاقداً لسحره لدى الحواس البشرية أن صار ذلك الآخر الأكثر غير مرئية بديلاً للهواء وأخذ مكانه – المجال الأثيرى الكلى "للأفكار" الخالصة والذي كانت "نفس" أفلاطون العقلانية متصلة بها كما قد كان النَّفْس المبكر فى القديم قد صار الآن جزءاً متضمناً من الجو والمجال الحى .

إن أولئك الذين يتحدثون حول "تقاليد ثقافة يهودية - مسيحية" يفشلون في الكشف عن المناهج المختلفة بشكل واضح ومميز والتي تميز وتُفرق ما بين العقيدتين اليهودية القديمة والمسيحية ، إنها اختلافات تتجذر جزئياً في التأثيرات الحسية لنظامي الكتابة المختلفين والمستخدمين في هاتين الحضارتين بتقاليدهما المرتكزة على الكتاب والنص ، على غير غرار التوراة العبرية فإن الإنجيل المسيحي الجديد كان مكتوباً في الأصل أساساً بالأبجدية الإغريقية ، وبهذا فإن العقلانية المزدوجة التي عززتها الكتابة الإغريقية بنظامها كانت في وقت مبكر في تحالف مع الميثاق المسيحي ، وتحت هيمنة الكنيسة فإن الاعتقاد بجنة سماوية غير حسية أو أرضية ، والطبيعة الأساسية الأثيرية غير المُجسدة للروح البشرية - في حد ذاتها "مسجونة" ، كما قد طرح أفلاطون ، في العالم المادى الجسدى - قد صاحبت الأبجدية في انتشارها ، أولاً عبر أوروبا ومن ثم عبر القارتين الأمريكيتين ، ومن حيث كانت الأبجدية تتقدم فإنها سعت وقامت بإلغاء سحر هواء الأشباح والتأثيرات غير المرئية عبر تجديد الهواء من الحياة ، وأعماقه الروحية النفسية .

في العالم الحى الشفاهى لما قبل المسيحية وأوروبا الفلاحية فإن كل الأشياء - الحيوانات ، والغابات ، والأنهار ، والكهوف - كان لديها القوى للخطاب والكلام التعبيري ، والوسيط الأساسى في هذا المسار الجماعى كان الهواء ، فى غياب الكتابة ، النطق البشرى ، سواء كان مُجسداً فى الأغاني والأناشيد ، أو الحكايات والقصص ، أو الأصوات التلقائية ، كان ذلك غير منفصل عن النفس المُتَنَفَّس ، إن المجال غير المرئى كان هكذا إذن الوسيط المشترك المفترض فى كل أشكال التواصل والخطاب ، مجال لتأثيرات مبطنة تعبر ، وتشاغل ، وتتخذ الأشكال الحية ، إن هذا المجال غير المرئى ومع ذلك مسيطر وحاضر وقوى للروائح والهمسات للحياة النباتية والنفس الحيوانى ، كان أيضاً هو المجال غير المرئى لأصوات الأسلاف ، موطن الحكايات التى لم تُقل وسوف تُحكى بعد قليل ، والأشباح والمخلوقات الذكية الروحانية ، إنه نوع من الحقل الجماعى للمعنى من حيث تنبثق باستمرار أشكال الوعى الفردى وحيث تقود باستمرار ، مع كل زفير وشهيق .

يمكن لنا أن نقول إن الهواء على أنه النبع المرئى للحاضر استصرخ ودعى إلى وعى للتحويل والتسامى مختلف جداً عن ذلك التسامى الكامل والكلى الذى طرحته الكنيسة ، إن التداخل المعاش والمُجَرَّب ما بين المرئى وغير المرئى - تلك الثنائية المناسبة تماماً لعالم الحياة الحسية - كان أكثر من حقيقى ككل وبعض من الجنة الأخرى التى هى (غير حسية أو تجسدية) أرضية بالمطلق .

وهكذا فإنه قد كان الانتشار الآخذ فى التطور والتقدم للمسيحية كان معتمداً بشكل كبير على انتشار الأبجدية ، وبالتالي فإن تلك الحملات التبشيرية المسيحية وبعثاتها كانت العامل الأهم لتقديم المعرفة والتعلم الأبجدى سواء فى مراحل القرون الوسطى أو الحديثة ، إنه لم يكن كافياً التبشير بالمعتقدات المسيحية : كان على المرء إقناع القبائل غير المتعلمة بالبدا فى استخدام التقنية التى تعتمد عليها تلك العقيدة ، فقط عبر تدريب الحواس للمشاركة مع الكلمة المكتوبة كان الشخص يستطيع أن يأمل فى كسر مشاركتهم الحسية مع الطبيعة المحيطة بهم ، وفقط عندما كان النص المكتوب قد بدأ فى التحدث سوف تبدأ أصوات الغابات والأنهار فى التلاشى ، وإنه فقط آنذاك سوف تستطيع اللغة أن تخلخل رباطها التاريخى للنفس غير المرئى ، الروح تفصل نفسها عن الريح ، والنفس تعزل نفسها عن الهواء المحيط بها ، الهواء الذى كان فى يوم ما الوسيط نفسه للتبادل المُعَبَّر ، سوف يصبح خاوياً باستمرار ومُفَرَّغاً وظاهرة غير ملحوظة ، ضاعت عبر الوسيط الغريب الجديد للكلمة المكتوبة .

الخلايا الحية ، والحدود

إن النسيان المتنامي للهواء - فقدان الثراء غير المرئي للحاضر - كان قد صاحبه حالة مبطنة في الوعي الإنساني ، لقد رأينا للتوكيف أن الكلمة الإغريقية القديمة *psychê* ، النفس ، أو الروح ، كانت قد تحولت من ظاهرة مصاحبة للهواء والنفس إلى كينونة غير مادية أو مجسدة تماماً في قبضة مصيدة ، كما قد كان الجسد البشرى على صلة مع الكلمة المكتوبة انبعثت عقلانية مستقلة بوضوح إلى الخبرة البشرية ، ذاتٌ جديدة يمكن لها أن تدخل في علاقة مع آثارها الشفاهية ، يمكن لها أن تشهد وتبحث في جملها وأرائها حتى وهي تُشكّل ذلك ، ويمكن لها بذلك التفاعل الانعكاسي مع نفسها بمعزل عن الأشخاص الآخرين وعن العالم الأرضي الحى المحيط بها ، إن هذه العقلانية الجديدة تبدو وكأنها مستقلة عن الجسد - تبدو ، بالفعل ، من نظام آخر كلية وتاماً - بما أنها قد ولدت عبر الحروف والنصوص والتي عبر ميزة عدم تغييرها تتعارض بوضوح مع الحياة المتحركة للجسد ودفق الطبيعة العضوية ، إن كون هذه العقلانية الجديدة قد أصبحت ترى نفسها كذكاء منفصل يسكن في " الداخل " ضمن الجسد المادى يمكن فقط فهمه بالعلاقة مع الهواء المنسى ، مع ذلك النسيان لذلك الوسيط الحسى ولكن غير المرئى الذى يتدفق باستمرار إلى الداخل والخارج للجسد المُتَنَفَس ، رابطاً ما بين الأعماق الخفية فى دواخلها مع الأعماق غير المرئية المحيطة بنا .

يُمْكِنُ لنا أن نستوعب بشكل أفضل تلك التطورات الغريبة - انسحاب العقل عن الطبيعة الحسية وتخلقه المتطور داخل الجمجمة البشرية - عبر الأخذ فى الاعتبار أن كل لغة بشرية بأسرارها نوع من الحدود المُستوعَبة التى تحيط مثل حجاب شفاف ، وتقف فيما بين أولئك الذين يتحدثون اللغة والأراضى والطبيعة المحيطة التى يعيشون

فيها ، وفيما نذمو في ثقافة أو حضارة معينة أو لغة نبدأ بشكل مبطن في بناء احتكاكنا وتواصلنا الحسى مع الأرض من حولنا بطريقة معينة ، بأذلين الانتباه نحو ظواهر معينة فيما نتجاهل ظواهر أخرى ، مميزين ما بين الكثافات ، والأطعمة أو الذائقة ، والنغمات بما يتناسب مع المقابلات اللفظية المتضمنة في اللغة . إننا ببساطة لا يمكننا اتخاذ مكان لنا داخل أى مجتمع من المتحدثين البشر دون أن نأمر حواسنا بأن تكون في كيفية مشتركة معهم ، دونما بذلك أن نقصر ونحدد مدخلنا التلقائية إلى العالم الطبيعي البرى الذى يحيط بنا ، إن أية لغة محددة أو طريقة للكلام أو الحديث بذلك تقبض علينا لنتماسك ضمن مجتمع محدد من المتكلمين من البشر ، فقط عبر استثارة حدود أثرية ما بين أجسادنا الحساسة والحسية والأرض الطبيعية الحسية .

وعلى الرغم من ذلك فإن الحدود المستوعبة التى تسنها أية لغة ربما تكون قابلة للشفرة وسامحة للتجاوزات ، وبالفعل بالنسبة للكثيرين من البشر الأصليين والشفاهيين إن الحدود التى وضعتها لغاتهم أميل إلى أن تكون مثل خلايا حية طبيعية لينة وطرية ، تربط ما بين الناس وأراضيهم ومحيطهم الطبيعى ، بدلاً من أن تكون حدوداً حائطية ذات جدران صلبة تعزلهم عن الأرض . عبر التأكيد على أن الحيوانات الأخرى لها لغاتها الخاصة بها ، وأنه حتى حفيف أوراق الشجر نفسه نوع من الأصوات ، فإن البشر الشفاهيين يربطون ما بين حواسهم والأصوات المتحركة والاختلاجات للأرض المحلية ، وبذلك يضمنون أن طرائقهم للتحدث تبقى على صلة معرفية مع الحياة لتلك الأرض ، تبقى الخلايا الحية الرقيقة فى الطبيعة محسوسة فى لغتهم ، ومعترف بها وبدرجة ما من خطورتها وسحرها ، مكان حيث العلاقات ما بين البشر والعوالم الأكثر من بشرية يجب أن تكون دائماً محور نقاش وتواصل . إن ممارسى الشامان المعهودين فى الثقافات والحضارات الشفاهية يتجولون بدقة فى هذا النطاق أو هذه الحافة ، إن الدور الرئيسى لمثل أولئك السحرة – كما قد طُرح عبر هذا الكتاب – هو أن يتصرفوا كوسطاء ما بين البشر والمجالات الأكثر من بشرية ، عبر الإزالة المستمرة للعوائق الحسية التى تدخلها اللغة المشتركة فصلياً مزيين الحدود المستوعبة من أجل المواجهة المباشرة ، والمحادثة والتواصل ، وعقد الصفقات مع أنواع

الذكاء والوعى المختلفة خارج نطاق الذكاء البشرى - مع البومة ، أو الحيوانات الأخرى - ومن ثم العودة للانضمام للمسار المشترك ، إن الشامان يحافظ على أن يكون المسار البشرى غير جامد أو متصلب ، ويحافظ على الخلايا الحية الرقيقة المستوعبة متدفقة ومنصبة ، ضامناً أعظم تناغم ممكن ما بين المجتمع البشرى والأرض الحية ، ما بين المألوف والسحري .

إن انبثاق أو اقتباس النظام الرسمى للكتابة قد صلبَ بشكل كبير حدود الاستيعاب الأثيرى المؤسس بالفعل عبر اللسان المشترك ، الآن اللغة المحكية صار لها مقابل يطفو ، ثابت وغير متحرك ، ما بين الجسد البشرى والعالم الحسى ، ومع ذلك فيما الكتابة الرسمية بذلك صلبت الحدود اللغوية المستوعبة فإن الكثير من أنظمة الكتابة العتيقة ضمناً تعود إلى الحواس البشرية ، إلى ذلك الذى يرقد فيما هو "أبعد" من الحدود ، إن الكثير من الكتابات ذات الصور والرسوم بعناصرها المشتقة لا يمكن لها إلا أن تذكر الجسد القارئ بميراثه فى الحقل الأكثر مما هو بشرى للأشكال الحية ، إن اللغة ليست - هنا - ملكية بشرية خالصة إنها تبقى مرتبطة أياً كانت المسافة بالحقل الأكبر للقوى المعبرة .

إن التطور للكتابة الصوتية قد ضاعف من تجميد وتحديد الحدود المستوعبة المتضمنة فى داخل المجتمع البشرى ؛ ذلك أن العناصر المكتوبة لم تعد معتمدة ضمناً على الحقل الأوسع للظواهر الحسية ، إنها تعود فى مرجعيتها بدلاً من ذلك إلى منظومة بشرية محدودة من الأصوات . إن الحروف كما قد قلنا بدأت فى العمل كمرايا تعكس المجتمع البشرى إليه من جديد ، على الرغم من ذلك حتى هذه الحدود من الانعكاسات والمرايا يمكن أن تبقى بشكل ما منفحة نحو ذلك الذى يرقد فيما هو أبعد منها ، لقد رأينا أنه فى الأبجدية (الألف - باء) الأصلية أن الحروف المتحركة أو أدوات التشكيل ، أو بالأحرى غيابها ، قد قدم ثغرات ، الفتحات فى الخلايا الحية الرقيقة للغة عبر - حيث الريح غير المرئية - النفس الحى يمكن له أن يبقى متدفقاً فيما بين البشر والعوالم الأكثر من بشرية .

لقد كان فقط من خلال سد تلك الثغرات الأخيرة - عبر إدخال الحروف المرئية والحركات للأصوات أو الحروف المتحركة نفسها - أن صارت الحدود المُستوعَبة مؤسسة وقائمة عبر اللغة المشتركة التي شمعتهَا أو ختمتها بشكل مؤثر ، وإن ذلك الذى قد كان فى يوم ما ثغرات من خلایا حية رقيقة قد أصبح الآن حدوداً غير قابلة للاختراق ، تهو للمرايا ، إن الكَتَبَة الإغريق ، بمعنى ، إنهم قد حولوا الحدود المتنفسه ما بين الثقافة والحضارة البشرية والأرض الحية إلى حدود جامدة وصلبة فاصلة ما بين داخل خالص عن خارج خالص ، مع إضافة حركات التشكيل المكتوبة ، مع ملء تلك الفراغات ، أو الثغرات ، فى الأبجدية المُبَكَّرَة فإن اللغة البشرية صارت نظاماً فى أغلبيته ذاتى المرجعية ومغلق فى وجه العالم الأكبر الذى كان يحويه فى يوم ما ، وإن "الأنا" للذات المتحدثة صارت مُشمعة ومختومة فى داخل هذا الباطن الجديد .

اليوم إن الذات المتحدثة أو المتكلمة تنظر نحو "خارج" خالص للطبيعة من منظور "داخلى" خالص من المفترض أنه يسكن بشكل ما داخل الجسد البشرى المادى للدماغ أو العقل ، فى الحضارة الأبجدية فإن كل نفس بشرية تشكل نفسها على أنها مجرد "داخل" أو باطن فردى ، "عقل" خاص شخصى ، أو "وعى" غير مرتبط "بالعقول" الأخرى المحيطة به ، أو الطبيعة والبيئة التى هو فيها ، ذلك أنه لم يَعدْ هناك أى وسيط مشترك ، ولا تبادل تلقى ، ولا تعرق أو نظام تنفس ما بين الداخل والخارج ، لم يعد هناك أى تدفق ما بين مستوى الذات - الانعكاسية للوعى الأبجدى وكل ذلك الذى يتجاوز ذلك المجال المحدد ، ما بين الوعى والملاوعى ، ما بين الحضارة والطبيعة البرية والوحشية .

التذكُّر

فى عالم العصرانية والحداثة فإن الهواء بالفعل قد أصبح أكثر الظواهر المأخوذة عرضاً دون التفكير بها ، وبالرغم من أننا نتنشقهُ باستمرار فإننا عادة ما نخفق فى ملاحظة أن هنالك أى شىء هناك ، نحن نعود إلى الأعماق غير المرئية ما بين الأشياء - بين البشر ، أو الأشجار ، أو السحب - برؤيتنا على أنها مجرد فضاءات فارغة ، إن لامرئية الجو بعيداً عن أن يقودنا ذلك للاهتمام والانتباه له عن قُرب ، صار الآن يمكننا من إهماله تماماً . بالرغم من أننا معتمدون بالكلية على تغذيته لكل الأفعال وكل أفكارنا ، فإن هذا الوسيط الغامض ليس فيه أى غموض بالنسبة لنا ، ولا تأثير وإع أو معنى مفقوداً لكل قدسية ، ومجرداً من كل أهمية روحية فإن الهواء اليوم هو أكثر بقليل من مشهد مزيلة منسية بشكل مناسب لضيف من المخلفات والمدمرات والغازات الصناعية ، إن انبهارنا هو فى مكانٍ آخر ، محمولاً بكل تلك الوسائط "الأخرى" - تلك الصحف ، البث الإذاعى ، شبكات التليفزيون ، قوائم الكمبيوتر - كل تلك الحقول أو القنوات "للتواصل البشرى الخالص" والتي تستولى بشكل جاهز على حواسنا وتُشكِّلُ أفكارنا عندما صارت مشاركتنا العجوز - القديمة مع الوسيط الأصيل الأكثر من بشرى مهجورة ومنسية .

كطفل كان ينمو على مشارف ضواحي مدينة نيويورك لطالما حدثتُ فى أعمدة الدخان والسحب السوداء فى السماء ، ومع ذلك فإننى سرعان ما توقفت عن التساؤل عن المكان الذى تذهب إليه تلك الأدخنة والسحب السوداء : بما أن البشر البالغين والناضجين الذين قد قرروا مثل تلك الأشياء قد رأوا أنه من المناسب أن يلقوا بتلك القاذورات بهذه الكيفية ، فيتوجب إذن كما قد استخلصت أن يكون كل ذلك صائباً وصحيحاً . فيما بعد وفيما كنت أتعلم قيادة السيارات كنت أراقب مع بعض الحذر

فيما الشاحنات تزار متجاوزة إياي على الطريق السريع نافثة الدخان الأسود من أنابيبها ، غير أنني كنتُ سريعاً ما أسامحهم ، متذكراً أن سيارتي هذه أيضاً كانت تقدم هي الأخرى ملوثاتها وغازاتها الساخنة إلى الهواء . الكلُ كان يفعل ذلك . وكما كانت آثار الطائرات تُحلّق فوق الرؤوس وتبدو بأنها تختفى بشكل كامل في الأزرق غير المحدود للسماء ، فإننا افترضنا بذلك أن تلك المخلفات وتلك الأدخنة والأبخرة متعددة الألوان والغازات الكيميائية كلها سوف تُلقي نفسها ، بطريقة ما ، في الفراغ غير المرئي .

لقد كان كما لو أنه بعد انقراض أصنام الآلهة الوثنية القديمة فإن الحضارة الغربية كانت تحرق أضحيات صارت أكثر وفرة ، واستمرارية ، وبذخاً ودموية – كما لو أننا كنا نتوسل إلى قوة غير معروفة ونائمة ، محاولين إطلاق سراح تنين ضخم ، مجتهدين في استثارة قوى غير معروفة نوعاً ما أو لطالما كانت منسية بحيث أن الإيقاظ قد يعيدنا إلى علاقة مع شيء ما مغاير ومختلف عن أنفسنا وذواتنا وتصميماتنا التي قمنا بفرضها على الكون .

وبالفعل فإن التدفق الهائل للمنتوجات التكنولوجية والملوثات منذ زمن الثورة الصناعية يمكن لها أن تستمر لزمن طويل محدد قبل أن تبدأ في تبذير التشكيل المحدود للعالم من حولنا ، قبل أن تبدأ تأثيراتها في خنق أجسادنا المتنفسة ، ساحبة إيانا بلا هوادة ومعيدة إيانا إلى حواسنا وتواصلنا الحسى مع عالم الأرض الحى .

اليوم إن وسائل الإعلام التكنولوجية – الصحف والإذاعات والتلفزيونات – في حد ذاتها قد بدأت في الاعتراف والاهتمام وجذب الانتباه إلى تلك التغيرات التي حدثت في الهواء نفسه ، إنه من خلال وسائل الإعلام تلك الثانوية أن صرنا حديثاً نعرف عن التراكم المهل في الأجواء العليا لعناصر التصنيع الكيميائية التي في كل عام تحرق حفرة – في اتساع مستمر – سوداء في طبقة الأوزون في أعلى أنتاركتيكا فيما تُضعف بقية تلك الطبقة الحامية على مستوى العالم ، من وسائل الإعلام تلك عرفنا أيضاً عن الزيادة المخيفة في ثاني أكسيد الكربون في الجو منذ بداية الثورة الصناعية ،

وإننا نسمع مراراً وتكراراً عن زيادة كثافة ثانى أوكسيد الكربون بالإضافة إلى غازات أخرى ذات امتصاص حرارى ، وهى بالفعل قد زادت من ارتفاع الحرارة الخطير الذى يجتاح مناخ العالم والأرض ، إنه تغيير سوف يساهم بدوره فى تهديد حياة عدد ضخم من أنظمة البيئة ، الكثير من الحيوانات وأنواع النباتات التى تعانى بالفعل من ذلك ، والكثير منها وصلت معاناته إلى درجة الانقراض عبر أفعال تلك الكثافة من سكان الأرض .

بالرغم من ذلك فإن مثل تلك المعلومات المطبوعة والمطروحة إعلامياً واصله إلينا كما يحدث عبر تلك القنوات التكنولوجية غالباً ما تبقى كزحام تجرىدى من الإحصائيات ، إنها تفعل القليل لتحويل وتبديل لامبالتنا ومحايدتنا الفكرية تجاه الأرض الحسية حتى - عندما نعود من رحلة - نرى بعيوننا الضباب البنى الذى يستقر الآن على المدينة التى نحيا فيها ، وحتى نشعر بالنسيم الكيميائى وهو يقرص الخلايا الحية اللينة والرطوبة فى فتحات أنوفنا ، أو حتى حين نراقب بحذر ريحاً عاصفة وهى تخلع واجهات المخازن والبيوت ، أو ربما بعد أن نتعافى من مرضنا الخامس من الحمى فى شتاء واحد ، عندها نلاحظ أن مناعة أجسادنا ومقاومتها قد وهنت عبر الأشعة المتزايدة التى تصب يومياً علينا من خلال السماء المرهقة ، أو مخلفات الهواء من آخر حوادث سقوط الطائرات عبر القارة .

كظواهر مأخوذة فى الاعتبار - وكذلك عبر التجربة المعاشة الحية - فإن الجو المتغير ليس مجرد عنصر من عناصر الأزمة البيئية ، ليوضع جانباً مع تسميم المياه ، والانقراض السريع الصارخ للحيوانات والنباتات ، وانهيارات أنظمة البيئة المعقدة ، وأشكال رعب أخرى من صناعة الإنسان ، إن كل ذلك بالتأكيد وجوه متداخلة ومتصلة لنوع من الفصل المدهش ، النسيان الهائل لميراثنا البشرى لعالم أكثر من بشرى ، ومع ذلك فإن عدم احترامنا وعدم تقديرنا للهواء فى حد ذاته الذى نتنفسه هو بشكل ما أعمق وأقوى تعبير لذلك النسيان وتلك الغيبوبة المذهلة ، وذلك أنه هو الهواء نفسه الذى يحيط بنا بشكل مباشر ، الهواء بكلمات أخرى هو ذلك العنصر الذى نحن بأكثر الأشكال حميمية "فيه" ، وطالما نعيش الأعماق غير المرئية المحيطة بنا على أنها مجرد

فضاء فارغ ، سوف نتمكن من رفض وإنكار أو كبت التداخل الاعتمادى لأفكارنا مع الحيوانات الأخرى والنباتات ، والأرض الحية التى نقتات عليها وتكفل لنا حياتنا ، قد نعترف فكرياً باعتماد أبداننا على تلك النباتات والحيوانات التى نستهلكها كتغذية ومعاش لنا ، ومع ذلك فإن العقل المتحضر ما زال يشعر بنفسه منفصلاً بشكل ما ، مستقلاً ، ومتكاملاً ، ومنفصلاً عن الجسد والطبيعة المتجسدة عموماً ، وإنه فقط عندما نبدأ فى ملاحظة وتجربة - من جديد - انغماسنا فى الهواء غير المرئى فإننا نبدأ فى استدعاء ذلك الذى هو تماماً جزء من ذلك العالم .

ذلك أن الارتباط الأساسى ما بين الوعى والهواء غير المرئى ببساطة غير قابل للتجنب ، فيما نصبح واعين بالأعماق غير المرئية التى تُحيط بنا فإن الباطن أو الداخل الذى اعتدنا ربطه بالنفس الفردية والشخصية يبدأ فى مواجهة فى العالم ككل : إننا نُحسُّ بأنفسنا ، غارقين ومتشبعين ومعلّقين "فى داخل" العالم الحسى ، إن هذه الأرض والطبيعة المتنفس لا تعود مجرد خلفية محايدة وسلبية يتجلى فيها التاريخ الإنسانى ، ولكن حقل قوى من الذكاء حيث أفعالنا تشارك فيه . وفيما يبدأ نظام المرجعية الذاتية فى الانهيار ، وفيما نبدأ فى الاستيقاظ لأهمية الهواء ، والآخرين المتعددين الباطنيين والمتضمّنين معنا فى أعماقها الخفية - فإن الأشكال من حولنا تبدو وكأنها تستيقظ ، وتعود للحياة ...

نهاية موسيقية

انقلاب الداخل والخارج

"آه ، أن لا تكون مقطوعاً ،

ولا عبر أقل تجزئة

محروماً من قانون النجوم .

الداخل - ما هو ؟

إذا لم يكن سماء مُضَاعَفَة ،

تمتلئ بالعصافير وعميقة

برياح العودة للوطن .

رينيه ماريا ريلكه

أن لا تكون مقطوعاً ، كما يقول ريلكه ، ومع ذلك فإننا نبدو اليوم مغتربين جداً عن النجوم ، ومنقطعين بشدة عن عالم الصقور والوعول والحجر ، إن هذا الكتاب كان يتبع ويقتفى آثار - بشكل ما - بعض الطرق التي وصل العقل الإنساني عبرها إلى رفض وإنكار الاحتمالات الحسية ، عازلاً نفسه عن الحيوانات الأخرى والأرض والطبيعة الحية ، بكتابة هذه الصفحات كنت قد آملتُ ، أيضاً ، فى "تجديد" بعض تلك الاحتمالات والعلاقات ، فى البدء فى استدعاء وإعادة بناء جذور الوعي الإنساني فى النظام البيئى والطبيعى الأكبر .

إن كل فصلٍ قد طرح الاعتماد المُبطن "لداخل" متعدد ومتنوع ، ظاهرة ذهنية على جوانب معينة يتم بسهولة تجاوزها أو أخذها على سبيل الحاصل لعالم الطبيعة الحسى المحيط بنا ، إن اللغة قد طُرحت كظاهرة جسدية عميقة ، تقف على اختلاجات وأصوات الأرض والطبيعة الحية . إن الذكاء العقلانى المُقدَّر بشدة فى الغرب تم طرحه على أنه يعتمد على الحروف الخارجية المرئية للأبجدية ، إن الداخل أو الباطن المُفترَض ، الوعى الذهنى "بالماضى" و "المستقبل" تم طرحه على أنه معتمد على خبراتنا الحسية وحواسنا تلك المختبئة تحت الأرض والمخفية فيما وراء الأفق . أخيراً إن تجربة وخبرة الوعى فى حد ذاتها كانت متصلة ومتعلقة بالفواض الخاصة بالنفس والهواء ، بالمحسوس ولكن غير المرئى فى الجو الذى نجد أنفسنا غارقين فيه .

إن العقل البشرى ليس بنوع من العناصر من خارج هذا العالم بحيث يأتى إلى البيت نفسه فى داخل جسدنا الفسيولوجى ، إنه بالأحرى متجذرٌ ومستثارٌ عبر الحقل الحسى والحواس نفسها ، متأثر بالتوترات والمشاركات ما بين الجسد البشرى والأرض الحية والطبيعة ، إن الأشكال غير المرئية للروائح والإيقاعات لغناء الجناب وحركة كل الظلال بمنطق ما تقدم الجسد الخافت لأفكارنا وتأملاتنا وانعكاساتنا نحن ، يمكن لنا أن نقول هى جزء من لعبة النور وانعكاساته ، "إن الداخل والباطن – ما هو ، إذا لم يكن سماء مُضاعفة ؟"

عبر الاعتراف بمثل تلك الروابط ما بين الداخل – الباطن ، العالم النفسى وأرضية التلقى والاستيعاب التى تحيط بنا ، إننا نبدأ فى الانقلاب من الداخل للخارج ، مخلصين النفس من قيودها ومحدوديتها ضمن مجال بشرى خالص ومغلق ، ومحررين العاطفة لتعود إلى العالم الحسى الذى يحتوينا .

إن الذكاء لا يعود ملكنا نحن فقط ولكن ملكية للأرض والطبيعة ، نحن فى داخله ، غارقون فى أعماقه ، وبالفعل فإن كل أرضية ، كل نظام بيئى ، يبدو وكأنه يمتلك ذكاءه الخاص ، شكله ومحتواه المميز من التربة ، أوراق الأشجار والسماء .

لكل مكان عقله الخاص ، ونفسه الخاصة : أشجار الصنوبر ، نار دوجلاس ، الصقر ذو الذيل الأحمر ، الأفاعي فى جحر الرمل ، الأمطار الغزيرة فى الشتاء ، الضباب على الضفاف فى الصيف ، أسماك السلمون فى الينابيع - كل أولئك معاً يشكلون حالة معينة من العقل ، ذكاء فى مكان محدد وخاص يشترك مع كل البشر الذين يعيشون فى محيط وأرضية ذلك ، ولكن أيضاً مع حيوانات الكويوتو فى تلك الوديان ، والققط والعناكب ، وكل الكائنات التى تعيش وتصنع طرائقها فى ذلك المجال ، إن لكل مكان نفسه ، لكل سماء زرققتها الخاصة .

إن حس الكينونة والوجود فى عالم حسى محافظ عليه فى الحكايات والقص الشفاهى والأغاني للشعوب والناس فى المجتمعات الأصلية ، فى المعتقد بأن الظواهر الحسية كلها حية وواعية ، وفى الافتراض بأن كل الأشياء تمتلك القدرة على الحديث والكلام ، إن اللغة بالنسبة للبشر الشفاهيين ليست بابتكار وإبداع بشرى ولكنها هدية من عطايا الأرض نفسها .

إننى لا أنكر أن اللغة البشرية لها خصوصيتها المتميزة ، وأنه من جانب ومنظور معين فإن المسار البشرى لديه القليل من المشتركات مع أصوات وإشارات الحيوانات الأخرى ، أو الكلام الهادر للنهر ، إننى أتمنى ببساطة أن أتذكر أن ذلك لم يكن هو المنظور الذى كان يتمسك به أوائل أولئك الذين اكتسبوا ومنحونا هدية الكلام والحديث ، إن اللغة البشرية قد تطورت من خلال مضامين حية ، إنها بالضرورة قد خدمت لآلاف السنين لا كوسيلة للتواصل فيما بين البشر فقط ولكن كطريقة وكيفية للتواصل والمديح والتعاطى مع القوى المعبرة للأراضى والطبيعة المحيطة ، إن اللغة البشرية بمعنى ما قد انبثقت لا كوسيلة فقط للتناغم والتفاهم فيما بين البشر ولكن أيضاً فيما بين ذواتنا والأرض الحية والطبيعة ، إن الاعتقاد بأن الخطاب أو الكلام ذا المعنى هو ملكية بشرية خالصة كان غريباً وخارجاً عن المألوف تماماً بالنسبة لتلك المجتمعات الشفاهية التى تطورت فى البداية وطورت الطرق المختلفة للكلام والحديث ، وعبر التمسك بمثل ذلك المعتقد اليوم فإننا نكون محددين ومقننين للنشاط التلقائى للغة ، عبر إنكار أن الطيور والحيوانات الأخرى لها أساليبها فى

الكلام ، وعبر الإصرار على أن النهر ليس لديه صوت شفاهي وأن الأرض نفسها خرساء فإننا نخلق تجربتنا الحية المباشرة ، إننا نقطع أنفسنا بعيداً عن المعاني العميقة في الكثير من كلماتنا مفقرين لغتنا من ذلك الذي يدعمها وتقنات عليه ، ثم إننا نتعجب لماذا كثيراً ما نكون غير قادرين على التواصل حتى فيما بين أنفسنا وبعضنا بعضاً .

في عرض العملية التي من خلالها قامت الحضارة بالانقلاب فيما على نفسها عازلة ذاتها عن الأرض والطبيعة المتنفسة كنت قد ركزت على المفهوم الغريب والتحول اللغوي الذي أتاح الإمكانية عبر تطور وانتشار أنظمة الكتابة الرسمية ، وخصوصاً تطور وانتشار الكتابة الصوتية ، غير أنني بغض النظر عن ذلك لا أتمنى أن أطرح أن الكتابة كانت العامل الوحيد في تلك العملية – عملية معقدة ومركبة كانت بعد كل شيء في إطار الخلق والتطور لعدد من آلاف السنين – إن عوامل أخرى كثيرة كان يمكن اختيارها ، إنني قد أشرت بشكل بسيط جداً في هذا الكتاب إلى انبعاث الزراعة في فجر المرحلة النيولثية ، بالرغم من أن انتشار تقنيات الزراعة قد حول بحدّة وسرعة العلاقة المعاشة ما بين البشر والكائنات والفصائل الأخرى ، كما أنني لم أطرح موضوع التطور لنظام الترقيم والأعداد الرسمي ، والتأثير النابع من ذلك على المقاييس الرقمية ، والإحصائيات ، على تفاعلنا مع الأرض ، وبالطبع فإنني قد قلت القليل ، أو لا شيء تقريباً عن ما يتعلق بالتكنولوجيا والتقنيات التي لا تُحصى التي ابتكرتها الحضارة الأبجدية نفسها ، من الهواتف إلى التليفزيونات ، ومن السيارات إلى المضادات الحيوية ، عبر التركيز على الكلمة المكتوبة ، لقد أملت أن أعرض أقل أطروحة محددة عن أن أطرح شرحاً محدداً ، كيفية معينة للبحث والتساؤل حول أي عامل يمكن للشخص أن يختاره .

إنها طريقة للتفكير تسعى نحو بحث لا يهدد صلتنا وروابطنا الحيوانية مع العالم من حولنا – إنها محاولة للتفكير بما يتسق مع الحواس ، للبحث والتأمل دونما إفقار الرابط الحسي مع اليوم والرياح ، إنه أسلوب للتفكير – إذن – يربط ما بين "الحقيقة" لا مع الوجه الإحصائي ولكن مع العلاقة النوعية ومستواها .

من وجهة نظر بيئية إنه ليس أساساً هو جملنا وخطابنا الشفاهى الذى يُمتل "الحقيقة" أو "الخطأ" ، ولكنه بالأحرى نوع من العلاقات التى نحافظ عليها مع بقية الطبيعة ، إن المجتمع البشرى الذى يعيش ضمن علاقة متبادلة المصالح ضمن الأرض والطبيعة المحيطة مجتمع - يمكن لنا أن نقول - يحيا ويعيش فى الحقيقة ، إن طُرق الكلام المشتركة فى ذلك المجتمع - الادعاءات والمعتقدات التى تُمكن مثل تلك التبادلية فى التلقى والاستيعاب فى أن تفرض نفسها هى - بذلك الحس المهم - "حقيقة" . إنها فى اتساق مع العلاقة الصائبة والحقة ما بين أولئك البشر وعالمهم ، أطروحات ومعتقدات أثناء ذلك ترعى وتتبنى العنف ضد الأرض ، طرق للخطاب والكلام تُمكن الازدواجية أو الخراب للحقل المحيط من الكائنات ، يمكن وصفها على أنها "خطأ" أو طرق غير صائبة فى الخطاب - طرق تُشجّع العلاقة غير المراعية وغير الحساسة مع الأرض والطبيعة الحاضرة ، إن حضارة تدمر - بلا هوادة - الأرض الحية ومن فيها لا يمكن أن تكون مصاحبة "للحقيقة" والصواب بغض النظر عن كثرة الوجوه التى راكمتها وطرحتها فيما يتعلق بالأخلاقيات المحسوبة فى هذا العالم .

وبما أننى أقل اهتماماً وانشغالاً بالحقيقة "الحرفية" للتأكيدات التى طرحتها فى هذا الكتاب والأطروحات عما أنا مهتم به أكثر ومعنى به فى نوع العلاقات التى يمكن لها أن تجعلها متاحة ، "الحقيقة الحرفية" هى تماماً فن وحرفة من إنتاج التعليم الأبجدي : لتكون "الحقيقة حرفية" فى الأصل كان يعنى أن تكون حقيقية بالنسبة "لحرف الكتابة" ، بالنسبة "لحرف القانون" ، فى هذا الكتاب كنتُ قد حاولت أن أعيد علاقة القارئ مع نوع الوعى الذى سبق وحدد ضمناً نوع الذكاء الذهنى المتعلم للكتابة والقراءة ، إلى طريقة للتفكير والكلام تسعى لأن تكون وفية لا للتسجيلات المكتوبة ولكن للعالم الحسى نفسه ، وللأجساد الأخرى للكائنات التى تُحيط بنا .

ذلك أنه فى مثل ذلك الوعى الشفاهى ، أن "تشرح" أو تُفسّر ليس أن تقدم منظومة من الأسباب المنتهية ، ولكن أن تحكى حكاية ، وذلك ما قد حاولت فعله فى هذه الصفحات ، إنها حكاية غير منتهية ، حُكِيت من زوايا مختلفة ، مجرد رتوش فى بعض الأجزاء للوحة . مكتملة بالثغرات والأسئلة والشخصيات غير المكتملة ، ولكنها حكاية بالرغم من ذلك ، وليست بمنظومة مكتملة من الوقائع .

بالطبع ، ليست كل القصص والحكايات ناجحة أو موفقة ، ثمة حكايات جيدة وحكايات رديئة القيمة إلى وجود الحكايات السيئة بالفعل ، كيف يمكن تقييمها والحكم عليها ؟ إذا كانت لا تهدف إلى حقيقة جامدة أو "حرفية" ، فكيف يمكن لنا أن نكشف إذا ما كان الشخص يحكي الأحداث بطريقة أفضل أو أكثر قيمة عن الأخرى ؟ إن الإجابة على ذلك هي التالى : إن الحكاية يجب أن يُحكم عليها بحسب ما إذا كانت "تصنع حساً" أو منطقاً ، و"صناعة الحس" يجب أن تكون هنا مفهومة بمعناها الأكثر مباشرة : أن تصنع حساً هو "أن تُحى وتنعش الحواس" ، إن الحكاية أو القصة التى تصنع الحس هي تلك التى تحرك الحواس من سُبَّاتها ، مُناغمة اللسان مع الذائقة الفعلية للهواء وباعثة بالرعشة إلى الفهم فى اللحظة نفسها التى يقشعر فيها سطح الجلد ، "أن تصنع حساً" هو أن تحرر الجسد من قيوده وأغلاله التى فرضت عليه عبر أساليب وطرق بالية للحديث والخطاب ، وبذلك تجدد وتُنعش الوعى الذى يحس به الشخص حول العالم ، هو أن تجعل الحواس يقظة من حيث هى وهناك .

إن البعد الذهني ، الذاتى ، والمستقل بوضوح قد انفتح عبر الأبجدية - القدرة على التفاعل مع إشاراتنا فى غياب كلى عن المحيط الأرضى والطبيعية من حولنا - قد أزهروا وأثمر اليوم حتى صار مجالاً متسعاً ذهنياً ، امتداداً بلا أفق لتفاعلات واشتباكات محضة ، إن ذكاعنا التأملى ، الانعكاسى يسكن ويعيش حقلاً كونياً من المعلوماتية ، باحثاً فى آخر السيناريوهات فى أصل الكون ، فيما بالية وغياب ذهنى نضع شبكة الطعام فى حلقنا وأفواهنا ، مؤلفين أطروحات وأفكار للقاء العلمى أو البحثى التالى ونحن نرتشف القهوة أو الكابتشينو ، ضاغطين على مفاتيح الكمبيوتر وغارقين فى عالم الفضاء الإلكتروني والساير بهدف أن ندخل فى شبكة عمل مع عقول أخرى بلا أجساد ومعالم حسية واضحة ، متبادلين المعلومات حول تبعات علم الخلايا والانقلابات العسكرية ، "مؤتمرين" لكل مشاكل البيئة العالمية فيما نحن فى لامبالاة ونسيان لبزوغ القمر فوق سطح البيت ، إن جهازنا العصبى يلجُ إلى النفق ، ولا نلاحظ أن كورس الضفادع يقرب النهر قد اضمحل هذا العام ، وتحول إلى غناء وصوت فردى منعزل ، وأن عصافير السنونو لم تعد تأتى لتغنى على الأشجار .

وفى مقابل الشخصية الواضحة ، العالمية ، وغير المحدودة لعالم التكنولوجيا المسيطرة فإن العالم الحسى - عالم تفاعلاتنا المباشرة دون وسيط - دائماً ما يكون محلياً ، إن العالم الحسى هو الأرضية الخاصة والمعينة التى جميعنا نمشى عليها ، وهى الهواء الذى نتنفسه ، بالنسبة إلىّ وأنا أكتبُ هذا فإن الأرض الرطبة اللينة على جانب من الجزيرة فى الساحل الشمالى - الغربى لشمال أمريكا هى الأرضية ، إنها التربة الداكنة والغنية بالأحجار مغذية جذور أشجار الصنوبر والأشجار الأخرى التى ترتفع أمام كوخى ، آخر أوراقها المتدلّية من الأغصان قبل أن تطير نحو السماء عبر عواصف الشتاء ، وإنه ذلك الهواء المالح الذى يتدفق عبر النواقد المفتوحة ، مُتبلاً بآريج الصنوبر وأعشاب البحر ، وأحياناً بعض روائح الديزل من تأثير مركب متجه إلى الجنوب واقف بقرب جذوع الشجر المقطوعة حديثاً ، فى بعض الأحيان أيضاً يكون هناك رائحة خفيفة من روائح الأسماك والقنادس أو كلاب البحر ، فى كل يوم مجموعة من القنادس تتسلل من المياه الخضراء نحو الصخور القريبة عندما يعلو الموج ، واحداً أو اثنين من البالغين منها وثلاثة صغار ، أجساد لزجة ، أحدهم على الأقل يجر سمكة نصف حية ما بين أسنانه ، إن كلب البحر أيضاً يتنفس هذا الهواء البرى الطبيعى ، وعندما تعصف رياح العواصف بالجزيرة ، فإنهم يمدون أعناقهم نحو ذلك الانبعاث غير المرئى ، ليشربوا أكواماً من ذلك الهواء .

فى باطن ودواخل هذه الجزيرة ، فى أعماق الغابة الأشياء أكثر هدوءاً ، إن قوى ضخمة وعمودية تقف هناك غير عابئة بالرياح ، إن جذوعها تمتلئ بالتشققات وتتقاطع عليها خطوط النمل ، ودود الأخشاب ، والخنافس بمختلف الأشكال والأحجام ، واحد من طيور ناقرى الأخشاب ينقر جذعاً ما فى مكان ما ، إن الإيقاع المنتظم يصل إلى أذنى دونما صدئ ، غارقاً فى الطحالب والإبر المثقلة بقطرات المياه التى أخذت ساعات لتتنزلق على الجذوع من أعالي الشجر (كل نقطة تتحرك على الشقوق المتتابعة جامعة وزنها من نقط عديدة ، ثم منزلقة عبر الفصن والطحالب والعناكب الصغيرة ، نحو الفصن الآخر) ، أخشاب الشربين المتساقطة والشوكران ، وشجرة سبروس عتيقة ذات قنوات محددة تنام متغضنة بين الحشائش ، الأغصان المتشابكة لها تقف مانعة سرب الغزلان الرقيقة عن الرؤية وأنا أتابعها .

إن الغزلان فى هذه الجزيرة قد هجروا حديثاً فراء الصيف نحو فراء الشتاء الكثيف ، أراقبهم من البعيد عند المغيب ، لم يعد البنى الدافئ هو اللون لأشعة الشمس على التربة ، إن فراءهم الآن قد صار رمادياً فى مقابل جذوع الأشجار وظلالها وكل تلك السماء الرمادية ، إن الكائنات الهادئة تبدو تماماً جزءاً من تلك الأرض والمحيط المتنفس ، نفس الكثافة واللمس والألوان المتحولة مع تغير الفصول المحلية .

إن الأشخاص من البشر ، أيضاً ، يتم تشكيلهم بحسب الأماكن التى يحيون ويستوطنون فيها ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى ، إن إيقاعاتنا الجسدية ، وأمزجتنا ، ودوائر الإبداع والركود ، وحتى أفكارنا بالفعل منشغلة ومتأثرة بالأشكال والأحوال المتغيرة للأرض ، ومع ذلك فإن تناغمنا العضوى مع الأرض والطبيعة المحلية يتشتت مع انشغالنا المتزايد بإشاراتنا ، مشدودين ومنومين مغناطيسياً بالتكنولوجيا التى اخترعناها ، فإننا نقطع اتصالنا - الدائرى بتبادل التلقى والاستيعاب الحسى ما بين أجسادنا المتنفسة والأرضية المادية والطبيعة التى نحيا فيها وبها ، إن الوعى الإنسانى ينطوى ويتكشف لنفسه والحواس - عندما يكون المشهد الضرورى لانشغالنا مع الطبيعة البرية والحية - يصبح أكثر عزلة وانفصالاً وعقل تجريدى طبع إلى تجاوز الحقيقة العضوية التى صارت الآن تبدو عشوائية بشكل مزعج .

إن الذكاء الأبجدي يفرض ادعاءه فى الأرض عبر تسطيحها ، ويمدُ هيمنته عليها عبر رسم خطوط متصلة مستقيمة وزوايا دقيقة على امتداد جسد القارة - عبر أمريكا الشمالية ، عبر أفريقيا ، عبر أستراليا - محدداً الولايات والمقاطعات ، القرى والأرياف مع اعتبار غائب عن احترام وتقدير الشعوب والبشر الشفاهيين الذين كانوا يعيشون ومايزالون هناك ، بحسب منطق حسابى متجاهل تماماً لحياة تلك الأراضى .

إذا ما قلتُ إننى أعيش فى "الولايات المتحدة" ، أو فى "كندا" ، فى "كولومبيا البريطانية" ، أو فى "نيومكسيكو" ، إننى أضع نفسى وأوضعها ضمن تخطيط فى المنظومة البشرية الخالصة ، إننى بذلك أقول القليل أو لا شئ تقريباً حول المكان

أو الموضع الأرضي والطبيعي الذي أحيأ وأستوطن فيه ، لكننى ببساطة أقوم بتأسيس مكانى المؤقت فى داخل هندسة متحولة ومتغيرة سياسياً واقتصادياً وحضارياً بقواها التى تجهد للحفاظ على نفسها ، اليوم وغالباً على حساب الأرض والطبيعة الحية فإن الخطر العظيم هو أن أكون أنا والكثير من الأشخاص الطبيين قد نصل إلى تصديق أن أجسادنا المنتفسة بالفعل تعيش وتستوطن تلك التجريدات ، وأنا سوف نعرض حيواتنا للذويان الجماعى ، والحماية والدفاع ، أو المشاركة فى مصير تلك الكائنات وانقراضها بدلاً من رعاية وتغذية وحماية الأماكن الفعلية التى هى قوام حيواتنا على المستوى الجسدى .

إن الأرض التى تتضمن وجودنا لها بلاغتها ولغتها الخاصة ، ولها خطوط طولها وأسلوبها وإيقاعاتها التى لابد من الاعتراف بها إذا ما أردنا للأرض أن تتنفس وتتغش وتزدهر ، مثل تلك النماذج - على سبيل المثال - هى تلك التى تتبعها الأنهار وهى تهدر باتجاه المحيط ، أو سلسلة الجبال التى ترتفع مثل ظهر للسهول ، حوافها تصل إلى السحب التى تتجمع وتُطلق أمطارها على جانب من تلك السلسلة ، تاركة منحدرات فيها جافة وشبيهة بالصحراء . خط آخر هو الحدود ما بين نوعين مختلفين جداً من أسرة الصخور التى قد شكلتها الرياح والأحداث الطبيعية فى قصة ورواية تلك القارة التاريخية ، أو ما بين نوعين مختلفين من التربة ، كل منهما يدعو لنوع مختلف من السكان من النباتات والأشجار لتضع جذورها فيها ، مجموعات مختلفة ومتنوعة من الحيوانات تنظم نفسها ضمن تلك الحدود الخافتة ، محددين حركاتهم فى الأرض بما يكفى احتياجاتهم من الغذاء والحماية الضرورية لأماكن الحياة متجنبين الحيوانات المفترسة أو القاتلة . آخرون ، كائنات معينة معتادة على الهجرة تتبع مثل تلك النماذج فيما هى تتحرك بما ينسق مع الفصول الطبيعية ، ويصوغون طرقاً ودروباً ومناطق غائبة بالفعل عن البشر الحاليين والأمم ، والولايات ، وما يتفرع من ذلك من حدود وتحديدات ، إننا فقط عندما نتجاوز المنطق البشرى المستثنى للآخرين والفراض باستمرار نفسه على الأرض والطبيعة فإننا نستطيع أن نقبض بالرؤية على ذلك الآخر ، المنطق الأقدم وهو يفعل فعله فى العالم ، وفقط عندما نقرب من حواسنا ، ونبدأ فى

الثقة ، من جديد ، الذكاء الطبيعي لأجسادنا وحواسنا ، نستطيع أن نبدأ فى الملاحظة والاستجابة للمنطق واللغة الباطنية الخافتة للأرض والطبيعة .

إن هنالك تبادلية حميمية فى التلقى والاستيعاب لتلك الحواس ، فيما نلمس جذع شجرة فإننا نشعر بأن تلك الشجرة "تلمسنا" ، وعندما نغير أذاننا للأصوات المحلية ونجعل أنوفنا فى تحالفٍ مع ما يفوح من المواسم فإن الأراضى والطبيعة تدريجياً تسهم فى تناغمنا بدورها ، إن الحواس - بمعنى ما - هى الكيفية والطريقة الأساسية التى تستطيع الأرض والطبيعة عبرها إخبارنا بأفكارنا وإرشاد أفعالنا ، إن برامج هائلة مركزية ومبادرات كونية وحلولاً أخرى من "الأعلى للأسفل" لن تكون أبداً كافية لإصلاح وترميم وحماية صحة الأرض الحية "ذلك أنه فقط على مستوى تفاعلاتنا المباشرة ، الحسية مع الأرض من حولنا نستطيع أن نلاحظ بشكل صحيح ونستجيب للاحتياجات المباشرة للعالم الحى" .

· ومع ذلك فإن مستوى حسية وحساسية أجسادنا للأرض مذهشة ، ومتنوعة بشكل غير قابل للتقنين أو الاختصار ، إنها تكشف نفسها لحواسنا لا على أنها كوكب متجانس داعياً المبادئ الكونية والتعميمات ، ولكن على أنها ذلك المجال من الغابات والمحضون بالمياه ، أو البرارى التى تجتاحها الرياح ، أو صمت الصحارى ، إننا نستطيع أن نعرف الاحتياجات والضرورات لأى منطقة أو إقليم معين فقط عبر المشاركة فى خصوصيته - عبر أن نكون على ألفةٍ مع فصوله ودوائره وأساليبه ، يقظين ومنبهين لسكانه الآخرين .

بالتأكيد ، إن الشخصية المركزية والمرتكزة على المكان بالنسبة للثقافات الشفاهية الأقدم لم تكن أبداً بدون نواقص ، مندمجة بشكل رائع مع أنظمة البيئة والطبيعة المحيطة بها ، فإن الثقافات الشفاهية كثيراً ما كانت مرتبطة جداً بأراضيها المحددة والخاصة إلى درجة أن طبيعة وأنظمة بيئة أخرى - أشكال ونماذج أخرى من الزهور ، والأعشاب والمناخات - كانت قد تبدو مخيفة ، ومهددة وحتى مرعبة ، وفيما مثل تلك المخاوف قد ساعدت فى تحديد التداخلات على مستوى الأراضى ما بين

المناطق المجاورة ، وبذلك ربما ساعدت على تقليص الإمكانية من الصراعات والحروب القبلية ، فإنه كان مازال هناك أوقات وأزمنة عندما كانت مجموعات وعُصَب بشرية مضطرة للتواجد خارج حدود أراضيها المألوفة سواء بسبب التغييرات في الطقس والمناخ ، أو التحولات في طرق الهجرة للفرائس ، أو ببساطة بالصدفة ، وفجأة يجدون أنفسهم في عالم حيث حركاتهم وطقوسهم وصلواتهم وحكاياتهم قد تبدو وكأنها تفقد كل المعاني السابقة ، حيث الأشكال لنماذج وتضاريس الأرض تفتقد الانسجام والتفاهم بالنسبة إلى تجربتهم المعاشة الحية ، " حيث لا شيء يبدو أنه يصنع حساً " .

بدونما منظومة من الحكايات ، والقصص ، والأغاني المناسبة للمحيط الطبيعي الجديد ، وبدونما نظام سلوك أو إتيكيت مناسب "لتلك" الأراضي وخيراتها من الغذاء ، والوقود ، والملاذ والحماية – فإن القادمين الجدد التائهين والمرعوبين غالباً يمكن لهم ببساطة أن يثيروا الاضطراب وحتى يدمروا ويخربوا جزءاً كبيراً من المجتمع الحي العضوي والطبيعي ، إن انقراض عدد كبير ومتنوع من الحيوانات الذي كان قد حدث مباشرة بعد الهجرات البشرية الأولى في البداية عندما عبرت مضيق بيرنج وانتشرت من خلال شمال وجنوب أمريكا لربما قد كانت ساهمت في ذلك – ربما تحت مثل تلك الأحوال والظروف – عبر افتقاد نماذج ثقافية ولغوية متناغمة مع أنظمة البيئة المختلفة والمتنوعة لتلك القارة ، موجة مماثلة من الانقراض والتدمير تبدو وكأنها قد حدثت في زمن مبكر ، خلال القرون الأولى من التدفق البشري إلى أستراليا ، فيما أشكال انقراض وتدمير قد رافقت علامة وصول فصيلتنا من الكائنات في عدد من أنظمة وطبيعة البيئة في جُزُر كثيرة ، بما فيها نيوزيلندة ، وهاواي ، ومدغشقر ، إن مثل تلك الأحداث تطرحُ بأنه فيما يتعلق بالتنغم والتأقلم العميق مع مواصفات وشخصية المكان للكثير من البشر والشعوب الشفاهية قد انبثق بعد عددٍ من الأجيال في أرضية معينة عامة .

إنه من الواضح أيضاً أن تقاطعات وتجارب ما بين مجموعات بشرية من مناطق مختلفة تماماً في طبيعتها يمكن لها أحياناً أن تثير العنف – في بعض الحالات تصل إلى عنف دموي تماماً – وهذا مجرد نتيجة لانعدام مقياس للاكوان الثقافية والرعب

الناجح عن أن تقوم كل مجموعة بالتأثير على الأخرى ، إن مثل تلك الاعتبارات لأبد أن تقودنا إلى التساؤل حول إذا ما كان هناك حس غريب من المشترك البشري قامت إمكانيته عبر انتشار الأنظمة الرسمية للكتابة وأنه ليس بشيء شديد القيمة بعد كل شيء ، أليس هنالك ثمة شيء ما شديد القيمة حول المعتقد الحديث والعصرى ، حول المساواة بين البشر بالرغم من أنه قد تم إنجازه على حساب تأقلمنا وتناغمنا الثقافي مع أماكن معينة نستوطنها ، أليس هنالك ثمة شيء ما رائع حول انتشار الاعتراف بأننا جزء من أرض وكون واحد غير قابل للتجزئة ؟

ربما هنالك ، ومع ذلك فإنها قيمة متقلقلة وغير ثابتة ، ذلك أنه فى اللحظة ذاتها التى صارت فيها التجمعات السكانية البشرية فى كل قارة تعترف بالكوكب على أنه أرض متواحدة وكاملة ، فإننا نكتشف أن فصائل من كائنات ومخلوقات أخرى تنقرض وتذوى بشكل سريع وتنتهى ، وبأن الأنهار تختنق من النفايات الصناعية ، وبأن السماء نفسها مجروحة ، فى اللحظة نفسها التى انتشرت فيها أخيراً فكرة المساواة بين البشر عبر الكلمة المطبوعة أو وسائل الإعلام الإلكترونية ، فى كل أمة صار من الواضح بأنه بالفعل ليس بشيء أكثر من فكرة ، وأنه فى بعض أشد الأمم والشعوب "تطوراً" فإن البشر بالرغم من كل ذلك يدمرون بعضهم بعضاً هنالك ، جسدياً وعاطفياً ، بأعداد غير مسبقة - سواء عبر الحروب ، عبر الطمع والجشع المتزايد للمؤسسات والشركات ، أو عبر الانتشار السريع للامبالاة .

من الواضح إذن أن ثمة شيء ما مفقود بشدة ، بعض العناصر الضرورية قد تم إهمالها ، بعض الجوانب الضرورية من الحياة قد تم تجاوزها إلى درجة خطيرة ، وضُعت ونُحيت جانِباً ، أو ببساطة قد تم نسيانها من خلال الاندفاع اللاهث نحو عالم مشترك ، من أجل أن يتم الحصول على الصورة والخيال المدهش والمُوحّد للأرض بكاملها وهى تدور فى عتمة وظلام المكان والفضاء ، فإن البشر ، كما يبدو ، كان عليهم أن يسعوا إلى شيء ما له القيمة نفسها . إن الإنسانية والنبل الذى يتأتى من تلك الكينونة التى هى بكاملها جزء من ذلك العالم الذى يدور ، لقد نسينا ذلك الوزن الذى يتأتى من الحياة والعيش فى علاقة محكية ومتبادلة التلقى والاستيعاب مع عشرات

الآلاف من الأشياء ، عشرات الآلاف من الكائنات التي تحيط بنا من كل جانب في تواصلها .

إننا نستطيع فقط أن نجد ذلك التواصل - واضعين أرضية قدراتنا التي عثرنا عليها من جديد من أجل تجريد حرفي في تلك الأشكال الشفاهية الأقدم للخبرة المعاشة والحية - أنذاك فقط سوف تستطيع قدرات الذكاء التجريدي أن تجد معناها الحقيقي ، إنه بالتأكيد ليس بالأمر الذي يعنى "العودة للوراء" ، ولكن بالأحرى الوصول إلى اكتمال الدائرة ، توحيد قدراتنا وإمكاناتنا لسبب جيد مع تلك الطرق الأكثر حسية وتقليدية من المعرفة والعلم ، سامحين لرؤى جذور العالم المشترك نفسه بالتواجد فى انشغالنا ، ومشاركتنا ، وتواصلنا المباشر مع المحلى والخاص ، أما إذا - على كل حال - ببساطة أصررنا على الاستمرار فى عزلتنا الانعكاسية فإنه آنذاك سوف تُثبت كل مثاليتنا وأفكارنا التجريدية ومساعدتنا وآمالنا لوحدة العالم أنها مجرد وهم وهذيان فظيع . إذا ما لم نساارع فى تذكير أنفسنا بمحيطنا الحسى والطبيعى ، إذا ما لم نستعد الاعتراف بتضامنا مع الكائنات الذكية والحساسة الأخرى التي تحيا وتستوطن وتُمثل ما يحيط بنا فإن ثمن مشتركاتنا البشرية قد يكون انقراضنا وفناؤنا المشترك .

وبالفعل فإن الكثير من الأشخاص والمجتمعات سواء ضمن أو خارج الأمم والدول الصناعية هم بالفعل منشغلون فى مثل تلك العمليات من التذكر ، أفراد ذوو خلفيات مختلفة ومتنوعة وقدرات مختلفة - كلهم قد انجذبوا نحو تلك الممارسة التي يسميها البعض "إعادة التوطين" ، لقد بدأوا فى تحديد أنفسهم لأماكنهم الخاصة والمحددة والمناطق البيئية والطبيعية التي يعيشون ويحيون فيها ، الكثير منهم على سبيل المثال قد أصبحوا دارسين مهتمين بالنباتات والأشجار التي تنمو فى أراضيهم ، متعلمين الخصائص الغذائية أو العلاجية لكل نبتة ، وارتباطها بحشرات معينة وحيوانات ، آخرون قد اتخذوا لهم معلمين من الحيوانات المحلية نفسها ، قاضين أوقات فراغهم فى رصد الهجرات ، أو متعلمين دائرة الحياة والسلوكيات لكائنات محدودة ، إنهم يعملون على ترميم وإعادة إصلاح تلك العادات التي تلفت ، وتدرجياً لإعادة ميزان الكائنات الأصلية التي كانت قد دُمِّرت عبر عبث البشر وقسوتهم ، عاملين معاً ، إنهم

يغلقون ذلك المصنع الذي يلوّث ويُدمّر ، وإنهم يغوون سمك السالمون ليعود إلى ينابيعه ،
 فى قلب المدينة إنهم يبيذرون ويزرعون الحدايق الجماعية بالكائنات والفصائل المنقرضة ،
 ويقيمون الولائم للمشردين ، فى كل زاوية هم يسعون إلى نشر مثل ذلك السلوك وتلك
 القناعات فيما بين المجتمع البشرى بما يتناسب مع الإقليم ، والأكثر استجابة
 ومسؤولة للمحيطات الطبيعية الأرضية .

فى أمريكا الشمالية فإن لهذه الحركة التلقائية والمتنامية أسماء كثيرة ، فى
 الحقيقة إنها أقل من كونها حركة وهى أكثر بمنطق وإحساس مشترك وعقلية يتشارك
 فيها الأشخاص الذين - بحسب جُملة روبنسون جيفر - "وقعوا فى الحب مع
 الخارج" مع العالم الذى يحيط بهم ، وفيما يزداد عمق عاطفتهم ولعلمهم بالأرض فإنهم
 يختارون أن يقاوموا الميل المعاصر للانتقال دائماً إلى مكان آخر من أجل عمل أفضل
 أو حياة أكثر ترفاً ، ويكتفون بدلاً من ذلك بأن يكرسوا أنفسهم للأراضى والطبيعة التى
 قد أعلنت ملكيتها لهم ، أن يقابلوا كرم الأرض بإخلاص ووفاء طيب وبرى ، إنهم
 يحيون وينعشون حواسهم عبر الدخول فى تواصل تلقى واستيعاب مع المحيطات
 الحسية بهم ، إن ذلك لا يمنهم أو يعوقهم عن الانشغال بالحقائق والوقائع السياسية
 للأقاليم والدول ، ولا من مساندة مبادرات على مستوى الولاية والتصويت فى
 الانتخابات الوطنية ، إنهم يحملون الوعى - بالرغم من ذلك - بأن المؤسسات السياسية
 والاقتصادية ليست فى تحالف مع الحقائق والوقائع الأرضية والطبيعية وأنها فى
 الأغلب لن تدوم ، وأن مثل تلك التكوينات مثل الشبح أو الفانتوم الأثيرى الذى لابد لنا
 من الانتباه إليه دون أن نعيده القدرة على تشتيتنا عن ما هو "هنا" فى الحقيقة . إن
 مثل أولئك الأشخاص يتحالفون بذواتهم لا مع الثقافة الأحادية الآخذة فى الانتشار
 للبشر ، ولا مع الرؤى التجريدية حول الاقتصاد العالمى ، ولكن مع جانب أكثر إمكانية
 للمحافظة عليه من التنوع الإقليمى والاعتماد المتداخل فى شبكته من المجتمعات ذات
 الاكتفاء الذاتى - تعددية لثقافات متطورة تكنولوجياً ومتناغمة ومتلائمة مع تكوين نبض
 الأماكن المحددة ، إنهم يعرفون جيداً أنه إذا ما كان للبشرية أن تزدهر بدونما تدمير
 للعالم الحى الذى يُبقى علينا ونعتاش منه فإنه يتوجب إذن علينا أن ننمو ونكبر خارج

تطلعاتنا المراهقة للسيطرة والهيمنة على كل ذلك آجلاً أو عاجلاً ، إنهم يظنون أن طموحنا التكنولوجي يجب أن يبدأ في وزن نفسه في شكل أقل ، سامحاً لنفسه بالتعرف على الاحتياجات المحددة لحياة الإقليم والطبيعة الخاصة . آجلاً أو عاجلاً ، سوف تكون الحضارة التكنولوجية مرغمة على قبول دعوة الجاذبية والاستقرار في الأرض ، تشكيلاتها السياسية والاقتصادية تتنوع في الأشكال المتنوعة والإيقاعات للأرض الأكثر من بشرية .

ومع ذلك فإن ممارسة التحالف مع الحقيقة يصعب أن يتحمل أن يكون يوتوبيا مثالية ، إنه لا يستطيع أن يؤسس نفسه على رؤى مرسومة في رؤوسنا ومن ثم يتم عكسها على المستقبل ، إن أية خطوة ومقاربة نحو المشاكل الحالية توجهنا نحو هدف له علاقة بمستقبل مُتصوّر تمسك بنا ضمناً في سياق متاهة الزمن الطولى ، إنها تمسك بنا وتعرقنا ، بمعنى ما ، في ضمن البُعد الوهمي نفسه الذى يُمكننا من إهمال ثم في النهاية نسيان الأرض من حولنا ، عبر عكس وإسقاط الحل في مكان ما خارج الحاضر المُستوعب ، إنها دعوة لاهتمامنا بعيداً عن المحيطات الحسية ، مجبرة إيانا على بلادة الحواس ، ومع ذلك من جديد باسم الفكرة الذهنية .

إن مقارنة إيكولوجية أصيلة لا تعمل على الحصول على مستقبل مُتصوّر ذهنيًا ، ولكنها تسعى للدخول بشكل أكثر عمقاً داخل الحاضر الحسى والحسوس ، إنها تسعى لكى تصبح لحظة باستمرار للحيوات الأخرى ، الأشكال الأخرى من الأحاسيس والذكاء التى تحيط بنا في الحقل المفتوح للحظة الرأهنة ، ذلك أن الحيوانات الأخرى والسُحُب المجتمعة لا يوجدون ويعيشون في خط طولى ، إننا نلتقيهم فقط عندما تبدأ دفقة الزمن التاريخي في فتح نفسها للخارج ، عندما نسير ونمشي خارج رؤوسنا نحو دائرة الحياة للأرض المحيطة بنا ، إن هذا الانتشار الوحشى يمتلك زمنه وتوقيته ، إيقاعاته للعجز والمغيب ، فصوله في التكوين والإيناع والإزهار ، إنه هنا وليس في تاريخ طولى تسكن الغريبان .

بالطبع ، إذا كنا نعيش في كثافة المدينة أو حتى ما بين مراكز التسوق المنتشرة في الضواحي فإن العالم الحسى نفسه يبدو وكأنه يتدفق في مستقبل متسامٍ ، وفيما

البنائيات العالية تنتشر من قواعد فارغة ، وفيما الأراضي الرطبة تمنح الطريق للطرق السريعة وملصقات ولوائح الإعلانات الضخمة ، ومع ذلك فإن هذا التقدم الذى بلا راحة يتخذ مكانه فقط ضمن الأفق الدائرى من الأرض المتنفسة ، إن مدينة نيويورك تبقى ، أولاً وأخيراً ، مستوطنة من الجُزُر على ضفاف نهر هدسون ، وعُرضةً للمناخ الساحلى فى تلك الجغرافية . وإن كل تلك التجارة الدولية التى تحدث داخل جدرانها الزجاجية ، لا تسمح لمنهاتن بالوجود من دونما أرضيتها ما بين المياه بجزرها ومدها ، فى أثناء ذلك فإن سكان لوس أنجلوس يستيقظون غالباً على آثار القوة الزلزلة والرهيبية لأراضيهم ، حتى نعود إلى حواسنا يجب أن نجدد صلتنا وروابطنا مع تلك الحياة الأشد اتساعاً ، وأن نُحس بالتربة تحت الرصيف ، أن نُحس - حتى ونحن بالداخل - بنظرة القمر وتحديقه على سقف المكان .

لكن ماذا ، إذن ، عن الكتابة ؟ إن الصفحات السابقة قد دعت الانتباه إلى الأضرار الجانبية أو بعضها من غير الملاحظة والسلبية للأبجدية - تأثيرات كانت قد كَوَّنت الكثير من الطريقة التى نستوعب ونفهم بها الآن ، ومع ذلك فإنها سوف تكون غلطة كبيرة لأى قارئ أن يستخلص من تلك الصفحات أنه هو أو هى يتوجب عليهما أن يهجرا الكتابة والكلمة المكتوبة ، وبالفعل فإن خطوط الحكاية التى طُرِحت ها هنا تطرح بأن الكلمة المكتوبة مُحمَّلة بالسحر القوى والمتنفذ - السحر نفسه الذى برق ذات يوم فى عيني البومة وحركة كلب البحر .

بالنسبة لأولئك الذين منا والمهتمين بالأرض وليسوا مذهولين أو منشدين إلى عالم الآلات ، عالم السطوح واللمس ، والطعوم ، والأصوات المغايرة عن ما قد هندسناه وصنعناه ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك من سؤال حول هجر الكتابة والعلم ببساطة ، فى الالتفات بعيداً عن كل الكتابة ، إن مهمتنا بالأحرى أن "نتخذ" الكلمة المكتوبة بكامل طاقاتها وقواها ، وبصبر وتؤدة ، وبحذر وانتباه ، كتابة اللغة مرة أخرى فى الأرض ، إن حرفتنا وفننا فى إطلاق سراح الذكاء ، الأرض ، الطبيعى لكلماتنا ،

محربين إياها للاستجابة لخطاب كل الأشياء نفسها ، للأخضر الناطق فى ورق
الأشجار من الغصون البارزة ، إنها ممارسة لغزل القصص والحكايات التى لها إيقاع
وتنطق بأرضية الصوت المحلية ، حكايات من أجل اللسان ، حكايات تَرغَبُ فى أن
تُحكى مراراً وتكراراً ، متزحلقه خارج الشاشات الرقمية الأليكترونية وهاربة من
الصفحات ذات الحروف لتسكن تلك الغابات على الشطوط ، وخنادق الصحارى تلك ،
وحشائش الأرض الهامسة والوديان والمستنقعات ، العثور على جُمَلٍ تضعنا فى صلة
مع عروق الرقبة النافرة وعضلاتها المرتجفة لغزال رافعاً قرنيه عالياً فيما هو يسبح نحو
اليابسة ، أو مع نملة تسحب حبوب الأرز عبر الحشائش ، أن نزرع ونبذر الكلمات ،
مثل البذور ، تحت الصخور والأوراق المتساقطة – سامحين للغة بأن تتخذ لها جذوراً
من جديد فى الصمت الأرضى للظلام ، والعظام ، والأوراق .

ورقة من شجر الحَوْر قد خلخلتها الريح تندفع بعيداً مع الموج ، وفيما هى تبتعد
فإنها تصطدم بالساق النحيفة لمالك الحزين ذات زرقة عظيمة ، محدقاً بانتباه عبر ذلك
السطح المتأرجح ، ثم تواصل هى ابتعادها ، إن مالك الحزين يرفع أحد ساقيه خارج
الماء ، ويعيد وضعها ، فى خطوة واحدة ، وفيما أنا أراقب ، فإننى أيضاً ، أنجذبُ إلى
انتشار الصمت ، ببطء تقترب مجموعة من السحب ، منزلقة بكثافتها فوق الأرض ،
ضامة مالك الحزين وأشجار الحَوْر وجسدى المُحدِّق فى أعماق كائن شاسع يتنفس ،
حاضنة إيانا جميعاً داخل لحمٍ مشترك ، قصة مشتركة صارت الآن تتفجّر
مع المطر .

المؤلف

ديفيد إبرام : عالم توازن بيئي وفيلسوف مؤثر ذو رؤية إبداعية خاصة كان لها عميق أثرها على حركة الدفاع عن البيئة الطبيعية في أمريكا الشمالية والعالم ، وقد درس ديفيد إبرام في جامعة ويسليان ، وحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ولاية نيويورك في ستوني بروك ، ونال العديد من المنح العلمية من عدد من المؤسسات كان من بينها مؤسسة روكفيلر ، كما نال جائزة لانان الأدبية للأعمال غير الروائية ، كما أنه ساحر متمرس ، وقد عاش وتعلم ومارس السحر بين كبار السحرة في أدغال إندونيسيا وغاباتها ، وكذلك في النيبال ، وفي القارتين الأمريكيتين . و « تعويذة الحسى » أول كتبه المنشورة .

الترجمة

خلية خميس : شاعرة وكاتبة إماراتية مقيمة في مصر ، لها مجموعات أدبية شعرية ، وقصصية ، ولها مؤلفات بحثية في الأدب العربي ، قامت بترجمة العديد من الأعمال الأدبية والثقافية منها :

- الشعرية الأوروبية وديكتاتورية الروح .
 - الشعر الجديد : أنا وأصدقائي شعراء الباربات ، والمقاهي ، والسجون .
 - فيرونكا تقرر أن تموت ، لباولو كويلهو .
 - طفل الفجر ، لجوتاما شوبرا .
 - سسغهاب بيبي لهي وي .
 - تعمل في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية .
- لها اهتمام خاص بالثقافات الآسيوية والعلوم الروحية في مجال العصر الجديد New Age .
- وقد قامت بزيارات منتظمة إلى آسيا للتعرف على ثقافتها وعلومها .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

- ١ - اللغة العليا (طبعة ثانية) جون كوين
- ٢ - الوثنية والإسلام ل.ك. مادهو باننيكار
- ٣ - التراث المسروق جورج جيمس
- ٤ - كيف تتم كتابة السيناريو أنجا كاريتنكوفا
- ٥ - ثريا فى غيبوبة إسماعيل فصيح
- ٦ - اتجاهات البحث اللسانى ميلكا إفيتش
- ٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة لوسيان غولدمان
- ٨ - مشعلو الحرائق ماكس فريش
- ٩ - التغيرات البيئية أندرو س. جودى
- ١٠ - خطاب الحكاية جيرار جينيت
- ١١ - مختارات فيسوافا شيمبوريسكا
- ١٢ - طريق الحرير ليفيد براونستون وايرين فرانك
- ١٣ - ديانة الساميين روبرتسن سميث
- ١٤ - التحليل النفسى والأدب جان بيلمان نويل
- ١٥ - الحركات الفنية إدوارد لويس سميث
- ١٦ - أثنية السوداء مارتن برنال
- ١٧ - مختارات فيليب لاركين
- ١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية مختارات
- ١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة جورج سفيريس
- ٢٠ - قصة العلم ج.ج. كراوثر
- ٢١ - خوخة وألف خوخة صمد بهرنجى
- ٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين جون أنتيس
- ٢٣ - تجلى الجميل هانز جيورج جادامر
- ٢٤ - ظلال المستقبل باتريك بارندر
- ٢٥ - مثنوى مولانا جلال الدين الرومى
- ٢٦ - دين مصر العام محمد حسين هيكل
- ٢٧ - التنوع البشرى الخلاق مقالات
- ٢٨ - رسالة فى التسامح جون لوك
- ٢٩ - الموت والوجود جيمس ب. كارس
- ٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢) ل.ك. مادهو باننيكار
- ٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى جان سوفاجيه - كلود كاين
- ٣٢ - الانقراض ليفيد روس
- ٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية أ.ج. هوبكنز
- ٣٤ - الرواية العربية روجر آلن
- ٣٥ - الأسطورة والحداثة پول ب. ديكسون
- ت : أحمد درويش
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : شوقي جلال
- ت : أحمد الحضري
- ت : محمد علاء الدين منصر
- ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
- ت : يوسف الأنطكي
- ت : مصطفى ماهر
- ت : محمود محمد عاشور
- ت : محمد معتمد وعبد الجليل الأندى وعمر حلى
- ت : هناد عبد الفتاح
- ت : أحمد محمود
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : حسن المودن
- ت : أشرف رفيق مغيثى
- ت : بإشراف / أحمد عثمان
- ت : محمد مصطفى بنوى
- ت : طلعت شاهين
- ت : نعيم عطية
- ت : يعنى طريف الخولى / بنوى عبد الفتاح
- ت : ماجدة العنانى
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت : سعيد توفيق
- ت : بكر عباس
- ت : إبراهيم الدسوقي شتا
- ت : أحمد محمد حسين هيكل
- ت : نخبة
- ت : منى أبو سنه
- ت : بدر الديب
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : عبد الستار الطرجى / عبد الوهاب علوب
- ت : مصطفى إبراهيم نهى
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : حصه إبراهيم المنيف
- ت : خليل كلفت

- ٣٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
٣٧ - واحة سبوة وموسيقاها بريجيت شيفر
٣٨ - نقد الحداثة آلن تورين
٣٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
٤٠ - قصائد حب أن سكستون
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية بيتر جران
٤٢ - عالم ماك بنجامين باربر
٤٣ - اللهب المزروع أوكتايفو باث
٤٤ - بعد عدة أصياف ألدوس هكسلي
٤٥ - التراث المغفور روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) رينيه ويليك
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا دوما
٤٩ - الإسلام في البلقان هـ . ت . نوريس
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية داريو بيانونيا و. م بينيانيستي
٥٢ - العلاج النفسي التدميمي بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
٥٣ - الدراما والتعليم أ . ف . ألنجلتون
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح ج . مايكل والتون
٥٥ - ما وراء العلم جون بولكنجهوم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
٥٩ - المحيرة كارلوس مونيث
٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميث
٦٢ - لذة النص رولان بارت
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) رينيه ويليك
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالنتين راسبوتين
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوكينيو تشانج رودريجت
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عاطف أحمد / إبراهيم قنحي / محمود ماجد
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تاندرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جورجاني
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد يرادة وعثمان الميلاوي ويوسف الأنطكي
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
ت : موسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكى
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض
ت : رمسيس عوض
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣
٧٨ - العولة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المختلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح
الإسباني الأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولة
٩٤ - الحب الأول والصحة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مسطرة العولة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إلويت
چين . پ . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكي
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صادقي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فونان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليت
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤيد
برتولت بريشت
چيرارچينيت
د . ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلي
ت : حسن ناظم وعلي حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم القمري
ت : محمد طارق الشرفاوي
ت : محمود السيد علي
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرزاق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إنوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف علي دعلو
ت : محمد عبد الله الجمعيدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أرلين علوى ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادى پلانز
١١٤ - مسرحيات حماد كرنجى سكان المستنقع وول شويككا
١١٥ - غرفة تخص المراء وحده فرچينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيع) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى احمد
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة الغربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - إمبراطورية العشانية وعلاقاتها الدولية نيتل الكسندر وفناتوليننا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جرائ
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة فولفجانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريلا دولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرو فرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباباشا كينيث كونو
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
١٣٩ - باريسفان ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تتلقى الأنهار هيربرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل م. م. فورستر
١٤٣ - قضيا للتظير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بلبع
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقى جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فوينتس
- ١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليبس
- ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد دورست
- ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
- ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
- ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
- ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
- ١٥٣ - غرام الفرائنة فيولين فاتويك
- ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
- ١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
- ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو
- ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامي الكونجى
- ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
- ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
- ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
- ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
- ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الأسويى
- ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جورنون مارشال
- ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لوكوتير
- ١٦٥ - حكايات الثعلب أ. ن أفانا سيفا
- ١٦٦ - العلاقات بين المثنيين والعلمانيين في إسرائيل يشعياهو ليفمان
- ١٦٧ - في عالم طاغور رابندراناث طاغور
- ١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
- ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
- ١٧٠ - الطريق ميغيل دليبيس
- ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
- ١٧٢ - حجر الشمس مختارات
- ١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت. ستيس
- ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
- ١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
- ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
- ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا
- ١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
- ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
- ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
- ١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
- ت : على عبد الرؤوف البيبي
- ت : عبد الغفار مكاوي
- ت : على إبراهيم على منوفى
- ت : أسامة إسبر
- ت : منيرة كروان
- ت : بشير السباعي
- ت : محمد محمد الخطابي
- ت : فاطمة عبد الله محمود
- ت : خليل كلفت
- ت : أحمد مرسى
- ت : مى التمساني
- ت : عبد العزيز بقوش
- ت : بشير السباعي
- ت : إبراهيم فتحي
- ت : حسين بيومي
- ت : زيدان عبد الحليم زيدان
- ت : صلاح عبد العزيز محبوب
- ت : بإشراف : محمد الجوهري
- ت : نبيل سعد
- ت : سهير المصادفة
- ت : محمد محمود أبو غدیر
- ت : شكري محمد عياد
- ت : شكري محمد عياد
- ت : شكري محمد عياد
- ت : بسام ياسين رشيد
- ت : هدى حسين
- ت : محمد محمد الخطابي
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : أحمد محمود
- ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : جلال البنا
- ت : حصه إبراهيم منيف
- ت : محمد حمدي إبراهيم
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : سليم عبد الأمير حمدان
- ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
١٨٣ - جان كيكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
١٨٧ - الأرضة بَرْدَجْ علوى
١٨٨ - موت الأدب القين كرنان
١٨٩ - العصى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام وأسمال الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك زين العابدين المراهى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مخترعات من النقد الأجلو-أمريكي مجموعة من النقاد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين واسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى التعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إنوين إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندوى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبورك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جء رينيه ويليك
٢٠٣ - الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا
٢٠٦ - الهيولانية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقيا رامون خوتاسنديز
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان
٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فرديناند نوسوسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣ - مصر منذ قدم نابليون حتى رجل عبد الصمر ريمون فلور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيندنز
٢١٥ - سياحته نامه إبراهيم بيك جء زين العابدين المراهى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحي العشرى
ت : دسوقي سعيد
ت : عبد الوهاب علوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر الديب
ت : سعيد الغانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدي عبد الغنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محي الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادية البنهاوى
ت : على إبراهيم على منوفى

- ٢١٩ - بقايا اليوم
٢٢٠ - الهيلولية في الكون
٢٢١ - شعرية كفاقي
٢٢٢ - فرانز كافكا
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا
٢٢٥ - حكاية غريق
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر
٢٣١ - الدرافيل
٢٣٢ - مابعد المعلومات
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال
٢٣٤ - الإسلام في السودان
٢٣٥ - ديوان شمس تبریزی ج ١
٢٣٦ - الولاية
٢٣٧ - مصر أرض الوادی
٢٣٨ - العولة والتحرير
٢٣٩ - العربي في الأدب الإسرائيلي
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
٢٤١ - في انتظار البرابرة
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
٢٤٤ - الغليان
٢٤٥ - نساء مقاتلات
٢٤٦ - قصص مختارة
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء
٢٤٩ - لغة التمزق
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية
٢٥٤ - الفلسفة
٢٥٥ - أفلاطون
- كانزو ايشجورو
باري باركر
جريجوري جوزدانيس
رونالد جراي
بول فيرابنر
برانكا ماجاس
جابريل جارتيا ماركت
ديفيد هربت لورانس
موسى مارديا ديف بوركي
جانيت وولف
نورمان كيماي
فرانسواز جاكوب
خايمي سالوم بيدال
توم ستينر
أرثر هيرمان
ج. سبنسر تريمنجهام
جلال الدين الرومي
ميشيل تود
روبين فيدين
الانكباد
جيلرافر - رايوخ
كامي حافظ
ك. م كويتز
وليام إمبسون
ليفى بروفنسال
لاورا إسكيبييل
إليزابيتا أديس
جابريل جرتيا ماركت
ولتر أرمبرست
أنطونيو جالا
دراجو شتامبيوك
نومنيك فينك
جوردون مارشال
مارجو بدران
ل. أ. سيمينوفا
ديف روبنسون وجودي جروفز
ديف روبنسون وجودي جروفز
- ت : طلعت الشايب
ت : على يوسف على
ت : رفعت سلام
ت : نسيم مجلى
ت : السيد محمد نقادى
ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
ت : طاهر محمد على البربري
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
ت : أمير إبراهيم العمري
ت : مصطفى إبراهيم فهمي
ت : جمال أحمد عبد الرحمن
ت : مصطفى إبراهيم فهمي
ت : طلعت الشايب
ت : فؤاد محمد عكود
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد الطيب
ت : عنايات حسين طلعت
ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مدبولي أحمد
ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
ت : صلاح عبد العزيز محمود
ت : ابتسام عبد الله سعيد
ت : صبرى محمد حسن عبد النبي
ت : مجموعة من المترجمين
ت : نادية جمال الدين محمد
ت : توفيق على منصور
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : محمد الشرقاوي
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : رفعت سلام
ت : ماجدة أباطة
ت : بإشراف : محمد الجوهري
ت : على بدران
ت : حسن بيومي
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام

- ٢٥٦ - ديكارت
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة
٢٥٨ - الغجر
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود
٢٦٢ - مدينة المعجزات
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة
٢٦٥ - روايات مترجمة
٢٦٦ - مدير المدرسة
٢٦٧ - فن الرواية
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج٢
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢
٢٧١ - الحضارة الغربية
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط
٢٧٤ - السيدة بربارا
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعرًا ونقادًا وكاتبًا مسرحيًا
٢٧٦ - فنون السينما
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة
٢٧٨ - البدايات
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية
٢٨٠ - من الأدب الهندي الحديث والمعاصر
٢٨١ - الفردوس الأعلى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية
٢٨٣ - السهل يحترق
٢٨٤ - هرقل مجنونًا
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٣
٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمي
٢٨٨ - الفن الروائي
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغاني
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج١
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج٢
- ديف روبنسون وجودي جروفز
وليم كلى رايت
سير أنجوس فريزر
نخبة
جوردون مارشال
زكي نجيب محمود
إيوارد مندوثا
جون جرين
هوراس / شلى
أوسكار وايلد وصموئيل جونسون
جلال آل أحمد
ميلان كونديرا
جلال الدين الرومي
وليم چيفور بالجريف
وليم چيفور بالجريف
توماس سى . باترسون
س. س. والترز
جوان آر. لوك
رومولو جلاجوس
أقلام مختلفة
فرانك جوتيران
بريان فورد
إسحق عظيموف
فرانسيس ستونر سوندرز
بريم شند وآخرين
مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي
لويس ولبيرت
خوان روافو
يوريبيدس
حسن نظامي
زين العابدين المرافي
أنتوني كينج
ديفيد لودج
أبو نجم أحمد بن قوص
جورج موانان
فرانشيسكو رويس رامون
فرانشيسكو رويس رامون
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : محمود سيد أحمد
ت : عبادة كحيلة
ت : فاروچان كازانچيان
ت : بإشراف : محمد الجوهري
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : على يوسف على
ت : لويس عوض
ت : لويس عوض
ت : عادل عيد المنعم سويلم
ت : بدر الدين عروكي
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : صبرى محمد حسن
ت : صبرى محمد حسن
ت : شوقي جلال
ت : إبراهيم سلامة
ت : عتات الشهاوى
ت : محمود على مكى
ت : ماهر شفيق فريد
ت : عبد القادر التلمساني
ت : أحمد فوزى
ت : ظريف عبد الله
ت : طلعت الشايب
ت : سمير عبد الحميد
ت : جلال الحفناوى
ت : سمير حنا صادق
ت : على البمبى
ت : أحمد عثمان
ت : سمير عبد الحميد
ت : محمود سلامة ملاوى
ت : محمد يحيى وآخرين
ت : ماهر البطوطى
ت : محمد نور الدين
ت : أحمد زكريا إبراهيم
ت : السيد عبد الظاهر
ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأمواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تقاوالبويه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومئوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة برومئوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويون فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطي لتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد باينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : معنوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دي بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خاير بيان	ت : عيد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلي
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الباب اليمسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتو ياسبيفاك وكريستوفر توريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - جهات نظر حجة في تاريخ الفن الغربي	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق علي منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

- ٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٣٣١ - عندما جاء السرددين ستيفن جراي
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة
٣٣٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٣٣٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٣٣٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٣٣٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٣٣٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٣٣٩ - تاريخ الأدب في إيران ٣ على أصغر حكمت
٣٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو
٣٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٣٤٢ - سلمان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٣٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نادين جورديمير
٣٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائى
٣٤٦ - سحر مصر رشاد رشدى
٣٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٣٤٨ - المتصورة الأولى في الأدب التركي ١ محمد فؤاد كوبرلى
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدوين وآخرين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٣٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٣٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٣٥٣ - الفن الإسلامى في الأندلس (منسية) باسيليو بايون مالدونالد
٣٥٤ - الفن الإسلامى في الأندلس (نباتية) باسيليو بايون مالدونالد
٣٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٣٥٦ - الميراث المر بول سالم
٣٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٣٦١ - التصحر : التهديد والمواجهة آلان جرينجر
٣٦٢ - تلميذ باينيرج هاينرش شيبورال
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى ريتشارد جيبسون
٣٦٤ - حداثة شكسبير إسماعيل سراج الدين
٣٦٥ - سام باريس شارل بودلير
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا
- ت : سامى صلاح
ت : سامية دياب
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمى
ت : فتحي العشري
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصارى
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : فخرى لبيب
ت : حسن حلمى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيرى
ت : بكر الحلو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصارى
ت : نعيم عطية
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : محمود سلامة علاوى
ت : بدر الرفاعى
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : حبيب الشارونى
ت : ليلي الشربيني
ت : عاطف معتمد وأمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبري محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

- ٣٦٧ - القلم الجريء نخبة
٣٦٨ - المصطلح السردى جيرالد برش
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليلا لويت
٣٧١ - المتصوفة الأولين فى الألب التركى ج٢ محمد فؤاد كوبريلى
٣٧٢ - عاش الشباب وانغ مينغ
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو
٣٧٤ - اليوم السادس أندريه شديد
٣٧٥ - الخلود ميلان كونديرا
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين نخبة
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤ على أصغر حكمت
٣٧٨ - المسافر محمد إقبال
٣٧٩ - ملك فى الحديقة ستيل باث
٣٨٠ - حديث عن الخسارة جويتر جراس
٣٨١ - أساسيات اللغة ر. ل. تراسك
٣٨٢ - تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار
٣٨٣ - هدية الحجاز محمد إقبال
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل
٣٨٥ - مشترى العشق محمد على بهزاد
٣٨٦ - نفاعاً عن التاريخ الألبى النسوى جانيث تود
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات جون دن
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى
٣٨٩ - من الأدب الباكستاني المعاصر نخبة
٣٩٠ - الأرضيات والمدن الكبرى نخبة
٣٩١ - الحافلة الليكسية مايف بينشى
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دي لاجرانخا
٣٩٣ - فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز
٣٩٥ - آلام سياوش إسماعيل فصيح
٣٩٦ - السافاك تقى نجارى راد
٣٩٧ - نيتشه لورانس جين
٣٩٨ - سارتر فيليب تودى
٣٩٩ - كامى ديفيد ميروفتس
٤٠٠ - مومو ميثائيل إنده
٤٠١ - الرياضيات زيانون ساردر
٤٠٢ - هوكنج ج. ب. مارك أيفوى
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس تودور شتورم
٤٠٤ - تعويذة الحسى ديفيد إبرام
- ت : البراق عبد الهادى رضا
ت : عابد خزندار
ت : فوزية العشماوى
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : وحيد السعيد عبد الحميد
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : حمادة إبراهيم
ت : خالد أبو اليزيد
ت : إدوار الخراط
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال عبد الرحمن
ت : شيرين عبد السلام
ت : رانيا إبراهيم يوسف
ت : أحمد محمد ثادى
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : إيزابيل كمال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : زيهام حسين إبراهيم
ت : بهاء جاهين
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : عثمان مصطفى عثمان
ت : منى الدروبي
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : نخبة
ت : هاشم أحمد محمد
ت : سليم حمدان
ت : محمود سلامة علاوى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : باهر الجوهري
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : عماد حسن بكر
ت : ظبية خميس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٨٤٨ / ٢٠٠٢

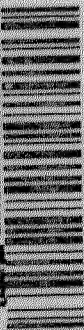
المجلس
الأعلى
للثقافة



يقدم المؤلف ديثيد إبرام في «تمويذة الحسي» فرصة عظيمة لإعادة اكتشاف العلاقة المنسية والمشوهة بين الكائن والكون، كما يقدم إعادة اعتبار للقيمة الحقيقية للهواء - النفس وبالتالي النفس - يبدأ بيد مع الرياح، والكلمات، والمخلوقات المرئية وغير المرئية.

وبالنسبة للقارئ العربي - سواء أكان متخصصاً أم معنياً بالثقافة العامة - فإن هنالك وجهة نظر جديدة سوف يتلقاها، وخصوصاً أبناء المدن المزدهمة حيث التحديث هو إزاحة كاملة للطبيعي والمقدس سواء على الأرض أو في أرواح الكائنات التي تحيا عليها. إن ديثيد إبرام يعيد الاعتبار إلى أنسنة الإنسان والإلهية الكاملة للكون بكل ما تجلى فيه من خلق الخالق.

Bibliotheca Alexandrina



0450253